الإنسان والعلم والإيمان



تأليف

المهندس مؤيد يحيى الدباغ

مؤسسة الريان
ناشرون

مكتبة عباد الرحمن


منتدى إقراء الثقافي

مسلسل:

الإنسان والعلم والإيمان

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م





ALRAYAN INSTITUTION
PUBLISHERS
شركة مؤسسة الريان ش.م.م
الريان ناشرون ش.م.م

لبنان - بيروت - ساقية الجنزير - شارع برلين - بناية الزهور
هاتف:009611807488 - فاكس:009611807477 - ص.ب:14/5136 الرمز البريدي:11052020
البريد الالكتروني: Alrayanpub2011@gmail.com الموقع الالكتروني: http:/alrayanpub.com

مكتبة عباد الرحمن

جمهورية مصر العربية - هاتف وفاكس: ٩٥٧٦١٩

مسلسل:

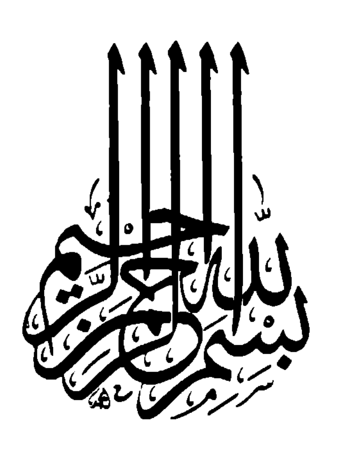
الإنسان والعلم والإيمان

تأليف

المهندس مؤيد يحيى الدباغ









محتويات المسلسل





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرَّحمٰن: ١-٤].

والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد الذي ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ [النَّجم: ٥-٧]. وجعل خلقه القرآن، وشهد له بعظيم خلقه فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: ٤]، ﴿... يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ...﴾ [التوبة: ٦١].

وعلى آله وأصحابه المؤمنين بعلم، المتقين بإيمان، ومن تبعهم وسار على هديهم إلى يوم الدين.

وبعد: فقد كرَّم الله العلم ودعا إليه وحثَّ عليه في كتابه العزيز القرآن الكريم لكي يجعل الإنسان مهيئاً لفهم خطاب ربه له، وفهم آياته وبديع صنعه، وفهم أسرار هذا الخلق المحيط به من السموات والأرض وما فيهما، وفي خلق الإنسان نفسه وما فيه من عجائب وغرائز، وما يدور في

نفسه من خلجات وأحاسيس، وأفكار وخيال. وفي إرادة الله في الخلق وغايته، وفي النظر والتفكر في آفاق هذا الكون العظيم. وحتى يفهم ما يريده منه في الدنيا، وما يدخره له من حسن الجزاء في الآخرة.

لقد أشار القرآن الكريم إلى مختلف العلوم التي تهم الإنسان يدعوه إلى تعلمها وفهمها، أشار إليها بحقائقها الثابتة، وقواعدها الأساسية، وقوانينها الرئيسية التي بنيت عليها تلك العلوم المادية والروحية، وبقدر ما يهمه من علومها، وبقدر ما ينفعه منها في دنياه وآخرته، وحتى لا يضل بعلمه عن هذه الأصول التي ثبتها له، وهو الذي خلقها، وهو العليم بها وحده، لا يعلها إلا هو.

لقد أغنى القرآن الإنسان أيضاً بعلوم الحياة وعلوم تزكية النفس وتربية الروح، وبالعلوم الغيبية للحياة الآخرة بما يصلح حاله ومستقبله كإنسان يعيش على هذه الأرض. فالإيمان هو الأساس والعلم قرينه يدعمه ويقويه ويزيده يقيناً. وإن الإيمان بما يمليه على نفس الإنسان من الرضا والطمأنينة والاستجابة للحق وإقامة العبادة لله وحده وبسط الخير والسلام في الأرض، هو من أهم أسباب السعادة وهو غاية الإيمان وثمرة العلم التي تأخذ بالإنسان إلى الفوز العظيم.

وإن من مقاصد هذا المسلسل، توضيح هذه المعاني وعرض ما تم اكتشافه من المسائل العلمية الحديثة على آيات الله المحكمة لتدبرها وفهم المقاصد العلمية الدقيقة فيها، مما يزيدنا فهماً لتفاسيرها، ويزيدنا إيماناً بها، وفهماً لمعانيها وآياتها المحكمة. وقد قسمته إلى عشرة كتب، لتسهيل قراءتها وتدبرها، تعرف من أسمائها المبينة في محتويات المسلسل، وسأضيفها في أول كل كتاب منها مع هذه المقدمة لتكون مع كل قارئ.

وكلما يتقدم الإنسان بالعلم يتلمس المؤمن أقباساً من نور الآيات، ويهتدي إلى تفاصيلها وتأويلها، حتى يأتي تأويل القرآن:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ. . .﴾ [الأعراف: ٥٣].

وقبل ذلك فهو عقد محكم لا يعلم تفصيله ولا يعلم تأويله إلا الله:

﴿. . . وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عِمرَان: ٧].

وبعد هذا أفلا يكون للإيمان والعلم قدر عظيم، حين يفوز الإنسان به بالنعيم في دار الخلود وينجو من العذاب الأليم؟ أفلا يكون هذا الإيمان بعلم، غنماً عظيماً وملكاً كبيراً تتوارى دونه أموال الدنيا جميعاً؟ بل إنها جميعاً لا تنجي الكافرين الجاهلين من مصيرهم حتى لو بذلوها!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عِمرَان: ٩١].

وهل يستوي هذا المؤمن الراسخ الإيمان بعلمه مع الجاهل الأعمى البهيم؟

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرّعد: ١٩].

وأولوا الألباب هم أصحاب العقول الذين يتذكرون ويتفكرون، فيفهموا الحق ويؤمنوا به بعلم، فينعكس إيمانهم نوراً، تنشرح به صدورهم وتصفو قلوبهم وتزكو أنفسهم. وهؤلاء هم الفائزون سعداء في الدنيا بإيمانهم وعلمهم وعملهم، سعداء في الآخرة بما أعطاهم الله من حسن الجزاء:

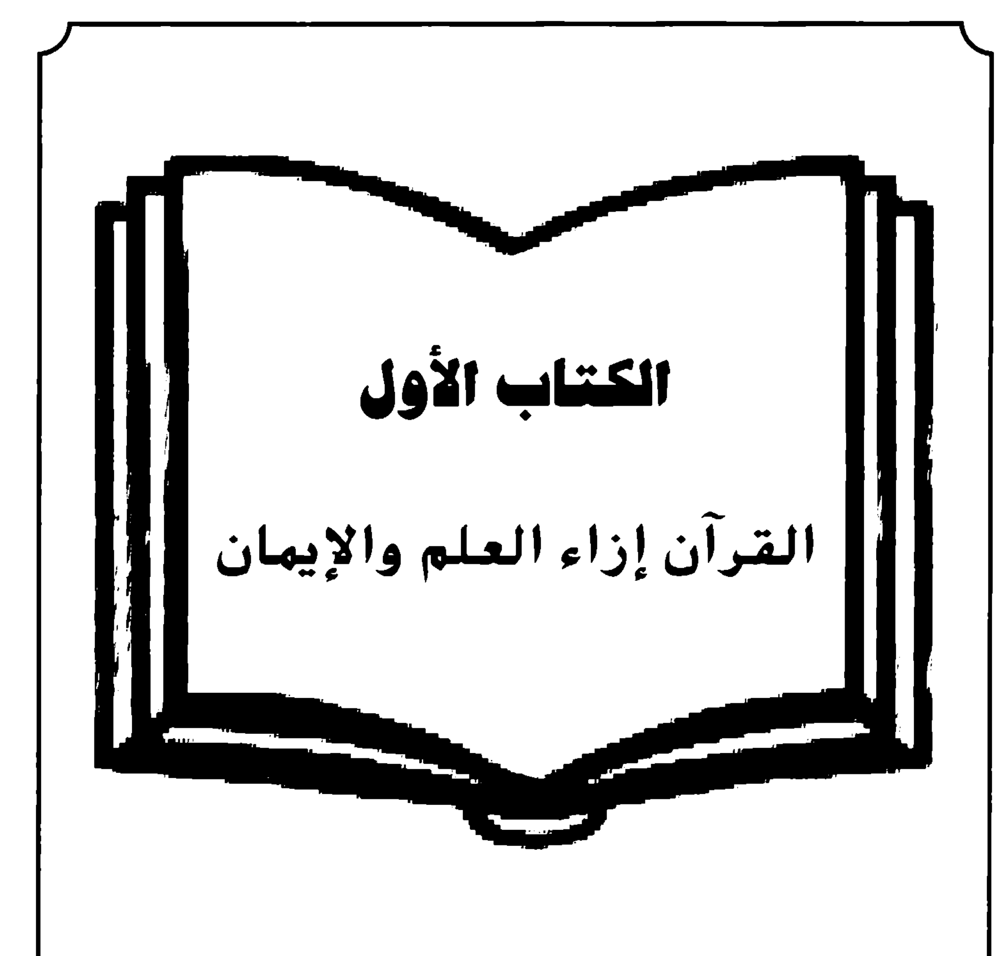
﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

أسأل الله العلي القدير أن يلقي هذا الكتاب بعض الضوء في بسط مفاهيم العلم والإيمان، وخاصة لمن اضطربت عنده تفاسيرهما، وأخذت تساورهم الشكوك وأغلبهم من الشباب حديثي العهد بالعلوم العامة وعلوم الدين. وفي بيان أن العلم لا يعارض الإيمان بل يزيده قوة ورسوخاً، وفي اعتماد العلم والإيمان كقوة خير لمنفعة الإنسان وصلاحه وسلامته وأمنه، في عصر يهدد بضياع الحق والعدل وبفقد الأمن والسلام.

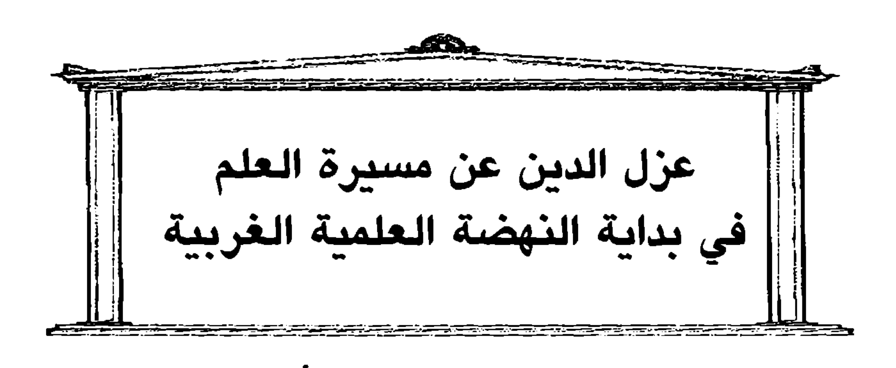
وإن مضامين القرآن في العلم والإيمان تزيد العلماء خشية لله، وتشرح صدور المؤمنين، وتزيدهم بالعلم إيماناً وتهديهم إلى دار السلام وإلى الصراط المستقيم: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٢٦﴾ [يونس: ٢٥، ٢٦].

وإني لأرجو أن يكون هذا الكتاب مساهمة متواضعة مني تنصب في سبيل هذا الجهد، وادعوا المولى ﷻ أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم إنه سميع قريب.

المؤلف


الكتاب الأول
القرآن إزاء العلم والإيمان

الفصل الأول



عزل الدين عن مسيرة العلم في بداية النهضة العلمية الغربية

إن من الأسباب والأهداف التي دعتني إلى إخراج هذا المسلسل ما يلي:

١ ـ ادعاء الناس بأن العلم هو حصيلة بحث الإنسان وتجاربه المادية أما علوم الأديان والعقائد فهي غيبية تعتمد على الإيمان وليس لها سند مادي ملموس وهذا أحد أسباب عزل الدين عن العلم المادي وأن العلم يتعارض مع الإيمان، وحقيقة تعارضه عدم مطابقته لما جاء في التوراة والإنجيل الذين جرى عليهما التبديل والتحريف وهما ليستا الأصليتين.

٢ ـ إنني لم أجد حقيقة علمية واحدة تعارضت مع الإيمان في كل مراحل حياتي وكلما تعلمت علماً وجدت له حقيقة أشمل وأقوى في آيات الله وتعاليم الإسلام فازددت بذلك إيماناً ويقيناً بأن العلم يدعم الإيمان وإني سوف أدون بعض هذه الحقائق في كتابي هذا.

٣ ـ أن يتذكر القارئ الكريم بأن الخلافات التي نشأت بين الكنيسة ورجال

العلم في القرون الوسطى وإبان النهضة العلمية الأوروبية هي التي أفرزت الهوى الحاصلة بين العلم والإيمان والطريق الخاطئة التي سار عليها علماء المادة الغربيون بأن كفروا بالإيمان وآمنوا بالعلوم المادية.

٤ ـ وفي القرون الأخيرة في بلادنا نحن الشرقيون تابع علماؤنا الغرب في الأخذ عنهم واتباعهم نفس الأسلوب الخاطئ. إن سبب تأخرنا عن موكب العلم والحضارة الحديثة هو انحسارنا واندحارنا وفقدنا تراث العلوم والبحوث التي بدأها أسلافنا أيام ازدهارها. لقد أخذها واعتمدها علماء الغرب لتكون حجر الأساس الذي بنوا عليه نهضتهم العلمية والتقنية، ولكن بدون ما يكتنفها من إيمان وعقائد. فنحن لم يبق لدينا نظام قائم بذاته في البحوث والتقنية ولا واكبنا الميدان الذي سبقنا به الغرب في هذه العلوم.

٥ ـ زاد ذلك في الطين بلة التأخر الذي حصل للمسلمين في القرون الوسطى إلى مقترب القرن الحالي بتكالب الأعداء عليهم وما أصابهم من جهل وفقر ومرض وبطالة مسيطرة نتيجة اندحارهم في الحروب، وانحرافهم عن منهج الإسلام فأصبحوا جاهلين حتى في دينهم وشريعتهم، لا يعرفون غير التقليد الأعمى بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

٦ ـ إن الإسلام لا يعارض العلوم التجريبية، وإن المسلمين هم الذين بدأوها ليتعلموا ويدرسوا نواميس الطبيعة التي يحثهم عليها دينهم. لكنهم بدأوها وهم أغنياء النفوس بإيمانهم وبامتلاكهم أخلاق الإيمان وأسسه الفاضلة. ولو استمروا عليها لسعدت بهم الدنيا، لكن إرادة الله سبقت وسننه هي الماضية. فقد اتجه المسلمون إلى الدنيا ومتاعها، وخالفوا خط كتابهم ونبيهم وآثروا الحياة الرغيدة والطمأنينة على

الجهاد والعمل، فخسروا النصر وخسرت بخسرانهم الدنيا قيم الإسلام العظيمة ونوره على العالم.

٧ ـ وكان نتيجة ذلك أن خطا العلم المادي المجرد عن الإيمان عند الغرب خطوات واسعة في ميدان العلوم المادية، وأسس لها نهضة صناعية زادته تمكناً وقوة ومعها غروراً وطغياناً، فسلك طريق الضلالة والظلام حتى كفر بالخالق والقيم والمثل العليا. وما عادت تحجزه علومه المادية عن الظلم والتسلط والطغيان بل أصبحت وسائل العلم سلاحاً فتاكاً في يده، فسادت شريعة الغاب وأخذ يهدد ويعتدي على أبناء جنسه من البشر، فيقض مضاجعهم ويجتاح أراضيهم ويسرق خيراتهم بمكر وخداع ويسومهم سوء العذاب. كل ذلك ليستأثر لنفسه بالقوة والسيطرة والرخاء، ويقود مستقبل البشرية إلى حقد وعداوة وبؤس وشقاء، وحرب شعواء لا يعلم مصيرها أحد باسم الاستعمار ونشر الحضارة.

٨ ـ لقد جلب العلم المادي المجرد من الإيمان ولا زال يجلب الويلات ويهدد البشرية والحضارة بالخراب والدمار، لقد أصبح على المسلمين لكي يصححوا ويبينوا المسار الخاطئ للعلم المادي الذي سار عليه الغرب اليوم، أن يغنوا البشرية بالجانب الروحي والإيماني المكمل لعلوم الإنسان وفهم طبيعته البشرية الواضحة في القرآن وفي تعاليم الإسلام، وليتماشى متوازياً مع التقدم العلمي التقني، فيجمعوا بين علماء المادة المتنورين بالإيمان، وعلماء الدين المتنورين بالعلم، في مؤتمرات علمية ومحافل دولية، ويؤلفوا لذلك الكتب ويصدروا النشرات والمقالات، حتى يوضحوا الأسس الصحيحة التي تعمق مفاهيم العلم والإيمان وحاجة كل منهما إلى الآخر، وتجعل من العلماء والناس أدوات خير وصلاح وخلق عال، وأدوات محبة وسلام وخير للبشرية.

فالإنسان مادة وروح، والعلم والإيمان يجب أن يسيروا متلازمين كما هي حقيقتهما. فلا يكون مؤمن بلا علم إلا ناقص الإيمان، ولا يكون عالم بلا إيمان إلا جاهلًا، وقد ينقلب حيواناً كاسراً. وبالعلم والإيمان يكون الإنسان إنساناً.

٩ ـ لكن من تباشير الخير لهذا القرن القادم (الحادي والعشرون) بإذن الله، أن العلماء الماديين قد بلغوا في العلم الدرجة الحرجة التي تردهم إلى الإيمان، فقد أدركوا بما توصلوا إليه من علوم بأن لهذه الطبيعة في كل مكان نظاماً ونواميس ثابتة وليست عشوائية، وإنما هي مدبرة بدقة وحكمة متناهية وممسكة بقوة قادرة مسيطرة. وإن هذا الكون لا يمكن أن ينتظم ويستقيم إلا بقدرة خالق عظيم، حكيم عليم هو رب العالمين، وأدركوا بأنه مستحدث وأنه سيؤول إلى نهاية لا محالة. وهذا بعض ما أشار إليه القرآن الكريم كما سيأتي في فصول هذا الكتاب.

كذلك أدرك المعتدلون من الناس كل هذا، وأدركوا ما أوصلتهم إليه نتائج الكفر وفقد القيم والأخلاق من شقاء ورعب وذلك في الحياة الدنيا، وضياع للقيم الإنسانية التي هي أساس سعادة الإنسان. إن ردة الفعل لمستقبل الحضارة المريب بعد أن علم الناس أنه ليس وراء هذه الحضارة المزيفة إلا السراب، هي التي تبشر بالخير وترد الناس إلى الدين ولا يكون ذلك إلا بإرادة وهدى من الله مسبب الأسباب.

١٠ ـ ولا تظنن أن هذا الخير الذي سيأتي من تقدم العلم على أسس وقواعد رصينة من الإيمان والقيم والأخلاق سيعم الناس في هذه الحياة فحسب، كلا فإن مفاهيم الإيمان والدين تمتد إلى الحياة الآخرة. فالروح التي أودعها الله بأمره في الإنسان لا تفنى إلى الأبد، بل هي

تعود بأمره أيضاً، ثم تعيش حياة الخلود. وهي إما إلى الجنة ونعيمها إذا تزكت، أو إلى النار وجحيمها إذا تدسّت:

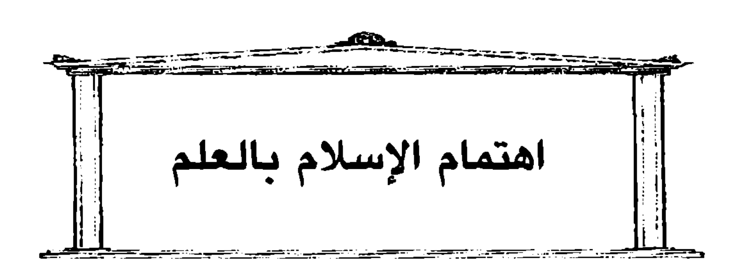
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وتنال المرتبة الأولى بالإيمان وخشية الله وضبط النفس عن المحرمات، وتستحق المرتبة الثانية بالكفر والطغيان وإيثار متاع الدنيا:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٤١] وفي ذلك الخير كله.



الفصل الثاني



اهتمام الإسلام بالعلم

لقد كرَّم القرآن الكريم العلم بما أعطاه من المكانة وحث المؤمنين على تحصيله وفهمه ليتدبروا به آياته في الأرض وما فيها من مخلوقات ونباتات، وفي السماء وما فيها من آيات وبدائع، وفي أنفسهم وما فيها من عجائب الخلق. وليفهموا مراده في التوجيه والأمر والنهي والهدي إلى الصراط المستقيم، وليبلغوا هديه ونوره إلى غيرهم من البشر. . . لذلك كانت آيات القرآن الكريم تخاطب العقول وتهديهم إلى التفكير في أنفسهم وفي ما حولهم، وفي الآفاق وما فيها من علوم فيزداد بذلك إيمانهم ويقوى نورهم ويعرفوا طريقهم، ويكونوا على بينة من أمرهم ويفهموا السر الذي خلقوا من أجله، وماذا لهم وماذا عليهم، وما هو المصير وما هو سبيل النجاة الذي يوصلهم إلى بر الأمان وإلى دار السلام ودار الخلود. وإليك بعض ما جاء في الكتاب المجيد من آيات تمجد العلم للنظر والتدبر:

١ - ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١-٥].

٢ - ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾

ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرَّحمٰن: ١-١٣].

٣ - ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عِمرَان: ١٩٠، ١٩١].

٤ - ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الرُّوم: ٨].

٥ - ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يُونس: ١٠١].

٦ - ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١٧﴾ [الحَديد: ١٧].

٧ - ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴾ [محَمَّد: ١٩].

٨ - ﴿... قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩﴾ [الزُّمَر: ٩].

٩ - ﴿... يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١١﴾ [المجَادلة: ١١].

١٠ - ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩﴾ [الرَّعد: ١٩].

١١ - ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فَاطِر: ٢٨].

١٢ - ﴿... وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

ولكي يبين مكانة العلم والعلماء شبه القرآن الكريم الجاهلين إزاء العلماء الذين يسمعون ويفهمون الهدى، كالأعمى إزاء البصير، والظلمة إزاء النور، والظل إزاء الحرور، والميت إزاء الحي:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَآءُ وَلَا الْأَمْوَٰتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فَاطِر: ١٩-٢٣].

وشبه المكذبين بآيات الله، المحقرين لعامة الناس ويرمونهم بأنهم حمير، شبههم بأنهم هم الذين كمثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يفهم ما فيها:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا۟ التَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجُمُعَة: ٥].

وشبه المعرضين عن التذكرة والهدى، كالحمر المستنفرة الفارة من الأسد:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾ [المدَّثِّر: ٤٩-٥١].

واهتم بتوجيه الإنسان إلى التفكر والتدبر في آيات الله في كل مكان، وفتح له آفاقاً من أبواب العلم ليدرسها ويتدبرها، ويتعلم أسرارها وما فيها من منافع وأضرار، وليتدبر آيات القرآن الكريم في أنظمة الحياة في الأحكام

والحلال والحرام، وفي المعاملات الاجتماعية والأخلاق، وفي السعي في أبواب الخير وإعمار الأرض والانتفاع بخيراتها:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محَمَّد: ٢٤].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّساء: ٨٢].

هذا في الوقت الذي كانت فيه أمم الأرض تغط في نومها وتتخبط في جهلها بعيدة عن هذه الحقائق والعلوم، فكان مصيرها الانحسار والاندحار أمام نور العلم وهدي الإسلام. والآيات في أبواب العلم في القرآن الكريم وحسبك أن ما ورد منها في الاهتمام بالعلم والتعلم بلغ نيفاً وثمانمائة آية!

العلم والعلم النافع:

إن الإسلام حث على تعلم العلوم الدينية، التي هي علوم النفس وتزكية الروح، وعلوم الحياة وما بعد الحياة، وعلوم العقيدة والدين والقيم، إلى جانب العلوم المادية الضرورية للإنسان في حياته ومعاشه. ولكون حواس الإنسان محدودة فلا تمثل علوم المادة إلا جانباً صغيراً من فروع العلم. والعلم عند الله لا حدود لسعته وهو غير منظور وغير خاضع لتجاربنا ولا لحواسنا المحدودة. وهو كامل معروف عند خالقه وقد أحاط بكل شيء علماً، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٥].

﴿... عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سَبَإ: ٣].

أما ما يصفونه من تقدم العلم فهو ليس إلا تقدم الإنسان في تعلمه

للعلم والحصول على مزيد منه، ولا يزال الإنسان في علمه كالطفل الذي يحاول أن يضع رجله في البحر:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩].

فآيات الله التي أودعها هذا الكون لا حد ولا حصر لها، كما أن هذا الكون لا نهائي ولا يعلم حدوده إلا خالقه، وليس الخلق والموت والبعث وأعمال الملائكة والأرواح غير المنظورة وسر الجاذبية واختلاف خواص المواد وإنبات البذور ثم إعادتها ثانية بغزارة في الثمار، إلا بعض أسرار العلم والقدرة الخافية حقيقتها على الإنسان، الذي لا يعلم منها إلا ظواهرها:

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الرُّوم: ٧].

والعلم النافع الميسر للإنسان أن يتعلمه في حياته القصيرة على هذه الأرض، هو العلم بآيات الله التي تهدي إلى الإيمان بالخالق وعبادته، والتي وجه القرآن الإنسان إليها وحثه وأمره بتعلمها. ومن العلم النافع أن ندرس ونتفقه في تفاصيل وأعمال العبادات المفروضة، والشريعة وتعاليمها التي أرادها الله وأمر بها في كتابه الكريم وبينها وشرحت تفاصيلها السنة النبوية المطهرة وهي أعمال وأقوال وأحوال النبي محمد ﷺ المدونة بالسند والرواية في كتب الصحاح والسنن التي أصبحت ثابتة ومعروفة، وحفظ بحفظها هذا الدين من التحريف والتزييف وانتظمت بها حياة المسلمين. وهذا هو النور والهدى الذي أنزله الله ووعد به وهو خاتمة الرسالات على الأرض. وهو دين الإسلام الذي يدعو إلى السلام:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يُونس: ٢٥].

فلو ترك الإنسان على هذه الأرض دون هدى وتعليم من الله، فإنه سيضل بطبعه ويتعلم ما يضره ولا ينفعه ويسيء استعماله:

﴿... وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١٠٢].

ويطغى بعلمه وهذه طبيعته:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾﴾ [العَلق: ٦].

ويفسق ويفجر ويغتصب ويعتدي ويستأثر لنفسه بالسيطرة والقوة واللذات، ويحرم غيره منها ولا يبالي، ويسيء معاملة الغير، ويعيث في الأرض فساداً. وكلما تعلم شيئاً مفيداً لا يلبث أن يعود إلا ضلاله وطغيانه، ويحوله إلى آلات للحرب، وأدوات لإظهار القوة، كما قال الشاعر:

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سناناً

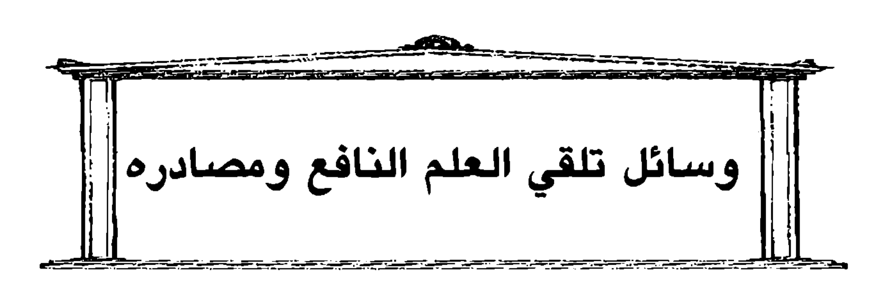
وهكذا تعم الفوضى وينتشر الفساد وسفك الدماء والخراب. لكن الله سبحانه العليم الحكيم، الرحيم بهذا المخلوق الضعيف، لم يتركه ليضل؛ فقد علمه منذ خلق سلفه الأول آدم عليه السلام:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾ [البَقَرَة: ٣١].

ووعد ذريته بأن يرسل إليهم الرسل يقصون عليهم آياته ويهدونهم إلى صراط الله المستقيم، وإلى نور الإيمان وسبل الحياة الكريمة وما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف: ٣٥].

وهذا هو العلم النافع الذي يحفظ عليهم أنفسهم وأموالهم ومستقبل حياتهم ونحن نوجز هنا توجيه الإسلام لتلقي وتحصيل هذا العلم من خلال الوسائل التالية في فصل مستقل.

الفصل الثالث



وسائل تلقي العلم النافع ومصادره

١ ـ من تبليغ الرسل:

وهو ما تبلغه الرسل من الكتب والرسائل المنزلة عليهم من عند الله، بواسطة الوحي جبريل عليه السلام أو بأية واسطة من عند الله، ثم بيانهم وتوجيهاتهم وتفسيرهم لها. ونحن المسلمون كتابنا القرآن الكريم، كتاب الله المجيد المنزل بالوحي على قلب النبي محمد ﷺ، وسنته ﷺ التي بينت وشرحت تفاصيل ومقاصد الكتاب الكريم.

والرسل هم الطائفة الذين اصطفاهم الله من الناس ليبلغوا إليهم كتبه ورسائله. وإذا كانت مهمة الأنبياء تغيير واقع حياة الناس الفاسدة إلى حياة صالحة، وهديهم إلى أعمال قائمة على عقيدة جديدة عليهم، كانت لذلك مقاومة الناس لهم أشد وخصامهم أعند. وكان أول رد فعل وإجابة لهم هو التكذيب والمعارضة الاستهزاء المباشر والاستعلاء عن النظر في أمر رسالتهم، إلا قلة قليلة منهم. ولم تزل هذه ي طبيعة وموقف الناس تجاه الرسل.

وفي واقع الحال لو تفكر الإنسان قليلًا بقدرة الخالق الهائلة لعلم أنه

لا يمكن أن يتلقى العلم من الله جل جلاله مباشرة إلا بوسيلة من الوسائل التي يسرها الله:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

فسيدنا إبراهيم عليه السلام كان يأتيه الوحي رؤيا في المنام فيوحي بأذنه ما يشاء وسيدنا موسى أكرمه الله بكلامه من وراء حجاب حيث جعل سبحانه حجاباً بقدرته بحيث يصل كلامه إلى أسماع موسى دون أن يصعقه أو يؤذيه.

أو بواسطة رسول (جبريل عليه السلام) وهو الوحي الذي كان ينزل على سيدنا محمد ﷺ، فيوحي إليه بصوت كصلصلة الجرس أو غيره، فيعي ما يقول. وكان الرسول ﷺ يثقل ويتصبب عرقاً لما يصيبه من تنزيل الوحي. فكلام الله بدون حجاب ذو طاقات عظيمة لا يمكن لبشر أن يدركها أو يتحملها. فبكلمة منه خلق السموات والأرض وبكلمة منه سبحانه يفنيها في لحظة. وعندما تجلى سبحانه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً. وعندما يتجلى بسخط يدمر كل شيء، وعندما يتجلى برحمة يحي ويرحم كل شيء، جلت قدرته وجلت عظمته سبحانه.

وفي الحقيقة فإنه لا وسيلة أحسن لتبليغ أوامر الله إلى البشر من بعث الرسل. فالرسول هو بشر مثل سائر البشر يملك كافة الصفات المشتركة بينهم وهو نموذج لهم من أنفسهم يتعايش معهم، وإلا قالوا نحن لا نطيق ذلك فنحن بشر وهو خلق آخر. لكن الإنسان عدو ما جهل ومجادل عنيد، كما وصفه خالقه:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النحل: ٤].

لا يتورع أن يطلق الاحتجاجات والاتهامات من أي نوع. والقرآن الكريم يقص علينا كثيراً من احتجاج المكذبين ومعارضتهم للرسل

واستهزائهم بهم، ثم إيذائهم وإعلان العداء والمقاطعة ضدهم، أو بتهديدهم بالقتل.

إن ما جاء به الرسل يعتبر أهم عامل لتلقي العلوم التي تنفع البشر في حاضره ومستقبله، فهو علم الله وهداه للبشر حتى يسلك الطريق المستقيم؛ الذي هو أحسن السبل وأقوم الطرق النافعة والمناسبة لحياة الإنسان في الدنيا والآخرة.

إلا أن أصل ما جاءت به الرسل على اختلاف الأديان قبل الإسلام وأهمها اليهودية والنصرانية، قد اندثر وحرف وبدل، ولا يزال يجري التعديل عليه إلى يومنا هذا. وهذا ما وفر حجة قوية لعلماء العلم المادي الحديث لإهمال في مسيرة تأسيس العلوم.

وحيث أنهم لم يكونوا يؤمنوا بالإسلام، ولم يتحروا حقائقه، ولم يتأكدوا من صحة نص القرآن، وافتقار العلوم إلى ما جاء به من حقائق، بل وهيمنته عليها، وعلى هدي الكتب المنزلة السابقة له وتصديقه لها.

فكان هذا الخطأ والإهمال السبب في ضلال مسيرة العلم، والسبب في ضلال حضارة البشر وما ستجره عليه من أخطار. إضافة إلى الضلال الذي يأتيه من أهداف المغرضين المضللين باسم الحضارة المتلاعبين بمقاصدها.

٢ ـ بالقراءة والدراسة:

إن أول آية نزلت في القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العَلق: ١].

وهذا يكفي لتعظيم قدر القراءة. وإن من لم يتلق التبليغ المباشر من الرسل، بلغته رسائلهم عن طريق تبليغ الناس لها وكتاباتها. وإن أضبط وأدق نص من التنزيل الذي جاء به الرسل هو القرآن الكريم، الذي وعد الله بحفظه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

وبأنه سيبلغ الآفاق:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ. . .﴾ [الأنعام: ١٩].

وأنه للناس كافة بشيراً ونذيراً. وإن كل من بلغه هذا القرآن، بلغته رسالة الإسلام ووصلته البشرة ووصله الإنذار:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨].

وإن القراءة اليوم من الوسائل الواسعة لتلقي العلوم، فدراسة الكتب العلمية وكتب الإيمان وأولها القرآن الكريمْ وتلاوته وفهمه وتدبره بالعقل وبالاستعانة بأحد كتب التفسير المختصرة والميسرة أو المفصلة أكثر من ذلك عند الحاجة، كتفسير ابن كثير أو القرطبي أو المنتخب مثلًا، فهي تفي لهذا الغرض. ثم دراسة كتب الحديث الشريف والسنة المطهرة، ككتب الصحيحين والبخاري ومسلم أو المختار منهما كاللؤلؤ والمرجان وكتب السنن الثلاثة أبو داود والترمذي والنسائي، أو المختار من الخمسة كتاب التاج الجامع للأصول، أو المختار من كتب الصحاح ككتاب الترغيب والترهيب من الحديث الشريف. وكذلك دراسة أحد كتب الفقه ليتفقه في الدين ويطلع على تنظيم الإسلام لحياة المسلم في كل شيء.

وعلى المسلم قراءة ومتابعة ودراسة الكتب العلمية والاجتماعية المختلفة، وكل ما يقع عليه بصره من علوم، وكل ما له علاقة ومساس بحياة الإنسان، وما يكتبه وينشره المختصون في مختلف العلوم وبشتى الوسائل.

إن هذه الوسيلة تكسبه ثقافة عامة، وعلماً واسعاً، وفهماً وميزاناً يزن به الأشياء المختلفة، ويقدرها التقدير الصحيح، ويوافق بين علمه وإيمانه. فيكون بإيمانه على يقين، وبعلمه على نور مبين.

٣ ـ بالتلقي المباشر من العلماء:

وهي أن يدرس تحت إشراف أستاذ عالم يلقنه ويساعده على فهمه ويوجهه في دراسته ويحثه على التعلم، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

ولنا في قصة موسى والرجل الصالح مثلًا رائعاً لطالب العلم في تصرفه وتأدبه معه كما بين التلميذ والأستاذ رغم أنه نبي! وقد أنزلت عليه التوراة فيها كل شيء: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ...﴾ [الأعراف: ١٤٥] من الهدى والنور:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...﴾ [المائدة: ٤٤].

فلم يقعده ذلك عن تجشم أعباء السفر وشدّ الرحال إلى المعلم:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف: ٦٠].

ولا عن المثابرة لطلب المزيد مما خفي عليه من العلم:

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦].

وقال له أيضاً:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف: ٦٩].

فهذه آداب ما يكون بين التلميذ والمعلم.

كذلك يتبين لنا لطف المعلم الأب لقمان لابنه وهو يعظه.

وقد عني الإسلام أيضاً باختيار طائفة من الأذكياء النابهين واستنفرهم لطلب العلم والفقه ليكونوا الأساتذة المعلمين للناس:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

كما جعل الإسلام طلب العلم فريضة ففي الحديث: **«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»**[١].

ورغب في طلب العلم وحث عليه وبين آدابه وأعلى شأنه ومكانته لطالب العلم وللأساتذة العلماء على حد سواء. وذلك بأوضح عبارة وأبلغ بيان، كما تتجلى في الأحاديث التالية:

ففي الترغيب في طلب العلم:

١ ـ **«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب إن العلماء هم ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**[٢].

٢ ـ **«من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع»**[٣].

٣ ـ **«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»**[٤].

٤ ـ **«. . . ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به علمه لم يسرع به نسبه»**[٥].

(١) أخرجه ابن ماجة: ٢٢٠.
(٢) أخرجه ابن ماجة: ٢١٩.
(٣) أخرجه الترمذي: ٢٥٧١.
(٤) أخرجه البخاري: ٤٦٣٩.
(٥) أخرجه مسلم: ٤٨٦٧.

وفي آداب التعلم وتبليغ العلم والتحذير من كتمه:

١ ـ «إن لقمان قال لابنه: يا بني عليك بمجالسة العلماء واسمع كلام الحكماء، فإن الله ليحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر»[١].

٢ ـ «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تعلمون منه»[٢].

٣ ـ «نضر الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليسْ بفقيه»[٣].

٤ ـ «من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[٤].

٤ ـ بالسير في الأرض ودراسة آثار العلم:

وذلك بالفحص الموقعي والبحث والتجربة والاستنباط والاعتبار. قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ...﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وفي دراسة آثار السابقين وما حل بالظالمين، قال سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا

---

(١) رواه الطبراني انظر الترغيب والترهيب للمنذري ج١ ص ١١٢ - ط٣/١٩٦٨م.
(٢) رواه الطبراني انظر المنذري ج١ ص١١٤ - ط٣/ ١٩٦٨م.
(٣) رواه أبو داوود: ٣١٧٥.
(٤) رواه أبو داوود: ٣١٧٣.

أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الرُّوم: ٩].

وعن قوم لوط:

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٤-٧٦].

وهو طريق تجارتهم إلى الشام والموقع بحيرة لوط في فلسطين.

وعن دراسة الركاز في باطن الأرض:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرّعد: ١٧].

وفي الإشارة إلى علم الهايدرولوجي والنبات وجيولوجيا الجبال ودراسة الأنواع والأقوام وتأثير البيئة في البشر والأحياء الأخرى، وأن العلم يؤدي إلى خشية الله، يذكر بها القرآن مرغباً فيها:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

عزيز في قدرته وبديع صنعه، غفور لكم عن تقصيركم وغفلتكم وخطأ تقديركم.

إن الخطوات الأولى في منهج البحث العلمي وتطوره - بعد أن كانت

الفلسفة الأغريقية والرومانية عبارة عن علوم ونظريات تجريدية ليس لها تطبيقات في الواقع العملي - هو المنهج الذي اتبعه المسلمون وبدؤا به نهضة علمية في شتى الاتجاهات، وكانت خطواته مبنية على ١- الملاحظة، ٢- التجربة، ٣- الاستنباط. وبهذه الخطوات درسوا واكتشفوا قوانيناً وسنناً كثيرة فتقدموا في علوم الفيزياء والكيمياء والفلك والهندسة والجبر والرياضيات وعلوم النبات والأحياء، حتى أعطوها لقمة سائغة إلى علماء الغرب كما ذكرنا سابقاً. ولا يفيدنا الآن أن نفخر بتلك الجهود وأن نتغنى بذلك الحلم الجميل، وإنما علينا أن نعمل بجد وبقوة لنلحق بركب العلم، ونشارك في تصحيح المسار الضال، ونتعاون في إسعاد البشرية.

٥ - بهداية وموهبة من الله:

وهذا ما نراه من قدرة فئة طيبة من البشر - وهي فئة عزيزة نادرة - في الإدراك المباشر وفي الدقة السديدة في فهم حقائق الأمور، دونما عناء ودونما تلقي أية دراسة أو مساعدة من أحد، وكأنهم على علم مسبق بها.

إن هذا الإدراك والفهم الصحيح، هو هداية من الله وثمرة من ثمار لإيمان يهبها الله من يصطفي من عباده. وهو غير الذكاء، وإن كان الذكاء موهبة من الله أيضاً! لكن الذكاء شيء مودع في الخلقة، يهبه الله المؤمن والكافر. فيهدي المؤمن بهذا الذكاء فيوجهه إلى الخير، ويضل الكافر به فيوجهه إلى الشر أو إلى غير هدى لا تمييز عنده بين الخير والشر.

ويهدي الله إلى هذه الدرجة من الفهم والإدراك أناساً على مقام من الإيمان ودأب في الأعمال الصالحة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ...﴾ [يونس: ٩].

﴿... مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧].

وهو نور يقذفه الله في قلب المؤمن، فينشرح له صدره ويهتدي إلى الحق، فيبصر الأمور على حقيقتها ويكون على بينة من أمره.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُمَر: ٢٢].

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والله سبحانه يهدي إلى هذا النور من يشاء من المخلصين من عباده، المستمسكين بكتابه، المهتدين بهديه، الذين وهبهم الله الفهم والعلم والذكاء. يقول الله سبحانه لنبيه:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

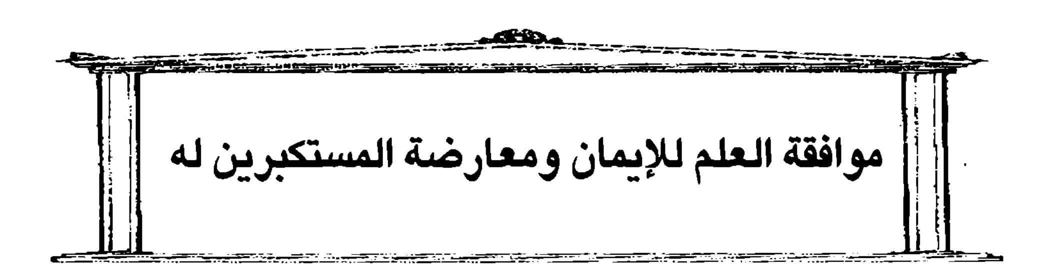
فهداية الرسول هي التبليغ ونقل الرسالة للناس وتبيانها لهم ليهتدوا بها:

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [المائدة: ٩٩].

والهداية الحقة التي تدخل القلب فيستيقن ويؤمن بها ويطمئن إليها، هي هداية الله ونور منه جل شأنه. وهي ليست للرسول ولهذا أخبره سبحانه:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القَصَص: ٥٦].

الفصل الرابع



موافقة العلم للإيمان ومعارضة المستكبرين له

منذ صغري وأنا أقرأ وأدرس مختلف العلوم، وأتعلم معها مبادئ الدين الإسلامي، لم أجد علماً واحداً أو حقيقة علمية واحدة، تعارضت مع مبادئ الدين أو مع حقائق القرآن الكريم. فالعلم يدعم الإيمان، والإيمان يدعو إلى العلم والتعلم، حتى يبنى على أساس من العلم.

وما أن يكتشف العلماء المشتغلون بالعلوم بعض حقائق العلم، أو بدائع الصنع والنظام في شتى فروع العلم، حتى تظهر على ألسنتهم الحكمة وينطقوا بالإيمان. وهذه بعض تعبيرات علماء في مختلف العلوم نطقت بها ألسنتهم وأيقنت بها عقولهم ولم يتلقونها عن الدين:

يقول العالم إسحاق نيوتن مكتشف قانون الجاذبية: (لا تشكوا في الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هي قائدة هذا الوجود). ويقول أيضاً: (إن هذا التفرع في الكائنات، وما فيها من ترتيب أجزائها ومقوماتها، وتناسبها مع غيرها ومع الزمان والمكان، لا يمكن أن تصدر إلا من حكيم عليم).

ويقول آينشتاين: (إن الإيمان هو أقوى وأنبل نتائج البحوث العلمية.

إن الإيمان بلا علم ليمشي مشية الأعرج، وإن العلم بلا إيمان ليتلمّس تلمس الأعمى).

وهذا ما يؤكد تلازمهما.

ويقول الطبيب باستور: (الإيمان لا يمنع أي ارتقاء كان، لأن كل ترق يبين ويسجل الاتساق البادي في مخلوقات الله. ولو كنت أعلم أكثر مما أعلم اليوم، لكان إيماني بالله أشد وأعمق مما هو عليه الآن).

وهذا ما يؤكد زيادة وقوة الإيمان بالعلم.

ويقول الفلكي الانكليزي هرشل: (كلما اتسع نطاق العلم، ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لا حدّ لقدرته ولا نهاية. فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم، وهو صرح عظمة الله وحده).

ويقول العالم الفرنسي ديكارت: (إني مع شعوري بنقص ذاتي، أحس في الوقت نفسه بوجوب وجود ذات كاملة. وأراني مضطراً للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال وهي الله).

وشهادات العلماء وأقوالهم في هذا كثيرة، وكانت خلاصة آراء العلماء كما قرأتها في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) تؤكد حقيقة أن العلم لا يؤدي إلا إلى الإيمان المطلق بالخالق، الذي أبدع كل شيء في هذا الكون. فهو كما يقول القرآن: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١١٧].

وسنرى فيما بعد في مسلسل هذا الكتاب كيف أن آيات القرآن قد أقرت حقائق العلم قبل أن يكتشفها العلماء. لكن العلماء ليسوا هم الذين

يصدون عن سبيل الإيمان، فالعلماء المنصفون المعتدلون يقرون جميعهم بقرارة أنفسهم، أن الله حق والإيمان به حق، ولا يجدون في علمهم ما يعارض هذا، ولا ما يدعو إلى الكفر.

قال أحدهم وهو أدمون هربرت وهو جيولوجي أستاذ في جامعة السربون: (العلم لا يمكن أن يؤدي إلى الكفر، ولا إلى المادية، ولا يفضي إلى التشكيك).

أي أنه لا يؤدي إلا إلى الإيمان. إنما المعارضة تأتي من أخلاق الرجال الذين لا أخلاق لهم، ولا علم لهم، كما يقول الشاعر شوقي:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

وغالباً ما تكون المعارضة في عقول من لم يدرس أو يتفهم الدين، لكي يتوافق عنده مع العلم، أو في القضايا العلمية التي لم تستقر دراستها، ويضل يتغير ويتجدد الحكم والقرار فيها كلما تقدم الإنسان في فهم حقيقتها. أو في القضايا العلمية التي لا يوجد فيها نص ثابت في الكتب المقدسة ولا يوجد غير المتناقضات. لكن هذا لا يمكن أن يكون في الإسلام، صاحب الكتاب المحكم المحفوظ والمثبت نصه نقلًا ورواية وتواتراً منذ نزوله. ذلك بأن إرادة الله سبحانه، اقتضت بأن يؤيد القرآن بآيات تنص على حقائق علمية، وبإشارات إلى ظواهر كونية كثيرة على غير ما موجود في التوراة أو الإنجيل، دعماً لمعجزته حيث أنه المعجزة الكبرى الباقية إلى يوم الدين لرسول الله ﷺ.

أما في التوراة والإنجيل فهما لا يحتويان إلا على قليل من الآيات العلمية أو التي تشير إلى ظواهر كونية. وبالنظر إلى أنه لم يبق أثر للنص الأصلي، ولا يوجد سند نقلي كامل الإسناد، إضافة إلى ما أحدث فيها من اختلاف الروايات، ثم كتابتها في وقت بعيد عن زمن النزول فإنه لا يمكن

اعتمادها في تفسير الآيات العلمية. وهذه حكمها في الإسلام حكم الحديث المرسل (منقطع السند) أو حكم الحديث الضعيف عند المسلمين. وحديث كهذا لا يمكن اعتماده حجة في الحكم، لأنه لم يرو بالنص المنزل، واختلاف النص يؤدي إلى اختلاف المعنى. وهذا رغم ما فيها من أسس صحيحة عامة، صدقها وأيدها الإسلام كما سيأتي إن شاء الله.

إن هذه التغييرات وتحريفات الديانات عما نزلت به أصلًا، قد طالت الديانات السماوية الثلاث. لقد أحدثت الفرق والملل المنشقة زيغاً وضلالًا ألصقته بحقيقة الديانات السماوية النقية. ولقد أدى ذلك في اليهودية خاصة وفي النصرانية إلى هذا الفارق والاختلاف الكبير بين العلم والدين. وعلى العلماء (علماء الدين بالذات) المسؤولية في عرض حقائق وعقائد الدين النقية الصحيحة، لتكون الحجة الحقة في الحكم، والقاعدة المنيرة في ترشيد طريق العلم. ويصعب ذلك جداً في اليهودية كما يصعب في المسيحية أيضاً ولكن بدرجة أقل، وذلك بسبب فقدن النص الأصلي لكل من التوراة والإنجيل. أما في الإسلام فلكونه آخر الأديان الثلاثة وأحدثها، ولكون القرآن مثبت ومحفوظ نصاً، ولا يمكن أن تطاله يد التحريف، أمكن لذلك اعتماده وتبينت موافقته ومطابقته للعلم وأصبحت دليلًا آخر يدعم صحة النص. ولذلك اتجه التحريف والتدليس إلى روايات الأحاديث والسنة المطهرة. (التي لم تدون في حينها كمنا دون القرآن، وذلك خوفاً من الالتباس به). ولكن من عناية الله بهذا الدين وحفظه، فقد انتبه لخطورة هذا الموضوع وتصدى له رجال وعلماء كثيرون من التابعين، وقليل من الصحابة ممن كانوا لا يزالون أحياء، ومن تابع التابعين، فقاموا باستدراك وجمع وتنقية الأحاديث وتثبيت طرق الروايات ودراسة متن الأحاديث الصحيحة عن غيرها، ووضعوا السند الذي ثبتوا به العلم برجال السند وعرضوهم للجرح والتعديل، حتى تم لهم تحرير الأحاديث الصحيحة وأصبحوا بها خبراء. وعلم السند والإسناد

الذي يؤكد صحة النقل، اختصت به الأمة الإسلامية، وهو ليس لأمة غيرها من الأمم.

وبذلك عزلوا شيئاً كثيراً جداً من الأحاديث المدلسة والمكذوبة فألغيت، كما أفرزوا الأحاديث الضعيفة المنوعة التي تقارب مائة نوع، ولم يأخذوا إلا الأحاديث الصحيحة التي اتفقت الروايات على صحتها، والأحاديث المتواترة نقلًا المتصفة بصحة المتن والسند.

ومنذ ذلك الوقت ثبتت ودونت الأحاديث الصحيحة في كتب الصحاح كالبخاري ومسلم وفي كتب السنن المشهورة وحفظت بها السنة المطهرة. وبذلك حفظ الدين وحفظ أيضاً تفسير القرآن من التحريف والتأويل الشاذ. ومن يرغب في الاطلاع والتوسع في هذا العلم، يكفيه أن يقرأن كتاباً شاملًا في علم الحديث.

معارضة المستكبرين للإيمان وأسباب المعارضة

١ ـ أسباب جاءت من التناقض والتحريف في التوراة مع المنطق العقلي، وبينه وبين أسس الإيمان والعدالة الإلهية، بحيث يستشف منها الاتهامات غير المقبولة إلى الأنبياء المكرمين عند الله، ويستشف منها اتهامات لذات الباري ﷻ في عدله وصنعه في مخلوقاته وغير ذلك كثير جداً. إن المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان (١٩٦٢ - ١٩٦٥) قد أقر نفسه في تحفظه على أسفار العهد القديم بأنها (تحتوي على الشوائب وشيء من البطلان)[١].

ويقول البروفسور الفرنسي موريس بوكاي في خاتمة دراسته لنصوص

(١) انظر القرآن والتوراة والإنجيل والعلم - موريس بوكاي ص: ٦٥، الناشر مكتبة مدبولي بالقاهرة، ط١/ ١٩٩٦.

التوراة: إن معرفة تاريخ النصوص تسمح - في الواقع - بتكوين فكرة عن الظروف التي قادت إلى التعديلات النصية عبر القرون وإلى التكون البطيء لمجموعها كما نمله اليوم بأجزاء متعددة محذوفة وأخرى مضافة، ويقول بوجود روايات مختلفة عن موضوع واحد، وأخطاء تاريخية وأموراً متناقضة وأخرى غير معقولة أو يستحيل أن تتفق مع المعطيات العلمية الثابتة(١).

ويقول أيضاً في خاتمة دراسته للأناجيل:

ونفس الأمر بالنسبة للأناجيل: فخيالات متى والمتناقضات الصارخة بين الأناجيل والأمور غير المعقولة، وعدم التوافق مع معطيات العلم الحديث، والتحريفات المتوالية للنصوص، كل هذا يجعل الأناجيل تحتوي على إصحاحات وفقرات تنبع من الخيالات الإنساني وحده. لكن هذه العيوب لا تضع في موضع الشك وجود رسالة المسيح، فالشكوك تخيم فقط على الكيفية التي جرت بها(٢).

٢ ـ أسباب جاءت من التناقض بين نصوص التوراة والإنجيل وبين المكتشفات والحقائق العلمية. ويحسن هنا عزيزي القارئ أن أنقل لك مقاطع مما قاله الدكتور بوكاي في معرض دراسته للكتب المقدسة ومقابلتها مع الحقائق العلمية، ليكون الشاهد من أهلها فيقول:

ولقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدسة بحقائق العلوم موضوع تفكير الإنسان في كل العصور. ففي البدء قيل إن اتفاق العلوم والكتب المقدسة أمر لازم لصحة النص المقدس. . .، ويقول ولكن تطور العلم كشف للمفكرين عن وجود نقاط خلاف بين الاثنين. وبهذه الطريقة خلق

---

(١) انظر القرآن والتوراة والإنجيل والعلم - موريس بوكاي ص: ٦٤، الناشر مكتبة مدبولي بالقاهرة، ط١/١٩٩٦.

(٢) نفس المصدر أعلاه، ص ١٣٩.

ذلك الوضع الخطير الذي جعل اليوم مفسري التوراة والأناجيل يناصبون العلماء العداء. إذ لا يمكن في الحقيقة أن نقبل بأن رسالة إلهية منزلة تنص على واقع غير صحيح بالمرة. ويقول أيضاً:

وإن دراسة نص القرآن في العصر الحديث لم تكشف عن الحاجة إلى إعادة النظر في هذا. وسوف نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية، وهي كثيرة جداً خلافاً لقلتها في التوراة.. وأنه لا يتناقض موضوع واحد من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية، وتلك هي النتيجة الأساسية التي تخرج بها دراستنا.

ويعقب الدكتور بوكاي: لقد قمت أولًا بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة، باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث.. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أي مقولة لنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث.

وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا.

وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة ونعني بها شجرة أنساب المسيح. وذلك أن نص إنجيل متي يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض.

غير أن وجود هذه المتناقضة، وتلك التي لا يحتملها التصديق، وتلك

الأخرى التي لا تتفق والعلم، لا يبدو لي أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله، ولا تقع المسؤولية فيها إلا على البشر، ولا يستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصوص الأصلية، وما نصيب الخيال والهوى في عملية تحريرها، أو ما نصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص، أو ما نصيب التعديلات غير الواعية التي أدخلت على الكتب المقدسة[١]. اهـ.

وكل هذه التغييرات والاختلافات والتعديلات المستمرة جاءت بسبب فقدان النص الأصلي لكل من التوراة والإنجيل. ولو كانوا محفوظين لحفظهما المؤمنون عن ظهر قلب كما يحفظون القرآن، ولاستحال تناقضهما مع علوم الطبيعة لأنها عمل الخالق العليم نفسه سبحانه.

٣ ـ أسباب جاءت من أخطاء علماء الطبيعة أنفسهم.

وهي تتمثل في طائفة المستكبرين المكذبين الراغبين في إطلاق العنان لأنفسهم من ربقة الدين، ليتمتعوا ويفكروا حسب أهوائهم.

وطائفة أخرى من المستكبرين الذين يجادلون في البديهيات والحقائق الثابتة، وما يمنعهم من الإيمان إلا الاستكبار على العامة الذي يجاوز حجمهم، فضلًا عن أنهم لا يملكون دليلًا واحداً على جدالهم في آيات الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر: ٥٦].

وما يمنعهم من الإيمان إلا رغبتهم في إطلاق العنان لشهواتهم وملذاتهم غير المشروعة التي يأباها ويمنعها الدين.

(١) نفس المصدر السابق، ص: ١٤ - ١٦.

وما يمنعهم إلا حرصهم على أموالهم أن تنفق على الفقراء والمساكين هكذا بسخاء وبدون مردود مربح في الدنيا! لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلًا.

ومنهم من يتهم رجال الكنيسة بسوء التصرف في الأموال.

وما أمر الدين بأعمال وتكاليف الطاعات، وما نهيه عن المحرمات، إلا حدوداً وسياجات تحمي الإنسان وتزكيه وتطهره وتحفظه من الضلالة التي تؤدي إلى كل الأمراض النفسية والاجتماعية.

وما هي إلا علامات ودلالات الطريق المستقيم، وسكك وحدود السلوك الصحيح الطيب، وضعها الرب الجليل لحفظ وسعادة الإنسان في هذا العالم، وعده إن تمسك بها واتبعها، بطيب الحياة في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة.

٤ ـ استكبارهم وإعراضهم عن دراسة القرآن الذي يملك النص المنزل المحفوظ من التغيير. فهم أولًا لا يؤمنون به، والكراهية التي وقعت بينهم وبين المسلمين من جراء الحروب التاريخية الطويلة، وما فعله اليهود من تشويه صورة الإسلام في الغرب، ثم إن صعوبات الترجمة والتفسير واختلاف اللغة، كل ذلك أبعدهم عن فكرة دراسة نص القرآن ومطابقته للحقائق العلمية.

وهكذا كان عزل الدين في القرون الوسطى جانباً، والاستمرار في تقرير العلوم الطبيعية على أساس تجارب الإنسان واكتشافاته نفسه، فثار العداء بين رجال الكنيسة وعلماء الطبيعة. ولا يزال إلى اليوم يبحث كل منهما عن ثغرات للإيقاع بالآخر.

اختلاف القرآن الكريم عن التوراة والإنجيل في هذا الموضوع

صحة النص في القرآن الكريم وحفظه من يد التغيير والتحريف، جعلته

خالياً من تلك العيوب والنواقص الموجودة في التوراة والإنجيل، لذلك جاءت موافقته للمنطق العقلى والبحث العلمي.

فإن القرآن على العكس مما جاء في التوراة الحالية ينزه الذات الإلهية عن الافتراءات التي لا تليق بجلاله سبحانه:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٢-٤٤].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١١٧].

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ [الشورى: ٤].

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

والآيات في التعريف بالخالق وقدرته وعظمته تكاد لا تحصى في القرآن الكريم.

لا كما تصوره التوراة، من أنه ينزل إلى الأرض بشكل إنسان ويتصارع مع يعقوب! فهذا لا يليق بجلال خالق عظيم، لا حدود لعظمته فيصغر إلى هذا المستوى. هذا محض كذب مدلس على التوراة ليس إلا، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. كذلك لا يمكن تصور أن موسى نبي الله يؤنب ربه فيقول له: عليك أن تندم على تعذيبك لشعبك، ثم يتراجع الرب ويندم على فعله. أستغفر الله العظيم جل الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. فالله سبحانه رب الكمال وهو الخالق العظيم لا يخطئ أبداً والخطأ صفة

المخلوق، وليس موسى إلا مخلوقاً ضعيفاً لله معرض هو للخطأ فكيف ينصح ربه ويؤنبه؟

فالله العليم الحكيم له الأسماء الحسنى الذي أقام السموات والأرض بالحق والعدل: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣] ويقول سبحانه:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

كذلك لا يمكن لذي عقل سليم أن يقتنع بأن نبي الله لوط الذي طهره الله وأنجاه وأهله (ابنتيه) من عذاب الرجم بالحجارة من السماء، فتعود ابنتاه بعد ذلك لتسكرانه ثم تضاجعانه واحدة تلو الأخرى ليستخرجا منه نسلاً لقومهما، وهما بذلك يعيدا ارتكاب نفس الذنب الذي عذب الله به قومهما، أليس هذا تناقضاً فظيعاً؟

فمثل هذا التحريف الذي في التوراة الحالية لا يقبله العلماء لا عقلاً ولا منطقاً، فهو بالتأكيد ليس من نصوص التوراة الصحيحة وإنما هو من صنع البشر الخطائين.

كما أن القرآن قد نزه التوراة المنزلة عن هذه الافتراءات ونهاهم عن المتاجرة بأحكامه وآياته فقال سبحانه:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

لكنه تحداهم إن كانت بقيت عندهم تلك التوراة المنزلة:

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٣].

وكذلك فهو ينزه إنجيل عيسى أيضاً:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

والقرآن الكريم ليس فيه تناقض، إنما الآيات يشد بعضها بعضاً، ويؤكد بعضها بعضاً، ويفسر بعضها بعضاً، ويزوي بذلك المضللين والمحرفين.

وإنك لا ترى في القرآن اتهاماً مشيناً لأي نبي، كيف وهم المصطفون المختارون من الله؟ فكلهم مطهرون معصومون بعصمة الله.

وتجد ثناء الله عليهم بأجمل وصف، وأنهم آية في الخلق القويم وقدوة للمؤمنين. فتجد ثناءً على نوح وإبراهيم، وتكريماً لموسى، وتطهيراً لمريم ولوط، وتبرئة لعيسى، وتعظيماً لخلق محمد، وثناءً عليهم جميعاً، وتقديراً لهم بالرضا والقبول عند الله، وهم المصطفون الأخيار الذين اصطفاهم الله لمهماتهم.

وترى عرضه بمنتهى الجلال والجمال وبلاغة البيان، وترى فيه إعلاءً للأدب والحكمة، وإكباراً للمثل والقيم العليا، وقد صيغ بالصورة النهائية مبتدأ، وليس بمقدور أحد أن يجري أي تبديل أو تغيير عليه فهو كلام الله الذي لا يخضع لأي تبديل كما قال عنه سبحانه:

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٤].

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ [الكهف: ٢٧].

وهو بمنتهى الاتزان والدقة العلمية التي تفصح عن صحة النص المقدس الثابت. وهذا هو القول الحق والحكم الفصل اللائق بجلال الله وعظمته سبحانه، وبمقام الأنبياء المكرمين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهو ليس كما تروى الروايات عند البشر، وتفترى الأحاديث. أو كما يؤلف الأدباء وينظم الشعراء!

«ففضل كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه»[١].

واختلاف نص التوراة والإنجيل عن هذا الضبط، أصبح من العوامل القوية التي دفعت علماء المادة إلى الإعراض عن الدين، واعتبار العلم المادي أساساً للتقدم والبحث العلمي.

إن المسار الصحيح لتقدم العلم وتقدم الإنسانية على أسس من الإيمان، يجب أن يعتمد على الوثائق الصحيحة من الدين، أو على النصوص الأصلية الصحيحة من الكتب المقدسة المنزلة.

إن أوثق الوثائق المنزلة الموجودة الآن هو كتاب الله (القرآن الكريم) المنزل بالوحي وبالنص المحفوظ كما سيأتي تفصيله بإذن الله. ويستعان في تفسيره بالسنة النبوية المطهرة الصحيحة، والمثبتة في كتب الصحاح كالبخاري ومسلم، وكتب السنن المشهورة الصحيحة. فبالكتاب والسنة النبوية المكملة لشرحه وتفصيله، أرسيت قواعد الدين الصحيحة، وخطوطه العريضة، النقية من الزيغ والضلال، وهذا هو طريق الحق والصراط المستقيم.

(١) رواه الترمذي: ٢٨٥٠.

والإسلام الذي أكمله الله وارتضاه لعباده حتى تقوم الساعة:

﴿... ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ...﴾ [المَائدة: ٣].

هو دين الفطرة والحنيفية السمحاء، دين التوحيد على ملة إبراهيم، فطرة الله التي فطر الناس عليها وهداهم بها إليه ودعاهم فيها سبحانه إلى دار السلام:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يُونس: ٢٥].

وهذا هو الدين الأخير الذي أقره الله لعباده:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٩].

ولا يقبل منهم يوم القيامة غيره:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥].

فلا غرو أن يكون هو الدين المعتمد للدراسة والتطبيق في العالم أجمع. ولا يوجد من يضاهيه في صحته وصدقه وأمانة وثائقه.

وإن ما جاءت به العلوم الحديثة حتى الآن، ليست إلا تأييداً لبعض ما جاء في حقائق القرآن. وإن ما ذكر فيه من أسرار الخلق وحقائق علوم الطبيعة والكون، ما هي إلا علامات وأنوار مضيئة للإنسان في طريق تقدمه بالعلم، وما هي إلا سكة قائدة إلى العلم الحق الصحيح، حتى لا يضل الإنسان ويضيع في غياهب الضلالة والظلام، فيما لا يبلغ أسبابه، ولا يتصل بتاريخه ولا يحيط بسره علماً.

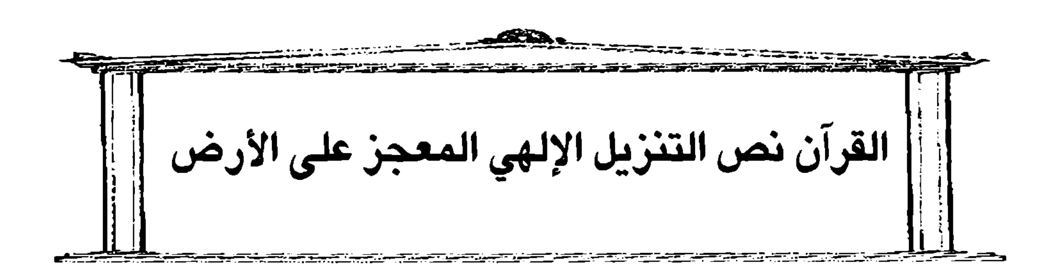
فالله سبحانه عندما يرشد إلى الطريق، يرشد من كونه الإله العليم الحكيم الرؤوف الرحيم، الذي خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم. وهو كائن قبل التاريخ وبعده، وهو حاضر وشاهد على كل شيء، فليس شيء أوثق من شهادته سبحانه، وعنده علم الغيب بما سيكون وما هو كائن من نتائج وأحداث، وقد قدرها وكتبها منذ الأزل:

﴿... يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

فإذا أراد علماء الحياة أن يقرنوا علمهم بالإيمان، ويعودوا إلى الهدى ويصححوا المسار الخاطئ المؤدي بهم إلى الهاوية، فما عليهم إلا أن يعتمدوا حقائق القرآن نبراساً للعلم والإيمان ومرشداً أميناً للعلوم النافعة للإنسان في حياته وفي مستقبله. ولا يعرض عن ذلك إلا خاسر، أو مغرور جاهل، لم يؤت من العلم إلا قليلًا. وهو لا يعلم في الحقيقة من أمره شيئاً، ولا من خلقه شيئاً. ومهما ظن أنه قد تقدم في علمه فأصبح عالماً فقد جهل، لأنه لا حدود للعلم، وما تعلمه ليس إلا العلم الظاهر، وأما علم الحقيقة فهو لله وحده، خالق كل شيء، وخالق العلم، والذي أحاط بكل شيء علماً.



الفصل الخامس



أ ـ كيف ثبت النص وتمت كتابة القرآن:

انفرد القرآن الكريم عن غيره من الكتب المنزلة، بأنه كتب بنصه إثر نزوله مباشرة، بواسطة كتاب الوحي الذين عينهم النبي ﷺ. وبعد الكتابة، كان يطلب من الكاتب عرض الآية عليه حتى يتأكد من صحة كتابتها. وحفظت كل آية نزلت في قلوب المؤمنين، وتناقلوها فيما بينهم، ويقرؤونها مع النبي في صلواتهم، ويتعبدون بتلاوتها في خلواتهم وفي لياليهم. وأصبح لدى أكثر الصحابة مجموعات كثيرة مكتوبة من آيات القرآن، وما نزلت آية إلا وقد أمر الرسول ﷺ من يكتب له، أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا.

وكان جبريل هو الذي يعلمه مواضع السور، ومواضع الآيات فيها حين نزولها. وكان جبريل يعارضه القرآن كل سنة في رمضان (أي يستقرؤوه)، وأنه قد عرضه عليه مرتين في السنة التي قبض فيها. وكان يتلوه عليهم شيئاً فشيئاً في صلواته بجميع سوره وآياته. وقد تلقفه المهاجرون والأنصار بالحفظ وكثرة التلاوة وكتبوه وعلموه من بعدهم، متبعين وصية نبيهم: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[١].

---

(١) رواه البخاري: ٤٦٣٩.

وكانوا يتعبدون بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، ويختمون قراءته في أقل من شهر، يتنافسون بهذه العبادة، حتى منع رسول الله ﷺ أن يقرأ القرآن في أقل من أسبوع، وقال لعبدالله بن عمرو (اقرأ القرآن في شهر، قلت إني أجد قوة.. حتى قال فاقرأه في سبع ولا تود على ذلك)[١].

وذلك لكي يفقهوه، كما تدل على ذلك الأحاديث الصحيحة والأخبار المتواترة عنهم ﷺ.

إذن فلقد كان القرآن في عهد رسول الله ﷺ مجموعاً ومعروفاً وكاملاً وبالشكل الذي بين أيدينا اليوم، إلا أنه في صدور الرجال ومفرقاً بقطع مكتوبة هنا وهناك، حتى جاء الأمر بجمع القرآن في كتاب واحد.

الجمع الأول:

روى البخاري والإمام أحمد والترمذي والنسائي، ورواية البخاري هي: أنّ زَيْدَ بْنَ ثابتٍ رَضِي اللّهم عَنهم قالَ أرْسَلَ إِلَيَّ أبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عِنْدَهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي اللّهم عَنهم إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ قُلْتُ لِعُمَرَ كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ عُمَرُ هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِذَلِكَ وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الذِي رَأَى عُمَرُ قَالَ زَيْدٌ قَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لَا نَتَّهِمُكَ وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ قُلْتُ كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ

---

(١) رواه البخاري: ٤٦٦٦.

يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهم عَنْهمَا فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) حَتَّى خَاتِمَةِ بَرَاءَةَ فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهم عَنْهم[١].

وجاء في فضائل القرآن لابن كثير:

فكان الذي فعله الشيخان أبو بكر وعمر ﵄، من أكبر المصالح الدينية وأعظمها من حفظهما كتاب الله في الصحف، لئلا يذهب منه شيء بموت من تلقاه عن رسول الله ﷺ. ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده فكانت عنده محروسة مكرمة، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين لأنها كانت وصيته من أولاده على أوقافه وتركته، حتى أخذها أمير المؤمنين عثمان ابن عفان ﷺ كما سنذكره إن شاء الله[٢].

الجمع الثاني:

روى البخاري أيضاً:

أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ فَأَمَرَ

---

(١) البخاري: ٤٦٠٣.

(٢) فضائل القرآن لابن كثير ص: ١٧، ط/ ٤، دار الأندلس ١٩٧٩م.

زَيْدَ بْنَ ثابِتٍ وعَبْدَاللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وسَعِيدَ بْنَ العَاصِ وعَبْدَالرّحْمَنِ بْنَ الحارِثِ بْنِ هِشام فَنَسَخوهَا فِي المَصاحِفِ وَقالَ عُثْمانُ للرَّهْطِ القُرَشِيِّينَ الثَلاثَةِ إذا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فاكْتُبوهُ بِلِسانِ قُرَيْشٍ فَإِنَّما نَزَلَ بِلِسانِهِمْ فَفَعَلُوا حَتّى إذا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي المَصاحِفِ رَدَّ عُثْمانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ وأرْسَلَ إلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمّا نَسَخُوا وأمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ القُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أوْ مُصْحَفٍ أنْ يُحْرَقَ قالَ ابْنُ شهابٍ وأَخْبَرَنِي خَارِجَةُ بْنُ زَيْد بْنِ ثابِتٍ سَمِعَ زَيْدَ بْنَ ثابِتٍ قالَ فَقَدْتُ آيَةً مِنَ الأحْزابِ حينَ نَسَخْنا المُصْحَفَ قَدْ كُنْتُ أسْمَعُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِها فَالْتَمَسْناها فَوَجَدْنَاهَا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثابِتٍ الأَنْصارِيِّ (مِنَ المُؤْمِنينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ) فَأَلْحَقْناهَا في سُورَتِهَا فِي المُصْحَفِ[١].

قال ابن كثير في فضائل القرآن:

وهذا أيضاً من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان ﷺ، فإنه أتم عمل الشيخين أبو بكر وعمر في حفظ القرآن أن يذهب منه شيء، فقام بجمع الناس على قراءة واحدة، لئلا يختلفوا في القرآن، ونشر النسخة الأصلية الكاملة في الآفاق، وأحرق ما سواها مما كتبه الناس، خشية أن يتطرق إليها أي خطأ أو غلط في الكتابة. وقد وافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما اعترض ابن مسعود في حرق الصحف ما عدا المصحف الإمام ثم رجع إلى الوفاق، حتى قال علي ابن أبي طالب ﷺ: لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا[٢].

وأصبحت هذه النسخ أمهات أو أصول استنسخت في الأمصار والآفاق. فمصحف عثمان هو مصحف أبي بكر وعمر نفسه، حتى قال عنه

(١) رواه البخاري: ٤٦٠٤.

(٢) فضائل القرآن ص: ١٨، ط/ ٤، دار الأندلس ١٩٧٩م.

عليه ابن أبي طالب رضي الله عنه: (أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين)[١].

وهو ما اتفق على قراءته كافة المسلمين وكان شيئاً محفوظاً عندهم متواتراً بينهم يتلى من أول نزوله، حتى أصبح مكتوباً ثابتاً منتشراً ومتناقلاً بين أيديهم، لا فرق بين حياة من بلغه أو موته. وهكذا بلغ ما بلغ حتى يومنا هذا. قالوا بلغ ما بلغ الليل والنهار!.

ثم إن الرسول ﷺ أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعدهم، وهو قد بلغ ما أنزل إليه، كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧].

وأمر أمته بأن يبلغ الشاهد الغائب وقال: (بلغوا عني ولو آية)، أي ولو لم يكن مع أحدكم سوى آية فليبلغها إلى من وراءه. فبلغوا كما أمرهم، وكانوا أحرص الناس على أداء الأمانات، فبلغوه إلينا كما هو، رضوان الله عليهم أجمعين.

ولا يوجد اليوم كتاب منزل من الكتب السابقة غير القرآن حظي بهذا التثبيت والضبط والدقة، ولا يوجد غيره ثبت وحفظ وسجل آية آية حين نزوله، وصدق الله العظيم إذ وعد بحفظه في قوله:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

ويذكر الأستاذ أحمد محمد شاكر في كتابه - الباعث الحقيق - ما يلي:

فالتوراة الموجودة الآن قد كتبت في السبي البابلي وهي تفتقد إلى سند الرواة، حيث يقف السند بالرواة إلى هلال وشمالي وشمعون ومرعقيبا

(١) المصدر السابق نفسه، ص: ١٥.

وأمثالهم، وبين موسى وبينهم عند كتابة التوراة أكثر من ألف وخمسمائة عام وهي بذلك لها قوة - الحديث المرسل أو المعضل ومقطوع السند - اهـ[(١)].

وجاء في فضائل القرآن: واليهود والنصارى مختلفون فيما بأيديهم من الكتب، فاليهود بأيديهم نسخة من التوراة، والسامرة يخالفونهم في ألفاظ كثيرة ومعاني أيضاً، وليس في توراة السامرة حروف الهمزة والهاء ولا الياء. والنصارى بأيديهم توراة يسمونها العتيقة (العهد القديم) وهي مخالفة لنسختي اليهود والسامرة. وأما الأناجيل التي بأيدي النصارى فأربعة: إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل متى، وإنجيل يوحنا وهي مختلفة أيضاً اختلافاً كثيراً. ويقول: ومضمونها سيرة عيسى عليه السلام وأيامه وأحكامه وكلامه، ومعه شيء قليل مما يدعونه أنه كلام الله، وهي مع هذا مختلفة كما قلنا، وكذلك التوراة مع ما فيها من التحريف والتبديل، ثم هما منسوختان بعد ذلك بهذه الشريعة المحمدية المطهرة. اهـ[(٢)].

وأحدث الأناجيل كتابة هو إنجيل يوحنا وقد كتب بعد ارتقاء المسيح بستين سنة وكاتبه غير معروف. وكذلك بقية الأناجيل فكتابها ليسوا شهود عيان، ولم تكتب وقت النزول، وجاءت فيها الاختلافات واضحة، ثم إنها بقيت عرضة للتبديل والتحديث من قبل الكنيسة.

يقول البروفسور الفرنسي موريس بوكاي عن صحة القرآن ما يلي:

صحة القرآن التي لا تقبل الجدل، تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد، لسبب بسيط أن القرآن قد ثبت في عصر النبي ﷺ، ولم يتعرض لأي

---

(١) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، ص: ١٥٠، طبعة /٣، مكتبة محمد علي صبيح.

(٢) فضائل القرآن لابن كثير، ص: ١٩، طبعة /٤، ١٩٧٩ دار الأندلس.

تحريف من يوم أنزل على الرسول ﷺ حتى يومنا هذا. أما فيما يخص العهد القديم فإن تعدد كتابة الرواية نفسها بالإضافة إلى تعدد المراجعات لبعض الكتب على فترات قبل العصر المسيحي هو من أسباب الخطأ والتناقض. وأما فيما يخص الأناجيل فلا يستطيع أحد أن يجزم بأنها تحتوي دائماً على رواية أمينة لرسالة السيد المسيح، أو على رواية لأعماله تتفق بدقة تامة مع الواقع. إن عمليات التحرير المتوالية تبين كما رأينا افتقار هذه النصوص إلى الصحة وزيادة على ذلك فليس كتاب هذه النصوص شهود عيان. اهـ[1].

إذن فلا يوجد على الأرض اليوم من تنزيل الوحي الإلهي محفوظاً بالنص غير القرآن الكريم، الذي ثبت كتابة ونقلًا وتواتراً في قلوب المؤمنين من أول نزوله إلى يومنا هذا، ولم يتبدل ولم يتغير بحرف واحد، وتلاوته مستمرة ليلًا ونهاراً وله حفظة وحملة في كل العصور والأمصار:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف: ٢٧].

وهذا هو حفظ الله الذي وعد به كما قلنا في قوله سبحانه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

ب ـ إعجاز القرآن

والقرآن كتاب محكم أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، لا تعارض في آياته، يشد بعضه بعضاً، لا اختلاف فيه ولا تناقض:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) انظر كتابه (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم) ص: ١٥٨ الطبعة الأولى ١٩٩٦ - مكتبة مدبولي.

يصفه رسول الله ﷺ ويرغب بتلاوته في حديثه التالي:

«إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول لكم الم حرف ولكن ألف ولام وميم»(١).

ووصف في حديث آخر بسند عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ، قال:

«إنها ستكون فتنة فقلت فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم لما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١، ٢] من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»(٢).

والقرآن العظيم هو معجزة نبينا محمد ﷺ، فكل نبي آتاه الله آية أو معجزة خاصة تخالف السنن الكونية وتؤيد صحة رسالته على قومه

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم انظر فضائل القرآن لابن كثير، ص: ١٠، ط/٤، دار الأندلس ١٩٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي: ٢٨٣١.

وتمنعهم من تكذيبها. ولكن تكذيب الناس للآيات كان جارياً رغم ذلك، قال سبحانه:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩﴾ [الإسراء: ٥٩].

لذلك اختص الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ بمعجزة عقلية حسية بيانية فريدة، هي هذا القرآن الذي ينزل على القلوب كالماء البارد فيملكها ويطغى عليها، ويملؤها هدى ونوراً وحكمة، ويمنحها حلاوة وشفاءً، وفيه من قوة القول الفصل، وسحر البيان، وفصاحة اللسان، ودقة المعنى، وإصابة القصد، وعلم الماضي والحاضر والمستقبل، ما عجز عن الإتيان بمثله عظماء العرب وفصحاؤهم في زمنهم. الزمن الذي ارتفع فيه شأن البيان، وعظمت عندهم مكانته حتى بلغوا بالفصاحة والشعر والمعاني والبيان مبلغاً عظيماً، وعقدت لهم المجتمعات والنوادي والأسواق وبرزت المعلقات لعظماء الشعراء! فعجزوا عن الإتيان بمثله وسحروا به وذاقوا حلاوته بمجرد سماعه. فهذا الوليد بن المغيرة يقول فيه: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة[١].

وقال عنه عتبة ابن ربيعة بعد مقابلته رسول الله ﷺ، وكان قد تلا عليه من أول سورة فصلت، قال: إني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة[٢].

وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، وهم يناجزونه مدة ثلاث وعشرين سنة، وأمره في تعاظم، ودعوته في انتشار وبقوا على عجزهم إلى

(١) سيرة ابن هشام، ص: ١٧٥، ج:١، الناشر مكتبة محمد علي صبيح بمصر ١٩٦٣م.
(٢) سيرة ابن هشام، ص: ١٩٠، ج:١، مكتبة محمد علي صبيح بمصر ١٩٦٣م.

يومنا هذا. وإن المعجزة قائمة إلى يوم القيامة، فقد أعلمهم سبحانه بأنه ممتنع عليهم حتى لو أعانتهم الجن على ذلك:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولما طالبوا بالمعجزات كان الجواب أن المعجزة في هذا الكتاب:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

وإضافة إلى ما للرسول ﷺ من معجزات كثيرة، إلا أنه يؤكد أيضاً أن معجزته الكبرى هو هذا القرآن:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ القِيَامَةِ»**(١).

ج ـ من وجوه الإعجاز في القرآن:

١ ـ تحقيق صدق الوعد بالنصر والظهور والفتوح للمسلمين.

وهذه منها ما وعد الله رسوله بالنصر وإظهار دينه على سائر الديانات:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ...﴾ [التوبة: ٣٣].

وتأكد ذلك بإظهار عظيم.

(١) أخرجه البخاري: ٤٥٩٨.

وما وعده بالنصر وفتوح البلدان: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عِمران: ١٢].

ووعده في أهل بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ...﴾ [الأنفَال: ٧].

وصدق في ذلك ووعده بالغنائم الكثيرة، وأن الروم لما غلبت في أدنى الأرض وعد بأنها ستغلب في بضع سنين وتحقق ذلك، ووعدهم بفتح مكة: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ...﴾ [الفَتح: ٢٧] وتم ذلك عام الفتح بالنصر المؤزر.

٢ ـ صحة وصدق النص الإلهي وإعجازه يتبين من ظهور التوافق في الآيات مع بعضها وتصديق بعضها بعضاً دون أي تناقض أو اختلاف، وظهور عجائب البلاغة في الكلام، والحكمة في ترابط المعاني وتماسك الألفاظ، والدقة في إصابة القصد. وكلما ازدادت دراستها وتدبرها ظهرت لذوي الاختصاص عجائب العلم، والصياغة المتقنة ورصانة التعبير في تحقيق الهدف المقصود، والتي لا يمكن تبديل كلمة واحدة منها وصدق الله ﴿... لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ...﴾ [يُونس: ٦٤].

ولو كان من عند غير الله لظهر فيه الاختلافات الكثيرة والتناقضات، كما وجدت في غيره من الكتب الفاقدة لنص التنزيل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّساء: ٨٢].

وهو الذي لا يتطرق إليه شك ولا يصل غليه نقص ولا يلج عليه باطل: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصّلَت: ٤٢].

٣ ـ ومن إعجازه أنه لا يخلق من كثرة الرد، فمهما تكررت قراءته لا يصيب قارئه الملل ولا يناله السأم. ولا يوجد كتاب يتلى بهذا التكرار

بالليل والنهار ويزداد تاليه رغبة ومحبة له ويزداد في نفسه حسناً وجمالًا، إلا القرآن فإنه كلما ازدادت تلاوته، وجد من يتلوه حلاوة في قلبه وحباً له وإجلالًا، ووجد في صدره هدى وشفاءً وبرداً وسلاماً.

٤ - ومن إعجازه، إخباره عن علوم ومسائل غيبية، لا علم لأحد من البشر بها وهي مما استأثر الله بعلمها وحده ولا يعلم كنهها إلا الله، ولا سبيل للبشر إلى إدراكها أو معرفة شيء منها، وأسرارها من علم الله. ولا يسأل الإنسان عنها، إنما يؤمن بها كما جاءت ويكل علمها إلى الله. وهي كمعرفة كنه الروح، أو كيفية النفخ في الصور، ووقت قيام الساعة، والسر في خلق السموات والأرض وفناءهما، وكيف خلق الله آدم بيده، وكيف كتب التوراة بيده، وكيف يجيء ربك يوم الحساب، كل ذلك غيب لا على ما تفهمه عقولنا القاصرة. فالله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، يسمع كل شيء في آن واحد، ويبصر كل شيء ويحاسب كل الناس في آن واحد:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨] ولكن لا شبيه له بذلك، كما قال العلماء في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] قالوا الاستواء معلوم والكيف مجهول لا يعلمه إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا.

٥ - النظم البديع والتأليف المحكم وحلاوة الكلام ونفوذه إلى القلوب والأفهام، وارتفاعه بمستو واحد لا يتفاوت ولا يتباين مهما تنقل في الكلام من الأحكام والبيان إلى الأمر والنهي، أو إلى الأخبار والقصص وغيرهما بما يخرج عن المعهود من أساليب الكلام عند العرب، وبما يعجز عنه أهل البلاغة والفصاحة والشعر والبيان.

ويعجزون أن يجدوا ثغرة واحدة في هذه الأصول. وشرح ذلك يطول وللوقوف على هذه التفاصيل يحسن مراجعة كتاب إعجاز القرآن للباقلاني فهو من خير ما أُلِّفَ في هذا الموضوع.

٦ ـ إخباره بأحداث وقصص الأقدمين، وكون النبي ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فلم يكن يعلم شيئاً من كتب الأقدمين ولا درس أقاصيصهم وسير تاريخهم. كما لم يكن درس علم النفس أو الفلك أو السياسة والطب والتاريخ. فأتى بجملة ما وقع من عظائم الأمور، وحوادث السير، من قصة خلق آدم إلى قصة نوح وإبراهيم إلى سائر الأنبياء المذكورين في القرآن، والملوك والفراعنة الذين في زمنهم، وما وقع لهم بما يصدق بها قصصهم في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل. ولقد كانت حياته قبل البعثة وبعدها معروفة لدى معاصريه من العرب وغيرهم، ومحط مراقبة لحركاته وتنقلاته، فلم يلبث لديهم تردده إلى معلمين أو إلى قسيسين أو رهبان ليتعلم منهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

وقد سبق به فصحاء العرب - وكما هو معلوم - هو أمي لا يقرأ ولا يكتب بحكمة من الله، وليقطع عنه اتهامات المبطلين:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩].

٧ ـ قوة الحقيقة التي لا تتغير مهما تقدم الإنسان في العلم.

وهي قوة الحق والقول الفصل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥]. جاء بصيغته في القرآن

بشكل يفهمه الأعرابي البدوي، فيتعظ به وينبهر به، ويأخذه المتعلم والدارس فيذكي عنده العبرة والموعظة. ويدرسه العلماء فيندهشوا لما فيه من خفايا العلم ودقة التعبير والقصد في الحقائق الكونية وأسرار الخلق، ويبقى هو المثل الأعلى والسابق في كل العلوم. ولا عجب فهو قول الخالق الذي يعلم سر الخلق:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤].

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفُرقان: ٦].

وهنا نأتي بمثل واحد للدلالة على ما نقول، لأن ما سيأتي في الكتاب يغني عن ذلك. فقد قال سبحانه:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

ومن يتفكر في سعتها وفي عظمتها يحدث عنده التأثير والخشوع كلما تأمل في السماء ونظر إلى سعتها وعلوها الذي لا يرام.

واليوم إن من أعظم اكتشافات الإنسان في الفضاء معرفته بأن أجرام السماء (المجرات الصغيرة) في تباعد مستمر بعضها عن بعض، وبسرعة تصل بعضها إلى سرعة الضوء، وأن السماء في توسع عظيم! ترى إلى أي أبعاد توسعت في هذا الزمن الطويل وبهذه السرعة المتناهية؟ سبحان الله، وهنا تظهر قوة وعظمة لمن لم يتفكر فيها، فقد توضح بعض المعنى للآية أكثر، وقوة الحقيقة القرآنية باقية لا تتغير على مدى الدهر. وهكذا القرآن في كل حقائقه لا تنقضي عجائبه.

٨ ـ ما يأتي الزمن بتأويله.

أخبر القرآن الكريم بحوادث مستقبلية تظهر في هذا الكون وفي آخر

الزمن. والتأويل هو ما قد يظهر من المعاني والحوادث الخفية المحتملة في مقاصد الآيات وكيف سيكون وقوعها وتفصيله على الحقيقة. إن من ذلك ما وعد به سبحانه من أنه سيري البشر بعض آياته فيعرفوها ويفهموا تأويلها بعد أن يروا آياتها، وذلك بأن يمكن الإنسان من التعرف على بدائع صنعه وآياته في الآفاق، وفي الخلق والإحياء، وسيأتي تفصيل أمثلة كثيرة منها لاحقاً في هذا المسلسل بإذن الله.

وهو ما وصل علم الإنسان إلى بعضه اليوم وما سيبلغه غداً، ومنه ما سيظهر من الآيات الكونية عياناً لكل الناس دون جهد أو بحث علمي، قال سبحانه:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصّلت: ٥٣]. وقال سبحانه:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النّمل: ٩٣].

وهكذا أتى القرآن بمعلومات معجزة، وبحقائق كونية لم يكن الناس يعرفون شيئاً منها في زمنهم، فقلب بذلك المفاهيم الخاطئة السائدة في حينها، وأتي بحقائق أشار إليها بطريقة تدعو إلى أعمال الفكر التدبر، فتجذب إليها حس الأعرابي الجاهل، والفلكي الدارس، والعبقري الذكي، والقارئ المتعلم، وعرضها بطريقة بليغة محكة تطرق حقيقتها في أصلها ولا يضيع ولا يتغير مؤداها مهما تطور الناس وتقدموا في العلوم. بل إنها تقرر الحقائق وتسبق أحدث العلوم في زمننا. وليس ذلك في علم الفلك والفضاء فحسب، وإنما في علوم الخلق والأحياء، ودقائق الطب، وعلوم الأرض والمعادن وعلوم الاجتماع والتشريع المفصل الحكيم، وإنشاء الأمة الحية الخيرة العادلة والصالحة لإعمار الأرض. ولا يمكن أن يكتشف أحد هذه العلوم في ذلك الوقت إلا بوحي من الله!

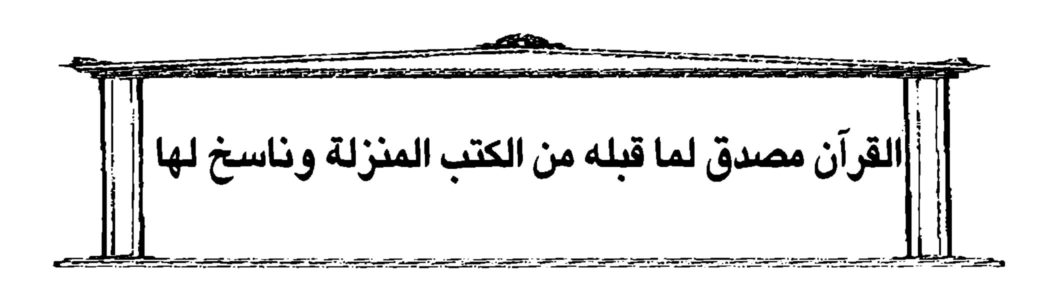
كما أخبر بالعلوم الغيبية في الحياة الآخرة من الوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين، وصور المصير الأخير للإنسان، بما يصدق ما جاء به المرسلون قبله.

فجاء بالدعوة نفسها التي دعا بها الأنبياء قبله، وبالخط المستقيم نفسه المؤدي إلى عبادة الله وتوحيده واتباع منهجه، مما يؤيد أن الدين واحد:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢].



الفصل السادس



القرآن مصدق لما قبله من الكتب المنزلة وناسخ لها

قال تعالى:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ. . .﴾ [آل عِمران: ٣، ٤].

والفرقان هو القرآن الذي أنزله الله مصدقاً لما قبله من الكتب المنزلة من التوراة والإنجيل. فلأن أساس الدين واحد نزل من إله واحد لذلك نرى القرآن متفقاً مع التوراة والإنجيل في الأصول العامة وفي قواعد الدين الأساسية التي أرادها الله نظاماً وطريقاً مستقيماً لسلوك البشر، وهدى ونوراً لهم في هذه الحياة القصيرة على الأرض. وهذا الهدى هو هدى الله في كتبه المنزلة، وهكذا وصفها سبحانه إذ يقول عن التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، ويقول عن الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

ويقول سبحانه في القرآن: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ

مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: ١٧٤].

ويقول أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

وهذا الهدى إنما هو ختام وعد الله الذي وعد به آدم وبنيه وبشرهم عند اتباعهم له بالأمن والسرور:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف: ٣٥].

أوجه التصديق:

جاء القرآن مؤيداً ومصدقاً للتوراة والإنجيل، وهما أتم وأشمل ما أنزل من الكتب قبل القرآن. فنرى مثلًا تصديقه لمبادئ الدين العامة لأهل الكتاب كما يلي:

١ - في العبادات: شمول أعمال الصلاة والصدقة (الزكاة) والصيام والحج وذكر الله ومخافته.

٢ - في تزكية النفس: الصدق والأمانة والإخلاص والوفاء بالعهد والوفاء بالكيل والميزان وغض البصر وترك الخداع والدناءة.

٣ - في المحرمات: تحريم قتل النفس بغير الحق، وتحريم الزنا وشرب الخمر وأكل مال اليتيم وقول الزور.

٤ - في البر والإحسان: التسامح مع المخطئ، والعفو عن المذنب، وإيثار الغير، وبر الأبوين، واحترام الكبير والعطف على الصغير ومساعدة الضعيف والمحتاج ورحمة المصاب.. الخ.

٥ - في قصص الأنبياء وأخبار السابقين من الأمم البائدة:

نرى التوافق في قصص الأنبياء والرسل نفسها وبنفس أسمائهم، وما حصل لهم مع أقوامهم والعبر المستخلصة من سيرهم.

٦ - في العقيدة: الاتفاق والإيمان بوحدانية الإله خالق السموات والأرض، وفي وحدة الخلق وقدرة الله سبحانه وأسمائه الحسنى، وفي عموم الفكرة عن الكون والحياة الآخرة والإنسان وما ينتظره من جزاء في جنة أو نار، والإيمان بوجود الملائكة والشيطان عدو الله وعدو الإنسان.

٧ - أصل التنزيل: الاتفاق بأن أصل هذا الهدى نزل من عند الله على الرسل، وليس باجتهاد أحد من البشر، أو بالبحث العلمي والاستنتاج، ولا بسن قوانين من صنع البشر أنفسهم.

وهذا كله ثابت في أصل الديانات السماوية الثلاث، المصدقة كل لسابقتها، وما تختلف إلا في الشرعة التي تحوي الأحكام والمعاملات الخاصة وطرائق المناسك ومنهاج العبادات:

﴿... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا...﴾ [المائدة: ٤٨].

وأما ما حصل من تغيير وتحريف لهذه الأصول، فهو مما استحدثه البشر، وما ابتدعته شياطين الإنس والجن من ضلالات وزيغ وفساد للدين حتى يخرج عن حقيقته وتضيع أصوله.

أليس فيما ذكرناه من الاتفاق في أصل الديانات السماوية وهذا التصديق بينها دليلًا كافياً على صحة هذه الأصول:

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٧].

أي أن ما جاء فيه مذكور في أصل دينهم، وتتجلى الموافقات في أصل هذه الديانات من أسمائها ومعانيها:

فالنصارى هم أنصار الله كما يؤيد ذلك القرآن وهكذا هم المؤمنون وهذه حقيقة قائمة من مبادئ الإسلام.

واليهود (الذين هادوا) أي عادوا وأنابوا إلى ربهم وهذه أيضاً حقيقة من مبادئ الإسلام.

والمسلمون هم الذين أسلموا إلى ربهم ويجمعوا بإسلامهم كل هذه المعاني.

فالاختلاف في الشرائع والمناسك، لتوافق المراحل التاريخية والبيئية، إلا أن أصل الدين واحد هو الإيمان بالله والإسلام له وعبادته وحده واتباع سبيله للاستقامة على الحق والعدل والخير.

موقف مؤمني أهل الكتاب من هذا التصديق:

لقد وجد مؤمنو أهل الكتاب في تصديق القرآن الكريم لما جاء في كتبهم، وجدوا في أنفسهم فرحاً عظيماً، وبشرى لهم وتثبيتاً لإيمانهم وبخاصة النصارى كما يقص عنهم القرآن:

﴿... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا

فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾. فبشرهم بالبشرى التالية:

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة: ٨٢-٨٥].

وهؤلاء هم وفد النجاشي ملك الحبشة من المسلمين إلا دليل آخر على مدى التعاطف بين المؤمنين من الديانتين. وحين تلو على مسامعه ما أنزل بحق عيسى ومريم أقر بأن هذا وما في الإنجيل لا يخرج إلا من مشكاة واحدة!

وجاء ثناء القرآن عليهم أيضاً في سورة القصص، وبأنهم يؤمنون بالآيات المنزلة كما قد آمنوا بها من قبل في الإنجيل، فبشرهم القرآن لهذا بمضاعفة الأجر:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٢-٥٥].

وهذه الأوصاف الأخيرة أثنى الله عليهم بها لتكون قدوة لكل المؤمنين.

وفي سورة الرعد أيضاً:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: ٣٦].

هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب أخذتهم دموع الفرح ودموع العبرة من

خشية الله حين سمعوا الآيات مصدقة لما عندهم في الإنجيل. وهذه الحال واضحة في الآيات التي حكاها عنهم القرآن الكريم.

أما غير المؤمنين من أهل الكتاب، فقد اتهموا الرسول ﷺ بأنه قد ألف قرآنه نقلًا عن التوراة والإنجيل، رغم أنه لم يقرأ ولم يكتب ولم يثبت أنه كان يتلقى علماً من أحد منهم، وفضلًا عن أن لغاتهم أعجمية وقرآنه عربي مبين عجزت عن الإتيان بمثله فصحاء العرب:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

الإسلام ينسخ ما قبله:

جاء الإسلام آخر الأديان السماوية وخاتماً لها وبعد أن أرست الأديان قبله تعاليم الله في البشرية في مختلف مراحلها، فلابد أن يكون ديناً شاملًا لها حاوياً ومهيمناً عليها فضلًا عن تصديقه لها:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المَائدة: ٤٨].

ولقد مرت مراحل تاريخية زاغ الناس فيها وتباعدوا عن الدين اليهودي وحرفوه وطمسوه مرات عديدة، وأحرق بختنصر وحده ما عندهم من نسخ التوراة وقتل وسبي اليهود، وتطاول عليهم العمر، واندرست وثائقهم، وخرجوا عن حقيقة دينهم، فجاءت المسيحية بعده مصححة وناسخة للدين اليهودي. وأصبح لزاماً على كل مؤمن بعد ظهور المسيح أن يؤمن به ويترك ما سواه، وهذا هو الحق والعدل والمنطق المرحلي التاريخي.

وكذلك عندما ابتعد الناس عن حقيقة الدين المسيحي الذي جاء به السيد المسيح وأصابه التغيير وصاروا إلى ما صار إليه اليهود قبل مجيء المسيح، جاء الدين الجديد الإسلام ليعيد الناس إلى الصراط المستقيم وإلى الهدى الذي يريده الله سبحانه للبشر. فجاء ديناً كاملاً شاملاً مصدقاً للتوراة والإنجيل ومهيمناً عليهما، وللناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨].

فجاء بذلك ناسخاً لما قبله من الأديان:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وهذا واضح من تعريف النسخ وهو صدور حكم جديد على أعقاب حكم قديم مختلف عنه وبينها فترة زمنية.

وجاء خاتماً لها حتى قيام الساعة، فقد اكتمل الدين بنزول الآية:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ . . .﴾ [المائدة: ٣].

وقال الرسول ﷺ:

«إنما بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع بين إصبعيه»[١].

محذراً من قربها وأنها مقترنة به وليس بينه وبينها نبي.

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه البخاري: ٦٠٢٤، وابن ماجة: ٤٠٣٠.



الفصل الأول: الله الخالق (جلَّ جلاله)

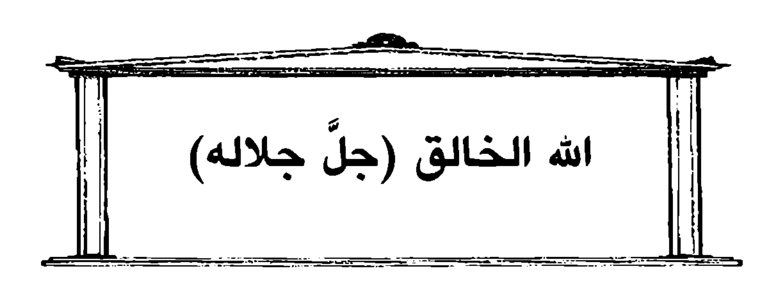
الفصل الثاني: خلق الإنسان

الفصل الثالث: الموت والبعث

الفصل الرابع: العبرة والعمل



الفصل الأول



دأب الجاحدون عبثاً على إنكار الخالق جلّ وعلا، وذهبوا يتخبطون في أوهام وضلال للبحث عن أسباب أخرى للحياة! فتارة يعزون الخلق على الطبيعة وتارة يعزونه إلى الصدفة، وتارة أخرى يعزونه إلى أن جرثومة أو خلية حيّة انفصلت من الفضاء تحت ظروف وقائية وسقطت على الأرض ثم تطورت منها الحياة!

ونظرية النشوء الذاتي أثبتت فشلها عقلًا، فالخلية إن لم تكن مخلوقة فلا تستطيع أن تخلق نفسها وهي لم تكن مخلوقة بعد، فهي غير موجودة أصلًا.. قال تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطُور: ٣٥].

وأما الصدفة في تأليف مواد كيميائية وتحت ظروف ملائمة، فقد أثبتت فشلها هي الأخرى بقوانين الصدفة وحسابات العلماء نفسها. فالجزيء البروتيني وهي المادة الأساسية في جميع الخلايا الحية، يتكون من ٤٠٠٠٠ أربعين ألف ذرة من عناصر هي الكاربون والأوكسجين والهيدروجين والنتروجين والكبريت. ولكي تتجمع هذه العناصر بالشكل المطلوب لتكوين جزيء واحد من البروتين، وجد أنها تحتاج إلى ما يلي:

١ - إن الفرصة لا تتهيأ لتكوين هذا الجزيء عن طريق المصادفة إلا بنسبة ١ : (١٠ مضروبة× نفسها ١٦٠ مرة)! وذلك بموجب حسابات العالم السويسري جارلس يوجين[١].

٢ - ينبغي أن تكون المادة اللازمة ليحدث فيها هذا التفاعل بالمصادفة أكثر مما تتسع له مادة الكون بملايين المرات (وهذا أيضاً ضرب من الخيال يدل على ضخامة الكمية فقط، فلا أحد إلا الله يعلم سعة ومادة هذا الكون).

٣ - ويحتاج تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة زمناً لا يحصى من بلايين السنين قدرها العالم السويسري المذكور آنفاً بأنها تساوي ١٠ أس ٢٤٣ أي (١٠ مضروبة× نفسها ٢٤٣مرة) من السنين.

٤ - إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، فكيف يمكن لهذه الجزيئات الكثيرة أن تتآلف بالشكل المطلوب لتكوين تركيبها الخاص؟ إنها إذا تآلفت بشكل مخالف لتركيبها، تصبح غير صالحة للحياة بل إنها قد تصبح سموماً. وقد حسب العالم الإنكليزي: ج. ب. ليثر الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة فوجد أن عددها يبلغ البلايين أيضاً، وهو ١٠ أس ٤٨ أي (١٠× في نفسها ٤٨ مرة) من طرق الاحتمالات بالصدفة مجتمعة لتكوين هذا الجزيء.

وعلى ذلك فإنه من المحال عقلًا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينياً واحداً، فكيف إذاً ومتى تتآلف ملايين ومليارات الجزيئات اللازمة لبناء حشرة صغيرة واحدة؟ إنه المستحيل. اهـ. قال تعالى:

---

(١) من كتاب: الله يتجلى في عصر العلم - ترجمة الدكتور الدمرداش ط/ ٣ مؤسسة الحلبي - القاهرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٦].

وقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحَج: ٧٣، ٧٤].

وأما الظن بأن جرثومة أو خلية حية انفصلت من الفضاء وسقطت على الأرض. فنقول لهم ما هي هذه الخلية وما تكوينها وما هي خصائصها، وبماذا كانت محاطة حتى تمكنت من حفظ نفسها من غوائل الفضاء ومن الحرارة الشديدة أو الإنجماد أو الإشعاعات المختلفة والظروف المميتة وأجواء البيئة المتقلبة شديدة التغيير؟ وكيف هي بتلك التكيفات وذلك الضعف، استطاعت أن تكيف نفسها على الأرض وتعيش ثم تنقسم وتتطور إلى مخلوقات مختلفة ذات أنظمة حصينة ومورثات خاصة بالنوع لا تقبل التبديل؟

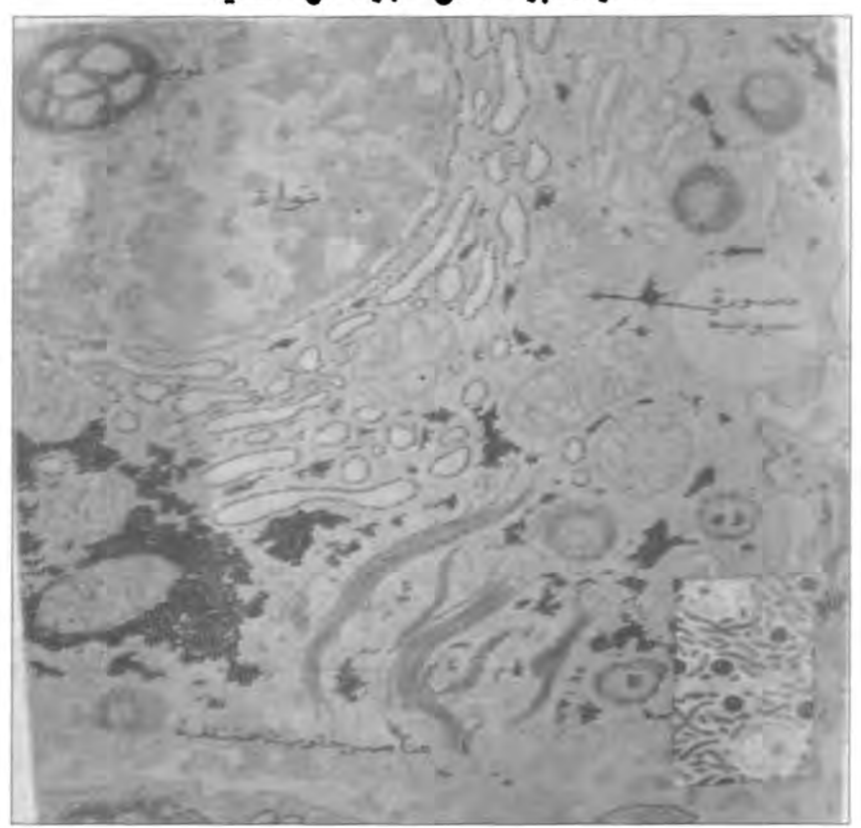
إن هذا الخيال ليس علماً، إنه محض ظن مريض من فكر ضال مجادل. فلو كانت السماء تمطر جراثيم وخلايا حية تصير في النهاية إلى بشر وحيوانات لامتلأت بهم الأرض منذ زمن بعيد!

الخلق بيد خالق:

وبهذه الإستحالات إذن لا يمكن أن يكون الخلق إلا عملًا بيد خالق مقتدر حكيم، وإلا أن يكون بأمر قادر مهيمن عليم، خلق المواد فأطاعت

أمره لما أراد أن يخلقها ويصورها ثم نفخ فيها من روحه فدبت بها الحياة. إن سر الحياة وسر الخلق ليس في صعوبة تجميع وتأليف المواد، إن سر الخلق أعظم من ذلك.





[عن كتاب: الطب محراب للإيمان، د. خالص كنجو]

ويتمم عالم الطبيعة البايولوجي فرانك ألن في معرض حديثه عن نشأة العالم، هل هو مصادفة أو عن قصد[1] فيقول:

ولكن البروتينات ليست إلا مواداً كيميائية عديمة الحياة. ولا تدب فيها

---

(١) المصدر السابق نفسه.

الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب (الروح) الذي لا نعلم من كنهه شيئاً. إنه العقل اللانهائي[1] وهو الله وحده الذي خلق ذلك الجزيء ليكون مستقراً للحياة، فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياة! اهـ.

والله سبحانه هو الخالق الذي خلق كل شيء بقدرته وحكمته واختياره، وصوره فأحسن صوره، وأحسن خلقه، وقدره لما هو له، وقدر له كل ظروفه الملائمة له.

والله سبحانه قد حثنا إن كنا في شك من هذا، على البحث والنظر والتفكر حتى يتبين لنا الحق:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠].

لكنه سبحانه قد كفانا برحمته مغبة الضلالة، وهدانا إلى الحق المبين، وإلى التفكير السليم، وإلى الصراط المستقيم وهو يقرر في كتابه الحكيم الذي آمنا به، حقائق الخلق وقدرة الخالق، فتدبر معي أخي القارئ ما يقول سبحانه وقوله الحق وله الملك في الآيات التالية:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦].

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزُّمر: ٦٢].

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السَّجدَة: ٧].

---

(١) لا يجوز إطلاق هذه الصفة عن الله ولا يوصف إلا بما وصف به نفسه في أسمائه الحسنى سبحانه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التغابن: ٣].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر: ١١].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧].

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

ومما يدحض هذه الحجج الواهية ما وجده العلماء في المخلوقات كافة (الجمادات والأحياء) من القصد الدقيق والإحكام المسبق والنظام

المحكم والسيطرة الثابتة، وأسباب الحفظ والحماية والرأفة واللطف، بحكمة بالغة وقدرة متناهية، وبما يدهش العقول ويحير الألباب. أليس يوحي ذلك كله إلى قدرة الصانع الحكيم، العليم القدير الذي هو على كل شيء شهيد، والذي هو على كل شيء شهيد، والذي هو على كل شيء حفيظ؟

بل لقد وجدوا أن كل شيء مخلوق بميزان ومقدار دقيق، لو نقص عنه أو تجاوزه لأحدث كارثة أو فساداً، كما أنه لا يمكن أن يستقر أو يستقيم بدون ذلك الميزان، يذكرنا به سبحانه لنتفكر:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ٨، ٩].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢].

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ١٩].

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٧].

فهل يمكن لهذا الخلق أن يكون صدفة عشوائية؟ أو أن يكون تلقائياً خالياً من كل تدبير وتقدير؟

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨].

إن الحق يظهر ظهور الشمس الواضحة، وإن الباطل يتخبط تخبط ممسوخ ولا حجة له:

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

فالخالق حق مبين وآثاره واضحة في الخلق، وتشهد ببديع صنعه كل المخلوقات وبما أحيطت به من القدرة والحكمة وإتقان الخلق. وهي عند من هدى الله أوضح من النهار.

حفظ النوع ونظرية داروين

باستعمال المجهر الإلكتروني والحاسبات الإلكترونية، استطاع العلماء اكتشاف وتمييز جزيئات من حامض ال- (دي. إن. أي) داخل كروموسومات الخلية ووجدوا بأن لكل نوع من أنواع الحيوان أو النبات ترتيباً جزيئياً محطماً من هذا الحامض، يختلف به عن النوع الآخر، بحيث يحدد مظهره وصفاته وعمله وخصائصه. وينتقل هذا التركيب من الآباء إلى الأبناء، فيحفظ بذلك استمرار النوع، فالإنسان يلد إنساناً مثله! وهكذا لكل المخلوقات من حيوان أو نبات.

هذا الاكتشاف أسقط نظرية داروين رأساً على عقب، واقتلعها من جذورها، ومحاها من كتب العلم. والصورتان التاليتان تعطيان بعضاً من فكرة هذا الاكتشاف:

لقد كشف للعلماء أيضاً أن الخلايا الجنسية للأنواع المختلفة في الحيوان والنبات على السواء، تحمل على أغشيتها أو جدرانها، جزيئات كيميائية منظمة بطريقة تهدي إليها خلايا الذكور من نوعها الخاص فقط!

فلو وضعنا في أنبوبة اختبار بويضات لنوع واحد من الخلايا ثم أضفنا إليها خلايا مذكرة من مختلف الأنواع، فإنها لا تتقبل إلا الخلايا التي هي من نوعها فقط. فيكون بينهما تجاذب وقبول خاص فينفتح لها باباً من جدارها حتى يتم الإخصاب، ثم يغلق الباب فوراً ويتكون جدار سميك ليمنع دخول أي خلية غريبة أو أي خلية أخرى.

إن هذا التدبير وهذا الحجر المحجور لا يمكن أن يكون اعتباطاً ولا عشوائياً، إنه من حكمة الباري وقدرته في حفظ النوع، وإلا لحدثت الفوضى في هذا العالم.

إن هذه الحقائق المكتشفة تدحض النظرية الداروينية البائسة التي تقول بتطور الإنسان من مخلوقات أخرى. إذ لم يثبت ولم يعقل أبداً أن مخلوقاً كالدجاجة مثلًا قد ولدت فأراً ولا زرع أحدهم يوماً رماناً فأنبتت برتقالًا، ولو مرت عليه آلاف السنين!

بل إن هناك تخصيصاً للفرد الواحد في النوع الواحد ويمكن به تمييزه عن غيره. فالموروثات الجينية للإنسان خاصة به، إلا أن هناك الحامض النووي لكل إنسان يميزه عن غيره، ثم إن هناك في كل إنسان أنسجة وخلايا في جلده وبنانه وعينيه ما لا يدل إلا عليه هو هو بنفسه! ويأتي يوم القيامة لا مثيل له تعرفه الملائكة من بين الملايين! إن وجود المخلوقات من أحط الأنواع إلى أرقاها، إنما هو مجرد التنوع في خلق الله الذي خلق الأنواع كلها، وهي التي اختلطت على عالمنا الشهير داروين. لكن الخالق سبحانه قد حفظ لكل نوع خصائص نوعه وصفاته:

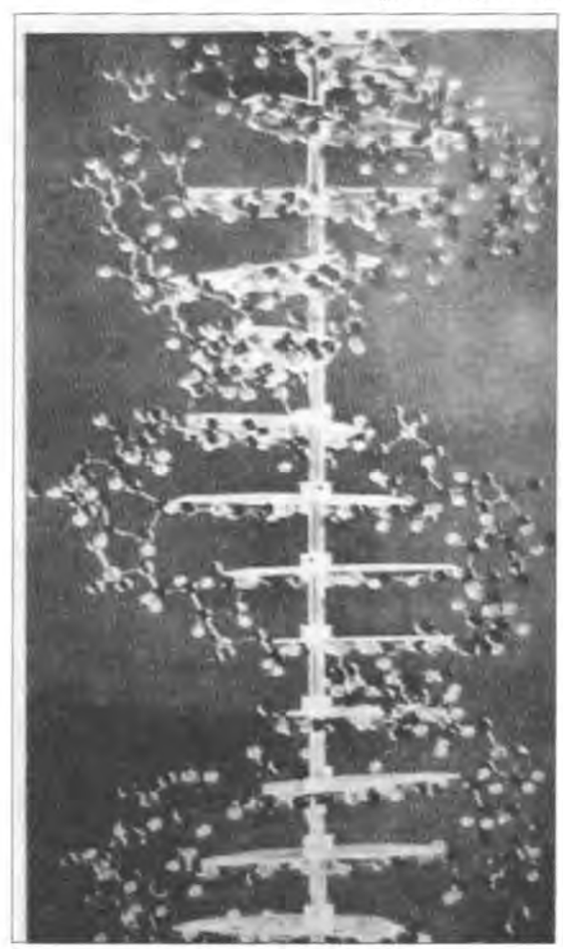
﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦].

لقد صنف داروين أنواعاً من المخلوقات من أدناها إلى أرقاها ونظر إلى التشابه الموجود بينها فادعى أن المخلوقات العليا قد تطورت من المخلوقات الدنيا. وهذه الفكرة مجرد ظن ووهم وضلال، أثبت العلم خطأها وأغلق عليها الباب. لكن إعادتها وإشغال العرب والمسلمين بها هو وسيلة تتخذها الدول المغرضة لتأخيرهم.

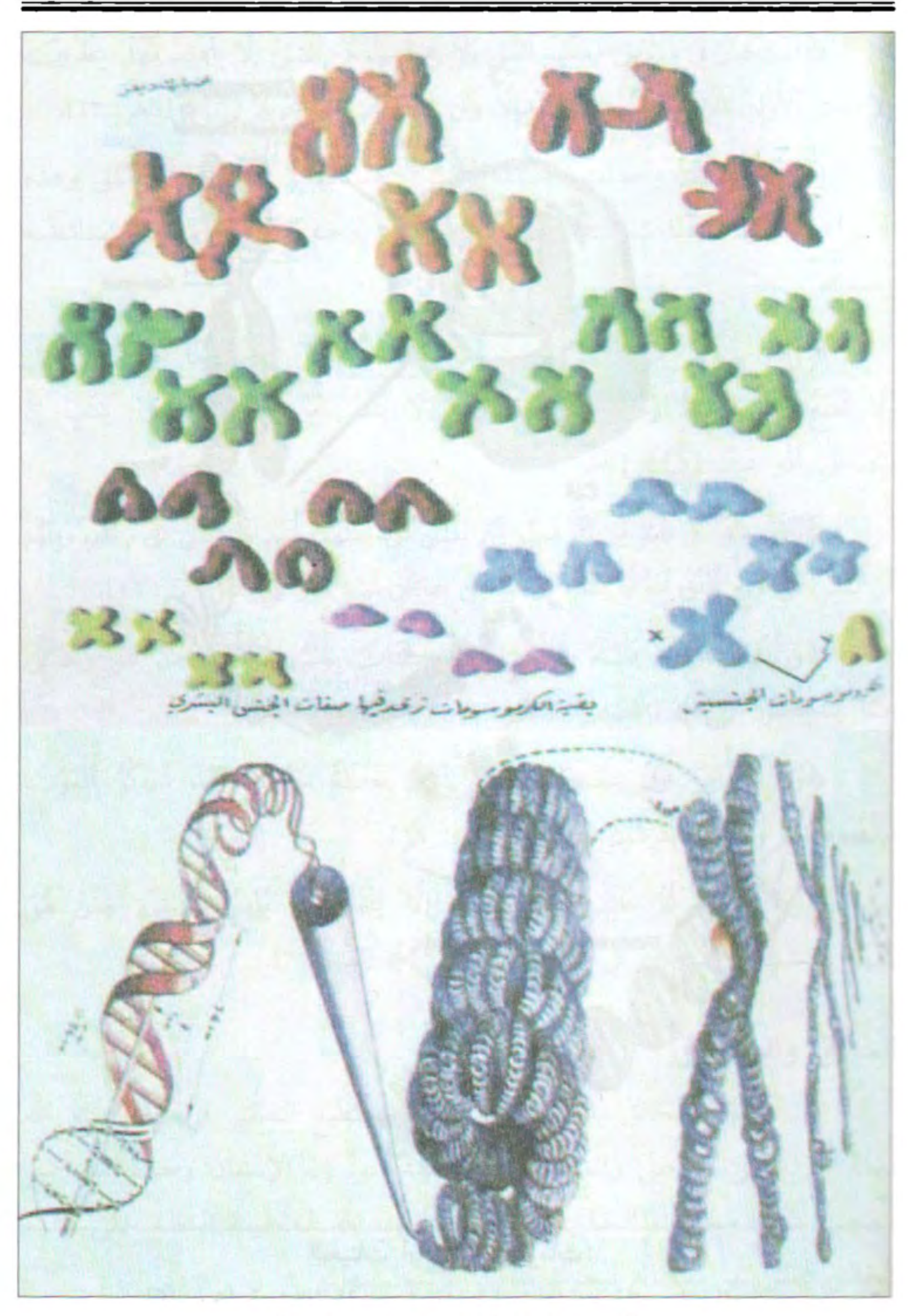
إنها فكرة خاطئة وهي خلاف الحقيقة والواقع وقد أبطل العلم هذا

الاتجاه الفاسد الخارج على العلم والدين، وأظهر بأنه لا يمكن لأية خلية أن تخلق صدفة، ولا أن تتحول المخلوقات من الأنواع الدنيا إلى الأنواع العليا، وأن كل شيء في الخلق يسير بسيطرة وقدرة مدبر وخالق عظيم.

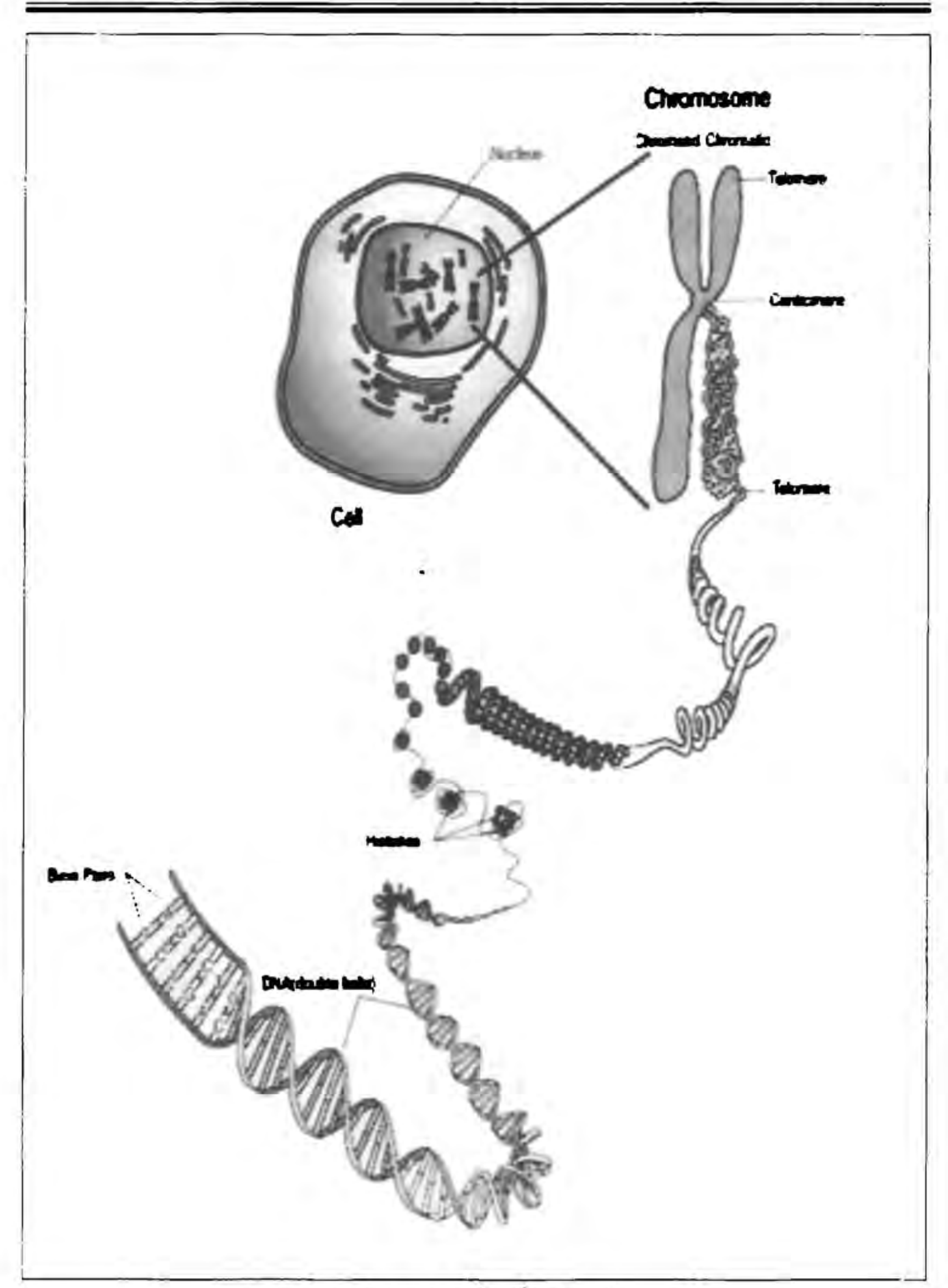
إن وحدة الخلق تدل على وحدة النظام ووحدة الخالق الممسك بهذا النظام الذي لا يتبدل ولا يتغير:



ترتيب الذرات في الجزيء البروتوني
تمثيل مقطع صغير من السلسلة الحلزونية
جزيء من حامض ال- (د.ن.أ) تتجمع فيه الذرات على هيئة الحلزون
[عن كتاب الأرض، لايف - المكتبة العلمية]



[عن كتاب: الطب محراب للإيمان]



الجينات أو الكروموسومات:

لكل مخلوق تخطيطاً جينياً خاصاً له نوعه وصفاته وخصائصه

[الصورة عن: ... <http://www.accessecllenc> www.accessecllenc]

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

وقد خلق منه وحدات مختلفة وأخرى متشابهة، وكل هذا الخلق وهذه الأنواع خلقها كما شاءت قدرته سبحانه، وحفظ لكل نوع خصائصه وصفاته:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر: ١١].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور: ٤٥].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨].

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١].

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: ٢١].

الخالق والمخلوق

إن الإيمان بالخالق يدرك بالعقل الذي يستطيع التفكير في آثار صنع الله فيما حوله من الأرض والسماء وفي نفسه هو. إن الإنسان وحده هو أكبر معجزة من معجزات الخلق، وآية من آيات الله العجيبة الدالة على قدرة الخالق يذكر بها سبحانه ليحرك تفكير الإنسان بها:

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ويدرك أيضاً بالروح وبالفطرة التي فطر الله الناس عليها، وجعل منها سبباً ورغبة واضحة مسيطرة تأخذنا حينما نلجأ إليه وحده عند المخاطر. ويدرك أيضاً بكافة أحاسيس الإنسان الذكية التي يهديه الله بها إليه سبحانه، وبمجرد ما أن ينظر إلى ما حوله من السماء والأرض، يحس المتأمل بأن نفسه تمتلئ بالإيمان.

يقول الأعرابي الساذج: إن الأثر يدل على المسير، وإن البعرة تدل على البعير، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا تدل على الحكيم الخبير؟

فانظر إلى سفاهة هؤلاء الذين يريدون أن يخضعوا الإيمان للتجربة والاختبار! وانظر إلى جهلهم وغرورهم حينما أرادوا أن يدرسوا كنه الروح بهذا المنظار..!

فهل طغت المادة حتى أصبحت كل العلوم مادية بحتة؟ وماذا يبقى من معنى الإيمان الذي سيعطي الله به أعظم الجزاء، ويضع أصحابه الذين وثقوا بربهم وآمنوا به وصدقوه، في أكرم مكانة وأعز مقام، إذا كان هذا الإيمان شيئاً مادياً يظهر لكل الناس بالتجربة المختبرية؟ فلا يبقى إذاً هناك ابتلاء ولا جزاء:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلك: ٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [هُود: ٧].

إن القوانين الفيزيائية والكيمائية وغيرها المكتشفة علمياً، والتي تبين

سلوك المواد وتصرفها وصفاتها، ليست هي القوى المسيطرة في هذا الكون، ولا هي التي تدبر أمره. إنها سنن الله التي أمضاها في خلقه وفي كونه، وهي لا تتبدل ولا تتغير إلا بمشيئته وحده:

﴿. . . فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

إنهم يخلطون بين قدرة الله وتدبيره وبين الله سبحانه، كالذي يرى القلم يكتب فيظن أن القلم هو الذي يكتب ويغفل عن الكاتب الذي يمسك القلم ويحركه بإرادته وعلمه ويكتب به ما يشاء. فهم يؤمنون بالجاذبية وينسون الذي وضع قوة الجاذبية ووضع بها هذا التوازن في الكون. فالله سبحانه خالق الجاذبية بين المواد والأجرام وواضعها وهو الممسك بها، والمواد والأجرام مخلوقة لا تخلق شيئاً، فهم تماماً كالمشركين الذين يدعون الأوثان ويعبدونها من دون الله:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

إن هذه القوى التي تمسك بنظام الكون ليست إلا مظاهر لقوة الخالق التي يمسك بها السماوات والأرض:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

إن الإنسان ظلوم جهول، والله بهذه القدرة وهذه الحكمة وهذا الحلم لا يرسلها لتزول، وهل أحد من بعده قادر على أن يمسكها إن هو أرسلها؟ لكنه حليم غفور لهذا الإنسان الضعيف، الذي لا يكاد يبين هو وأرضه التي

يقف عليها في كون الله العظيم! وهو على ضعفه يخاصم ويجادل في آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧].

فمن خلق هذه العناصر، ومن خلق لها خواصها الكيميائية، ومن خلق قوى التفاعل والجاذبية والكواكب والأجرام المشعة، ووضع لها هذا الميزان الدقيق فلا تتعدى مساراتها ولا تتعدى حدودها؟:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

الكل في حركة دائبة ومدارات دائمة كما هو مقرر لها من بارئها ومنشئها. من أعطى هذا الهواء مكوناته الغازية بالنسب الصالحة للحياة لا تتبدل ولا تتغير رغم تبدل الظروف والفعاليات الأرضية على مدار السنة؟ ولو كانت تغيراته عشوائية كما يظنون إذا لتسمم الخلق أجمعون ولماتوا اختناقاً. ومن علم هذه الحيوانات الأخرى والمخلوقات والطيور كيف تستفيد من محيطها وتعيش وتربي صغارها؟ ومن علم الصغار كيف تأوي وتتغذى من أمهاتها، ووضع في قلوبها جميعاً المحبة والرأفة والحنان؟ إنه الله الخالق العظيم، الرحمن الرحيم:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الأعلى: ١-٥].

أمثلة لا تحصى وآيات لا تنفد من صنع العليم القدير. فالعلماء

يدرسون آثار صنع الله فيندهشوا ويهتدوا بآياته، والجاهلون يجادلون في آيات الله، ويجادلون في الله وهو شديد المحال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرّعد: ١٢، ١٣].

فما لنا ولعلماء المادة والفلاسفة الضالين ومن تبعهم ودار في فلكهم.. إن الموضوع لا يتعدى كون هؤلاء رفضوا سيطرة أديانهم المتناقضة وأعرضوا عن الإيمان بالإسلام والقرآن، واستكبروا في أنفسهم، وعتوا عتواً كبيراً، لقد اغتروا بعلمهم وفرحوا به، وحسبوا أنهم قادرون على اكتشاف حقائق كل شيء، فوقعوا على غياهب الضلالة والتخبط، وظلموا أنفسهم وهذا منتهى الجهل والضلال:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٣-٨٥].

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القَصَص: ٥٠].

قدرة الخالق ووحدانيته:

إن عمل الخالق يحتاج إلى قدرة عظيمة، لا يملكها إلا الخالق العظيم، الذي خلق كل شيء، من أكبر المخلوقات إلى أصغرها، وهو بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء من خلقه حتى الذرة:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ٨، ٩].

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

كما أنه سبحانه ليست تمنع أمره حواجز الزمن والمادة والمسافات:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨].

ويبدأ الخلق ويعيده بلمح البصر وهو أهون عليه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠].

والقرآن العظيم يكاد مليئاً في موضوع الخلق وقدرة الخالق حتى يتعظ الإنسان ويؤمن بقدرة خالقه:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١١﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

إننا لا يسعنا إلا أن نقف خاشعين أمام قدرة الخالق العظيم كلما نظرنا في خلق أي مخلوق حيوانات كان أم نباتاً أم جماداً. إنها معجزة الخلق وقدرة الخالق.

فمن نطفة إذا تمنى (وتحوي القطرة منها ملايين النطف) يخلق منها إنساناً أو حيواناً كاملاً حياً قادراً سميعاً بصيراً! .

وفيما يلي صورة مكبرة بالمجهر الإلكتروني للنطف الإنسانية:

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩].

اللهم ربي أنت الخالق سبحانك!

﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠﴾ [الواقعة: ٦٠]

وإذا حدث الموت فمن ذا الذي يستطيع أن يعيد الحياة؟

﴿... فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١﴾ [الإسراء: ٥١].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

من عجائب أفريقيا أن شجرة عظيمة تبلغ بارتفاعها ألف قدم، وتنشأ لها قاعدة يزيد قطرها على خمسة أمتار، تخلق من بذرة مثل حبة الخردل، وفي هذه البذرة سر حياتها وصفاتها ونوعها، لذلك فهي لا تنبت إلا هذا

النوع من الأشجار! وإذا تم وحدث في هذه البذرة فساداً، فمن ذا يستطيع إحياء البذرة الميتة وإعادة إنباتها من جديد؟

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

اللهم ربي أنت الخالق الزارع تحيي وتميت وأنت على كل شيء قدير.

إن الله وحده هو القادر على الخلق، وهو الذي يهب سر الحياة وينفخ فيه الروح:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]

ولولا ذلك، لتعددت الآلهة والشركاء، فالله سبحانه يتحداهم بهذه المعجزة:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس: ٣٤].

ولتنازعت الآلهة في مخلوقاتها وملكها ولفسدت بذلك المخلوقات واختل النظام وخرب الكون!

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩٠-٩٢].

فالله سبحانه هو الخالق وحده، وهم لم يخلقوا من لا شيء. وليس لهم القدرة على خلق أي شيء:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢]

فوحدة الخلق تعني وحدة الخالق. وانتظام هذا الكون بتدبير سليم أمين

لا تضارب فيه ولا تصادم بين أنظمته ووحداته، ولا بين القوى المسيطرة فيه ولا تبديل في سنته ولا تحويل، ولا بغي ولا تجاوز، توحي بأنه ليس وراء هذا الأمر إلا مدبر واحد يهيمن عليه ويمسك بأجزائه، قد أحكم نظامه وسيره بأمره وحده، يتصرف فيه كيف يشاء، لا ينازعه فيه أحد، ولا يشاركه فيه أحد سبحانه، ولا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة ولا يعجزه فيه شيء:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عِمرَان: ٥].

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غَافر: ١٩].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝٤٤﴾ [فَاطِر: ٤٤].

وكل حركة وكل شيء له تأثير وتسجيل في كتاب الكون وفي كتاب الله وله حفظ في علم الله:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ [هُود: ٥٧].

وهو المهيمن المسيطر على كل شيء فيه، وهو الوحيد المدبر لهذا الكون، ووحدة هذا النظام دليل على وحدانية خالقه، فالتوحيد أساس هذا النظام، والعلماء الذين يبحثون ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، إنما يقرؤون فيه كتاب التوحيد!

إن التوحيد هو الركن الأول من أركان الإسلام وهو أساس نظرته العلمية. وشهادة التوحيد تتحقق في العلماء المؤمنين بها والذين يفهمونها عن علم، وهكذا كان الأمر بها:

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾ [محَمَّد: ١٩].

إن الكون في حقيقته مشهد ديني للعبادة، يتجلى فيه الواحد الأحد المتفرد بخلقه دون منازع، وكل صفحة من صفحاته تسبح بجلاله، وتفصح عن قدرته وسلطانه، وتنطق برحمته ولطفه، وتقر بأنها جزء من ملكه العظيم.

ويضيف الدكتور صلاح الدين بسيوني في كتابه (العلم في منظوره الإسلامي) فيقول: (يستتبع التوحيد إذاً عالماً واحداً وشريعة واحدة وحقيقة واحدة، ويترتب عليه قيام الوحدة المتوازنة للإنسان والمجتمع والبشر أجمعين. ويشترط لظهور العلم وتقدمه ونموه، الاعتقاد بوحدة الطبيعة وتجانسها واتساق قوانينها، وعدم تعرض هذه القوانين للتغيير أو التعديل. ويتطلب هذا الإيمان وجود عالم واحد لا عوالم متعددة، وإله واحد لا آلهة متعددة، فلو وجد عالمان أو أكثر لتميزت هذه العوالم بخضوعها لأكثر من إله، ولقوانين مختلفة متميزة. ولهذا فإن الاتساق في قوانين الطبيعة لا يتحقق ما لم تكن الطبيعة التي تعبر عنها هذه القوانين متسقة هي أيضاً، وملكاً لإله واحد). اهـ.

لقد عاد علماء الطبيعة والفلكيون، فاعترضوا بأن حقيقة الكون ليست مادة ميكانيكية، وإنما هي حقيقة فكرية وطبيعة عقلية. وإن الكون لا يقبل التفسير المادي، وإن خلقه كان عملًا فكرياً يقر انتظامه بهيمنة خالق واحد عليم قدير. وهكذا شهدوا على أنفسهم:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وبالمقابل فقد كان المؤمنون يقرؤون القرآن ويقرؤون به كتاب الكون ويمارسون بالعلم العبادة والتوحيد.



الفصل الثاني



خلق الإنسان من طين

جاء بنص القرآن الكريم، وفي الكتب المنزلة قبله أن الله سبحانه بدأ خلق الإنسان الأول (آدم) خلقاً مباشراً من طين (تراب وماء). ولما سواه وأكمل صورته في أحسن تقويم نفخ فيه من روحه، فصار إنساناً حياً، فأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لصنع الله وتكريماً لهذا الإنسان:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص: ٧١].

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦].

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرَّحمٰن: ١٤].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾ [الصَّافات: ١١].

والسلالة هي السلسلة المنتقاة من أنواع الطين، ففيها الطين اللازب (اللاصق) وهو الناعم جداً، وفيها الرمل الصلصال الذي يصل إذا نقر بعد فخره، وفيها الحمأ المسنون وهو الطين الأسود المنتن أو متغير الرائحة[١]. هذه هي مادة الإنسان الأول (آدم - أبو البشر). وقد كان خلقه على أجمل صورة وفي أحسن تقويم، وإن خلقه كان آية من الآيات الدالة على القدرة الإلهية المتفردة بالخلق:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السَّجدَة: ٧].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التغَابُن: ٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفُرقان: ٥٤].

خلق الزوجة والذرية

كذلك يقص القرآن والكتب المقدسة قبله، أن الله سبحانه بعد أن خلق آدم، خلق منه زوجه (حواء) بأن أخذ ضلعاً من أضلاعه، وخلق منه بقدرته على الخلق، هذه الزوجة الجميلة المكملة له ليكونا أصلًا للبشرية!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النِّساء: ١].

---

(١) تفسير الطبري - جامع البيان في تفسير القرآن.

فمن اتحاد نطفة الرجل والمرأة تنشأ الذرية بعد ذلك ويتم التكاثر:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩].

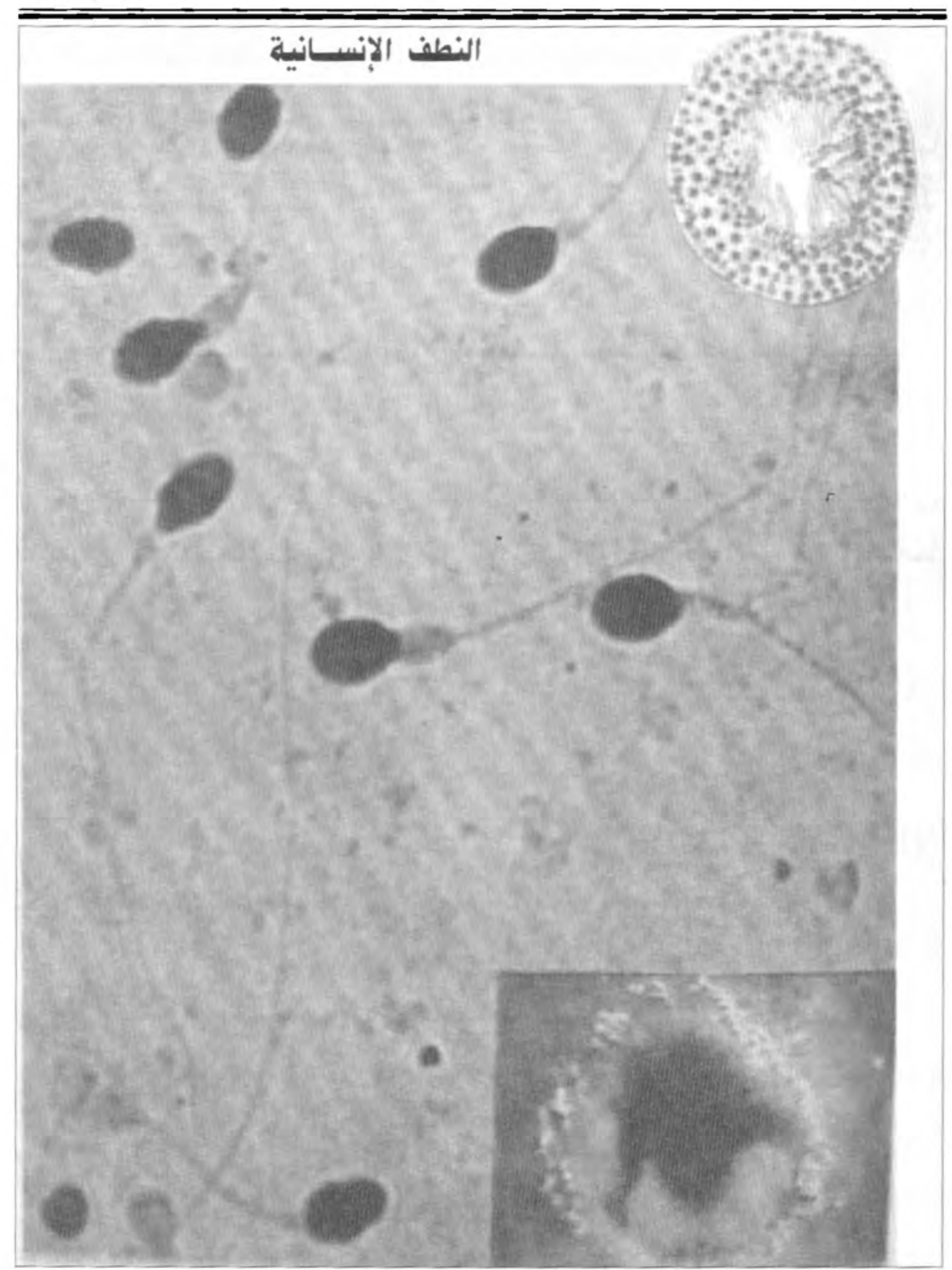
﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٨].

والمستقر هو رحم المرأة، تستقر فيه البويضة لتأتي إليها الحياة من المستودع وهو خصية الرجل. فالأصل كان نفساً واحدة ثم جعل في إحداهما المستقر وفي الأخرى المستودع، وهما المصدران اللذان تنشأ منهما الذرية:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥-٧].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].



منظر مكبر للحيوانات المنوية للإنسان
في الأعلى: مقطع في الأنبوب المنوي، في المركز: النطف،
في الأسفل: تسابق النطف للالتحام بالبويضة
[عن كتاب الطب محراب للإيمان - الجزء الثاني، د. خالص كنجو]

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة: ٣٧-٣٩].

هذا هو الحق في خلق الإنسان وذريته كما حكاه خالق الإنسان العليم به:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦].

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٩].

أما ما يقوله الجاحدون المجادلون فإنه لا يعدو إلا تخرصات وظنوناً لا أساس لها ولا دليل، فلم يتوصلوا في بحثهم وتخبطهم إلا إلى أوهام وسراب. فكل نظرية غير هذا الحق الذي جاء من عند الله الخالق العليم الخبير ﷻ، قد باءت بالفشل لأنها لا أساس لها من العلم، وإنما هي محض ظنون وأوهام وضلالة:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦﴾ [الأنعام: ١١٦].

يخرصون: أي يتمخضون عن كذب وظن.

لقد تبين بإثبات العلم نفسه، أن مكونات جسم الإنسان ما هي إلا ماء ومجموعة أملاح وهذه المركبات هي نفس المواد الموجودة في الطين. ولكن بدون أن تبتدرها يد الخالق، وما لم يأتها أمره فيحولها إلى مواد بروتينية مثل ما في الإنسان، فلا يمكن أن ينتج عنها خلق، ولم ولن يتكون منها جزيء بروتيني واحد حتى لو انتهى عمر الكون، كما سبق ورأينا في نظريتي الصدفة والنشوء الذاتي الباليتين. وحتى ولو تم واجتمع جدلًا (وهو من المستحيلات) وبعد مليارات السنين فهي ليست إلا مواداً ميتة قابلة للتفسخ

والفساد. بل إن الفساد يدب إليها وما أسرعه، كما يشاهد عند موت أي من الحيوانات.

إن العلم بمفهوم البشر اليوم خاضع للتبديل والتغيير بمرور الزمن. وكلما ظهرت نظريات جديدة أقرب إلى الحقيقة، ألغت سابقاتها، لأنها تتبع طريقة التجربة والخطأ في البحث عن الحقيقة. فهي لا تعلمها لأول وهلة ولكنها تتلمسها تلمس الأعمى، وهب أنها اكتشفتها، فهي لا تعلم منها إلا العلم الظاهري:

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

أما علم حقيقة الأشياء وكنهها وماهيتها فلا يصلون إليه ولم يجدوا له تفسيراً فهم حتى الآن لم يفهموا كيف يفكر الدماغ، ولا كيف تسمع الأذن، أو تبصر العين، ولا كيف يتم الإحساس إلا بالتفسير الظاهري، وأما الحقيقة فهيهات!

وأما علم الله وكلامه سبحانه فلا تبديل له ولا تغيير لأنه أصل الحقيقة:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١١٥﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ [الكهف: ٢٧].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: ٣٠].

وهو علم اليقين:

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٥-٧].

وما يقوله سبحانه هو حق اليقين، كقوله بعد وصف أهل الجنة وأهل النار:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة: ٩٥].

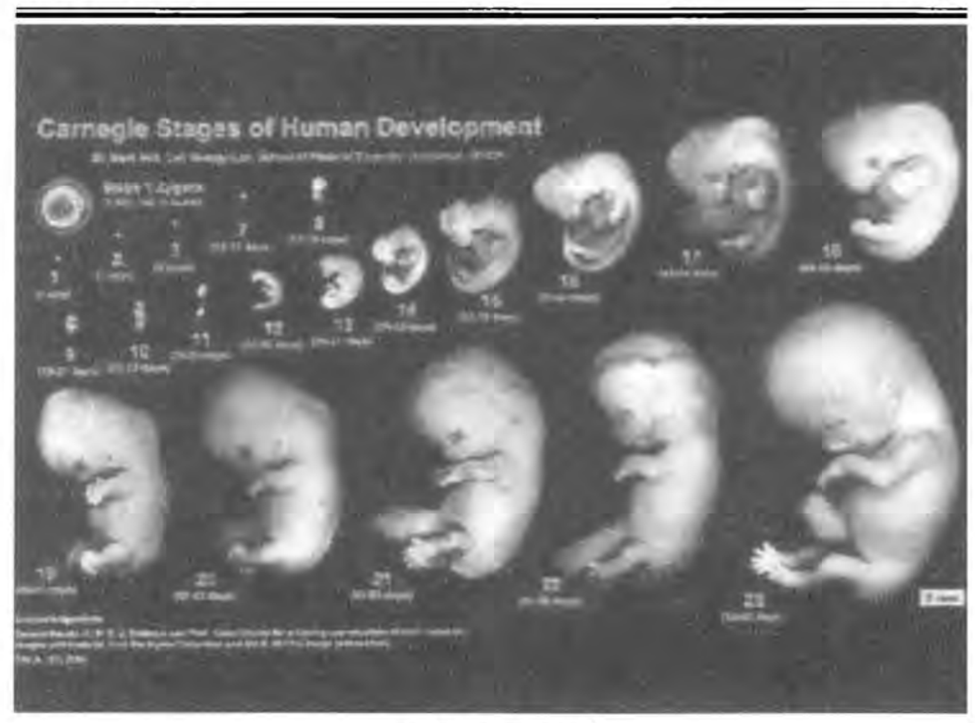
أطوار ومراحل خلق الإنسان

والله سبحانه يقص علينا بعلم مراحل خلق الإنسان من النطفة إلى العلقة إلى المضغة، ثم ينشز عظامه ثم يكسوها لحماً، وينشئ له السمع والبصر، وينميه حتى يستوي وينفخ فيه الروح، ثم يغذيه وهو في بطن أمه من دمها، إلى أن يخرج إنساناً كاملاً، طوراً من بعد طور، وخلقاً من بعد خلق:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ [الزُّمَر: ٦].

فسبحان الله من هذه النطفة التي لا ترى إلا بالمجهر، وبعد أن يتم التلقيح باندماجها بالبويضة، تنقسم وتنمو وتتحول إلى علقة، تعلق بجدار الرحم، ثم تنمو إلى مضغة (كقطعة لحم ممضوغة)، ثم ينشأ خلقاً آخر ويمكن في هذه المرحلة تمييزه عن غيره من الحيوانات، ويشق له السمع والبصر، فسبحان الخلاق العظيم! يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث... كيف؟ وبأي قدرة وعناية ولطف؟



أطوار خلق الإنسان

[الصورة عن: embryology med unsww edu au]

أم يقولون أنا قد اكتشفنا هورمونات خاصة، تحث الخلايا على إنشاء السمع وأخرى على شق البصر، خطوة خطوة ولكل خطوة هورمونها الخاص.. نقول نعم ولكن من أين هذه الهورمونات ومن وضع فيها هذا السر العظيم حتى تنمو وتتطور؟ ثم كيف تطورت العظام ونمت العضلات وتشعبت فيها الأعصاب والشرايين واكتملت أنواع العضلات؟ أم كيف خلقت بقية الأجهزة من قلب وكبد ورئتين ودماغ؟ ثم إن كل هذه الأجهزة ميتة بنفسها لا يحفظها إلا الحافظ الخالق:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ٦٤].

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١].

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرّعد: ١١].

ولا يقيمها إلا ما جعل الله لها من غذاء الأم، ومن عصارة دمها، لا تفتأ تغذيها حتى ولو إلى الرمق الأخير، وبذلك نالت الأم الحق الأول في الأسرة. ولا تبدأ بالاستقلال عن الأم وتبدأ العمل بنفسها إلا بعد نفخ الروح. فيقوم القلب عندئذ بالنبض وهي علامة نفخ الروح في الجنين. يقوم بالنفخ بأمر الله ملك موكل به. ولكن ما هي الروح؟ لا نعلم إلا مظاهرها من الحركة والحياة، ولا أحد يعلم كنهها وسرها إلا الله خالقها:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسرَاء: ٨٥].

إن مراحل تخلق الإنسان قد أولاها المختصون والأطباء التفصيل الدقيق وأفردوا لها الكتب والمجلدات. نذكر لمن يحب الاستئناس ببعض تفاصيلها والوقوف على عجائبها في ضوء آيات القرآن الكريم مراجعة:

كتاب الطب محراب للإيمان. . . . . للدكتور خالص جلبي كنجو

وكتاب الإعجاز الطبي في القرآن. . . . . . . للدكتور السيد الجميلي

والمجلات والكتب الطبية الأجنبية. . . . .

ومنها يتبين بعض ما جاء بآيات الله من دقة وحكمة تضع الدرر المضيئة في مراحل هذا العلم ليهتدي الإنسان بآيات ربه ويعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله أحاط بكل شيء علماً.

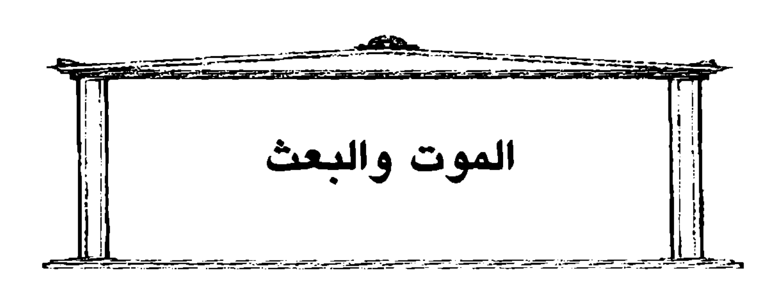
إننا نؤمن إيماناً جازماً بالحق الذي جاء من عند الله، مهما تقلب الإنسان في العلم، ضل في تخبطه أو اهتدى، لأن علمه ليس هو العلم الحق الثابت المنتهي إلى الله تعالى، وإنما هو تجارب الإنسان وتعلمه واكتشافاته الخاضعة للتجربة والخطأ! وهو لا يقاس بشيء إزاء علم الله.

إننا آمنا قبل ذلك بأن القرآن الكريم وكل ما جاء فيه هو الحق من ربنا وهو كلامه الأزلي وفيه من نور العلم ما يهدينا إلى ما ينفعنا ويصلح أمرنا في حياتنا الدنيا والآخرة. وها هم علماء اليوم يعودون ليثبتوا صحة الدين وما جاء في الكتب المنزلة، بعد أن أطلعهم الله على بعض آياته وقدرته وعجيب صنعه، فوقفوا أمامها خاشعين عاجزين ناطقين بكلمات الإيمان. وهذا بعض ما أخبر به الله في كتاب المجيد:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٥٣].



الفصل الثالث



الموت والبعث

قضاء الموت

هكذا قضى الله سبحانه بأن يحيا الإنسان مدة ابتلاء وامتحان على هذه الأرض محددة بأجل ينقضي بالموت لكل إنسان حال انتهاء أجله:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلك: ٢] وبعد الموت يبعثه الله سبحانه ليوم البعث والحساب:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٦].

فالموت قضاء من الله قاله سبحانه في قصة سليمان:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سَبَإ: ١٤].

وكما كان نفخ الروح سراً من أسرار الحياة، فكذلك الموت سر من أسرارها، لا يحس به إلا الذي يذوق الموت نفسه. وبخروج الروح من

البدن يتوقف البدن عن العلم وتبدأ عوامل الفساد والتفسخ تدب فيه حتى يعود إلى تراب كما بدأ من التراب. وهكذا هي دورة الحياة!

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥].

ومن رحمته سبحانه جعل أجل الموت سراً، لتستقيم الحياة ويستمر الإمتحان، وجعله نذيراً للإنسان حتى يراجع سيرته، ويجدد حياته، ويعد نفسه ليوم الحساب، مغتنماً فرصة حياته. فإن الأجل إذا جاء لا يؤخر ولا يعاد أبداً:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح: ٤].

وجعل إعادة الروح علامة على قدرته، وتحدى بها سبحانه المنكرين والمكذبين:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٨].

فظهر عجزهم التام عن دفع الموت أو إعادة الحياة، وتحداهم إذا حضر الموت أن يرجعوا الروح ويمنعوها من الخروج إن كانوا قادرين:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧].

وأنى لهم أن يرجعوها وهم لا يرونها ولا يلمسوها، وكيف يقوون على منعها، وهم لا يعلمون ما هي أساساً؟

إنكار البعث

ويرى الإنسان ابتداء الحياة ويرى انتهاءها بالموت فيؤمن بهما لأنه يراهما، ولكنه ينكر البعث لأنه لا يراه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هُود: ٧].

ويؤكده له سبحانه في كتابه الكريم:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾ [النحل: ٣٨].

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

ثم يحاجه بأن الذي خلقه أول مرة هو القادر على إعادته بعد أن أصبح رفاتاً وتراباً كما كان أول مرة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج: ٥].

وإن لم تكونوا تراباً، فكونوا ما تكونون، فالله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض قادر على إعادة خلقكم وجمعكم من تخوم الكون وإحيائكم من جديد:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].

يذكرهم بهذا وبقدرته وتصرفه في خلقه وملكوته:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٨-٨٣].

ويذكر الله سبحانه هذا الإنسان بخلقه الأول ولم يكن بعد شيئاً:

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

كذلك ذكر الله نبيه زكريا حين تعجب كيف يبشره الله بغلام بينما امرأته كانت عاقراً:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٨، ٩].

وبنفس الغفلة ولنفس الظروف تعجبت سارة امرأة إبراهيم خليل الله:

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هُود: ٧٢] فأجابتها الملائكة:

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هُود: ٧٣].

أي أن القدرة على خلق الروح هي من أمر الله... أتعجبين من أمر الله وأنتم أهل بيت النبوة؟

والبعث ليس إلا خلق من جديد، وهو أيضاً قضاء الخالق الذي لا بد منه:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القِيَامَة: ٣٦].

كلا فلا بد من البعث، لتفتح صحائف الأعمال ولتحقق العدالة، فينتصف من الظالم للمظلوم، ويكافأ المحسن بإحسانه، ويعاقب المذنب بذنبه، ويبرأ البريء:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القِيَامَة: ٣٧-٤٠].

بلى إنه على كل شيء قدير. وقضاء الموت والبعث اللذين لا مفر منهما ولا راد لهما ترددا كثيراً في القرآن ذلك لأهميتهما العظيمة في حياة ومصير الإنسان ونكتفي بالتذكير بالآيات التالية:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجُمُعَة: ٨].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجَاثِيَة: ٢٦].

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن: ٧].

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [النحل: ٣٨].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ [الحج: ٦٦].

أمثلة ومشاهد على البعث

ومن رحمة الله سبحانه في تذكيره للإنسان يضرب له مثلًا يقرب إليه فهم المعجزة والقدرة الإلهية ويهزه ويحرك تفكيره، بالأرض التي حوله وبالنبات الذي فيها. وهو مثل يتكرر أمامه في كل سنة من حياته. فبعد أن تموت الأرض بالجفاف ويصفر النبات ويعود حطاماً، وتصبح الأرض هامدة خاشعة، وكأنها تستغيث بربها وتشكو القفار والعطش، ينزل سبحانه رحمته بالمطر، فيحيي الأرض بعد موتها، وينبت فيها الملايين الكثيرة من أنواع البذور ويعيد إليها الحياة والخضرة من جديد، ويسقي ويرزق الإنسان والحيوان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾ [الحج: ٥، ٦].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فُصِّلت: ٣٩].

فهذه القدرة هي قدرة إحياء الموتى نفسها، كما أحيا بها سبحانه، موات الأرض والنبات الذي تشاهدونه!

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فَاطِر: ٩].

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ [الزّخرُف: ١١].

شبَّه سبحانه النظير بالنظير فكما ينشر ملايين النباتات بأنواعها كذلك ينشر الخلق يوم القيامة بكل أعدادها وبطريقة مشابهة يشير إليها حديث الرسول ﷺ:

عن أبي هُرَيْرَةَ عَن النَّبيِّ ﷺ قال: «**بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أرْبَعونَ**، قالوا: يا أبا هُرَيْرَةَ أرْبَعونَ يوماً، قالَ: أبَيْتُ، قالَ: أربَعونَ سَنَةً، قالَ: أبَيْتُ، قالَ: أرْبَعونَ شَهْراً، قالَ: **أبَيْتُ، ويَبْلى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإنسان إلاّ عَجْبَ ذنْبِهِ فيهِ يُرَكَّبُ الخَلْقُ**»(١).

وفي رواية عن أبي سعيد:

«**يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه**»، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**مثل حبة خردل منه تنشئون**»(٢).

والمثل الآخر الذي يدعو للتفكير والعبرة، هو النوم الذي يتكرَّر كل يوم في الإنسان والحيوانات الأخرى. والنوم صورة أخرى مصغرة للموت،

(١) رواه البخاري: ٤٤٤٠.

(٢) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

وهو أيضاً سر من أسرار الحياة كما أن الأحلام التي نراها هي أيضاً سر من خواص الروح. والله يتوفى الأنفس في حال نومها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠].

ففي وفاة النوم تخرج الروح من البدن وتطوف فيما شاء الله، لكنها تبقى متصلة بالبدن بقوة خفية، تبقى مرسلة طالما أن الله لم يقض إمساكها، فهي تتمتع بالأجل المسمى لها. ويظهر هذا المعنى من دعاء النبي ﷺ عندما يريد النوم:

(... باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها، فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)[1].

لذلك يستيقظ النائم وتعود إليه روحه لما كانت مرسلة. وتعود إليه أيضاً عندما يزعج جسم النائم بأي مؤثر، فإنها تعود إليه كالبرق مهما كان بعدها. لكن إذا قضي أجلها وهي في المنام فإن الله يمسكها فلا تعود إلى البدن وبذلك يحصل الموت المحقق. ولقد رأينا كثيراً من الناس ماتوا في نومهم فلم يستيقظوا أبداً. وفي ذلك يقول سبحانه:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزُمَر: ٤٢] إنها حقاً آية من آيات الله تدعو إلى التأمل والتفكير. فما هو تأثير النوم على الأعصاب حيث يعود النشاط والحيوية للنائم وكأن الحياة عادت إليه من جديد؟ أما إذا لم ينم ليلتين أو ثلاث، فقد يصبح بعدها وكأنه جثة هامدة، لا يستطيع الحراك ولا يقوى على

---

(١) أخرجه البخاري: ٥٨٤٥ ومسلم: ٤٨٨٩.

القيام، ويستولي عليه حينئذ سلطان النوم بقوة وبرغم عنه. أليس هذا شبيه بالموت؟ أليس هذا مثلًا لأولي الألباب؟

ومثل ثالث من أمثلة وفاة النوم والبعث قصة أصحاب الكهف، وهم الفتية الذين خافوا قومهم على دينهم، فهربوا به وأووا إلى الكهف. وهناك توفاهم الله وفاة شبيهة بالنوم مدة ثلاثمائة سنة شمسية كاملة ثم بعثهم أحياء. والآيات تبين ذلك:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾ [الكهف: ١١، ١٢].

وهذا موجز الأمر وفيه صورة حية للبعث:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ [الكهف: ١٩].

لكن الناس شعروا بهم لقدم هيئتهم ونقودهم، ولما كشف أمرهم ذهب الناس مع جمهرة من شرطة البلد ليروا بأم أعينهم هذه المعجزة، ولتكون لهم آية على الإيمان بوعد الله، وقدرته على البعث. آية ومثلًا يذكر به:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾ [الكهف: ٢١].

ثم يقول سبحانه مبيناً مدة لبثهم نياماً في الكهف:

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥﴾ [الكهف: ٢٥].

وهي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية، وتعادل ثلاثمائة من السنين الشمسية.

يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير

والموت والحياة حدثان يتجددان كل يوم. لقد كشف العلم بأن كثيراً من خلايا الإنسان تموت منها بالملايين كل يوم وتنشأ بدلها خلايا جديدة، وهذا الحال جار في كل الحيوانات وفي الإنسان:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر: ٦٨].

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [الحديد: ٢].

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: ١١].

كذلك تموت من شتى أنواع المخلوقات وتنشأ أحياء جديدة كل يوم... وأنتم أنفسكم كنتم أمواتاً فأحياكم:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

إن الموت سيبقى سراً وقدرة من أسرار الخلق كما هو إنشاء الحياة. وهما ليسا إلا مظهران لحلول الروح في البدن وخروجها منه. والروح من أمر الله لا تدرك، وقد استحال علمها على الإنسان لأنها فوق مداركه وقدرته، وستبقى هكذا سراً مخفياً على الإنسان حتى تقوم الساعة لأنها من أمر الله وحده:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

وهي من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: ٢٦].

كما لم يطلعهم أيضاً متى يكون البعث:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

وما على الإنسان البصير إلا أن يؤمن بها، إن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد وإلا خسر نفسه:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢].

مما تقدم ليس لنا إلا أن نؤمن إيماناً مطلقاً بأن الله سبحانه هو خالق كل شيء، وأنه خلق الإنسان بقدرته وحكمته في أحسن تقويم، ليحمل الرسالة ويؤدي الأمانة في خلافة الله في الأرض، ثم يعود إلى لقاء ربه عن طريق الموت والبعث إلى حياة جديدة ليرى عمله الذي قدمه وميزانه عند الله:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

إذن فلا بد من الموت ثم البعث، لا بد للإنسان أن يدخل ويجتاز هذه الأبواب للوصول إلى يوم الحساب، ولا بد أيضاً من الحساب، كل ذلك بقضاء الله:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٤-٦].

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

ومن لا يؤمن بهذا ويكذب به فقد خسر خسراناً مبيناً، وإن كان مسلماً فقد خرج من ربقة الإسلام، وحبط عمله بهذا التكذيب:

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٣١﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٤﴾ [القلم: ٤٤].

﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٣].

وقد توعدهم الله بالويل والثبور في سور كثيرة في كتابه الكريم، ويكفي أنه سبحانه كرر الآية: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ [المرسلات: ١٥] عشر مرات في سورة المرسلات وحدها!

أما حياة الروح بعد الموت والبعث، فسنولي هذا الموضوع تفصيلًا آخر في كتاب (آفاق الإيمان) من هذا المسلسل بإذن الله.



الفصل الرابع



قد أعذر من أنذر

إذن فما العمل إزاء هذا الخطر العظيم، والإنذارات الإلهية المتكررة، والوعد والوعيد والتي لا تدع للإنسان بعد ذلك من عذر. وليس فيها من عودة للاستدراك أو الإصلاح أبداً، فقد انتهى الأجل وانقطع بذلك العمل. ليس فيها مأوىً لخلاصه من الخزي العظيم، وقد أسرف في التفريط تجاه رب العالمين. وهو يرى أنه واقع في العذاب الأليم، وفي سخط الله وغضبه، وليس له من دافع ولا نصير، وليس له من ملجأ ولا نكير:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٧].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزُمَر: ٥٦].

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: ٤٠].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٤، ١٥].

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الحج: ٤٩].

وتراهم لما يرون هذه الحالة يطلبون العودة للإصلاح:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧].

وحتى لما صاروا في النار فهم يطلبون الخروج والعودة إلى الدنيا ليصلحوا العمل، ولكن هيهات فقد انتهت الدنيا وهم الآن في مكان بعيد:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سبأ: ٥١-٥٣].

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١].

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨].

انتهاز فرصة الحياة، والمبادرة بالعمل قبل انقضاء الأجل

إن العمل لا يكون إلا في فسحة الأجل، فإذا انتهى الأجل فلا يبقى إلا الحساب والجزاء، إن فرصة الحياة على هذه الأرض لا تقدر بثمن، إنها عمر الإنسان بحاله، وعلى ضوئها يتقرر مصيره، إما خلود في الجنة، وإما خلود في النار.

لذلك شدد الإسلام على انتهاز هذه الفرصة في المسابقة في عمل الخيرات والطاعات قبل فوات الأوان. فتأملها واضحة جلية في جملة من الآيات التالية وبعضاً من أحاديث الرسول الكريم ﷺ وتوصياته. فمن أخذ بها فقد فاز، ومن ضيعها فقد فوت على نفسه هذهِ الفرصة، وخسر خسراناً مبيناً، حتى لم يبق له منها غير الحسرة والندم، ولات ساعة مندم!. فلننظر إلى نداءات ربنا ودعواته، وتذكيره وإنذاراته، ولنتدبرها على محمل الجد، ونتخذها منهج عمل منهج قبل فوات الأوان. وقبل انقباض العمل بالآفات، أو انقطاعه بالموت وإسدال الستار!

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥].

أي فلينظروا في ملكوت الله ومخلوقاته ويتفكروا، ليؤمنوا ويعملوا قبل أن يقترب أجلهم:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾ [الزُّمر: ٥٤].

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١﴾ [إبراهيم: ٣١].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾ [الرُّوم: ٥٥].

نعم لأن عمرهم يقدر بساعة بحساب يوم الآخرة الذي مقداره ألف سنة من أيام الدنيا كما قال سبحانه:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ [الحج: ٤٧].

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد: ٢١].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ۝٤٣﴾ [الرُّوم: ٤٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون: ٩-١١].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٧٧﴾ [النحل: ٧٧].

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٥].

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾ [غافر: ١٨].

التحذير من سوء المصير

التحذيرات في كتاب ربنا كثيرة، ونذره كثيرة، لا تدع لجاحد حجة:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: ١٠١].

ومنها ما أسلفنا ومنها ما جاءت في قصص الأنبياء والأقوام الذين ضاعت عليهم فرص الإيمان فجادلوا بالحق لما جاءهم، وكذبوا رسلهم، واستكبروا حتى أتاهم عذاب الله. ومنها ما تصف حالهم وندامتهم بعد أن يصيروا إلى الآخرة، ولا مرد ولا مرجع، ولا من نصير ولا من نكير، فهناك بعد ذلك الطامة الكبرى، والحسرة والويل والثبور وسوء المصير. وهنا نأتي ببعض الآيات التي تحذر هذا المصير وتصف ندامتهم:

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾ [الروم: ١٢].

أي تأخذهم حالة من الحيرة واليأس.

﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧

يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبإ: ٣٣].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١].

ونختمها بالآيات التي هي دعوة من الرؤوف الرحيم، إلى طريق المغفرة والنجاة لعباده المسرفين، قبل فوات الأوان وقبل ملاقاة المصير الأليم:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٥٣-٦٠].

أما ما جاءت به السنة النبوية المطهرة، فإنا نختار منها الأحاديث التالية:

١ ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«بَادِرُوا بالأعْمَالِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً ويُمْسِي كَافِراً أَوْ يُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»**(١).

أي أسرعوا بالأعمال الصالحة قبل أن تصير الحال بالناس بهذا الضياع المذكور من أمر الدين.

٢ ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«بَادِرُوا بالأعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلاَّ فقراً مُنْسِياً أو غِنىً مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَة فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ»**(٢).

أي أسرعوا وباشروا بالأعمال الصالحة، وإلا فلا تنتظرون إلا سبعاً من الآفات التي ذكرها.

٣ ـ عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه: **«اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»**(٣).

٤ ـ حَدَّثَنا أَبُو هُرَيْرَةَ رضِي الله عَنْه قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أجْراً؟ قَالَ: **«أَنْ تَصَدَّقَ وأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفَقْرَ وَتَأْمُلُ الغِنَى وَلا تُمْهِلُ حَتَّى إذا بَلَغَتِ الحُلقُومَ قُلتَ لِفُلانٍ كَذَا وَلِفُلانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلانٍ»**(٤).

---

(١) رواه مسلم: ١٦٩.

(٢) رواه الترمذي: ٢٢٢٨.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا، انظر كتاب:

(٤) أخرجه البخاري: ١٣٣٠، ومسلم: ١٧١٣.

أي لا تظل تمهل حتى إذا أوشكت الروح أن تخرج من الحلقوم قلت لفلان كذا. . . أي عند ذلك فقد فات الأوان.

٥ - ومن خطب النبي ﷺ:

«أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات. فوالذي نفسي بيده، ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلى الجنة أو النار»[1].

أي اعملوا حتى تبلغوا بأعمالكم الأهداف المقدرة لكم، فكل ميسر لما خلق. ولطالما كان الإنسان بين المخافتين، شيء مضى فيه الإسراف والتفريط لا تعلم نتيجته، وشيء آت مجهول لا يعلم ما فيه من القضاء والقدر. فلينتهز هذه الفرصة التي بين يديه طالما هو في قيد الحياة، ويتدارك ما فاته قبل حدوث الآفات، آفة المرض، وآفة الهرم، والآفة الكبرى بانقطاع العمل بالموت وانقضاء الأجل.

ما العمل وبما المبادرة؟

إذن العمل هو المبادرة بالأعمال الصالحة: التوبة والإنابة إلى الله، والإسلام له، وكثرة الصلاة والصدقة، وكثرة ذكر الله، والاستقامة، وإخلاص النية في العمل، ومخافة الله في السر والعلن، والنصح للمسلمين، وكل هذا يأتي بعد إتقان وإحسان عمل الفرائض، وأركان الإسلام الخمسة. ثم التمسك بمنهج الكتاب والسنة، ففيهما النور والهدى الذين ما إن تمسك بهما أحد فلن يضل بعدهما أبداً.

(١) رواها البيهقي في شعب الإيمان.

وقد وعد سبحانه ووعده الحق، بأن من تاب وآمن وعمل صالحاً فإنه سبحانه يقبل توبته ويدخله في رحمته وينجيه من عذابه:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القَصَص: ٦٧].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفُرقان: ٧٠].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريَم: ٦٠].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبَة: ١٠٤].

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فُصّلَت: ١٨].

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يُونس: ١٠٣].

الأمل والبشرى للمؤمنين

وهذه بشرى عظيمة للمؤمنين، فيفوزون برحمة من الله ورضوان، ويرضى بذلك عنهم من في ملكوت الله، وتستغفر لهم حتى الحيتان في البحر، وتستغفر وتدعوا لهم ملائكة الرحمن وحملة عرشه:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٧-٩].

فالأمل هو الفوز برحمة الله وبالبشرى برضوانه وجناته:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

ووصف سبحانه السابقين في الخيرات وأثنى عليهم، لنكون على بينه منهم، وشوق للحاق بهم، وليكونوا لنا قدوة نقتبس من نورهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وبعد أن قص علينا سبحانه أخلاق الأنبياء وأحوالهم في سورة الأنبياء، أثنى عليهم بقوله:

﴿... إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فكانت من أعمالهم: المسارعة في الخيرات، وعبادة الله ودعائه، رغبة في رضوانه ورهبة من سلطانه، وحباً له، وتقرباً إليه، وخشية وإجلالاً لمقامه العظيم.

والسابقون هم المقربون عند الله يوم القيامة، في جنات النعيم:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ١٠-١٢].

هذا هو العمل وهذه هي نتائجه:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].



الفصل الأول: خلق الأرض والسماء

الفصل الثاني: حقائق عن الأرض

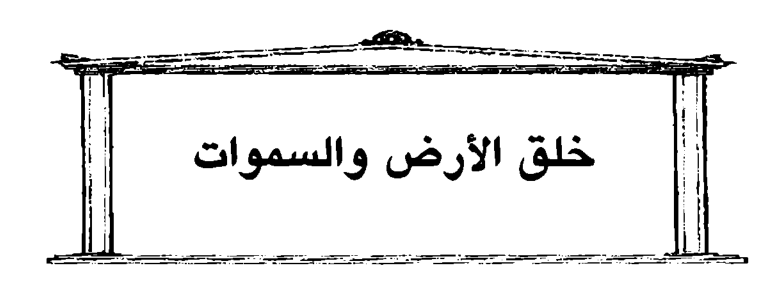
الفصل الثالث: تمهيد الأرض

الفصل الرابع: إحياء الأرض وتكييفها

الفصل الخامس: الإفادة من خيرات الأرض وكنوزها



الفصل الأول



١ ـ تكوين الأرض:

لدراسة تكوين طبقات الأرض، نحتاج إلى عمل حفر أو ثقوب فيها تصل إلى مركز الأرض واستخراج عينات الفحص خلال هذه الأعماق. لكن هذا العمق يقارب أربعة آلاف ميل، بينما لم يستطع الإنسان لحد الآن أن يحفر فيها أكثر من بضعة أميال فقط! حيث أن الحرارة ترتفع مائة درجة مئوية كلما حفر الجهاز ميلًا واحداً. ويحدث هذا في طبقات القشرة، وقبل أن يصل إلى الطبقات الباطنية الحرارية.

لكن العلماء استطاعوا أن يحسبوا سمك تكوين طبقات الأرض من دراسة حركة وسرعة ارتداد الموجات الزلزالية في الطبقات المختلفة بدلًا من إجراء الحفريات الفاشلة والمستحيلة:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧].

إن خلاصة فكرة العلماء تفيد بأن الأرض مكونة من:

١ ـ طبقة من الصخور، معظمها من حجر الكرانيت باهت اللون يحوي بللورات زجاجية. وهذه طبقة القشرة وهي بعمق ٢٠ ميلًا تقريباً.

٢ ـ طبقة البازالت تحت القشرة، والبازالت مادة حجرية قاتمة اللون حارة لا تحتوي على بللورات السليكا كما يدل على ذلك خروج بعضها إلى سطح الأرض بفعل البراكين. ويقدر عمق هذه الطبقة بـ: ١٨٠٠ميل.

٣ ـ طبقة النواة في المركز، وهي طبقة منصهرة ويقدر عمقها إلى المركز بـ: ٢١٥٠ ميل وتعادل كثافتها كثافة خليط من النيكل والحديد. أما التربة في الوجه فهي ليست بالأصل إلا صخوراً جرت عليها عوامل التآكل والتفتت بتعرضها لحرارة الشمس والأمطار والرياح خلال مدد طويلة من الزمن، وما هي إلا حطام النيازك والشهب الذي يسقط على الأرض، ويقدرها العلماء بملايين الأطنان وتغطي الكرة الأرضية بارتفاع ثلاثة أمتار. ومن دراسات وحسابات أخرى للفلكيين تدل على أن كثافة المركز تساوي كثافة خليط من الحديد والنيكل تحت الضغط التي يمكن أن تكون قد تكونت في أزمان تكوين الكوكب.. وهذه كلها توقعات تكتنفها الشكوك طالما لا يمكن عمل الثقب والتأكد من حقيقة تكوين الطبقات بواسطة عينات الفحص التي تستخرج من الأعماق المختلفة من هذا الثقب.

والحديد والنيكل الذي يمكن أن يفسر المجال المغناطيسي والتغيرات التي تحدث فيه، يمكن أن يكون قد تجمع من النيازك المحطمة التي معظم مادتها الحديد، أو أن النواة قد تكونت من تجمعها من السماء في أزمان انفصالها وتكوين كوكب الأرض. لذلك ذكرنا السموات هنا لأن قصة خلق الأرض متداخلة مع خلق السموات، فهي ليست إلا جزءاً منها ثم انفصلت. ولعل الآية الكريمة التالية تدلنا على هذه الحقيقة:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ولقد توصل العلماء إلى أن أجرام السماء قد تكونت من تجمع الغازات العظيمة المنتشرة في الفضاء، وسنشير إليها فيما بعد، وأن كوكب الأرض قد انفصل عن السماء، كما تجمعت كواكب أخرى وانفصلت أيضاً بسبب حركتها الدورانية. ووجد بأنها تحتوي على عناصر مواد مشابهة للعناصر الموجودة في كوكب الأرض.

ومن هذه المعلومات نستطيع أن نفهم بعض دلالات وإشارات القرآن الكريم إلى ذلك، منها قوله سبحانه:

﴿... وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ...﴾ [الحديد: ٢٥].

فكلمة أنزلنا تدل على الإنزال من السماء إلى الأرض، وهو إما أن يكون أنزله يوم خلق السموات والأرض وقد كان كذرات المطر وتجمع إلى المركز لثقله، أو أنزله مرة واحدة حين تكوين الكوكب. وضرورة وجود أثقال في مركز الأرض كالحديد تفرضه تأثيرات المجال المغناطيسي للأرض. كما يساعد على ذلك كل ما موجود في باطنها من مواد ومعادن ثقيلة. انظر الآية:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

فأثقالها: ما تخرجه من باطنها من مواد وكنوز ثقيلة ويكون هذا يوم زلزالها العظيم يوم القيامة. أما ما تخرجه البراكين في الزلازل الاعتيادية فهو من الحجارة المنصهرة ومعظمه من طبقة البازالت.

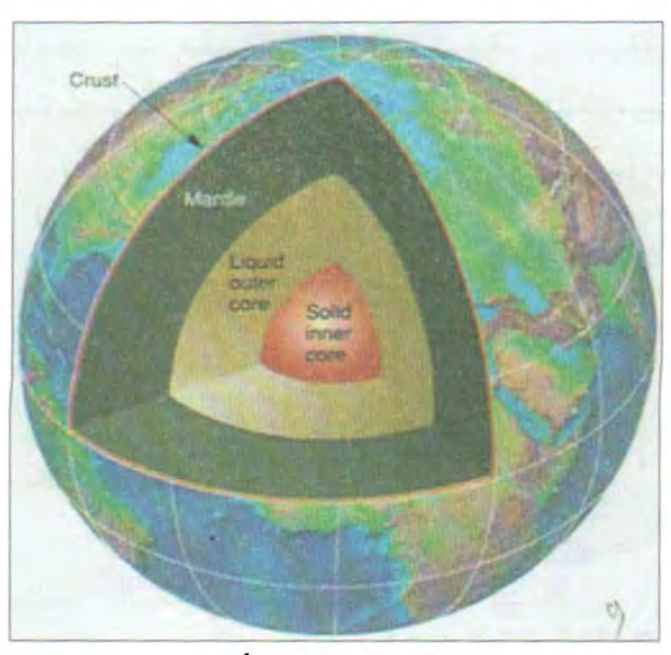
وأما كون نواة الأرض مادة سائلة وتحتوي على مواد صلبة وربما تكون منصهرة من النيكل والحديد لأن المركز لم يبرد كالسطح فهو أيضاً ما تدل عليه الآية التالية:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ [الواقعة: ٤].

والرج هو ما نفعله عندما نرج قنينة الدواء مثلًا وهي تحتوي على سائل معلق بداخله مادة صلبة غير ذائبة. فالسائل هنا في الداخل وهو محاط بقشرة صلبة مغلقة، وعندما تصطدم بكتلة أو جرم آخر فسوف يقوم برجها بما في داخلها وهكذا ينطبق عليها وصف الرج تماماً.

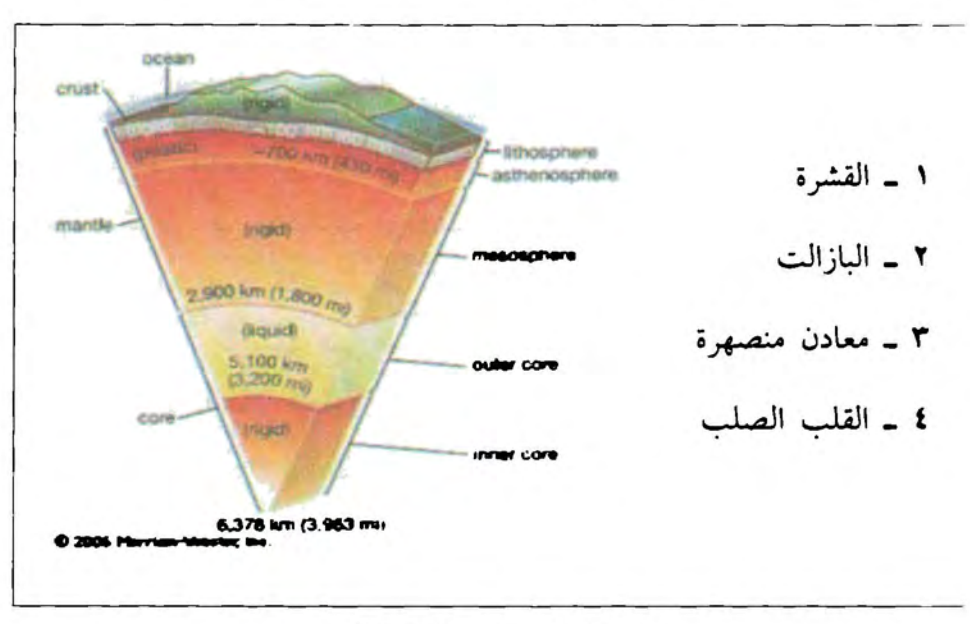


سفينة الحفريات لعمل ثقب في قاع المحيط حيث أن سمك القشرة هناك يبلغ ٥كم بينما قد يصل سمكها تحت سطح القارات إلى ٦٥كم
تبين الصورة ظهر السفينة وهو مملوء بتوصيلات الأنابيب المراد استعمالها في الحفر، بينما يرى موقع جهاز الحفر في نهاية السفينة في أعلى الصورة
[عن كتاب الأرض - لايف - المكتبة العلمية]



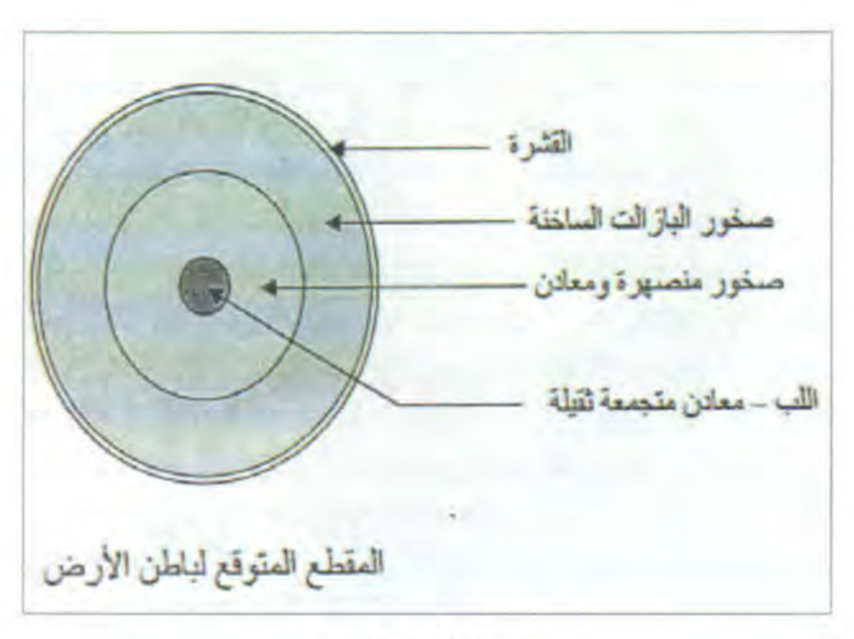
طبقات باطن الكرة الأرضية

[الصورة عن: discover magazine.com]



مقطع لطبقات باطن الكرة الأرضية

[الصورة عن: www.britannica.com]



المقطع المتوقع لباطن الأرض

انظر الشكل المقابل:
المقطع المتوقع لباطن الأرض

ولكون تركيب القشرة في الأرض بهذا الشكل فإنه يحدث أحياناً أن تنصهر كتلة القشرة في موضع ما بفعل البراكين أو الحرارة الباطنية وتغور بثقلها وتغوص في الطبقات المنصهرة الأقل تماسكاً نتيجة الحرارة الشديدة التي تصهر الصخور كالتي نراها تخرج من البراكين. وعند ذلك يحدث خطر الخسف، وهو ما يدل على غطس طبقة ثقيلة في طبقة منصهرة تحتها لا تستطيع حملها فتغور فيها وربما تنصهر هي أيضاً بعد غوصها فيها. وهي ما تعبر عنه الآية التالية:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [المُلك: ١٦].

أي تتحرك كالكتلة المنصهرة وتموج وتغور، وهذا إنذار ممن يعلم ماذا تحت الأرض وما في باطنها.

إن ما ذكرناه من تكوين طبقات الأرض يتبع علم الجيولوجيا أو علم طبقات الأرض، أما ما يخص الوجه فهو علم تضاريس الأرض والتضاريس كلها في القشرة.

وإن طبقة القشرة هي الطبقة الوحيدة الممهدة الصالحة للحياة. وهي ليست في الأصل إلا طبقة صخرية لكن الله سبحانه مهدها وبسطها وأعدها للحياة:

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النّازعَات: ٣٠-٣٣].

فالقشرة إلى جانب ما جعل الله فيها من الجبال العظيمة والرواسي الشاهقة والوديان والسهول، وما جعل فيها من غابات وأشجار عظيمة ومراعي متنوعة، وإلى جانب ما ملأها من مياه متمثلة بالمحيطات والبحار والأنهار، وفي العيون والينابيع المنتشرة في داخلها، إلى جانب كل ذلك فإنها مليئة بالأحياء والحيوانات المختلفة في باطنها وعلى ظهرها. وهذا هو أهم ما في الأرض، واستغرق يومين آخرين في خلق الأرض. وربما قد تتيسر دراسة المواد التي يتكون منها باطن الأرض في المستقبل لأنها كوكبنا الذي نعيش عليه وأقرب جرم لنا. أما كيف خلق الله الأرض وأوجدها من العدم فهذه قدرة الله في الخلق بكلمة (كن) منه سبحانه فيكون الخلق كما يشاء.

وأما المراحل والمدد التي استغرقتها الأرض في خلقها فهذه أيضاً لا يعلمها إلا الله، ولا علم لنا إلا لما أخبرنا به سبحانه كما سيأتي، وأما تكوين خلق السموات السبع الشداد، ذات الحبك، السبع الطرائق ومما بناها الخالق سبحانه، فلييأس الإنسان من البحث في هذا العلم الذي هو ليس بمقدوره، ولن يصل إليه حتى لو دامت الحياة ملايين من السنين لأنه عاجز

أن يصل إلى إحدى المجرات القريبة بأقل من ملايين من السنين، هذا فيما إذا سار بسرعة الضوء! وماذا سيدرس إذا كانت المجرات بالمليارات عدداً، وكل مجرة تحوي المليارات من الأجرام؟ وبينما هو عاجز عن أن يصل إلى مركز الأرض التي هو قابع عليها.

أما مراحل خلقها وخلق الأرض والمدد التي استغرقتها فقد أخبرنا بها سبحانه بما يكفينا ويريح عقولنا ويشفي غليلنا من هذا العناء، لكي نتفكر في قدرته ونشعر بعظمته ونخشى جبروته ونوقره في قلوبنا ونحمده على لطفه ورحمته بعباده وعلى ما حماهم به من أخطار هذا الكون الرهيب.

وإخباره هذا هو القول الحق والقول الفصل فليس لأحد بها من علم وليس لها من شاهد إلا هو سبحانه:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف: ٥١].

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصّلت: ٥٣].

٢ ـ قصة خلق السموات والأرض

إن خلق السموات والأرض قد مر عليه زمن طويل لا يعلم أحد من البشر عنه شيئاً ولم يكن هناك بشر مخلوق بعد ولا غيره، لم يكن إلا الله الخالق سبحانه. فنحن كنا غائبين وليس من يعطينا معلومات أولية أو وثائق عن الأحقاب الزمنية الغابرة. وكما أننا غائبين الآن عن الأحداث الحاضرة في الأبعاد السحيقة في الكون، وغائبين أيضاً عن جني المعلومات التي تحدث فيما هي أصغر من الذرة وفي المخلوقات الشفافة التي لا تراها أعيننا ولا تسمعها آذاننا أو تحس بها قلوبنا وهي أصلًا ليست من مواد خلقنا.

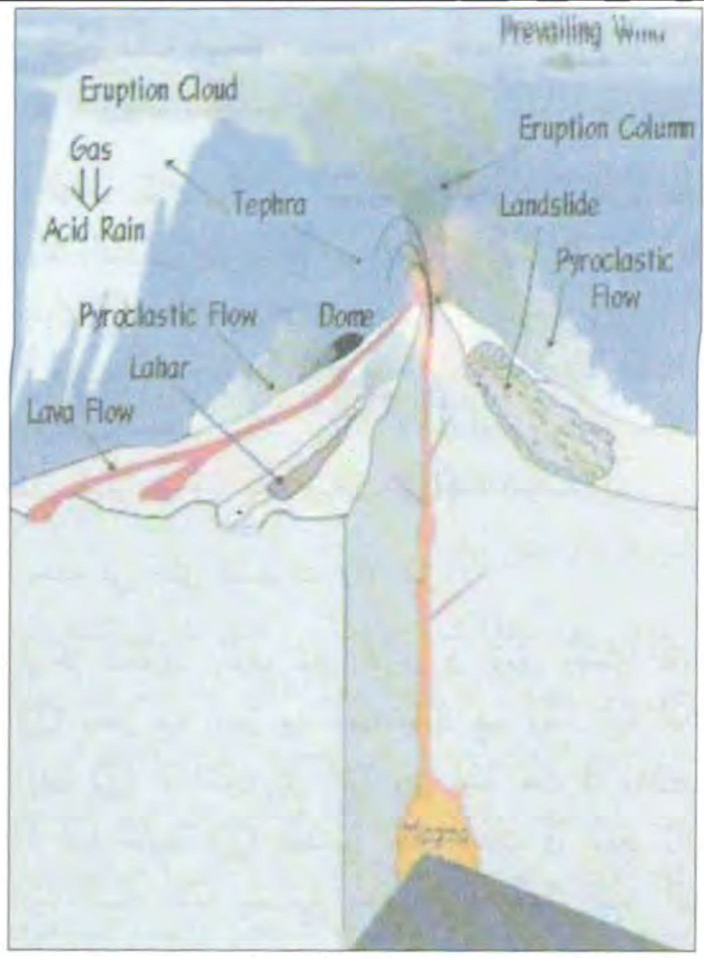


البحار تسجر بفعل البراكين
[الصورة عن: www.Volcano.com]



بركان ثائر

[الصورة عن : www.Solar navigator.net]



ثورة البركان بفعل حرارة باطن الأرض أو بشرخ يحدثه الزلازل

[عن: Pubs.usgs.gov]

في الواقع إننا نبحث في مضيق ضيق من علوم الكون، لأن حواسنا تعمل في حدود ضيقة محددة ولا تحس أو تشعر في آفاق الحقائق والآيات منتشرة في هذا الكون الفسيح. فالخالق جلَّ وعلا هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء:

﴿... عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سَبَإ: ٣].

فحين يقصُّ علينا سبحانه قصة الخلق فقصته هي القول الحق وليس ذلك لأحد إلا له وحده سبحانه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٧٣].

﴿. . . وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: ٧].

قال سبحانه في خلق السموات والأرض:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فُصّلت: ٩-١٢].

يبين الله سبحانه في هذه الآيات بأنه قد خلق الأرض في يومين والغالب أنها من من أيام الله:

﴿. . . وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجّ: ٤٧].

وإن قصد بها أيام الدنيا فهي سيان عنده فهو قادر على أن يخلقهما في لمح البصر، إلا أن حكمته اقتضت هذه المدة. وإنما غلبنا كونها من أيام الله لأنه لم تكن للدنيا أياماً قبل خلقها. وذكر سبحانه أنه أتم خلق مخلوقات

أخرى على الأرض قدر فيها أقواتها إلى يوم القيامة وبارك فيها وأسبغ عليها نعمه ولطفه فصارت بذلك أربعة أيام، وفي اليومين الأخيرة:

﴿اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] أي وقد جعلها دخاناً ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] أي ألقى عليها أمره وقدرته لتذليلها له وتطويعها لما يريد من أمره، وهي مواد من خلقه فاستجابت له فوراً ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ فانقضت بذلك ستة أيام. وقد ذكرت هذه الستة أيام وكررت كثيراً في القرآن الكريم، وهي كذلك في التوراة والإنجيل أيضاً.

ونحن نؤمن بها هكذا كما جاءت من عند الله في كتبه المقدسة وكما أنزلت بالوحي إلى رسول الله ﷺ، وهو الذي نستلهم منه نوراً وتوضيحاً لهذه الآيات: أخرج الإمام الطبري في تفسيره (جامع البيان في تفسير القرآن) عن ابن عباس: أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض قال: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء المدفون والعمران والخراب فهذه أربعة ثم قال:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

أي لمن سأل، قال وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس وفي الثالثة آدم وأسكنه الجنة وأمر

إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة. قالت اليهود ثم ماذا يا محمد قال ثم استوى على العرش قالوا قد أصبت لو أتممت قالوا ثم استراح فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً فنزل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٨،٣٩] لغوب: جمع لغب وهو التعب والنصب، ومن يخلق كل هذا الكون بكلمات منه سبحانه لا يعقل أن يصيبه نصب فيحتاج إلى استراحة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

أما ما توصل إليه علماء اليوم في نشأة الكون، فإن أقرب النظريات هي أن الكون كان غازاً منتشراً في الفضاء الواسع بمختلف العناصر وبحدوث انفجار ما تجمعت وتكتلت العناصر كتلًا عظيمة من الأجرام المختلفة التي تحركت في حركة شديدة وفي دوامة حتى أخذت الأجرام أوضاعها ومساراتها في السماء واحتاجت لذلك الملايين من السنين.

إن هذه النظرية وما فيها من تصورات وخيال لا تشابه في الحقيقة إلا ما جاء في الآية الكريمة السابقة من أن السماء كانت دخاناً وهي في إحدى مراحل خلقها، بثها الله دخاناً في الفضاء العظيم ثم ألقى عليها أمره بكلمته فاستجابت إليه وتجمعت كما شاء فخلق منها السماء ثم النجوم والكواكب وأجراها بقدرته وحكمته في مدارات محكمة دقيقة لا تحيد عنها ووضع لها الموازين والسنن والنواميس التي تحكمها وتمسكها في مواقعها دون خلل أو اضطراب. وهي ليست كما يتخيل العلماء القاصرون مواداً تجمعت في دوامة عشوائية ثم انتهت إلى أجرام تدور بلا زمام، فلماذا إلا الضلال؟ وهم قد اكتشفوا اليوم بأنفسهم ما في هذا الخلق من دقة وإحكام من دقة وإحكام وقدرة عظيمة بما لا يمكن أن يكون صدفة عشوائية بل لا يمكن أن يقوم

ويدوم إلا بتدبير مدبر عليم قادر حكيم. وفي السابق كانوا يقولون بأن الكون طبيعة أزلية، فأجبرهم العلم على أن يؤمنوا بأن الكون وما فيه ما هو إلا حدث وله نهاية حتمية، لما رأوا من دراسة الفضاء وعناصر الكون والمواد المشعة وأنه لا بد لهذا النظام والإحكام من مدبر لا محالة!.

إن الآيات السابقة تعطينا نوراً وهداية في طريق العلم حتى لا نضل، وتهدينا إلى السبيل الصحيح للتقدم العلمي في زحمة هذا الخضم من التوقعات والأوهام عند علماء الطبيعة التي لا أساس لها ولا إثبات خلال هذه الأحقاب السحيقة من الزمن ومن تغيرات المواد. فالواقع الحقيقي شيء والاستنتاج والظن شيء آخر.

فحين خلق الله العناصر التي أراد أن يخلق منها السموات والأرض نشرها وصاغها بمشيئته وكما أراد، ووضع لهل نواميسها وسننها التي نسمها اليوم بخواص وقوانين المواد وهي لا تتصرف إلا بموجبها ولا تبديل لها ولا تغيير:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣].

إلا أنه سبحانه حين أمرها لتكون كما شاء استجابت طائعة لأمره ولم تصمد للسنن التي وضعها فيها وصارت من صفاتها وخواصها، لذلك أجابته بما أنطقها بقدرته سبحانه ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فهي إذاً خاضعة لأمره في كل حين وليس لأحد تبديل سننها وخواصها إلا هو وحده سبحانه.

وشذوذ علماء الفلك والطبيعة وعلماء الغرب عن هذا أنهم يؤمنون بتأثير طبيعة وخواص المواد ولا يؤمنون بتأثير المدبر الذي أعطاها هذه الخواص عندما يشاء فعل شيء ما في كونه، فيحدث أحياناً لا يتوقعون وما لم يكونوا يحتسبون. ذلك بأنهم فرحين بما عندهم من العلم ولا يريدون

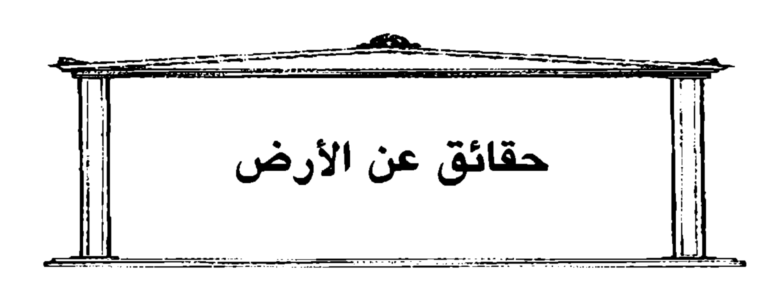
الاعتماد على الإيمان وأنهم لا يتخذون آيات الله من القرآن دليلًا ونوراً علمياً يهتدون به كونهم لا يؤمنون به أصلًا. لا يمنعهم من ذلك إلا الاستكبار، فإن الباحث يتشبث بأقل خيط من نور ربما يهديه إلى الحقيقة. لذا فهم يغفلون عن أخطار ومفاجئات ويتخبطون في الخيال والضلال ويتخرصون في أوهام وظنون لا تغني من الحق شيئاً ولا تحيط بالحقيقة علماً.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٨]. إن أسرار هذا الكون العظيم أوسع كثيراً من خيالهم.



الفصل الثاني



حقائق عن الأرض

كانت المفاهيم والمعتقدات عن الشمس والقمر والنجوم خاطئ قبل الإسلام، فأدخل القرآن مفاهيم وحقائق جديدة لم تكن معروفة في العالم في ذلك الوقت.

فتكور الأرض مثلًا وحركتها وتوازنها واختلاف كرويتها (تفلطحها) وكذلك ميلها بزاوية عن الشمس بحيث يؤدي انتقالها إلى تناوب الصيف والشتاء وتداخل الليل والنهار، كل ذلك يعرضها القرآن عرضاً سهلًا رصيناً ويصفها وصف المشاهد لها العليم بها فيجعلها مثارّ للتفكير والدهشة والتدبر.

فعن كرويتها وحركتها وحركة الشمس تأمل الآيات:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ [الزُمَر: ٥].

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النُور: ٤٤].

وهذه الآية الثانية تدل على الحركة والكروية فتقليب الشيء هو تدويره بزاوية ١٨٠ درجة وهي الخط الفاصل بين الليل والنهار وبحيث يصبح طرف

اليسار يميناً وطرف اليمين يساراً وفي قلبة الخرى تتعقب أوجه الليل والنهار وتتم دورة كاملة من ٣٦٠ درجة وتستمر باستمرار هذا التقليب كما هو الليل والنهار.

وكروية الأرض وتقبل الليل والنهار في أوجهها جاءت بالدلالة في آيات أخرى لا ينتبه إليها إلا المتفكرون فيها، يقول سبحانه:

﴿...حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

لقوم يتفكرون هكذا يؤكد سبحانه ختام الآية.

والأفكار في هذه الآية كثيرة وهي تدل على علامات الساعة واقتراب يوم القيامة، لكن الذي يهمنا معرفته هنا هو حركة وأوجه الأرض المتعاكسة في دورانها الذي يستنبط من الآية. فإن أمر الله يأتي كلمح البصر:

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل: ٧٧].

فكيف يكون ليلًا أو نهاراً في آن واحد؟ الجواب يكون كذلك عندما يكون الليل في أحد أوجه الأرض يكون النهار في وجهها الآخر المقابل في نفس الوقت.

وكذلك يستنبط من الآية التالية نفس المعنى:



الأرض في الفضاء
[عن: www.3dnworld.com]

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النّازعَات: ٤٦].

والكلام السابق هنا عن وقت حدوث الساعة أيضاً، فسكان الأرض الذين يكونون في العشية يكون السكان الذين يقابلونهم في الوجه الآخر من الأرض في الضحى. وكأنهم يوم يرونها لا يذكرون إلا الوقت الذي كانوا فيه لحظة وقوعها من شدة وهول الصدمة وهي الطامة الكبرى التي ستغشى الأرض والمذكورة في السورة نفسها. وقد وصفت أيضاً بأنها تأتي بغتة.

وأما عن حركة الأرض وتوازنها:

لقد كان الاعتقاد السائد قبل الإسلام أن الأرض ثابتة والشمس هي التي تجري مكونة الليل والنهار في شروقها وغروبها، ثم أعلن علماء الغرب في القرون الوسطى بأن العكس هو الصحيح أي أن الشمس ثابتة وهي مركز

الكون وأن الأرض هي التي تتحرك، وثار الناس لذلك لأن هذا هو عكس ما يحس الشخص الواقف على الأرض فهو عادة لا يحس بحركتها. وكان هذا الإعلان في حينه يحمل أيضاً خطأً ثم تبين لهم فيما بعد بأن الشمس هي أيضاً ليست ثابتة.

والقرآن الكريم جاء بالحقيقة في الأمر قبل ذلك بقرون ليصحح الاعتقاد الخاطئ ويعلن بأن الأرض تتحرك وتدور وكذلك الشمس والقمر والنجوم. ومن ذلك الآيات التالية: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨].

وقد وجد في أحدث اكتشاف فلكي بأن الشمس تتجه في حركتها ودورانها وهي في المجرة إلى مجموعة النسر الواقع[١].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢].

(١) كتاب الكون: المكتبة العلمية لايف.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

أي أن لكل مداره المحدد له. وأن الأرض تدور بسرعة ثابتة وليس بتسريع أو تعجيل فلا يسبق الليل النهار، وتتم دورتهما في أربع وعشرين ساعة على مدار السنين دونما زيادة أو نقصان. وكل ما في السماء من أجرام تسبح في أفلاكها المقدرة لها لا تحيد عنها ولولا ذلك لاصطدمت الأجرام مع بعضها ولحدثت الفوضى في النظام منذ زمن طويل. والأرض ليست تامة التكور فهي مفلطحة أي منضغطة عند القطبين ممتدة الوسط عند خط الاستواء، بسبب ما يسمى بالقوة الطاردة عن المركز أثناء الدوران إضافة إلى تأثير جذب القمر. فالزيادة ظاهرة عند خط الاستواء (الانتفاخ) والنقصان أو (الانبعاج) يكون عند القطبين. ولنتأمل دلالة الآيات:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد: ٤١].

﴿. . . أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: ٤٤].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ . . .﴾ [الرعد: ٣].

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ . . .﴾ [الحجر: ١٩] و [ق: ٧].

والأرض إضافة إلى كونها مفلطحة فإنها شديدة الاختلاف في سمك القشرة ومتغيرة التضاريس ففيها المحيطات والوديان والمرتفعات والصحاري والغابات مما يخل بتوازنها وهي في حركتها ودورانها السريع. وهذا الاختلاف يؤدي إلى تذبذبها واهتزازها وهو كفيل بأن يقذف ويحطم كل

شيء على ظهرها فلا تبقى حياة ولا عمار ولا يبقى لها من قرار، لكن اللطيف الخبير الذي أتقن كل شيء وازنها بالجبال الراسيات التي أرساها في الأماكن التي تؤدي إلى اتزانها واستقرارها:

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: ٣١].

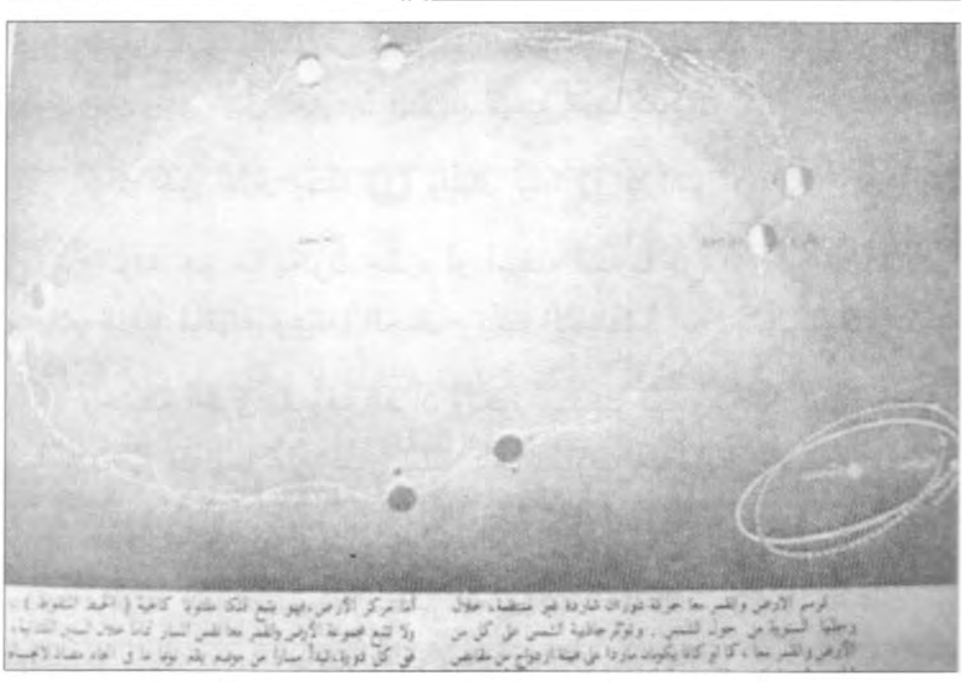
﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨].

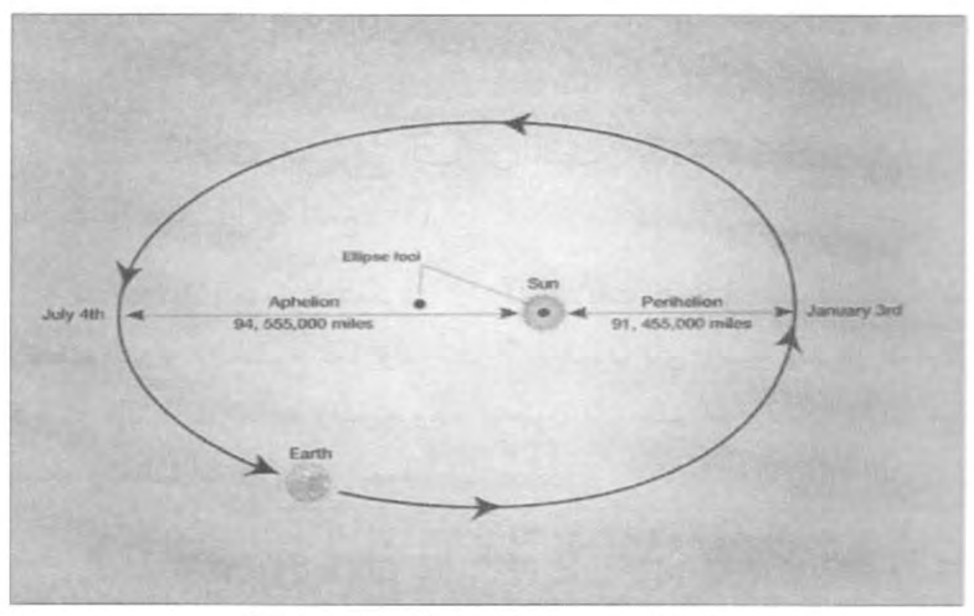
وبالرغم من كونها كروية إلا أن سعتها وحجمها العظيم نسبة إلى حجم البشر وحياته عليها، فإنه يراها ممتدة منبسطة مفروشة مهيأة وممهدة لكل العمليات الحياتية اللازمة له. ويذكره الله بهذه النعم ليتفكر فيها:

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٨].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].



دوران الأرض ومعها القمر حول الشمس؛ ويلاحظ مسارها الحلزوني
[عن كتاب الأرض - لايف - المكتبة العلمية]



Earth path, picture from: www.utexas.edu

مسار الأرض حول الشمس

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرّعد: ٣].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبإ: ٦، ٧].

والوتد هو ما يكون جذره أو أسفله ضارباً في الأرض مثبتاً فيها وأعلاه ظاهراً فوقها، وهكذا الجبال وكأنها الأوتاد!

وحقيقة أخرى يقررها القرآن ويكرر التذكير بها وهي أن الليل والنهار يتداخلان في طولهما على مدار السنة بالغاً التفاوت أشده بين الصيف والشتاء:

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: ١٣].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان: ٢٩].

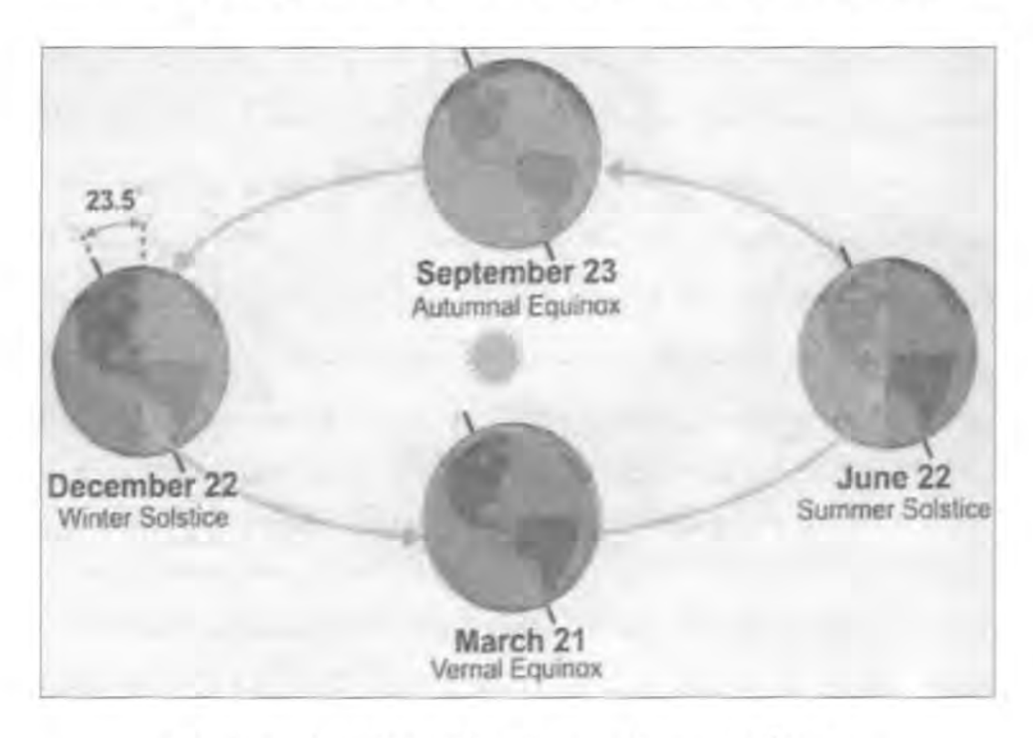
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: ٦١].

ولقد كان المؤمنون يتفكرون في هذه الآيات فتحصل عندهم خشية الله وتعظيم قدرته والخشوع له، ولو أنهم لا يعلمون بأي وسيلة يدبرها الله ولا كيف، فإن ذلك بعلمه وقدرته وهم يؤمنون بأن علم الله وقدرته وآياته من السعة والعظمة ما لا يرقى إليهما أحد:

﴿... يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

واليوم وبتقدم علم الفلك علمنا أن ذلك يحدث بميل الأرض بزاوية ١/٢ ٢٣ درجة عن أشعة الشمس وينتقل الظل تدريجياً أثناء دوران وانتقالها في مدارها حول الشمس ظاهرياً إلى الخلف وإلى الأمام بين الصيف والشتاء.

والله سبحانه هو المهيمن على جعل الأرض محافظة على مدارها وعلى سيرها حول الشمس بهذه الزاوية الثابتة لا تحيد عنها، كما هو المهيمن على باقي أجرام السماء ومجراتها، فهل فكر الناس بهذه القدرة العظيمة لتحصل عندهم العبرة والخشية لله، ثم عبادته وشكره وهي الغاية من التذكير بهذه النعمة وهذا اللطف كما حصلت عند المؤمنين الأوائل.



دوران الأرض حول الشمس بزاوية ثابتة مقدارها ١/٢ ٢٣ درجة
وتظهر عليها أيام الاعتدال الفصلي
[عن: www.srh.noaa.gov]

وتأتي آية أخرى توضح هذه الحقيقة وهي إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل وتغير الظل وانتقاله وما فيهما من نعم ومصالح للناس ومعاشهم، لأنها تدل على كيفية حدوثها وهي:

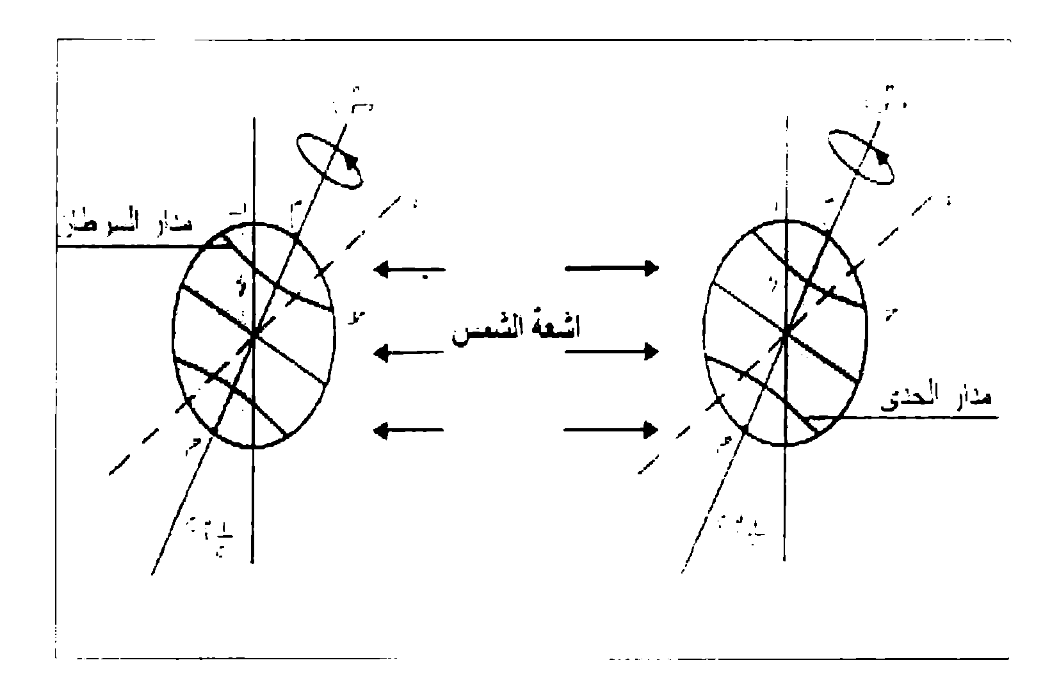
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦].

فلو كان محور الأرض عمودياً وثابتاً مع أشعة الشمس (التي هي الدليل) لأصبح الظل ساكناً ولتساوي الليل والنهار في عموم الأرض صيفاً وشتاءً. ولكن الله سبحانه حين مد الظل قصرت الإضاءة وكأنه بميل الأرض إلى الوراء طال الليل ودخل في النهار فنقص بذلك النهار. والناس يروا ظاهرياً بأن الشمس وكأنها قد انخفضت وقصر طول مدارها والحقيقة عكس ذلك هم الذين ارتفعوا عنها بسبب تغير مواقعهم. ولما قبضه إليه سبحانه قبضاً يسيراً أي تريجاً وذلك بحركة الأرض وانتقالها فيتغير موقع الظل وميل الأشعة على الأرض تبعاً لهذه الحركة والانتقال حتى تأتيها الأشعة من الجهة المقابلة. فينقبض الظل صيفاً وتزداد الإضاءة، وهكذا يمتد الظل إلى أقصاه شتاءً وينقبض إلى أقصاه صيفاً، وذلك بسبب ميل محور الأرض، فيدخل الليل في النهار ويدخل النهار في الليل ويحصل ذلك مع حركة الأرض التدريجية على مدار السنة. وما يحصل في نصف الكرة الشمالي، يحدث عكسه في نصف الكرة الجنوبي في الوقت نفسه.

ويمكن رؤية تغير الظل (مده وانقباضه) على نموذج مصغر في المختبر للكرة الأرضية وهي تدور بما يشبه مدارها حول مصباح مثبت على عمود ممثلًا بذلك الشمس. ويوضع النموذج في غرفة مظلمة لتتوضح رؤية تغير الظل على الأرض خلال سنة كاملة. لكننا هنا نمثله بالرسم في الحالة القصوى:

في نصف الكرة الشمالي:

تدور الشمس وتنتقل في مسارها بزاوية ثابتة عن مستوى الكسوف والخسوف مقدارها ١/٢ ٢٣ درجة مع محور الأرض.



في الشتاء

تكون الأشعة عمودية على مدار الجدي فيمتد الظل من نقطة أ إلى نقطة ب ويطول الليل بمقدار ضعف القوس ج د في مدار السرطان، وينقص بذلك من النهار.

في الصيف

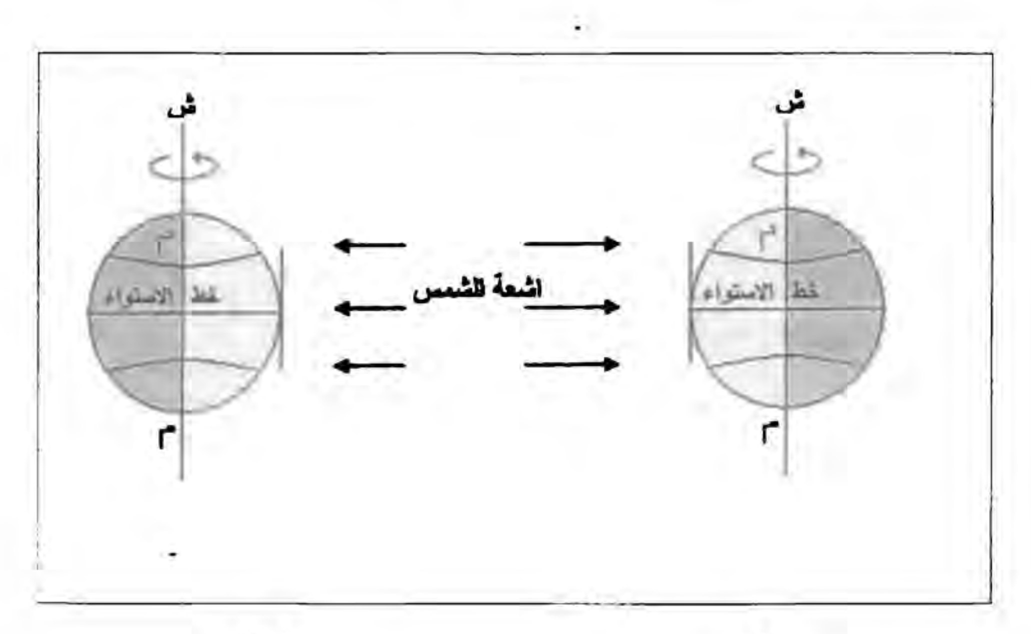
تتغير الأشعة تدريجياً حتى تكون عمودية على مدار السرطان بسبب انتقال الأرض فينقبض الظل من نقطة أ إلى نقطة ب ويطول النهار بمقدار ضعف القوس ج د في مدار السرطان فينقص بذلك من الليل.

وهكذا يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل. ويحدث العكس في نصف الكرة الجنوبي في نفس الوقت. وهكذا يمتد الظل كاملًا وينقبض كاملًا فيما بين الصيف والشتاء.

ولو كانت أشعة الشمس عمودية دائماً على خط الاستواء أو على محور الأرض لتساوي الليل والنهار دائماً في عموم الكرة الأرضية (ولسكن الظل). لكن هذا لا يحدث خلال مسيرة الأرض في السنة إلا في يومين، في الاعتدالين الخريفي والربيعي.

﴿... وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفُرقان: ٤٥].

الظل هنا ساكن مهما دارت الأرض في فلكها



شتاء صيفا

لقد جاء في تفسير المنتخب للآيتين:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفُرقان: ٤٥، ٤٦].

ما يتفق تماماً مع الشرح الذي جاء أعلاه، وإليك ما جاء في تفسير المنتخب:

لقد نصبنا من الدلائل على التوحيد ما يهدي ذوي الألباب. انظر إلى الظل فقد بسطه الله وجعله ساكناً أول النهار، ثم سلطنا الشمس تزيل منه بما يحل محله من أشعتها، فكانت الشمس دالة عليه ولولاها ما عرف الظل، ولو شاء الله لجعل الظل ساكناً مطبقاً على الناس فتفوت مصالحهم ومرافقهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفُرقان: ٤٥].

هذه الآية تظهر عناية الخالق وقدرته. فمدّ الظل يدل على دوران الأرض وعلى ميل محور دورانها ولو أن الأرض سكنت بحيث أنها ظلت غير متحركة حول الشمس وكذلك انعدام دورانها حول محورها لسكن الظل ولظلت أشعة الشمس مسلطة على نصف الأرض بينما يظل النصف الآخر ليلًا مما يحدث اختلاف التوازن الحراري ويؤدي إلى انعدام الحياة على الأرض وكذلك إذا كان هذا هو حال الأرض فإن الظل يظل ساكناً وهذا يحدث إذا كانت فترة دوران الأرض حول محورها هي نفسها فترة دورانها من حول الشمس، أي أن اليوم يصبح سنة كاملة ولكن لا يمكن أن يفعل ذلك غير الله هذا فضلًا عن أن الظل ذاته نعمة من نعم الله، ولو أن الله خلق الأشياء كلها شفافة لما وجد الظل ولانعدمت فرص الحياة أمام الكائنات التي تحتاج إليه.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفُرقان: ٤٦].

ولقد كان نسخنا للظل بالشمس تدريجياً بمقدار ولم يكن دفعة واحدة وفي ذلك منافع للناس.اهـ.

أما التفاسير الأخرى فكانت تقصد بالظل الممدود بعد الفجر والذي

يتلاشى تدريجياً حتى ينتهي بطلوع الشمس. وكذلك المقبوض بالليل بعد غروب الشمس.

وكلا التفسيرين يصح أو أنه مقصود والله أعلم بمراده، وهو يدعو إلى التفكير بقدرة الله ولطفه ورحمته بعباده.

كذلك لو كانت الأرض تدور حول الشمس بوجه واحد أو نقول أنها لا تدور حول نفسها لكان نصفها في ليل سرمدي ونصفها في نهار سرمدي، ولنتج عن اختلاف الحرارة والضوء في وجهيها كوارث طبيعية لا تحصى ولا تنتهي. وعندما يدعونا القرآن الكريم للتفكير بنعمتي الليل والنهار، وكيف أنه قادر على أن يجعل علينا ليلًا سرمدياً كأن يحجب عنا ضوء الشمس كما يحدث في الكسوف الكلي أو بأي حاجب مما يشاء وبقدرته هو، فنبقى في ليل دائم سرمدي، أو يجعل علينا نهاراً سرمدياً كأن يجعلنا بين شمسين متقابلتين مثلًا أو بأية وسيلة يشاؤها هو، فنبقى في نهار سرمدي وكم ستضطرب الأرض ومن عليها عندئذ، وكم ستضيق الحياة ويزهق البشر ويذوق العذاب، بل ويذوق الموت الزؤام وتنتهي الحياة... لنتفكر برحمة الله وبنعمة الله!

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

فهل فكرنا بآيات الله وأعطينا القرآن حقه من النظر والتدبر؟ إنه بلا ريب يزداد الإيمان وتزداد خشية الله إذا ازداد فهمنا بحقائق الآيات:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

ويبقى المؤمنون العلماء ويبقى الذين أوتوا العلم أشد خشية وخشوعاً لله من المؤمنين الجاهلين أو المؤمنين بغير علم:

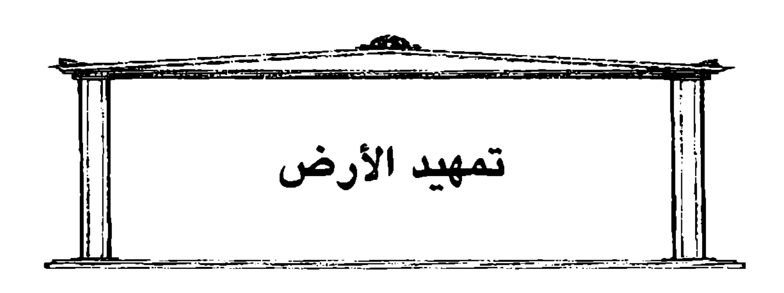
﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٤].

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: ٦].



الفصل الثالث



تمهيد الأرض

لقد مهد الله سبحانه الأرض للإنسان تمهيداً عظيماً. بأن نظمها وألان قسوتها وهيأها وجعلها صالحة بكل ما فيها، وما يحيط بها، وما يلزم لها من دوام الحياة عليها من شمس وقمر ونجوم، وكل ما يلائم حياته وراحته فيها. وسخرها وذللها له لكي يعمل فيها ويعمرها كما يشاء. وتكريماً لهذا الإنسان وتسهيلًا لما سيؤديه من امتحان وابتلاء في حياته القصيرة على هذه الأرض، فيرى الله عمله فيها ويجزيه به يوم القيامة:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلك: ٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [هُود: ٧].

وبعد أن بردت قشرة الأرض وتصلبت وأصبحت صالحة لجعل أسباب

الحياة فيها، حفظ الله حرارتها في حدود معينة موزونة لا تتجاوزها وحفظها في مدارات معينة بينها وبين الشمس التي هي مصدر حرارتها لتلائم حياة الإنسان والحيوان والنبات فيها مهما دارت بين أجرام السماء.

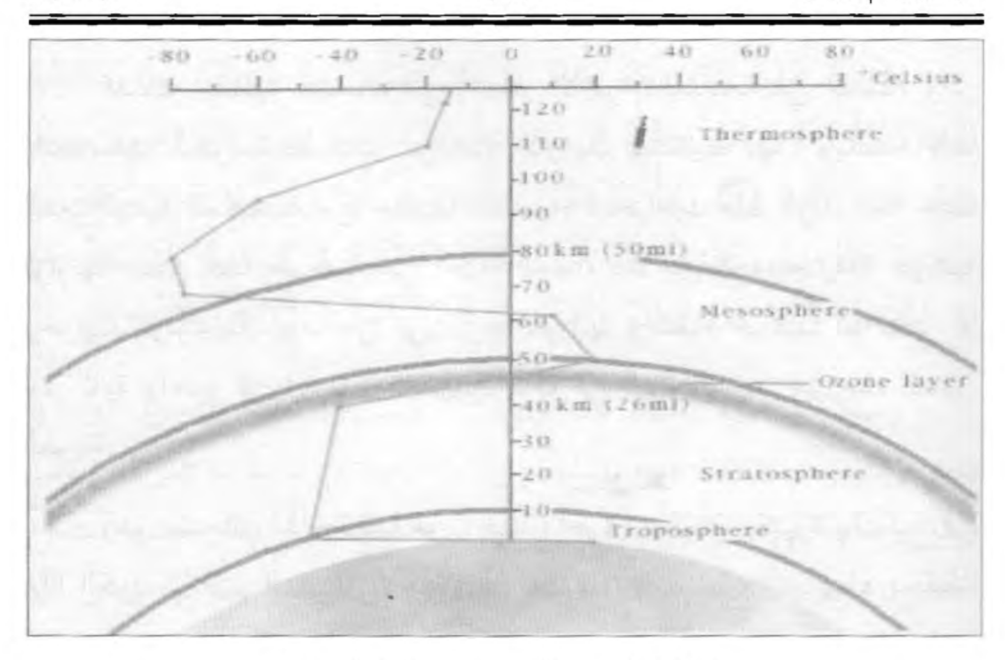
كما هيأ لها الهواء بارتفاع يقرب من ٨٠٠كم متوازناً مع الضغط الداخلي للإنسان والحيوانات الأخرى على السواء. تذكرنا الآية التالية كيف أن الذي يرتفع في السماء يضيق صدره نتيجة قلة الضغط الحاصلة، فيطغى ضغط دمه ويضيق صدره تبعاً لذلك:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وليكون في قوة هبوبه وسيلة لتحريك الغيوم وتعديل الحرارة وليظل في تجدد ونقاء:

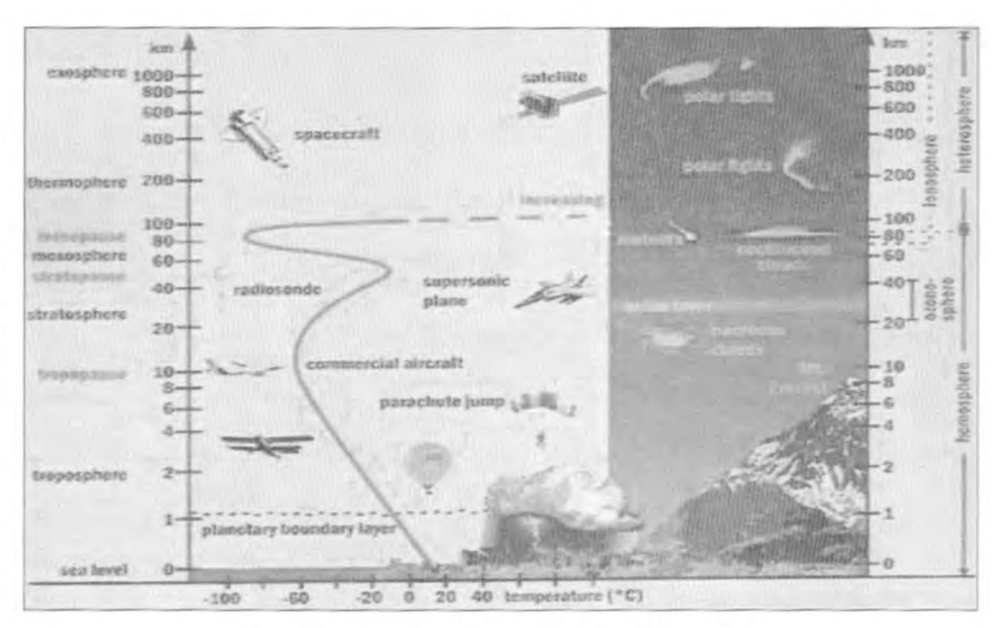
﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر: ٩].

وحفظ لهذا الهواء تركيبه بغازاته المختلفة، وجعل لكل منها دورتها في الطبيعة تتجدد فيها وتبقى محافظة على نسبها الثابتة فيما بينها، وإلا تسببت في اختناق وتسمم الأحياء وموت النبات.



طبقات الغلاف الجوي ودرجات الحرارة

[عن: wings.avkids.com]



طبقات الغلاف الجوي - الارتفاع ودرجة الحرارة

[عن: www.Kowoma.de]

كذلك حفظها سبحانه من أخطار الأجرام السابحة في الفضاء ومن إشعاعاتها الكونية بطبقات من غاز الأوزون المحيط بها، وبالمجالات المغناطيسية المكتشفة من جانبيها المسماة (بحزامات فان ألن). كما حفظ توازنها ضمن مسارات آمنة بين أجرام السماء بما يحفظ دوام ودقة حركتها وحرارتها وتوازنها، وها هي في سرعة دورانها وانتظام حركتها لم تتغير أو تفتر ثانية واحدة عن الأربع والعشرين ساعة في اليوم الواحد عبر هذه السنين الطويلة.

وهو سبحانه قد حفظها من أخطار أخرى عظيمة وكثيرة بالتأكيد في هذا الكون العظيم المليء بالأخطار لا نعلمها ولا نستطيع إدراكها، يحفظنا بها سبحانه بملائكة حفظة حتى تكتمل مسيرة الأجل المسمى إلى قيام الساعة. ومن غير الله يقدر على ذلك؟

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢].

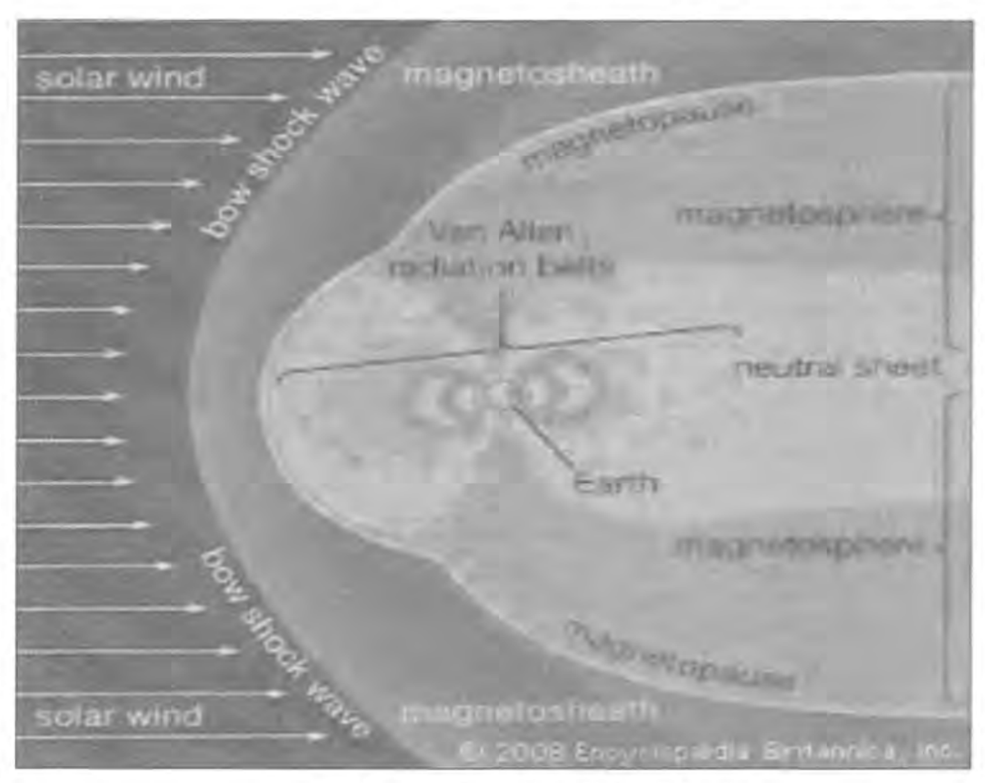
﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١].

فهو سبحانه القاهر الجبار المهيمن بقوته وسلطانه على هذا الكون، ونحن عباد ضعفاء جهلاء بما يجري فيه، نعرض أنفسنا لغضبه وعذابه بمخالفة أمره وبما نخطئ في الليل والنهار نشعر أو دون أن نشعر. والملائكة تسبح بحمده وتستغفر للمؤمنين التائبين ولمن في الأرض وتدعوه أن يغفر لهم ويقبل توبتهم ويدخلهم في رحمته وجناته:

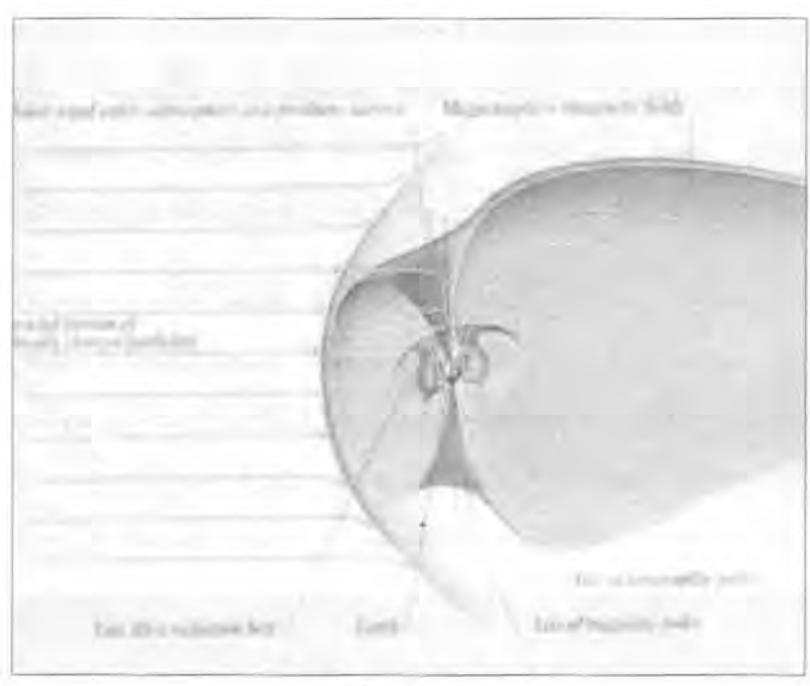
﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى: ٤، ٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٧-٩].

وسخر سبحانه لحفظ هذا التوازن الشمس والقمر والنجوم، وجعل الليل والنهار يتعاقبان لتجديد النشاط وإعادة الحياة، وليبعد ما يطرأ من تعب وملل وسأم، في دورة يومية ودورة شهرية وفصلية على مدار السنة. فتتدرج الفصول بتدرج الشهور والأيام وتعود الدورة دون تغيير مفاجئ يؤدي إلى موت الأحياء والنبات. وهذا من لطفه بخلقه سبحانه.



الصورة عن: www.britannica.com



أحزمة فان ألن الإشعاعية

[الصورة عن: universe-review.ca]

والله سبحانه بسط الأرض للإنسان ليتخذ منها طرقاً منبسطة لمصالحه وتنقلاته ولو جعلها كلها وعرة كالجبال لتعسرت الحياة:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾ [نوح: ١٩].

وهكذا وهي في عظمتها وسعتها يحس المرء بأنها مبسوطة وفسيحة، وهي مفروشة بأنواع النباتات:

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٨].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢].

وألقى سبحانه في الأرض الجبال الرواسي لإرساء الأرض وإقرارها دون أن تميل في حركتها ودورانها ودون أن تتذبذب فتكون خطراً يقذف كل ما على ظهرها من بناء وأحياء - كما ذكرنا ذلك في الفصل الثاني - فهي إذن تعمل كثقالات توازن عظيمة ألقاها الله في مواضع مختلفة من الأرض لتوازن الاختلافات في توزيع أوزان الأرض بموادها وتضاريسها المختلفة. والإرساء بهذه الأوتاد أيضاً هو لتثبيت طبقات وقشرة الأرض من الحركة الأفقية الناتجة عن الذبذبة، حيث أن شدة وسرعة دوران الأرض (١٨٠٠ كم في الساعة) وهي بهذه الكتل العظيمة يؤدي إلى زحف القشرة الأرضية. وكذلك لحفظها من تأثير الطبقات الحجرية الحارة تحت القشرة وحركة البراكين أو الحركة الناتجة عن جذب القمر وغير ذلك، فهذه الجبال الرواسي تمنع حركة القشرة كما لو أنها تثبت بالأوتاد. ويخاطب الله عبده ويذكره بنعمة التمهيد وبهذه الأوتاد: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٦، ٧].

فإقرار الأرض هذا وإرسائها بهذه الجبال العظيمة بأوزانها ومواقعها الصحيحة التي تمنع ميلها وتذبذبها هو من جملة نعم تمهيد الأرض وهو من خلق الله الذي ذكره سبحانه في الآية من سورة لقمان وقال في آخرها:

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾ [لقمان: ١١].

ليتفكر الإنسان في قدرة خالقه ونعمه، وليبصر مدى الضلال الذي يقع فيه الظالمون المكذبون الذين توعدهم الله بالويل:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٨].

ويذكر سبحانه بهذه النعم كلها لينبه الإنسان لكي ينظر ويتفكر ثم

ليبصر ويتذكر: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٧، ٨].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾ [الغاشية: ١٧-٢١].

فهي مسطحة ممتدة راسية يستقر الإنسان عليها ولا يحس بقوة جذبها له ولا يؤذيه جذبها إنما يحس بتوازنه عليها وتحفظهم بهذا التوازن على ظهرها. وطالما تجذبهم هي باتجاه مركزها وبسبب سعتها فهم لا يحسون بكونهم في أسفل الكرة أو في وسطها فلا يميلون ولا يسقطون كلا فهم باتجاه هذا الجذب يرونها تحتهم وكلما نظروا إلى أعلاهم رأوا السماء فوقهم. كما لا تؤذيهم حركتها وسرعتها بسبب توازنها واستقرارها، فسبحان المسيطر الخلاق العظيم، فمن غيره المدبر القائم على هذا الكون العظيم؟

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ [النمل: ٦١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٤﴾ [غافر: ٦٤].

وهذا كله من جملة التمهيد.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾ [الزخرف: ١٠].

لعلكم تهتدون إليه بهذه النعمة فهو وحده القادر تدبيرها وتسخيرها.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ [طه: ٥٣].

فسخرها سبحانه وذللها للإنسان ليستغلها ويستثمرها فيحرث ويزرع ويأكل من ثمر زرعه وما عملته يده:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [المُلك: ١٥].

﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧٢، ٧٣].

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس: ٣٥].

ويحفر ويستخرج منها مواد البناء ويقتطع أنواع الحجارة من الجبال فيبني ويعمر ويعمل الخير، ويحافظ على نظافة هذه الأرض الطيبة ولا يفسد فيها:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

ويحفر بعمق ويستخرج المعادن الثمينة من باطنها ويصنع ما يشاء من الحاجات وأدوات الزينة، كما سنذكره في فصل قادم إن شاء الله، ويأخذ بأسباب القوة والبأس لحماية مكاسبه معتقداته وحضارته ولحماية نفسه وأمته، ولتحقيق أهدافه بإقامة العدل والحق بين الناس، وهذا هو الأساس الذي يحفظ لهم الأمن والعيش الرغيد:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

لا ليطغى ويظلم ويتكبر ويفسد في الأرض بطراً ورياءً ويهلك الحرث والنسل:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٤٧].

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فحينما سخر سبحانه لنبيه داود وألان له الحديد ليصنع منها الدروع، أمره بأن يعمل صالحاً ولا يطغى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

ولما سخر سبحانه الريح لسليمان وأسال له عين القطر (النحاس) وسخر له الجن تعمل بين يديه ما يشاء من أسباب الحضارة أمره ومن معه بعمل الشكر والخير: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

فأمرنا سبحانه حيث مهّد لنا الأرض وسخرها لنا أن تستثمرها في الخير وفي العمل الصالح ولا نفسد فيها:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

ولو لم يكن هذا التمهيد فكم هو العذاب الذي سيتحمله الإنسان

فيها، وكيف يمكنه أن يعيش فيها؟ إن حاله ليس إلا كما لو كان سيعيش في كوكب آخر غير الأرض.

إنه سيجد كل ظروف الحياة غير ممهدة له وغير ملائمة لخلقه ولا يتحملها جسده، وسيكون مصيره العذاب أو الموت المحقق. لهذا كانت هذه الأرض العزيزة مقترنة بالإنسان ونعمة عظيمة من الله له، ولهذا نجدها تذكر دائما مع السموات لعلاقتها الوثيقة بحياة الإنسان. فهذه أرضه التي دأب العيش عليها هو وأجداده ولا يستسيغ أن ينعم بغيرها. ونحن إن فكرنا في نِعَم الله لن نحصيها:

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

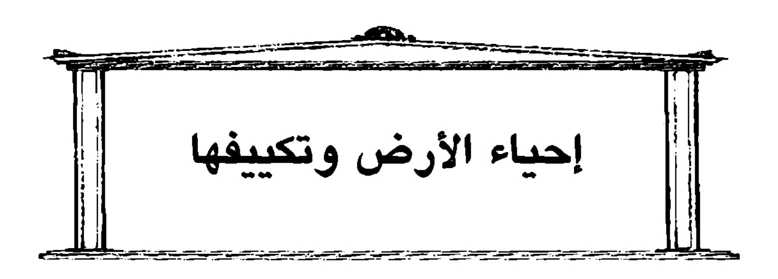
ذكر سبحانه هذه الآية بعد أن عدد جملة من النعم في تمهيد وتسخير ما في الأرض للإنسان كما ذكرها في ختام الآيات التالية:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

اللَّهم لك الحمد ولك الشكر على نعمك وكرمك ونعوذ بك من الكفار والجحود.



الفصل الرابع



إحياء الأرض وتكييفها

بعد تمهيد الأرض وتهيئتها للحياة، أنعم الله عليها بنعمة الحياة، وقد كانت ميتة لا حياة فيها. فأخرج منها الماء والنبات وأرسى فيها الجبال وخلق فيها الأحياء المختلفة وبثَّ فيها من كل دابة. وجعل هذه الأسباب الثلاثة: البحار والجنات والجبال عوامل لتكييف وتلطيف مناخها وإدامة الحياة فيها وحفظها من أن تميد وتتذبذب، وهي في الوقت نفسه منابع الخير ومخازن البركة. يقول سبحانه:

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٣٠-٣٣].

وسنتكلم عن هذه الأسباب الثلاثة متذكرين منافعها ونعم الله فيها وكيف كانت أسباباً عظيمة في إحياء وتكييف الأرض وتسخيرها وجعلها مهداً وجنة مملوءة خيراً ونعماً ومنافع لحياة الإنسان. ملأها سبحانه بالحيوانات والثمار التي منها طعامه ومنافعه، والمعادن والكنوز التي يستعملها لحاجاته وزينته، والتي يبني بها بيته وقوته، والمياه التي هي أساس حياته وحياة كل من الحيوان والنبات.

١ ـ البحار

وهي خزانات الماء العظيمة في الأرض، وقبل أن نرى كيف سخرها الله وأحيا بها الأرض، لنقف قليلًا وننظر ونتأمل في هذه المادة العظيمة المدهشة (الماء) ونتفكر في خواصها وصفاتها:

فالماء مادة الحياة، وهو المادة الأساسية الداخلة في تركيب خلايا الأحياء كافة من حيوان ونبات، وبفقدانه تجف وتموت. وهو في الأحياء يوجد داخلًا في تركيب الخلية، وفي الأنسجة، ومستقلًا كوسط ناقل للأغذية ولتسيير العمليات الحيوية لكونه مذيب جيد أمين. وهو أحد المركبات الأساسية في الدم، ويكون أكبر نسبة من مواد الأحياء وتقارب نسبته في الإنسان (٨٠ بالمائة) من وزنه. وقد خلقت الأحياء كلها منه: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور: ٤٥].

ولكونه مذيباً جيداً، وله توتر سطحي مرتفع فإنه يستطيع التسلق والصعود في قنوات النبات لينقل المواد من التربة إلى أعالي الأشجار، والماء يتجمد في درجة الصفر المئوي، بينما تبلغ كثافته أقصاها في درجة ٤ مئوية. وهو المادة الوحيدة التي تقل كثافتها عند الانجماد، وهذا مما يجعل الجليد يطفو على سطحه مكوناً طبقة عازلة تحفظ الماء تحتها في درجة كثافته القصوى (٤ مئوية) بما تعطيه من حرارة عند التجمد فتترك الأسماك والأحياء المائية الأخرى لتعيش تحته بسلام وبأكبر كمية من الأوكسجين! فتأمل حكمة الباري.

وللماء خاصية التنافذ والحلول، فهو يتنافذ ويدخل في أدق الثقوب والأنابيب ومن خلال الأغشية النفاذة، ولذلك فوائد عظيمة في حياة الإنسان

والحيوان، فلولا هذه الخاصية لتصلبت شرايين الإنسان وجفت أنسجته وتوقفت أجهزته وما استطاعت خلاياه من التغذي فيتحقق عند ذلك موته وكذلك موت بقية الحيوانات. ولما استطاعت الجذور من امتصاص الماء للنباتات ومعه الأملاح المعدنية الذائبة من التربة وإيصالها إلى الأوراق، فيتسبب ذلك في موت النباتات أيضاً.

وللماء ضغط بخار مرتفع وقد استفاد الإنسان من هذا الضغط في تحريك القاطرات والسفن والمكائن البخارية.

لقد لاحظ الإنسان منذ القدم أن نقاط الماء الساقطة تثقب الحجارة فاستفاد من قوة المياه الساقطة والشلالات في تشغيل المكائن الضخمة لتوليد الكهرباء. وحديثاً في صناعة مكائن ضغط ضخمة تضغطه فيخرج من صنبور ضيق خيطاً يقص المعادن!

ولاحظ أن الصخور تتشقق فيخرج منها الماء في الأيام الباردة وذلك عند تجمده وزيادة حجمه فتتكون له طاقة عظيمة تشقق الصخور وتعمل الحرارة الناتجة على إذابته فيخرج منها ماءً:

﴿. . . وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

وللماء قابلية تبخر في أغلب درجات الحرارة، وهو بذلك يساعد على تكوين الغيوم التي تثيرها الرياح فوق البحار وتسيرها إلى ما يشاء الله من أماكن هطولها فتحيي الأرض بعد موتها، وتسقي النبات والحيوان والإنسان، وتنعش وتلطف جو الأرض حتى تتم دورة الماء هذه في الطبيعة.

ومن خواصه الكيميائية أنه يتألف من غازين، الأوكسجين والهايدروجين بنسبة ٢:١ لكنه لا يوجد بحالة غاز وإنما بحالة سائل، فهو

سائل لطيف عديم اللون والطعم والرائحة، وهذه هي شروط الماء الصالح للشرب. وقد سبق بها المسلمون فهي الشروط الفقهية لطهارة الماء المستعمل للوضوء والشرب والتطهير عموماً. جاء في الحديث النبوي الشريف:

«إن الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب على ريحه وطعمه ولونه»[١]، وللبيهقي:

«إن الماء طهور إلا إن تغيَّر ريحه أو طعمه أو لونه بنجاسة تحدث فيه».

وهذا الماء اللطيف يمكن أن يتحلل بالتيار الكهربائي أو بالحرارة العالية إلى مكوناته الغازية، وباجتماعهما تنتج حرارة عالية تسمى (الشعلة الأوكسي هيدروجينية) التي تستعمل في قص ولحيم المعادن. فانظر إلى مزاياه العجيبة، فهو يطفئ النار لكنه يصبح ناراً قوية إذا ما أريد به إطفاء نار عظيمة يمكنها تحليله إلى مكوناته الغازية. وله حرارة تصعيد عالية تصل درجة حرارة بخاره إلى ٥٠٠ درجة مئوية.

ولهذه الخواص التي ذكرناها منافع عظيمة في دورة هذا الماء وفي تكوين الغيوم والأمطار وإحياء الأرض بالسيول والأنهار وتكوين البحيرات والعيون وتكييف جو الأرض.

تسخير البحار والماء في إحياء الأرض وتكييفها

وهو ما اصطلح عليه بدورة المياه في الطبيعة، هذا المصطلح البارد الميت الخالي من الشعور بالنعمة أو ذكر المنعم.

«ولم تكن دورة المياه في الطبيعة مفهومة عند علماء الطبيعة حتى عام ١٥٨٠ ميلادية حيث أكد برنارد باسيلي أن المياه الجوفية تأتي من تسرب ماء

---

(١) أخرجه ابن ماجه: ٥١٤.

المطر في التربة، وقد صادق ماريت وبيرو على هذا الرأي في القرن السابع عشر»[1].

وقد سبقهم المسلمون بهذه المعرفة بعشرة قرون حيث قد وضحها لهم القرآن توضيحاً كاملًا في عدد من الآيات الكريمة. وهي تسبق بدقة وشمولية آخر ما توصل إليه علم الهايدرولوجيا الحديث عن هذه الدورة كما سيأتي.

جعل الله سبحانه البحار في الأرض تغطي ثلاثة أرباع سطحها، وبكميات وافرة جداً لتنعم بها الأرض إلى يوم الوقت الموعود. وفي هذا التقدير حكمة ورحمة، ذلك تقدير العزيز العليم.

أما كيف يدور هذا الماء وتحيا به الأرض، فتصفه لنا الآيات الكريمة التالية التي نزل بها القرآن قبل أربعة عشر قرناً.

فعن تشكيل السحب وبسطها في السماء وتصادمها وحدوث البرق والمطر يقول سبحانه:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم: ٤٨].

والودق هو حبات الماء المتجمد التي تنزل ثلجاً كحبات اللؤلؤ من خلال البرق.

كسفاً: أي قطعاً.

وعن تشكيل الغيوم العظيمة المتراكمة المكونة من أطنان الماء كالجبال وحدوث البرق عند تصادمها وخروج الودق ونزول الرحمة (المطر) يقول أيضاً:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ

(١) انظر كتاب التوراة والإنجيل والقرآن والعلم لموريس بوكاي ص/ ٢١٢.

مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النُّور: ٤٣].

يزجي: بمعنى يحرك ويدفع.

الركام: السحب المتكاثفة المتصادمة.

إن البرق هو الضوء الشديد المنبعث من التفرغ الكهربائي الحاصل عند تراكم السحب التي تحمل شحنات موجبة وأخرى سالبة ويؤدي إلى تكوين أكاسيد النتروجين الذي في الجو، فيهبط بها المطر أو الثلج إلى الأرض لتغذي النبات وتسمده وتنميه بشكل زائد أي مبارك كما سماه سبحانه:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ [ق: ٩].

إن هذه الأمطار هي أفضل طريقة للسقي (السقي بالرش) ولولاها لاحتجنا إلى ملايين الأطنان من الماء لسقي مزارع قليلة من الأرض، ولما استطعنا ضخه هكذا في كل مكان لتكييف جو الأرض، ولتعذر علينا نقله إلى تضاريس الأرض المختلفة ولبلغ بنا نصباً وكلفنا جهداً لا يطاق.

وتوفر لنا هذه الأمطار في الوقت نفسه ماءً مجمعاً للسقي في منخفضات من الأرض كالبحيرات، وسيولًا وأنهاراً فوق سطح الأرض وتوفره مختزناً في جيوب الأرض بعد تسربه إليها مكوناً العيون والينابيع، وهذه العيون تساعد وتوفر أيضاً خزيناً احتياطياً لسقي الإنسان والحيوان والنبات في أي وقت من السنة:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرّعد: ١٧].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزُّمَر: ٢١].

وقد كانوا في الغرب حتى القرون الوسطى يظنون بأن مصدر ماء الينابيع يأتي من تجاويف الأرض(١).

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس: ٣٣].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٤].



غيوم متجمعة وعاصفة (إعصار فيه نار)

[الصورة عن: www.amtelecom.net]

---

(١) انظر المصدر السابق لموريس بوكاي ص/ ٢١٢ التوراة والإنجيل والقرآن والعلم.

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾ [يس: ٣٥].

ثم هو سبحانه ينزله بقدر حسب لطفه ومشيئته:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝١٨﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾ [الزخرُف: ١١].

ولو أنزله بمقادير أكبر لأصبح نقمة وعذاباً. وما أضرار الفيضانات السنوية في العالم بغريبة عنا. وربما يكون أكبر ما حدث في التاريخ هو العذاب الذي أرسله الله على قوم نوْح، فأغرقهم أجمعين إلا ما حمل نوح في سفينته. وما نحن إلا من ذرية ما حمل في هذه السفينة.

وكذلك لو أمسكه لقلت الأمطار ولأصبحت الأرض مجدبة، ولحصل المحل والجفاف والقحط عند الناس وتغير جو الأرض وارتفعت حرارتها، كما عاقب به سبحانه أصحاب يوسف، سبع سنين من القحط والجفاف.

ثم هو سبحانه ينزله نقياً مقطراً طهوراً:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝٤٨﴾ [الفرقان: ٤٨].

﴿لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾ [الفُرقان: ٤٩].

كذلك فهو ينزله عذباً فراتاً بعد أن خرج من البحر المالح، فالمطر هو مصدر الماء العذب في الأرض:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾ [المرسَلات: ٢٥-٢٨].

ولولا ذلك لاحتجنا إلى المعامل الضخمة والمبالغ الطائلة لتصفيته ونقله، ولما أمكن توفيره إلا بكميات يسيرة لا تكفي لحاجة أي من الإنسان أو الحيوان أو النبات. ولولاه لأصبحت الأرض قاحلة ماحلة جرداء، ولأصبح الهواء خالياً من الرطوبة، ولأصبحت الحرارة لا تطاق وأصبحت الأرض ليس فيها أثر للحياة.

فانظر إلى تسخير الله جلت حكمته، جعل البحار والبحيرات في مساحات شاسعة من الأرض وسخر الرياح وحرارة الشمس تعملان على تبخير الماء وتحريكه وإثارته وسوقه كغيوم تتآلف وتتراكم في الجو، فإذا لامستها طبقات الهواء الباردة، أو صدمتها قمم الجبال الشامخة الباردة، تكاثفت وسقطت على هيئة قطرات من الماء أو على هيئة برد أو بللورات من الثلج، وفي أثناء سقوطها يقابلها الهواء فيبعثرها وتنزل ثجاجة لطيفة بلطف الله، ولا تنزل قطعاً كبيرة أو ثقيلة فتهلك من تسقط عليه من إنسان أو حيوان أو نبات:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبإ: ١٤-١٦].

أي ماءً غزيراً مبعثراً متتابعاً وليس مرة واحدة، بل بزخات من المطر لنخرج به الحب والنبات وتروي به الجنات.

وعند حدوث البرق يتغير جو الأرض وينتشر فيه الأوكسجين المتأين السالب بأحجام هائلة، وهو الذي يعزى إليه السبب في إنعاش الحيوان والنبات على السواء، ويزيد في الصحة والنشاط. وأما النتروجين الذائب النازل مع الماء والثلج فسيصلح التربة ويزيد في خصوبتها ويزيد في نمو النبات وهذه البركة مشاهدة بسقي الأرض بالمطر مباشرة فتربو المزروعات

والحشائش بشكل يفوق نموها بالسقي الاعتيادي. وهذه المنافع المذكورة هي جزء من الرحمة الواردة في الآية:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم: ٤٦].

وفي تسخير الشمس لإنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات:

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبإ: ١٣-١٦].

كل هذا التدبير يمثل عجلة الحياة وعجلة التوازن في هذه الطبيعة، وهي من نعم الله اللطيف الخبير.

ويذكرنا سبحانه بالنعم التي يمكن أن تجنى من هذا الماء بحراً عظيماً في الأرض:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

وعندما يتمتع الإنسان بصيد أنواع الأسماك والأحياء البحرية، وعندما يغوص في أعماق البحر ويستخرج اللؤلؤ والمرجان وأدوات الزينة والحلي، وعندما يرى سفنه تجري في نقل سهل رخيص وتربح تجارته، عليه أن يشكر ربه على هذه النعم ولا يكون كالغافلين. فمن الذي سخر لكم هذه النعم:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء: ٦٦].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١].

كذلك نرى آثار هذا التوازن العظيم في الأحياء والمخلوقات، حيث خلق سبحانه لها الآفات وسلط على كل صنف أعداءه لكي يحد من تكاثره وطغيانه، ويقيده إلى حدود معقولة متوازنة. فذكور الأسماك وغيرها من الأعداء مثلًا تلتهم بنهم شديد البيوض كثيرة العدد التي تضعها الأنثى، وتأكل السمك الصغار، فجعله غذاءً لنموها، ولولا ذلك لامتلأت البحار بالأسماك وفاضت به ودب النتن والفساد وامتلأت الأرض جيفة. كما أن أي صنف من هذه المخلوقات عند فقدانه، يفسح المجال لتكاثر الصنف المعادي له فيزداد ضرره ويحدث خللًا في التوازن.



غيوم متراكمة محدثة البرق والمطر

[الصورة عن: ...www.weatherquestio]

فسبحان مدبر الأمر:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القَمَر: ٤٩].

﴿... وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرّعد: ٨، ٩].

وقبل الختام سيدي القارئ أدرج لك وصف الشيخ نديم الجسر الذي جاء بكتابه قصة الإيمان في موضوع الإنبيق الأعظم تذكيراً بهذه النعم حيث يقول:

وهكذا ترى أن الله سبحانه خلق الخلائق والنواميس وجعلها بقدرته وحكمته تتلاقى ويفضي بعضها إلى بعض ويؤازر بعضها بعضاً في تسيير آلة هذا الكون العظيم.

فجعل الماء أصلًا لحياة النبات والحيوان. وجعل المطر الدوري وسيلة لسقي الأرض في وقت حاجتها. وجعل البحر معيناً دائماً للمطر. وجعل التبخر والتكاثف وسيلتين لتكوينه وإنزاله. وجعل هذا البحر نفسه مخزناً للطعام وطريقاً للتجارة وحاملًا للفلك التي تجري بما ينفع الناس على أساس قانون يتحكم في الماء والهواء على السواء، فيرفع السفن العظام الثقيلة كما يرفع الأبخرة الخفيفة.اهـ.

ولنا أن نعلم بعد هذا قدسية هذه المادة العظيمة التي جعل الله عرشه عليها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هُود: ٧].

فتفكر أين يكون هذا الماء وما مقداره وما هيئته وعظمته؟ إن ذلك في علم الله وغيبه وخزائنه التي لا يعلمها إلا هو، جلت عظمته وجل جلاله.

وليس لهذا الإنسان الصغير إلا أن يقف خاشعاً ذليلًا أمام هذه العظمة وهذا الجبروت، وليعلم أن في هذا الكون أسراراً لا تنتهي وعلماً لا حدود له وآيات لا تنفذ، ولكي يؤمن بالخالق وبقدرته على الخلق والبعث، فيخبت له قلبه ويطيع ويستقيم ويحسن العمل. وحيث لا يزال الذين كفروا في مرية منه ومن البعث! لذلك كان تمام الآية السابقة:

﴿... لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هُود: ٧].

وهكذا يزيد القرآن الإنسان علماً، ويفتح له آفاقاً لا تنتهي، لينطلق تفكيره سارحاً دون قيد في الآفاق وفي كل اتجاه:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطّلَاق: ١٢].

٢ ـ جنات الأرض ومراعيها

لقد فرش الله الأرض وأحاطها بجنات غناء من أنوع الأشجار والشجيرات ومن أنواع الأحراش والأدغال والمراعي الواسعة والنباتات البرية والحشائش الخضراء والتي ما تلبث أن تأتيها الأمطار حتى تنبت الأرض بها من جديد وتتزين وتكتسي بحلة خضراء زاهية فترعى فيها المواشي وتسيم فيها الأنعام.

وكسى الجبال بالأشجار العالية العظيمة غير المثمرة ليستفيد الإنسان من أخشابها في مسكنه وأثاثه وحاجاته. كما كساها بالأشجار المثمرة، أشجار الثمار الصلبة الدهنية والبروتينية كجوز الهند والجوز واللوز وغيرها من الثمار الغذائية الكثيرة ولهذه الأشجار الجبلية تأثير كبير في تلطيف وتكييف مناخ الأرض.

كما أغنى سبحانه قطعاً متجاورات من الأرض بالأشجار المثمرة والجنات الغناء كالتي حول البحر المتوسط وغيره:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرّعد: ٤].

وفي عموم الأرض ينقل الإنسان وينشئ الحدائق وبساتين النخيل والزيتون وأشجار الفاكهة المختلفة، وفي هذه الأشجار والنباتات البرية الأخرى وما يزرعه الإنسان منافع وغذاءٌ له وللحيوان على السواء، كما فيها المنافع في تكييف وترطيب وتلطيف جو الأرض وتنقية الهواء.

وهي بهيئتها تسر الناظرين وتدخل البهجة في قلوبهم بما فيها من آيات الجمال وحسن المنظر، وبما تلطف الجو بالرطوبة والأوكسجين وتشرح النفس. وعلاوة على ذلك فهي مرعى ومطعم ومأوى لأنواع الحيوانات والأنعام والطيور التي لا تحصى، لتزيد في بهجتها ومنافعها للإنسان. ألا يستدعي منا النظر والتفكير في كل هذا الخلق اللطيف وهذا التدبير الحصيف:

تهزنا آياته، وترن في آذاننا كلماته سبحانه، فيحرك بها عقولنا حتى نتفكر بهذه النعم ونتدبرها، ليفتح بها قلوبنا، ويشرح بها صدورنا إلى هذه القدرة والحكمة، وإلى هذا الجلال والجمال، وإلى هذا الإكرام والإحسان الممتزج بالعزة والرحمة الواسعة التي يتودد بها سبحانه إلى عباده ليهديهم إليه، فلنتدبر طرفاً من هذه الآيات الكريمة:

١ - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرّعد: ٢، ٣].

٢ - ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٣-٣٦].

٣ - ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠].

٤ - ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبإ: ٦-١٧].

٥ - ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ [عبس: ٢٤-٣٣].

٦ - ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٥٣، ٥٤].

٧ - ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٠].

٨ - ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ

وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٧-١١].

٩ - ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل: ١٠، ١١].



7art-screensavers

ماء ساقط من عين في الجبل

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٤].

فلنتفكر في الآيات السابقة وننظر إلى القصد من التذكير بها:

إن جنات الأرض ومراعيها ونباتاتها رغم أنها تحي الأرض وتكيفها، إلا أنها بحد ذاتها غذاء ودواء لحياة الإنسان والأنعام والمخلوقات الأخرى. وإذا تذكرنا أن غذاء الإنسان الرئيسي يتكون من: مواد نشوية وسكرية، ومواد دهنية، ومواد بروتينية، لفهمنا لماذا خص سبحانه بالذكر الزرع والحب المحتوي على النشويات، وخص بالذكر الزيتون الذي يحوي الزيت، كما خص بالذكر النخيل والأعناب التي تمدنا بالسكريات. ولفهمنا كيف أن الله سبحانه أغنى الأرض من هذه الأنواع من النباتات بكميات كثيرة وجعلها تعطي محصولاً غزيراً ذلك ليتوفر بشكل سخي غذاء العباد. أليس ذلك من لطفه ورحمته بعباده؟

وأما المواد البروتينية فلم يذكرها مع النباتات ولو أنها متوفرة في كثير من الثمار الصلبة الدهنية والبورتينية، إلا أن الكميات العظمى منها متوفرة بكثرة في لحوم الأنعام وألبانها، وفي لحوم الأسماء والأحياء البحرية الأخرى. لذلك خصها بالذكر كما خص ما تحتويه المواد الأخرى الموجودة في النباتات:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: ٢١].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣].

والأنعام هي ثمانية أزواج كما ذكرت في سورة الأنعام حمولة وفرشاً:

فالحمولة التي تتحمل النقل والعمل، أربعة من الإبل اثنين ذكر وأنثى، ومن البقر اثنين أيضاً. والفرش هي الوطئة كالمفروشة في الأرض وهي أيضاً أربعة، من الضأن اثنين ومن المعز اثنين:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٦].

لقد تبيَّن للعلماء أن الغدد التي تفرز اللبن في الضرع، إنما تستمد قوتها من المواد الأولية لهذه العناصر المهضومة من الغذاء التي يحملها الدم إليها. وأن عمل الغدد في تحويل هذه المواد المحطمة (الفرث) إلى ألبان إنما هي من أسرار قدرة الخالق!

ونستمد من الأسماك والأحياء البحرية اللحوم البيضاء الطرية سهلة الهضم وهي متوفرة بكميات هائلة في البحار المالحة والبحيرات الحلوة والأنهار على السواء: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فَاطِر: ١٢].

فانظر إلى العلم والحكمة في خلق هذه النعم وكيف جاء التذكير بها والتي تمثل الأغذية الأساسية الضرورية لبناء جسم الإنسان وكيف وفرها سبحانه بكميات وبكرم وسخاء:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٧، ٨].

بذور لا تحصى، تحمل عوامل التزاوج والإنبات لثمار طيبة كريمة، وتحمل ثمارها بذوراً بكميات كريمة سخية، لتحفظ النوع مهما طرأ عليها من عوامل التلف وأسباب الفساد والضياع: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ١٩].

موزون بدقة وحكمة، في تركيب ثماره ونسب محتوياتها، وبما يستسغيه الذوق وتطلبه الحاجة، وبما يدوم به ويستمر إنباته فلا ينقطع.

ثم بعد ذلك بما يبهج النفس ويبعث فيها السرور: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠].

لقد ثبت لعلماء النفس والبيئة بأن الحدائق الغناء بجمالها وأزهارها تبعث في النفس البهجة والسرور، وكذلك النظر إلى الحيوانات الأليفة الجميلة ومحبتها ومداعبتها تروح النفس وتشفيها من أمراض نفسية كثيرة، مصداقاً للآيات السالفة الذكر: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل: ٥،٦].

أما المراعي الواسعة والحشائش الحولية والأحراش البرية، فانظر إلى أنواعها وكمياتها من البذور التي تملأ الأرض وتصفر وتجف ثم تأتي المطر فتنشرها من جديد لتذكرنا بالبعث والنشور، وتخضر بها الأرض وترعى بها الأنعام والحيوانات الأخرى التي لا نقدم لها غذاء ولا نصنع لها طعاماً!

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾ [الحجر: ٢٠].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣﴾ [الحج: ٦٣].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [فصلت: ٣٩].

ومما يزيد في بهجة هذه الحدائق والجنات، ما يغشاها من أنواع الطيور ذات الألوان الزاهية والأشكال الجميلة المنظر، والطيور المغردة الأخرى ذات الأصوات اللذيذة الحسنة. وما لهذين الصنفين من جمال ولذة يهواها الإنسان ويتذوقها، لكنه قليلًا ما يتذكر بديع صنع الباري فيها، وقليلًا ما يفهم أنها في تغريدها إنما هي في صلاة تسبح لبارئها بدوام وانتظام كل حسب صلاته وميقاته، وهي بذلك أيضاً تعطي للسامع درساً لعله يغار منها فيكون كالشاكرين المسبحين!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

لقد سجل الباحثون المراقبون لأنواع من الطيور المغردة فخرجوا بقائمة مدهشة من دقة المحافظة على أنواع التغريد في أوقاته المحددة والمتكررة دون تغيير، فسبحان من تسبح له الخلائق!

٣ ـ الجبال:

من علائم الأرض البارزة، هذه الجبال التي إذا ما وقف المتأمل تحتها، أحس بالرهبة والدهشة لعظمتها وارتفاعاتها الشاهقة وضخامتها. لا بل استصغر نفسه أمامها. إن ذلك يذكر بعظمة وقدرة خالقها، لذا كان رسول الله ﷺ يوصي الحجاج والمسافرين بالتكبير عند كل شاهق! هذا هو التذكير والذكر للمؤمنين.

والجبال مظهر أو نهاية بارزة فوق الأرض للطبقات الجيولوجية الصخرية الصلبة الممتدة بشكل مائل تحت الأرض كجذورها الأصلية. فسماها سبحانه بالأوتاد، كما سمى أهرام فرعون بالأوتاد لأنها تشبه الجبال من حيث غور أسسها بعمق في الأرض وهو قوله سبحانه: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر: ١٠].

وظيفة الجبال في تكييف جو الأرض:

ذكرنا سابقاً أن للجبال وظيفة رئيسية هي إرساء الأرض وجعلها قراراً فلا تميد ولا تحيد ولا تتذبذب بأهلها، لكن الله سبحانه لم يجعلها حجارة صماء، وإنما جعلها جنة غناء، مملوءة بالخيرات، وجعل الماء والثلوج والرطوبة والضباب والبرد يملؤها حتى قممها. وجعلها سبباً وعاملًا كبيراً في تكييف جو الأرض. فارتفاعاتها الشاهقة وسفوحها العظيمة تقوم بصد طبقات

الغيوم الكثيفة التي تصطدم بها - وهي باردة بما فيها من الرطوبة والثلج - فتكون سبباً في إنزال المطر. وهي محطاً للرطوبة والبرودة والثلج ومتشبعة بها هي ونباتاتها التي تكسوها. ومن نعم الله في هذه البيئة أنه ينزل طعاماً حلواً لذيذاً للإنسان هو المن، كالذي أنزله سبحانه على بني إسرائيل مع طائر السلوى. وكذلك يتكون نوع من العسل على أوراق نباتاتها ويسمى عسل الندوة يأتي من إفرازات حشرة المن وبعض الحشرات القشرية الأخرى. وترى الرطوبة والضباب الذي يظهر حولها وكأنه دخان بارد ينعش جوها البهيج، وكأنها جنة لا يحب الإنسان أن يغادرها، ونزلًا لا ينبغي عنها حولًا.

ونراها تحتفظ ضمن طبقاتها الصخرية الباطنية بالماء وكأنها الأحواض فلا يتسرب منه إلى الأسفل بل تتشبع التربة به ويخزن الزائد منه أسفلها ويخرج أحياناً من الجوانب على شكل عيون أو ينابيع. وهذا هو سبب وجود الأشجار والنباتات في أعاليها وعلى سفوحها، فهي تسقى من هذه المياه المخزونة. ويكون لهذه النباتات التأثير العظيم في الاحتفاظ بالرطوبة ونشرها وفي تلطيف الجو والمناخ بالأوكسجين اللازم للحياة.

كذلك تعمل على خزن المياه من الغيوم المارة عليها ومن رطوبة الجو وتحيله ثلجاً كثيفاً في قممها وسفوحها الباردة. وبسبب شدة هذه البرودة فهي تحتفظ به مدة طويلة كيما تشتد حرارة الجو فيذوب تدريجاً ويتحول ماءً عذباً تمد به الأنهار في الربيع وفي أوقات الفيضان، فهي السبب الكبير في تكوين مياه الأنهار.

ومن منافعها أيضاً ما بث فيها سبحانه من الحيوانات المختلفة في سفوحها وكهوفها، وجعلها مأوىً لها وللطيور المختلفة. ومن هذه الحيوانات ما هو نافع للإنسان ولطعامه ومنها ما هو ضار له وخطر على حياته، لكنه

بمشيئته وتقديره سبحانه لازم للتوازن الطبيعي في الأرض، فلكل آفته التي تحد من طغيانه وتجاوزه. هذه حكمته سبحانه، ليتعلم الإنسان ما ينفعه فيأخذه ويستفيد منه، وما يضره فيجتنبه ويتقيه.

وكل هذا التمهيد والتكييف لإحياء الأرض يستدعي النظر وإعمال الفكر حتى ينتبه الإنسان إلى كنه المخلوقات حوله، كيف خلقت، ولم خلقت ويتعلم ويفهم، ولا يمر كالسادر الغافل الذي أغلق قلبه وأغمض عينيه وأصم أذنيه، فأسكرته الطبيعة وغلب عليه دوام المعتاد وأخذه تداول الأيام، فلم يعد يحس بما حوله من شيء جديد يوقظ غفلته، ولا من حدث يثير انتباهه.

تأثير الجبال في تكييف جو الأرض



الجبال مكسوة بالأشجار والنباتات وأثرها في تلطيف جو الأرض وتزويده بالأوكسجين

[الصورة عن: www.free-slideshow.com]



ذوبان الثلوج من سفوح الجبال، وتعديل الحرارة وإمداد الأنهار بالماء
[الصورة عن: www.starstore.com]

إن تكييف الأرض وجعلها جنة يحيا فيها الإنسان، والحيوان، والنبات هي لخدمة الإنسان. هذا الكائن العاقل، هو المقصود بهذا التمهيد والتكييف وبهذه النعم. فهو الذي تحمل الأمانة وتبلغ بالرسالة بسبب هذا العقل الذي منحه الله إياه وابتلاه به، بعد أن أبت السموات والأرض والجبال من حمل هذه المسؤولية وأشفقن منها:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

القصد من التذكير بهذه النعم:

إذا راجعنا الآيات مارة الذكر، ونظرنا ما جاء في أولها أو تعقيباً في آخرها، لوجدنا أن فيها دعوة للتفكير والتدبر بقدرة الخالق ولطفه ورحمته

الذي وهب هذه النعم، أو إلى حمده وشكره، أو إلى التنبيه ليوم النشور والاستعداد ليوم الحساب، أو إلى أنه هو الذي وهب هذه النعم وهو وحده القادر على ذلك.

وأن نعيش يقظين أحياء، نبصر ما حولنا من نعم الله التي تهدينا إليه فنحمده ونشكره، ونعرف حق الله علينا فيها.

أفلا يكون من حسن الأدب واللياقة أن يُشكر المحسن على إحسانه؟ وأن يُشكر المنعم المكرم على إنعامه وكرمه؟

وتكريم مثل هذا من ملك قادر عظيم، لعبد مخلوق له صغير، أفلا يستحق من هذا العبد شكر خالقه ٱلذي كرمه ونعمه، أفلا يستحق إخلاص العبادة له وحده؟

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

أفلا يجب علينا الركوع والسجود، والحمد والتسبيح، والخشية والخشوع لله رب العالمين؟

إننا عاجزين حقاً عن شكر هذه النعم، أو عن الوفاء بها لو سجدنا وعبدنا العمر كله!

لكننا نرجوه وندعوه سبحانه أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، ويتقبله منا ويبارك لنا فيه، ويتطاول علينا برحمته ويهبنا نعمه التي لا نقدر على وفائها، إنه هو العزيز الوهاب:

﴿. . . رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

والله سبحانه بعد ذكر هذه النعم، يذكر الإنسان بأن حياته عل هذه

الأرض مؤقتة بأجل مسمى، سوف تنتهي به إليه. فليتهيأ ليوم الخروج، يوم النشور، يوم الفصل والميقات:

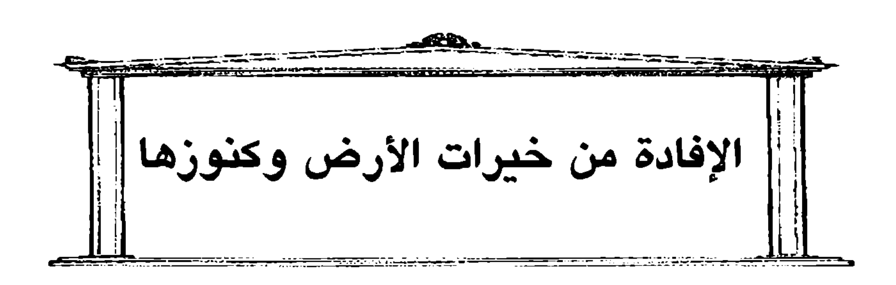
﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبإ: ١٧، ١٨].

وأن جنات الأرض ما هي إلا صورة مصغرة جداً لجناته في السماء، كنسبة هذه الحياة القصيرة إلى حياة الأبد! فليحسن العمل وليستعد للقاء ربه:

﴿. . . فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].



الفصل الخامس



الإفادة من خيرات الأرض وكنوزها

في هذا الفصل نذكر بعض الإشارات القرآنية وما يستنبط منها، في الإفادة من خيرات الأرض وعلومها وكنوزها. ومهما طور الإنسان دراسته، وصنع الوسائل والأجهزة، وأسس المعامل للاستخراج والتصنيع، ازدادت فوائده ومنافعه وازدادت خيراته منها.

أ ـ في الإفادة من معادن الأرض والجبال

١ ـ من الحجارة والطين والرمل:

تشير الآية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القَصَص: ٣٨].

إلى أن صناعة الطابوق من الطين المفخور كانت مستعملة في زمن فرعون.

كما تشير الآية: ﴿... فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤].

أن الصفوان وهو (الرمل) إذا خالطه تراب (وهو مادة أنعم من الرمل ومتدرج في النعومة نحو الأصغر فالأصغر) تداخل بينه وملأ فراغاته، فإذا أتاه الماء أو المطر، عملت المواد الناعمة التي في التراب مع الماء عمل المادة اللاصقة فنحصل بالتالي على كتلة صلدة كالحجارة. وهذه النظرية اكتشفها العالم (مكادام) وهي هنا قد ذكرت في القرآن قبله بقرون، ولكن ليس ثمة من يثبتها ويعلنها في مجمع علمي أو تقني. ولا تزال تستعمل في صناعة الطرق وتسمى الطبقة باسمه. كما تستعمل هذه النظرية في صناعة الإسمنت وإعداد المواد الأولية بتحليل التدرج في المناخل لخلطها بالنسب التي تعطي أكبر قوة لحجارة الإسمنت (الكونكريت).

كذلك وجد بأن الطين لا يمكن رصه ودكه إلى كثافته العظمى إلا بوجود نسبة من الماء فيه، يعجن بها وتسمى حد أتربيرك. ويمارسها المهندسون في إنشاء طبقة ما تحت الأساس في الطرق، وفي إنشاء القلب الصلد للسدود الترابية.

٢ ـ فيما تحويه الجبال من المعادن كالحديد والنحاس والذهب وتتميز بألوانها وتشير إليها الآية:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

وكما تحث على دراسة الجبال ومعرفة أسباب اختلاف ألونها، كذلك تحث على دراسة وفهم أسباب اختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام ودراسة البيئة لكل منها ومعرفة هذه العلوم التي تؤدي معرفتها إلى خشية الله.

وفي الإشارة إلى استخدام الحديد ومنافعه:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

وفي النحاس الذي كان يعمل لسليمان ما يشاء من صناعات بإسالته:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

وفي كافة المواد التي تستخرج من باطن الأرض تشير الآية مثلاً:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٦٥].

٣ ـ من قطع الحجارة والمرمر للبناء والتعمير:

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤٩].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

وتشتمل هذه على قطع المرمر والأحجار الثمينة والماس وكل ما يمكن استخراجه لأغراض الزينة والتجارة.

٤ ـ وفي عموم المواد المعدنية والمركبات الكيميائية وكلما ينفع ويمكن

استخراجه من باطن الأرض ومما تحت قعر البحر الذي تركزت فيه المواد مما تجرفه إليه السيول والأنهار، تشير إليه الآية:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرّعد: ١٧].



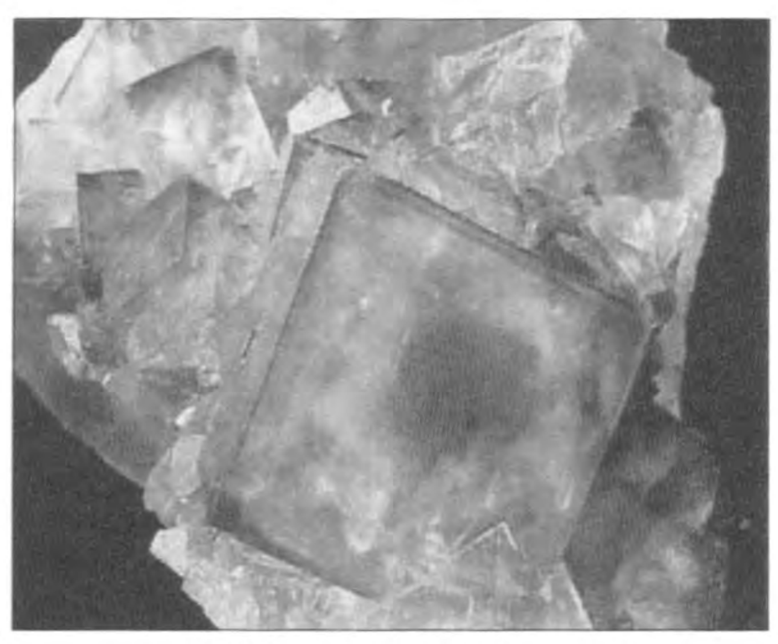
الماس في الأعماق - منجم الماس في جاوة

[الصورة عن: www.javafaq.nu]



الماس

[الصورة عن: Forum.amrkhaled.net]



حجر كريم: فلورايت ودوكلاس

[الصورة عن: skywalker.cochise.edu]



أنواع من الأحجار الكريمة المعدنية المستخرجة من الناجم

[الصورة عن: ...www.heavenlycascad]



معادن وأحجار كريمة من باطن الأرض

[الصورة عن: www.bgsd.k12.wa.us]



صورة لذهب مستخرج من باطن الأرض

[عن: www.gold-prices.biz]

ب ـ في الإفادة من الحيوانات وسوائم الأرض

١ ـ من الأنعام، من لحومها وألبانها وأصوافها، وحتى عظامها:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: ٢١].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٦].

٢ ـ من الطيور: من لحوم الطيور الداجنة وإنشاء المداجن الخاصة بها وتربية أصناف أخرى للزينة وغيرها كالصقور للصيد الخ. وللدلالة على جودة لحومها أنها جعلت من طعام أهل الجنة:

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة: ٢١].

٣ ـ من حيوانات العمل والنقل:

كالبغال والفيلة والأبقار والجمال والحمير، ولا تزال تستعمل في الأراضي الوعرة والجبال والمزارع:

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٧، ٨].

٤ ـ حيوانات الحراسة والصيد والتجسس العسكري

تستخدم الكلاب في الحراسة والصيد ويستخدم بعضها في تتبع واكتشاف الجريمة لقوة حاسة الشم فيها. وتشير الآية في استخدام الكلاب للصيد، حيث تذهب فتأتي بالصيد إلى صاحبه دون عناء:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: ٤].

واستخدم الوز في الحراسة من قبل الجيش الألماني لشدة تحسسه بالحركات القريبة، واستخدمت الصقور في التجسس والاستطلاع.

ومن الآيات الدالة على استخدام الطيور في الاستطلاع استخدام الهدهد في قصة سليمان:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل: ٢٠].

وتأخر ثم أتاه بالخبر:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: ٢٢].

وقد استخدم الحمام الزاجل في نقل الرسائل عند العرب منذ القدم.

ج ـ الإفادة من جنات الأرض وحدائقها

١ ـ ثمرات الأشجار والزرع لطعام الإنسان والحيوان، ومما تنتبه الأرض:

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٢﴾ [عبس: ٢٧-٣٢].

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٦٧﴾ [النحل: ٦٧].

ويخرج من هذه الخيرات منافع وصناعات غذائية كثيرة كتصنيع الحبوب وتعليب الفاكهة وصناعة السكاكر والمربيات والعصير.

٢ ـ من النباتات البرية والعشبية في صناعة الأدوية وإنتاج الأعلاف.

٣ ـ من أوراق بعض الأشجار وأزهارها وبعض النباتات العطرية تصنع الروائح والعطور:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧﴾ [ق: ٧].

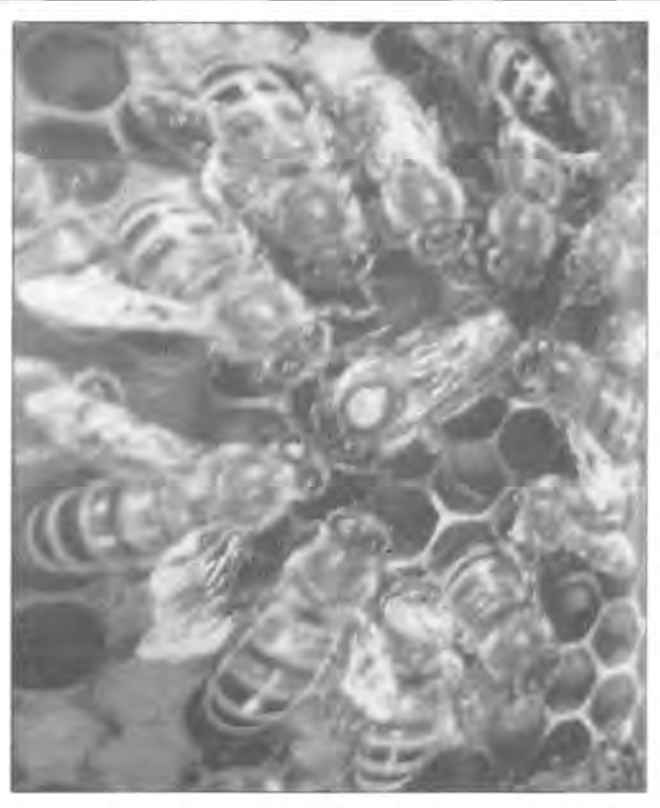
٤ ـ ومن تربية وتهجين بعض الحشرات النافعة التي تكثر في الأراضي كثيفة النباتات كنحل العسل ودودة القز لاستخراج العسل والحرير الطبيعي على التوالي:

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

وأما الحرير الطبيعي فله ذكر في القرآن كونه لباس أهل الجنة!

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٣٣﴾ [فاطر: ٣٣].

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ۝١٢﴾ [الإنسان: ١٢].



مربيات النحل تحيط بالملكة

[عن كتاب: يوم عادت الملكة القديمة - دار الفتى العربي - بيروت]

د ـ الإفادة من البحر ومياه الأرض

١ ـ في الطعام من لحوم الأسماك الطرية ولحوم الأحياء البحرية الأخرى والأعشاب البحرية أيضاً.

٢ ـ في استخراج أدوات الزينة كاللؤلؤ والمرجان والأصداف والحلي.

٣ ـ في النقل السهل وتسيير السفن بالبضائع والناس وللتجارة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرّحمٰن: ٢٢].

ولقد أفاد من هذا الاستخراج أناس حتى أصبحوا أصحاب أموال طائلة.

٤ ـ من مياه الأمطار والسيول:

﴿...وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرّعد: ٣].

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥].

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ...﴾ [الرّعد: ١٧].

٥ ـ من الينابيع والعيون ذات المياه المياه الحلوة والمالحة، والحارة والباردة ومصحاتها:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ...﴾ [الزُّمَر: ٢١].

﴿...فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البَقَرة: ٦٠].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٤].

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص: ٤٢].

وذلك في علاج مرض أيوب عليه السلام.

ومن طاقة الماء التي تفجر الحجارة عند تجمده داخلها، ثم يخرج ماءً، وذلك من حرارة الانفجار.

﴿... وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٧٤].

هـ ـ منافع مستنبطة من بعض الآيات وعلوم

١ ـ في عمل سدود محكمة من سبيكة الحديد والنحاس المنصهرين، فينتج منهما أن مادة هذه السبيكة من خليط المادتين تكون أقوى وأشد من كل منهما. استخدمها ذو القرنين في صناعة سده بعد أن طلاه بالنحاس المذاب لمنعه من الصدأ وجعله صقيلًا غير قابل للتسلق. وكان قد سد به فتحة كانت بين صدفين من سد جبلي طويل يعبر منها قبيلتا يأجوج ومأجوج على شعب ضعيف اشتكى إلى ذي القرنين منهما فماذا قال لهم:

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف: ٩٥، ٩٦].

والقطر هو النحاس المذاب. ويمكن البحث عن هذا السد قرب أذربيجان ويعتبر الآن أثراً تاريخياً ومنجماً لهذه السبيكة. ويمكن الاستفادة أيضاً من هذه السبيكة في صناعة الألواح العمودية الساندة والمانعة للماء الصالحة للأعمال الثقيلة والسدود الكبيرة.

٢ ـ وكذلك تفيد في تجنب الخطأ الذي ارتكبه منشؤا سد مأرب في اليمن فلم يجعلوا لقواعده أوتاداً عمودية عميقة في الأرض. فأتاهم الله من

حيث لم يحتسبوا وسخر الجرذان فحفرت من تحته حتى تسرب الماء من تحته، مما أدى إلى خراب السد فأرسل عليهم من ورائه سيل العرم، فغرقت زروعهم وأراضيهم وحرموا بذلك نعمة الله التي كفروا بها، وبما أعرضوا عن هدي ربهم:

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٦، ١٧].

٣ - وتشير آية أخرى إلى أسهل وأسرع طريقة لهدم المباني. وقد اهتدى إليها البناؤن والمهندسون، وهي تستعمل حديثاً في هدم المباني القديمة والمباني المطلوب إزالتها وفي هدم ونسف مباني العدو من قبل العسكريين. والطريقة هي بقطع أو نسف الأعمدة السفلى للعمارة فيخر البناء بكامل أثقاله وينقلب أنقاضاً في دقائق:

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: ٢٦].

٤ - ويشير القرآن فيخبر بمعلومتين عن الأرض والسماء كانت مجهولتين حتى جاء هذا العصر، عصر اللاسلكي والموجات والاستكشافات، وهما:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق: ١١-١٤].

فكشف الخبراء أن في الأرض صدعاً عظيماً من أعلاها إلى أسفلها وهو تحت المحيط وعمقه أكثر من ثلاثة آلاف قدم. هذا إضافة إلى صفتها العامة في التصدع نتيجة الفرق في تغير درجات الحرارة.

وأن السماء ترسل موجات لاسلكية تذبذبية مختلفة صادرة عن مجموعات من النجوم وربما كان هذا هو المقصود بالرجع والله أعلم.

هذا بعض ما أحصيناه من منافع هذه الأرض التي حث القرآن الكريم على السعي في استثمار خيراتها والانتفاع من تذليلها وهي كثيرة لا تحصى منافعها، كما أن القرآن لا تنتهي عجائبه، لينهل الإنسان من نعم الله فيها، ويفيد منها في رزقه، ويبتغي من فضله، ويشكر ربه الذي سخرها وذللها له، ويعمل صالحا يرضيه ويصلي ويتصدق منها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ . . .﴾ [البَقَرَة: ٢٦٧].

ويعلم أنه ليس يناسبه في الكون شيئاً إلا هذه الأرض التي هيأها الله له بحكمته ولطفه ورحمته. فليشكر ربه ويعمل صالحاً ما استطاع:

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [التوبة: ١٠٥].

وإننا لم نسبق إلا بعد أن تواكلنا عن العمل، والعمل الصالح يلزمه التوحيد ونبذ الشرك الذي هو أكبر الكبائر:

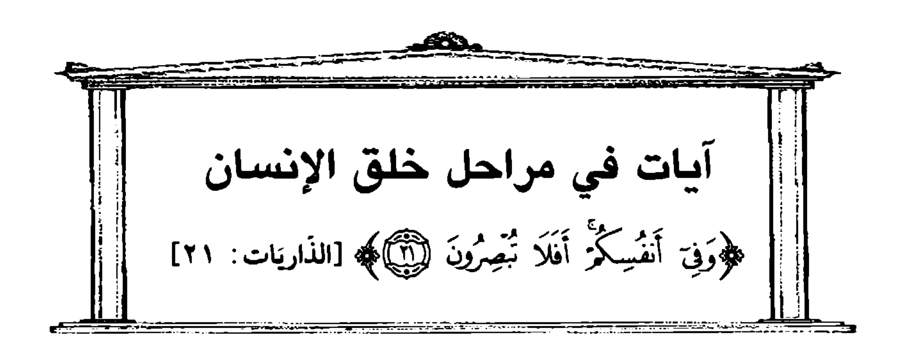
﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].



الكتاب الرابع

من آيات الله في الإنسان

الفصل الأول



ذكرنا في الكتاب الثاني شيئاً عن ابتداء خلق الإنسان، ونذكر هنا بعضاً من حقائق وعجائب مراحل الخلق التي أخبر بها القرآن الكريم، وكانت علوماً غيبية حتى اكتشفها العلم الحديث، ليدل على أن هذا الكتاب هو حقاً من عند الله، وليس من صنع البشر. ونحن لا يمكننا أن نستقصي كل العجائب والأسرار فهي عجائب دقيقة ومدهشة لا تحصى، ولا يمكن للإنسان أن يدرك كنهها إلا أن يكل أمرها إلى قدرة الله الخالق وحكمته، الذي وضع سرها، ولكننا نذكر بعضاً منها على سبيل المثال للعبرة والتفكر في آيات الله حتى لا نكون عنها غافلين، وحتى ندرك الدقة العلمية المقصودة في هذه الآيات.

١ ـ تسلسل مراحل الخلق

انظر الرسوم في صفحة (٢٢٠ - ٢٢١).

ذكر القرآن الكريم أصل الخلق الأول للإنسان وهو آدم عليه السلام، الذي خلقه من طين وصوره بيده، ثم جعل التكاثر بواسطة نطفة في الرحم. وذكر

مراحل تخلقها في الرحم بتسلسل مراحل الخلق حتى بلوغ الجنين مرحلة الشكل الذي يمثل الإنسان يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢] وهو خلق آدم أصل البشرية ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٣] ثم حفظنا تكاثر الخلق نطفة في الرحم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٣] هي كقطعة لحم بقدر ما يمضغه الإنسان ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٣] تقرير بأن العظام تخلق بداية من هذه المضغة .﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٣] تقرير بأن اللحم يخلق بعد العظام فيكسوها .﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٣] بهذا الخلق الآخر يتميز الإنسان عن غيره، حيث أن مضغ المخلوقات قبله متشابهة. وهذا ما كشفه الطب خطوة خطوة.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤].



المضغة وتخلق العظام

المضغة وقد بدأ فيها تكون العظام أولاً

[عن: www.thisistruth.org]



الخلق الآخر وهو ما يتميز به الإنسان عن غيره
وقد ظهر فيه تكوين العمود الفقري واضحاً
[عن: www.thisistruth]

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾ [المؤمنون: ١٥] وهذا ما ترونه ويستحيل عليكم الفرار منه.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾ [المؤمنون: ١٦] وهذا ما تكذبون به وفيه تمترون.

لقد اكتشف الطب في مراحل خلق الجنين، أن أول ما ينشأ من المضغة العظام وحبل العمود الفقري ثم يكسوه اللحم. وهذه الحقيقة لدينا أيضاً دلالة واضحة فيها وتأكيد من الآية التالية:

﴿... وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٥٩﴾ [البقرة: ٢٥٩].

كذلك تبين في الكشف أن المضغة في الأسابيع الأولى لا يمكن تمييز نوع المخلوق منها، وما أن يكتمل الشهر الثاني حتى يبدأ تخلق الإنسان وتظهر ملامحه ونشأته وهو قوله سبحانه (ثم أنشأناه خلقاً آخر).

٢ ـ الصلب والترائب

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطّارق: ٥-٧].

لقد كان التفسير بأن هذا الماء الدافق يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهو صحيح من حيث تعيين الموقع. ولكن ثبت بعلم الطب أن بداية خلق خصية الرجل ومبيض المرأة هما في موضع يجاور الكلى. وهو موضع بين صلب الإنسان (العمود الفقري) وترائبه (عظام الصدر) وهو لكل من الرجل والمرأة.

وإن تدفق الماء عند الرجل واضح، أما عند المرأة ففيه وجه الإعجاز كما يقول محمد الصرايرة[1]: فقد وجد أن المبيض يتكون من حويصلات تنمو وتنضج كل شهر ويكبر حجمها وتكثر أوعيتها وتفرز سائلًا يملأ الحويصلة، وعندما تنفجر تنطلق منها البويضة مدفوعة بهذا السائل.

(وقال أحد الأطباء: إن عروق الدم والأعصاب المتصلة بالخصيتين والمبيضين ما زالت تبتدئ من المكان المجاور للكليتين، وهذا الاتصال يفسر لنا آلام الظهر في حالة التهاب الخصيتين أو المبيضين، كم يفسر لنا قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطّارق: ٥-٧]. اهـ.

وهذا ما وقف عليه الأطباء ودرسوه، والذي لا يقف عند أكثر الأطباء ولا يدرسونه هو تمام الآية:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطّارق: ٨-١٠] يوم يعود الإنسان فيخلق من جديد، ويبعثه خالقه ليوم النشور،

---

(١) من كتاب آيات للموقنين (بتصرف) لمحمد الصرايرة ص/ ٨ - مكتبة المنار، ط/ ١ - ١٩٨٥م.

وتبلى السرائر ويحصل ما في الصدور، ويبدأ الحساب فلا يجد له من قوة ولا ناصر. هذا ما نذكر به إخواننا الأطباء، وهو أن يتموا قراءة الآيات بعد ذكر كل حقيقة أو نعمة ليتذكروا منها الحكمة التي يذكر بها القرآن:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥] هذا تذكير لعامة من يخاف الوعيد، وهم المؤمنون الذين ينتفعون بهذا التذكير، لذلك قال سبحانه أيضاً:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

٣ ـ العامل الذي يكون به المولود ذكراً أو أنثى

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧-٣٩].

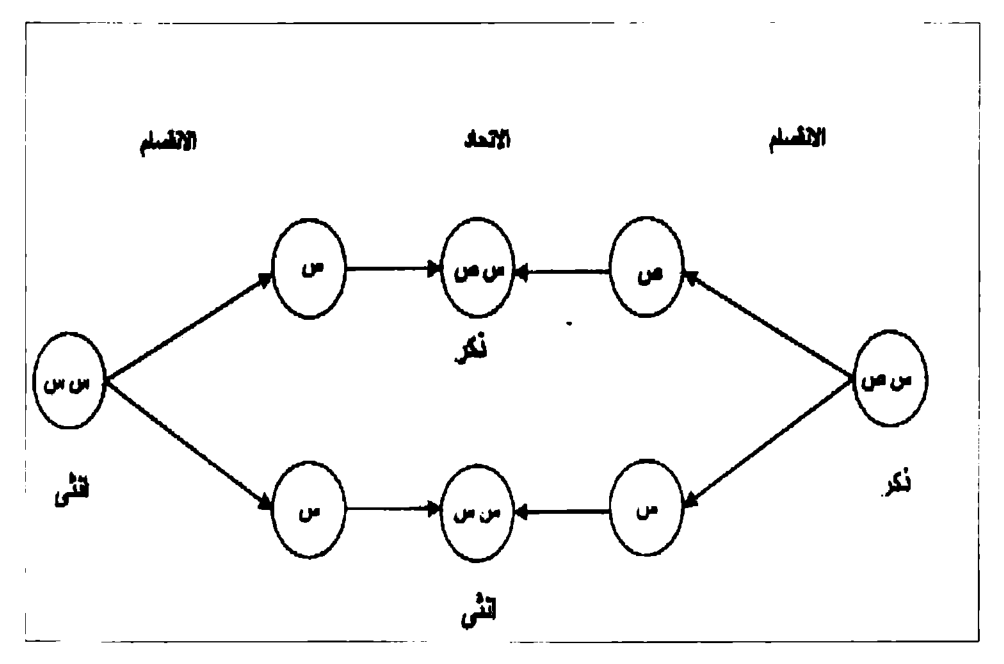
تقرر الآيات أعلاه أن الذكر والأنثى يخلقان من هذا المني الذي يحوي نطفة الرجل، وأن هذه النطفة هي العامل المؤثر في كون المولود ذكراً أو أنثى، كونها تحمل عوامل الذكورة والأنوثة.

وقد كشف العلم الحديث أن البويضة عند المرأة تحمل دائماً صبغات أو ما تسمى بالكروموسومات أو عوامل الأنوثة فقط س س. أما حيامن الرجل (النطفة) فهي تحمل عوامل الذكورة والأنوثة معاً ص س، وتنقسم إلى نطفة مذكرة ص ونطفة مؤنثة س. فإذا سبقت واتحدت بالبيضة نطفة مذكرة كان المولود ذكراً يحمل صبغة ص س، وإذا سبقت واتحدت منه نطفة مؤنثة - وهو أيضاً يملكها في صبغته - مع البيضة، كان المولود أنثى وتحمل صبغة س س.

وهذا ما فهمه المؤمنون ببساطة عندما سأل اليهود النبي ﷺ متى يكون المولود ذكراً ومتى يكون أنثى؟ فأجاب بعد أن أعلمه جبريل عليه السلام فقال:

إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة جاء المولود ذكراً بإذن الله، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل جاء الولد أنثى بإذن الله. فقالوا هكذا قال النبيون من قبلك.

والشكل التالي يبين كيفية انقسام الحيوانات المنوية واتحادها بين الرجل والمرأة:



لكن هذا الاتحاد ليس بهذه البساطة، فالسبق والاتحاد معقد جداً ويتوقف على عوامل كثيرة لا مجال لذكرها هنا.

والله سبحانه وحده الذي يعلم ما إذا كان سيتم تلقيح البويضة بنطفة مذكرة (حيوان منوي مذكر) لينتج ذكراً أو بنطفة مؤنثة لتنتج أنثى، ومتى سيتم ذلك. وهو وحده الذي يعلم أياً من هذه النطف التي تبلغ الملايين سيكون هو المخلوق المقصود والمعين الذي ستكتب له الحياة ويحمل المسؤولية:

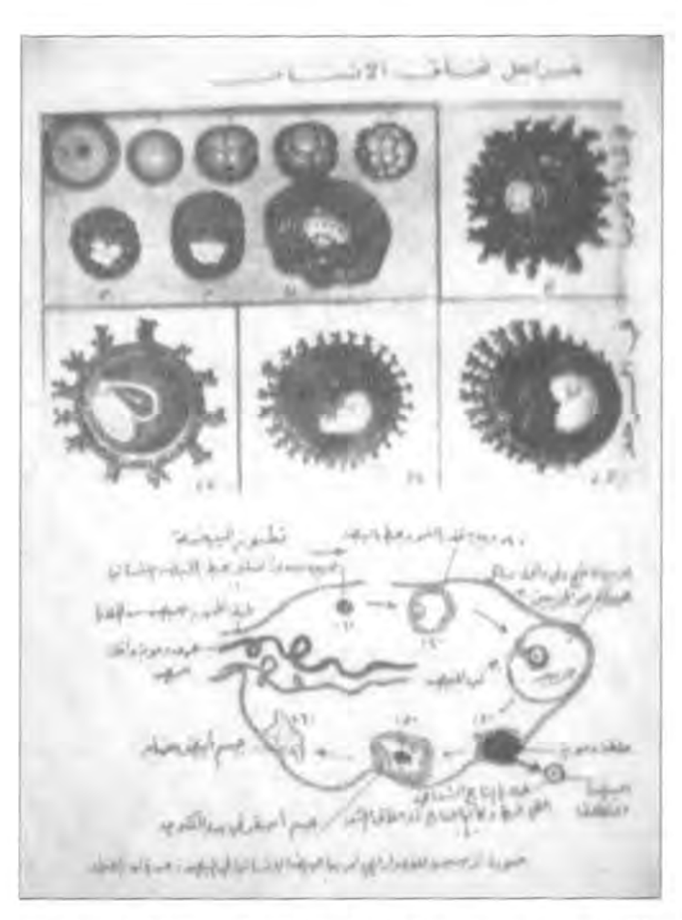
﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٨، ٩].

٤ ـ العلقة أو العلق

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً . . .﴾ [المؤمنون: ١٤].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا . . .﴾ [غافر: ٦٧]

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العَلق: ٢].



﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نُوح: ١٣، ١٤]

[عن كتاب الطب محراب للإيمان]

وجد أن البويضة الملقحة تعلق بجدار الرحم بواسطة زغابات تمتد فيها

كأرجل الأخطبوط. وهناك امتدادات أخرى تنشأ من الرحم لتتشابك معها فتأخذ منها غذاءها وكأنها من بركة من الدم، ثم يتكون لها في الآخر ساق قوية يثبتها بجدار الرحم، وفيه تنشأ الأوعية الدموية التي تنقل الغذاء والأوكسجين من الأم إلى الجنين، بينما هو ينقل بدوره إليها المواد الضارة التي يتخلص منها، كثاني أوكسيد الكربون والبولينا. - وهكذا كان دور الأم عظيماً فهي من بدايته وهو جنين في بطن أمه تغذيه من دمها ووجودها وتتحمل منه الضرر - وتبدأ هذه العلقة بنقطة دم لا تتجاوز ربع ملمتر ثم تنمو إلى مقدار نقطة ماء. وهي تشبه حيوان العلق، وهو حيوان معروف يمتص الدم حتى يمتلئ به جسمه، فإذا عصر فرغ منه الدم وعاد إلى الامتصاص من جديد. فهذا الحيوان (العلق) هو ما يشابه العلقة بالضبط في شكلها وقدرتها ونهمها في امتصاص الدم والتغذي فسمي باسمها. وهو يشبه الدودة وكان يستعمل في الحجامة وأعيد استعماله حديثاً في بعض مستشفيات العالم.

٥ ـ القرار المكين

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٣].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المُرسَلات: ٢٠-٢٢].

﴿... وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾ [الحَج: ٥].

لقد وجد بأن البويضة الملقحة تعلق بالرحم وتتثبت وتستقر في امتدادات تبرز من الرحم فتتعلق به وتنهل من جدار الرحم ما يمكنها لنمو الجنين، كأنها بذوراً قد ثبتت جذورها في الأرض وهي تمتص غذاءها بهذه الجذور. لذلك شبه سبحانه التزاوج بالحرث فقال:

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣].

والقرار المكين هو الرحم وهو مستقر هذه البويضة التي هي بالأصل نطفة كل من الرجل والمرأة كما قال سبحانه:

﴿... وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾ [الحج: ٥].

وقد جعله سبحانه مكيناً بما فيه من تمكين وأمن وحماية، فهو محفوظ داخل حوض المرأة بين جدران عظمية من جميع الجهات ومربوط بعضلات وأربطة تجعله ثابتاً في مكانه محمياً من الصدمات والكدمات مع حريته في الحركة والتوسع. وهو مكون من ثلاث طبقات، الوسطى عضلية لتمنحه قوة التمدد والتقلص. فسبحان الخلاق العليم.

٦ ـ الظلمات الثلاث

﴿... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ [الزُمَر: ٦].

المفسرون فسروا الظلمات الثلاث بأنها ظلمة جدار البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة داخل الرحم. وهذا التفسير يطابق معنى الآية من حيث أن هذه الجدران تؤدي معنى الظلمات الثلاث بصورة واضحة.

ولقد فهم بعض العلماء من منطوق الآية أن الظلمات الثلاث التي يخلقكم بها هي في بطون أمهاتكم مما يجعل احتساب الظلمات غير ظلمة البطن. وذلك بعد أن اكتشف العلم الحديث بأن المشيمة نفسها وهي الكيس الغشائي المحيط بالجنين تتألف من ثلاثة طبقات أو أغشية هي الساقط والكربون والأمينون، على اعتبارها تمثل الظلمات الثلاث. ويعترض على هذا التفسير كون الأغشية ليست مظلمة بالكفاية وبخاصة غشاء الأمينون المحيط بالجنين مباشرة ويحوي سائلًا يمنعه من الالتصاق بالجنين لكي يسمح له بالحركة التامة وهذا الغشاء رقيق. لكن الجواب على ذلك بأن الغشاء مهما

كان رقيقاً فإنه يلقي نوعاً من الظلمة الإضافية كونه داخل البطن، وبتآزر الأغشية الثلاثة تعطي ظلمة إضافية داخل البطن. فيمكن أن يقصد بالظلمات الثلاث في البطن بهذه الأغشية الثلاث، ويكون هذا التفسير هو مما ظهر من تأويله والله أعلم.

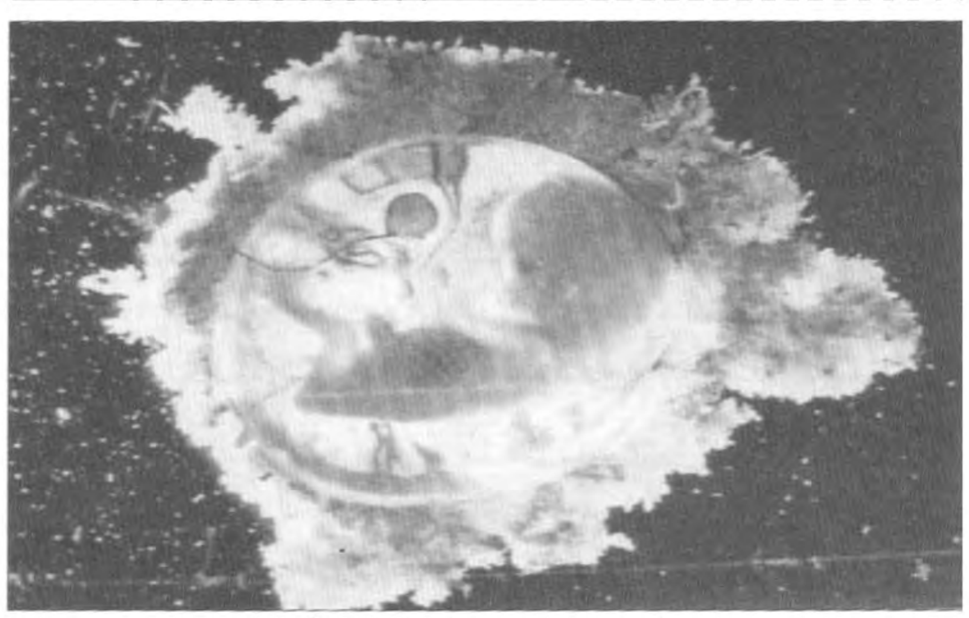
٧ ـ بدء الحياة في الجنين

الجنين منذ تكوينه وإلى حد بلوغه أربعة أشهر ليس إلا قطعة لحم بلا روح، وهو غير قادر على الحركة بنفسه. وقد وجد الأطباء أنه حال تمامه الأشهر الأربعة من عمره (مائة وعشرون يوماً) يبدأ قلبه بالنبض وتدب في أعضائه الحياة، دلالة على نفخ الروح فيه. وفي هذا الوقت يكون تشخيص الحمل لدى الأطباء مؤكداً لسماعهم دقات قلب الجنين. إن هذا الاكتشاف يعرفه المسلمون منذ عهد الرسول ﷺ وزمن نزول القرآن الكريم:

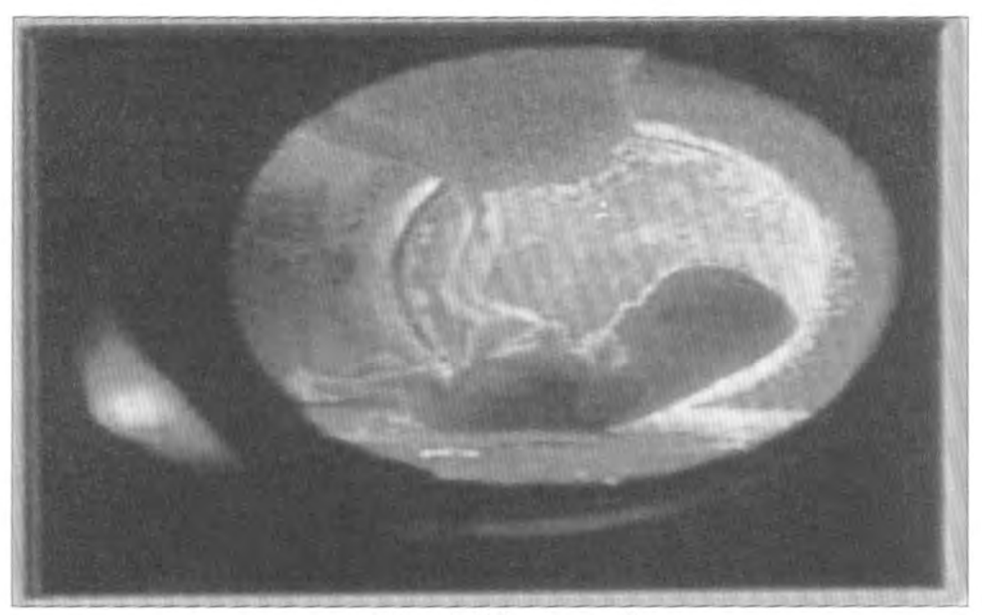
فمدة العدة للمرأة المتوفى عنها زوجها:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٣٤].

ففي تمام الأشهر الأربعة يصبح الجنين حياً، والأيام العشرة الأخرى هي مدة لطهر المرأة. وذلك للتأكد من أنها لا تحمل جنيناً حياً في بطنها من زوجها المتوفى عنها. وهذا الحكم له علاقة في القضايا الشرعية من نفقة وميراث وحقوق الأسرة والذرية. وهم يعلمون ذلك أيضاً من الحديث النبوي التالي:



صورة الجنين وهو يسبح في السائل الأمينوسي
في المشيمة داخل الرحم ويتغذى من دم أمه عن طريق الحبل السري
[الصورة عن كتاب: الطب محراب للإيمان]



الجنين في الظلمات الثلاث
[الصورة عن: www.creationofman.net]

عن ابن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق:

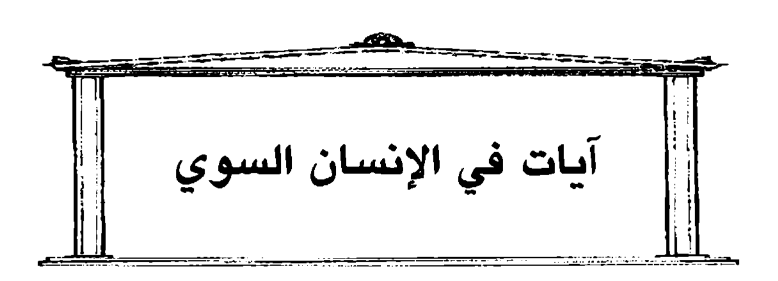
«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح...» إلى آخر الحديث، ومنه يتبيَّن أن مجموع المدة لكل من النطفة، والعلقة، والمضغة، هي ٣ × ٤٠ = ١٢٠ يوماً وهي مدة الأربعة أشهر المذكورة في الآية السابقة.

فعلم بذلك أن الحياة تبدأ في الجنين بعد بلوغه أربعة أشهر من عمره. وهذا ما علمه الله ورسوله:

﴿... وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].



الفصل الثاني



آيات في الإنسان السوي

ننتقل الآن من آيات في مراحل خلق الإنسان إلى الإنسان السوي وننظر فيما فيه من الآيات والنعم التي خصه الله بها. وهي تحوي من الأسرار وبديع صنع الله ما لا تسعها المجلدات فضلًا عن هذا الكتاب الذي أريد به التذكير. ومما يسهل علينا دراسته وفهمه، تميزه عن غيره من الأحياء، بأنه ناطق يستطيع التعبير عن نفسه وأحاسيسه، ونحن إنما ندرس بذلك أنفسنا لاشتراكنا جميعاً بهذه النعمة التي ميزنا الله بها وهي العقل، وحثنا على النظر في آياته التي خلقها فينا ومنها قوله تعالى:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] أي تنظرون بأعينكم، وتعقلون ببصيرتكم. ولنبدأ بآلة العقل وهو الدماغ.

١ ـ الدماغ

إن الدماغ معجزة كبرى من معجزات الخلق، فهو آلة العقل ومركز التفكير والإرادة الذي يهيمن على كل فعاليات الجسم، بما يتصل به من شبكة الأعصاب المتفرعة لكل أجهزة وأعضاء الجسم. وهو كتلة رخوة من مجموعة من الخلايا العصبية محاطة بأغشية مختلفة ومتصلة بشبكة من

الأوعية الدموية لتغذيته. وهو محفوظ داخل صندوق عظمي هو القحف لحمايته، نظراً لشدة حساسيته ورخاوته. وهذا الصندوق العظمي الذي يحجر بداخله الدماغ سمي بالحجر كما ذكر في الآية الكريمة:

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر: ٥].

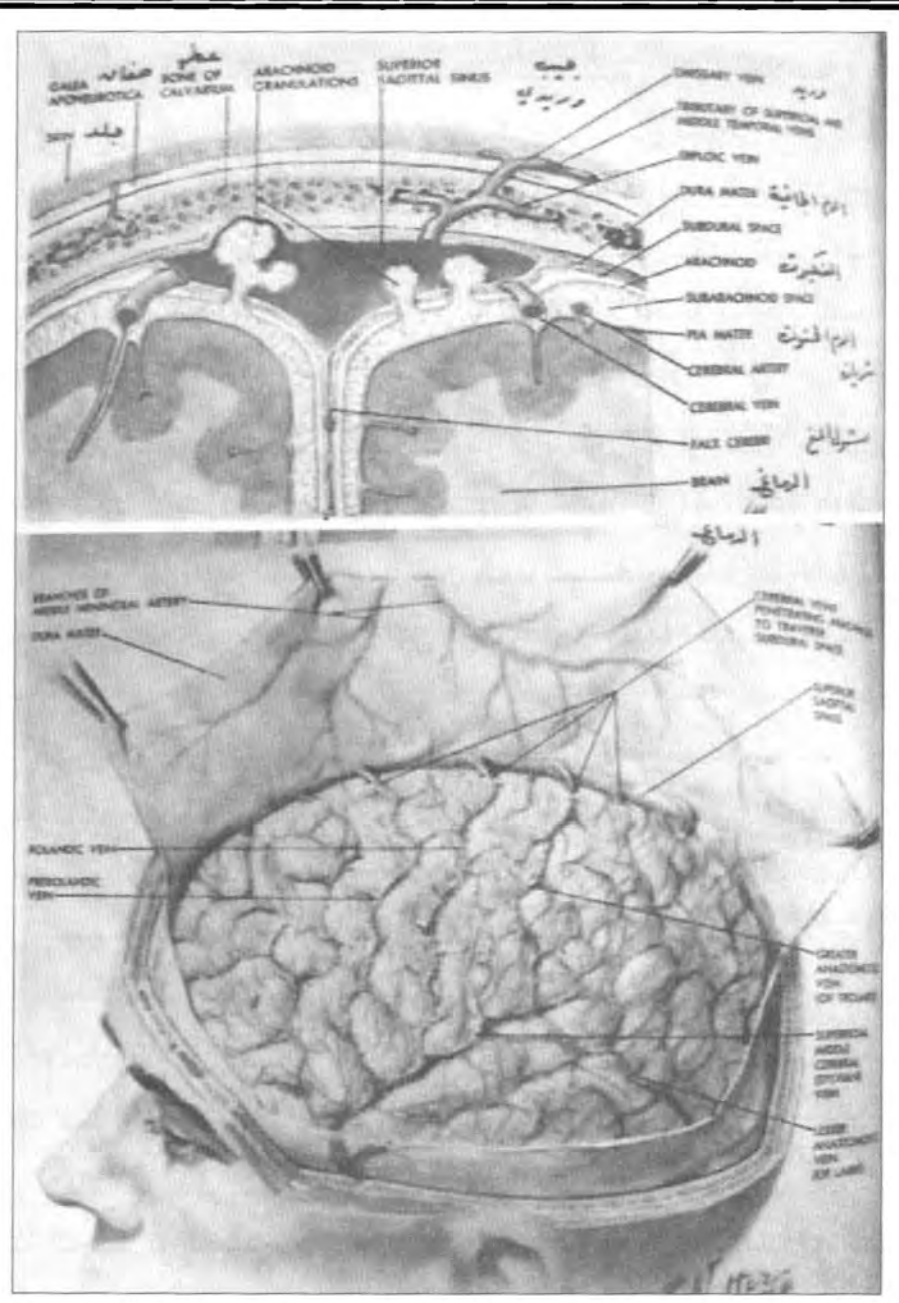
أي لذي الشيء المحجور وهو الدماغ، والمقصود لذي عقل، عبر عنه بآلته.

وفيه من الشفافية والدقة، وفيه من التركيز والتعقيد ما يجعله معجزة عظيمة. يقول العلماء لو أمكن صنع جهاز كهربائي على طريقة راديو ماركوني ليقوم بأعمال الدماغ لاحتجنا إلى حجم كحجم الكرة الأرضية! أما الآن في عصر الحاسوب، فلا يملك ذكاءه ولا أحاسيسه ولا خياله أو ابتداعه، أعظم حواسيب العالم. وأما ما فيه من النسيان فهذا ما وضعه الله فيه رحمة للناس ولاستمرار الحياة!

وهو الذي تهيمن عليه الروح المسيرة وتتبادل معه كافة المعلومات والأحاسيس التي يفكر بها الدماغ، أو التي يتلقاها من أجهزته الخارجية، وهي السمع والبصر واللمس والذوق والحس.. الخ.

والروح يعبر عنها القرآن الكريم بالقلب أو بالتنفس كما في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].



إن الدماغ يحوي ١٣ مليار خلية عصبية موزعة على القشر مختصة بمئات الوظائف وفيما بينها حلقة اتصال مدهشة، ويغلف المخ ثلاثة أغلفة ينساب فيما بينها سائل رقراق كماء النبع كما في الصورة، وقد تم تصميم حماية المركبة الفضائية بنفس الطريقة

[عن كتاب: الطب محراب للإيمان]

فالقلب هنا محط الروح والنفس التي تنتهي إليها خلاصة أعمال الدماغ، بل هي التي تعطيه القوة والحياة. وهي التي تسيطر على الجسم كله، ولأننا لا نعلم كنهها وخفتها ولطافتها، ولا نعلم كيفية انتشارها أو تقلصها، ولا كيفية حركتها وسكونها، فإننا لذلك لا يمكننا تقرير مسكنها ولا كيف! لكننا عندما نفكر بشيء أو نضمر شيئاً، نحسه بداخل أنفسنا أو أنه بقلوبنا، وهذا ما يعبِّر عنه القرآن الكريم، من أن القلوب هي التي تعقل:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

فإن قيل إن الله سبحانه عبَّر عن الدماغ بالقلب، قلنا إن الآية أعلاه تؤكد أن التي تعمى هي القلوب التي في الصدور وبهذا حددت وميزت عن الدماغ. فالعين هي الآلة البصرية تنقل الصورة إلى الدماغ الذي يفسرها ويميزها وينقلها إلى القلب مسكن الروح أو النفس التي تضمر أو تخفي فيها نيتها في فعل الخير أو الشر. ولعل الروح تحب مسكن القلب وهي المسيطرة والمنتشرة في الجسم كمجرى الدم، عرفنا ذلك من الآيات الكثيرة التي تصف القلب بأنه مصدر أو مكان نفس الإنسان، ومن حديث رسول الله ﷺ الواضح وقال في آخره:

«... ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

وغالباً ما يذكر سبحانه القلب أو الفؤاد مقروناً بالسمع والبصر، حيث أنهما الجهازان الكبيران اللذان يمدانه بالمعلومات ويكشفان له العالم الخارجي بعد أن يفسرها لهما الدماغ. وهو الذي يفهم المعلومات والأحاسيس بالروح المسيطرة فيه:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

أي جعل لكم هذه الأجهزة التي هي وسائل التعلم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون: ٧٨].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

أي أن هذه الأجهزة هي المسؤولة كلها عن هذا العلم (وهو هنا: الظن، وتأكيد ما لم يثبت علمه).

وعلم الإنسان عاجز أن يدرك هذا أو أن يجد له تفسيراً، لأنه عاجز عن إدراك الروح فهو يعتقد أن الدماغ هو التفكير والتقرير، وليس القلب. لكن الروح هي التي تسيطر على الدماغ وعرشها القلب وبساطها الأعضاء وهي من أمر الله، لا يعلمها إلا هو: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

٢ ـ جهاز الذاكرة في الدماغ:

إن من عجائب هذا الجهاز هي قدرته على الخزن والالتقاط بطاقة هائلة، فالشخص العادي مثلًا يخزن كل يوم من الصور المرئية ما يقارب نصف مليون صورة في مستودعات الذاكرة العظيمة للدماغ. وهو ما يقرب من عشرة مليارات صورة تلفزيونية ملونة خلال متوسط حياة الإنسان، هذا مع أصواتها المختلفة وما يرافقها من أشياء تشم أو تلمس أو تحس أو تذاق. وكل هذه الصور تخزن في مكان صغير من الدماغ! ثم إن هذا الجهاز يرافقه جهاز لاقط يلتقط الصورة المراد تذكرها من بين كل الصور المخزونة وبسرعة خاطفة وبتفاصيلها. وإذا عرضت له بشكل مخالف فإنه يميزها ويفرزها على الفور ويعطي الصورة الصحيحة.

ومن عجائب هذا الجهاز أيضاً أن خلاياه لا تتبدل ولا تتجدَّد ولا تموت إلا بموت الإنسان. فكل خلاياه القديمة والهرمة تموت وتحيا بدلًا منها خلايا جديدة مناسبة لعمره: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس: ٥٦].

إلا خلايا الذاكرة فقد خلقها الله بقدرة الديمومة على البقاء لكي تحفظ ذاكرته وشخصيته وأخلاقه وحتى لغته من التبدل. ولولا ذلك لضاع منه كل شيء، واحتاج كالأطفال إلى تعلم اللغة من جديد كل ستة أشهر، ولحدثت الفوضى وتعطل التفاهم بين الناس وانطمس العلم وفقد كل شيء. ولا يعلم أحد من الخلق حتى الآن أين السر في الذاكرة، ولا أين موقعها في الدماغ!

٣ ـ من أسرار الدماغ(١)

لقد أعجز العلماء ما في هذا الدماغ من أسرار.

فكيف يعمل العقل؟ وكيف يتم التفكير؟ وما هي الإرادة؟ وأين يكمن الوعي واللاوعي، أو ما يسمى بالشعور واللاشعور؟ وكيف يحصل فهم المسموعات والمبصرات؟ وكيف تقلب من صور إلى معاني؟ وكيف تستنبط الأفكار المجردة من خلال المحسوسات؟ وما هو الذكاء؟ وكيف يتم التخيل والابتكار؟ وكيف يحصل الإحساس بالجمال؟ وكيف يتم الإحساس الخلقي؟ وكيف تنمو الجرأة الأدبية؟ وكيف تتم الأحلام؟ وكيف تحصل التنبؤات بالمستقبل؟ وما هي علاقة الأعضاء بالنفس، وكيف يؤثر كل واحد على الآخر؟ وكيف يتم الإحساس بالحزن أو الفرح أو الألم؟ إلى فيض لا ينتهي من الأسئلة التي لا تجد جواباً. ثم إن الأبحاث عن الذاكرة لا تعدو المعلومات السطحية التي يلمسها الوعي مباشرة:

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الرُّوم: ٧].

---

(١) من كتاب الطب محراب للإيمان للدكتور خالص كنجو / الجزء الأول ص ١٨٦ - مطبعة المنار - بغداد في موضوع الذاكرة (بتصرف).

أي أن معلوماتهم ظاهرية ولا تمس الحقيقة ولا العلم اليقين كما قال سبحانه:

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝﴾ [التكاثر: ٥، ٦].

٤ ـ الجهاز العصبي

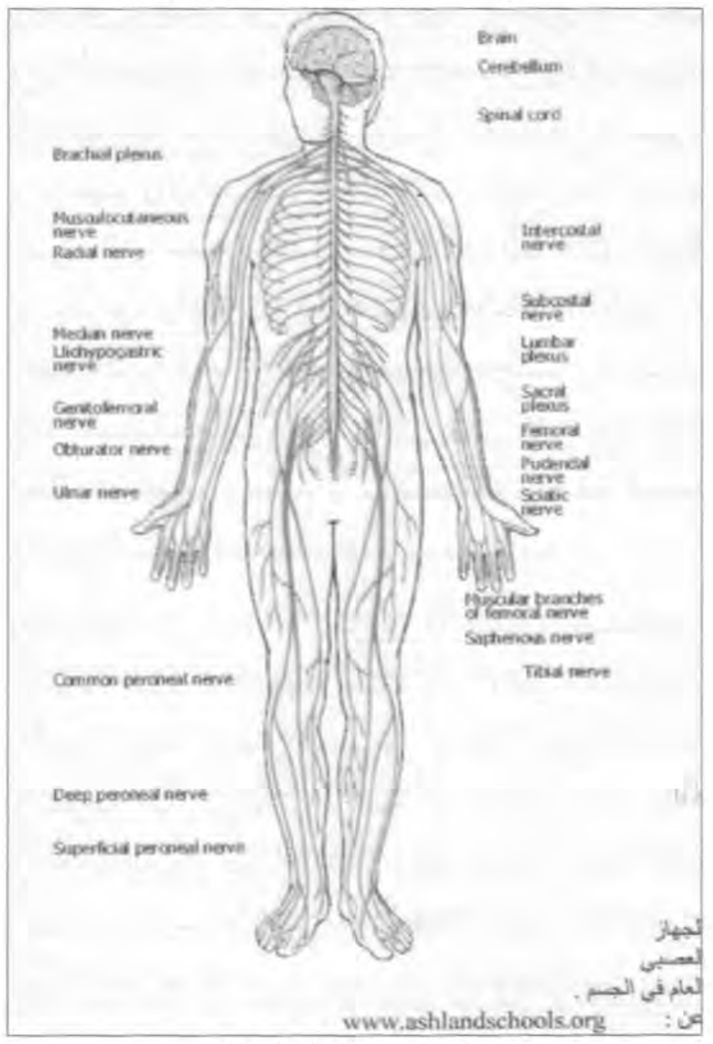
وهو وسيلة الدماغ وشبكته المسيطرة على الجسم. وهو الجهاز الناقل للمعلومات والأوامر وتنفيذها بين الدماغ وأجهزة الجسم. هذا الجهاز العظيم المنتشر كفروع الأشجار في الجسم، يملك الإحساس بالأشياء وينقل تأثيرات الحواس بسيولة كهربائية خاصة من أدق الفروع البعيدة في الجسم إلى الدماغ مركز التفسير والفهم والإرادة. كما أنه ينقل من الدماغ الأوامر الصادرة عن الروح أو النفس والتي مقرها القلب بعد أن أشرفت عليها ومنحته القرار بشأنها، ينقلها بطواعية وأمانة كأخلص ما يكون العامل المطيع. وهو الجهاز المحرك للعضلات ولكافة أعضاء وحواس الجسم وأجهزته الداخلية والخارجية. وكل عصب مختص بعمل معين، وهي كثيرة جداً ومتشعبة لكي تحرك كل عضلة. ويكفي أن نعلم بأن الأعصاب الدقيقة المتصلة بجهاز السمع وحدها تبلغ أربعة آلاف عصب!

وهو يقوم أيضاً في حالات الطوارئ والخطورة المستعجلة بالحركة الانعكاسية بسرعة البرق مستجيباً بذلك إلى أوامر المخيخ دون انتظار تفسيرها من الدماغ لينقذ العضو المتعرض للخطر بأسرع ما يمكن!، كما يحدث عندما تتعرض اليد إلى وخز أو لسع أو كي بنار مثلاً، أو عندما يريد جسم غريب دخول العين، فإن الأجفان تنغلق بسرعة فائقة لتمنع دخوله. وقد استشهد بها عند سليمان، الجني الذي عنده علم من الكتاب:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝﴾ [النمل: ٤٠].

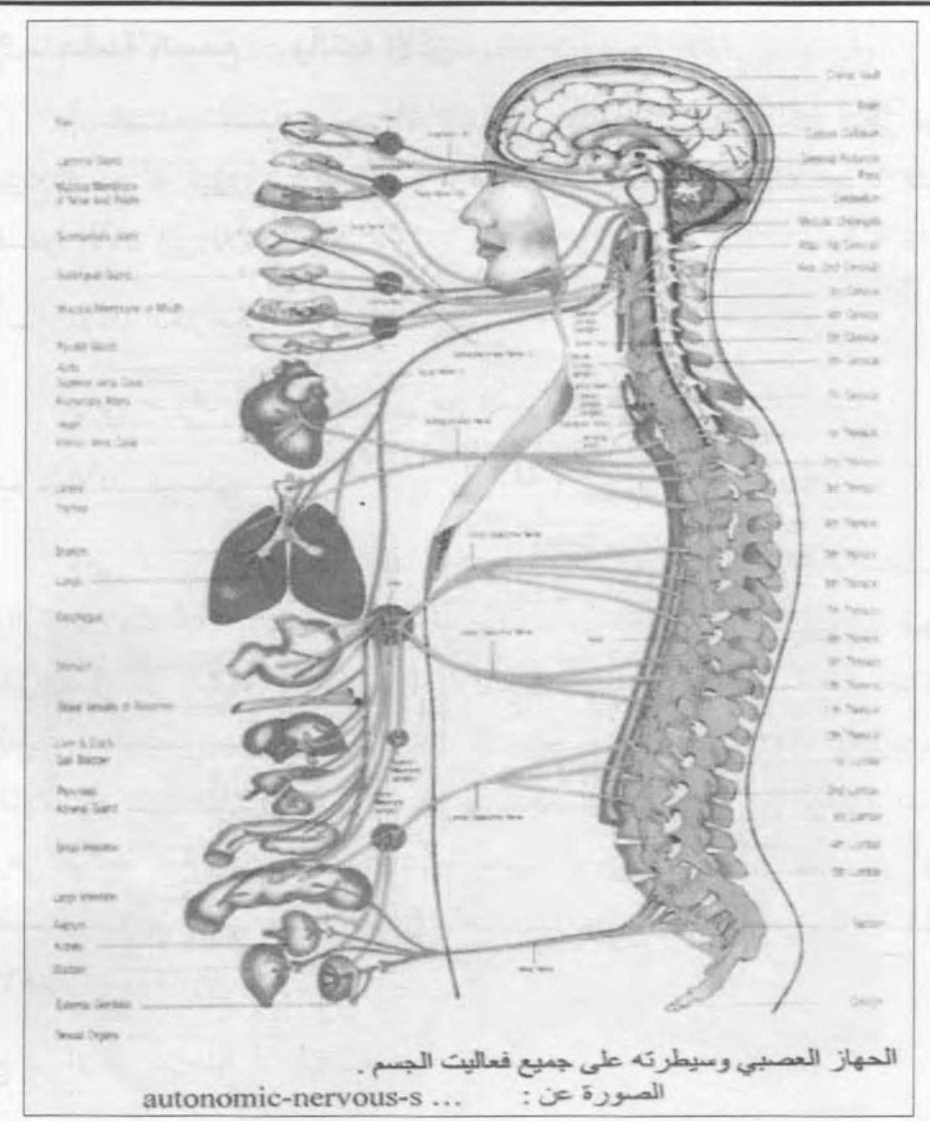
ولا يحس الإنسان بالنعمة إلا عندما يفقدها، ولا تظهر له العبرة إلا بعد ذلك! فيعرف قيمة النعمة عندما يعاني مثلًا من تعطل أحد الأعصاب أو شللها وما يحدثه ذلك من خلل في عمل أعضائه وألم يدعو إلى الحزن والأسى!

أما لو تعطل - لا سمح الله - العصب الرئيسي، وحدث الشلل العام في جملة الأعصاب، فكم سيتحمل من الشقاء والألم؟



الجهاز العصبي العام في الجسم

[عن: www.ashlandschools.org]


الجهاز العصبي وسيطرته على جميع فعاليت الجسم .
الصورة عن : autonomic-nervous-s ...

الجهاز العصبي وسيطرته على جميع فعاليات الجسم

[**الصورة عن:** autonomic-nervous-s...]

يذكرنا الله سبحانه بقدرته على نزع هذه النعمة من الكافرين إذا شاء ذلك:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يس: ٦٧].

إذاً لأصابهم الشلل وتعطلوا نهائياً عن الحركة!

٥ ـ حاسة السمع – وآلتها الأذن

إن السمع نعمة من نعم الله العظمى على الإنسان، ولكي ننظر في بديع صنع الله فيها، نتتبع دراسة الأطباء لها وهم أهل الاختصاص، فقد قسموا الأذن إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ الأذن الخارجية:

وهي صيوان الأذن الخارجي مع الممر الموصل إلى غشاء الطبلة.

ب ـ الأذن الوسطى:

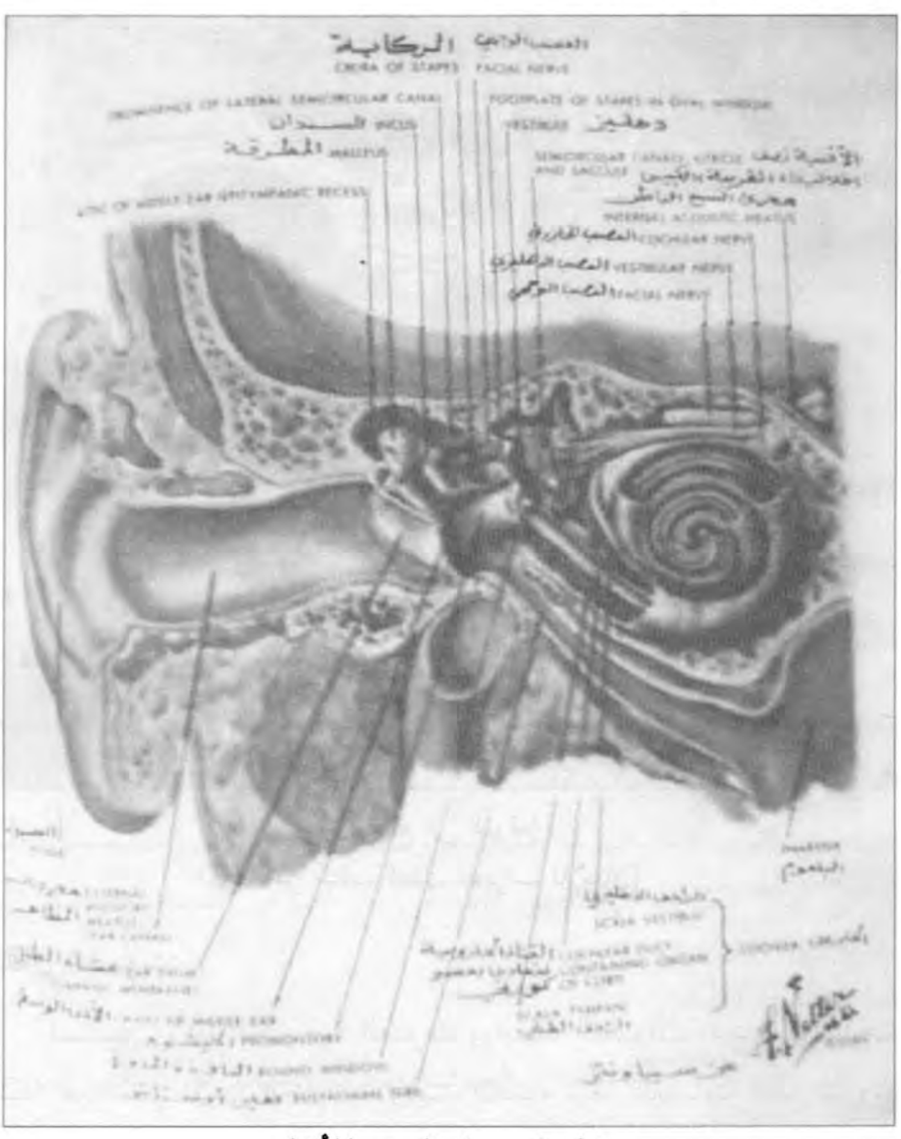
وهي مؤلفة من ثلاث عظيمات تشبه أدوات الحداد (المطرقة والسندان) والركابة وهذه تشبه ركابة السرج، وعضلتان للمطرقة والركابة، ويوجد فيها نفق يصل إلى البلعوم ويدعى قناة أوستاكي. ويتصل عظم المطرقة بغشاء الطبلة بينما يتصل عظم الركابة بالأذن الداخلية. ومجموع وزن هذه العظيمات الثلاثة هو: ٥٥ملغم فقط! وخفتها هذه جعلتها تتجاوب مع الاهتزازات، وهي مرتبطة مع بعضها بمفاصل بديعة بحيث أن أي صوت أو حفيف أو أي همس سيؤدي بغشاء الطبلة إلى الاهتزاز، فتهتز هذه العظيمات وتنقل الاهتزاز بدورها إلى الأذن الداخلية.

ج ـ الأذن الداخلية أو الباطنية:

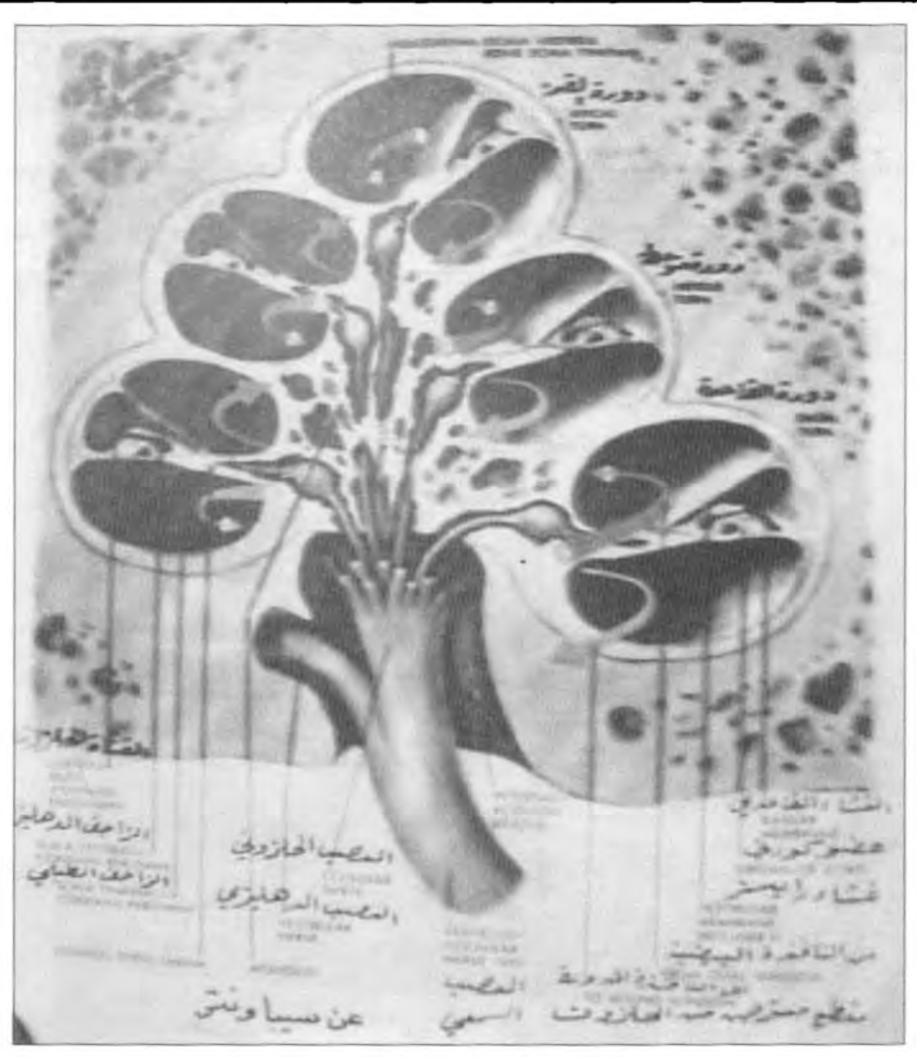
وهي أهم الأقسام وأشدها حيوية، لأنه يجري فيها تحليل الأصوات وتفسيرها. وهي تتألف من قناة عظمية حلزونية تشبه القوقعة، ويتصل بها ثلاث قنوات نصف دائرية هي القنوات الهلالية. وهذه الأقسام متصلة ومتداخلة مع بعضها بحيث يتيه من يبحث فيها، لذا سميت بالتيه!

وفي داخل هذه القنوات الهلالية، توجد أقنية غشائية تشبه الكيس أو القربة، فسميت بالتصغير (الكييس والقريبة).

وفي داخل القناة الحلزونية (القوقعة) يوجد حاجزان من الأغشية تقسم إلى ثلاث قنوات، يوجد في الوسطى منها عضو كورتي الذي يحوي الخلايا السمعية. وتتصل هذه الخلايا بشبكة من الأعصاب الدقيقة التي تجتمع بدورها في العصب السمعي.



مقطع في جهاز السمع (الأذن)
[عن كتاب الطب محراب للإيمان]



مقطع في القوقعة
[عن كتاب الطب محراب للإيمان]

انتقال الصوت:

تستقبل الأذن الخارجية الصوت بواسطة الصيوان، فينتقل إلى غشاء الطبلة عبر ممر الأذن الخارجية ويهتز الغشاء تبعاً لذبذبات الصوت وتهتز المطرقة فتضرب على السندان وهذا بدوره ينقله بواسطة الركابة إلى الأذن الداخلية (الحلزون).

وهي مقسمة كما قلنا بالأغشية إلى ثلاث قنوات في الوسط عضو كورتي وفي الأعلى بالزاحف الدهليزي، لأنه يزحف من الدهليز إلى قمة الحلزون، والسفل يسمى بالزاحف الطبلي، لأن الصوت يعود فيه، فهو يزحف من القمة إلى النافذة المدورة التي تتصل بالأذن الوسطى وبالتالي بغشاء الطبلة. إن الزاحف الدهليزي والزاحف الطبلي يحويان اللمف الخارجي ويتصلان ببعضهما في القمة.

وهكذا فإن الصوت يدور في الحلزون بعد أن يدخل الزاحف الدهليزي ليصل إلى القمة ثم يعود إلى أسفل المكان الذي دخل منه ولكنه من الطابق السفلي فنصل إلى النافذة المدورة المشرفة على الأذن الوسطى، إذن فقد بدأنا من النافذة البيضية ثم عدنا بعد هذه الجولة إلى النافذة المدورة.

في هذا المرور للصوت تهتز الأغشية الفاصلة بين قسمي النفق، وعلى الغشاء الحاوي على عضو كورتي توجد رمال وأهداب تهتز فتؤثر على السائل الذي يحويها. إن هذه الرمال هي الرمال السمعية، فعند اضطراب السائل تتحرك الرمال والأهداب المتصلة بالغشاء وبالخلايا الخاصة بالسمع، وهي موضوعة بكيفية خاصة بحيث يتشكل من اجتماعها نفقاً صغيراً هو عضو كورتي. إن هذا العضو يضم ما يقرب من (مائة ألف) خلية سمعية، وتتصل هذه الخلايا بألياف عصبية في منتهى الرقة، وتخرج من بين العظم الكثيف من ثقوب وممرات فيه وتجتمع وتتصل لتكون العصب السمعي الذي يصل في نهاية المطاف إلى الفص الصدغي من فصوص الدماغ.

كيف يحصل السمع

لقد وجد الأطباء أن الاهتزاز الصوت يؤثر على السائل أو (البلغم) الموجود في كل من الزاحف الدهليزي والزحف الطبلي، وهذا بدوره يؤثر على القناة الوسطى، التي تحوي عضو كورتي والسائل الداخلي، وهذه القناة مغلقة من

نهايتها (في القمة) وتتصل النهاية الأخرى بعضو التوازن (القنوات الهلالية). إن اهتزاز السائل الداخلي يؤثر على أهداب الخلايا والرمال السمعية، وينتقل التأثير عبر الألياف الدقيقة إلى العصب السمعي بشكل سيالة عصبية ونبضات كهربائية إلى الفص الصدغي حيث يفسرها الدماغ وتفهم على أتم وجه، ولكن كيف؟

إن كيفية حصول السمع غامضة حتى الآن، ولم يعرف منها إلا الأمور السطحية البسيطة.

لقد وجد أن هذا العضو حساس تجاه كافة الأصوات، وكل قسم منه خاص بنوع من الأصوات. فالقناة الحلزونية تستمر في تغيير مقطعها حتى تستدق أخيراً في القمة.



مقطع توضيحي آخر لبيان انتقال الصوت في أنبوب القوقعة، وعضو كورتي
[عن كتاب: الطب محراب للإيمان]

أما كيف يتم تمييز هذه الآلاف المؤلفة من الأصوات العجيبة الغريبة؟ وكيف يفهم الدماغ وتميز الأذن بين الأصوات الهادئة والشديدة، وبين الكلام العادي والنغم الموسيقي، وبين أصوات الحيوانات المختلفة وحفيف الأشجار، وغير ذلك مما لا يحصى؟

إن ذلك من آيات الله وقدرته، الذي وهبنا هذه النعم وهي التي ذكرنا بها في عدَّة آيات منها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون: ٧٨].

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

فالحمد والشكر لله على نعمه، وعلى مَنِّه وكرمه، حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده.

٦ ـ حاسة البصر

تركيب كرة العين وعملها:

لنتفهم الشكل المرفق جيداً حتى يكون الشرح سهلًا.

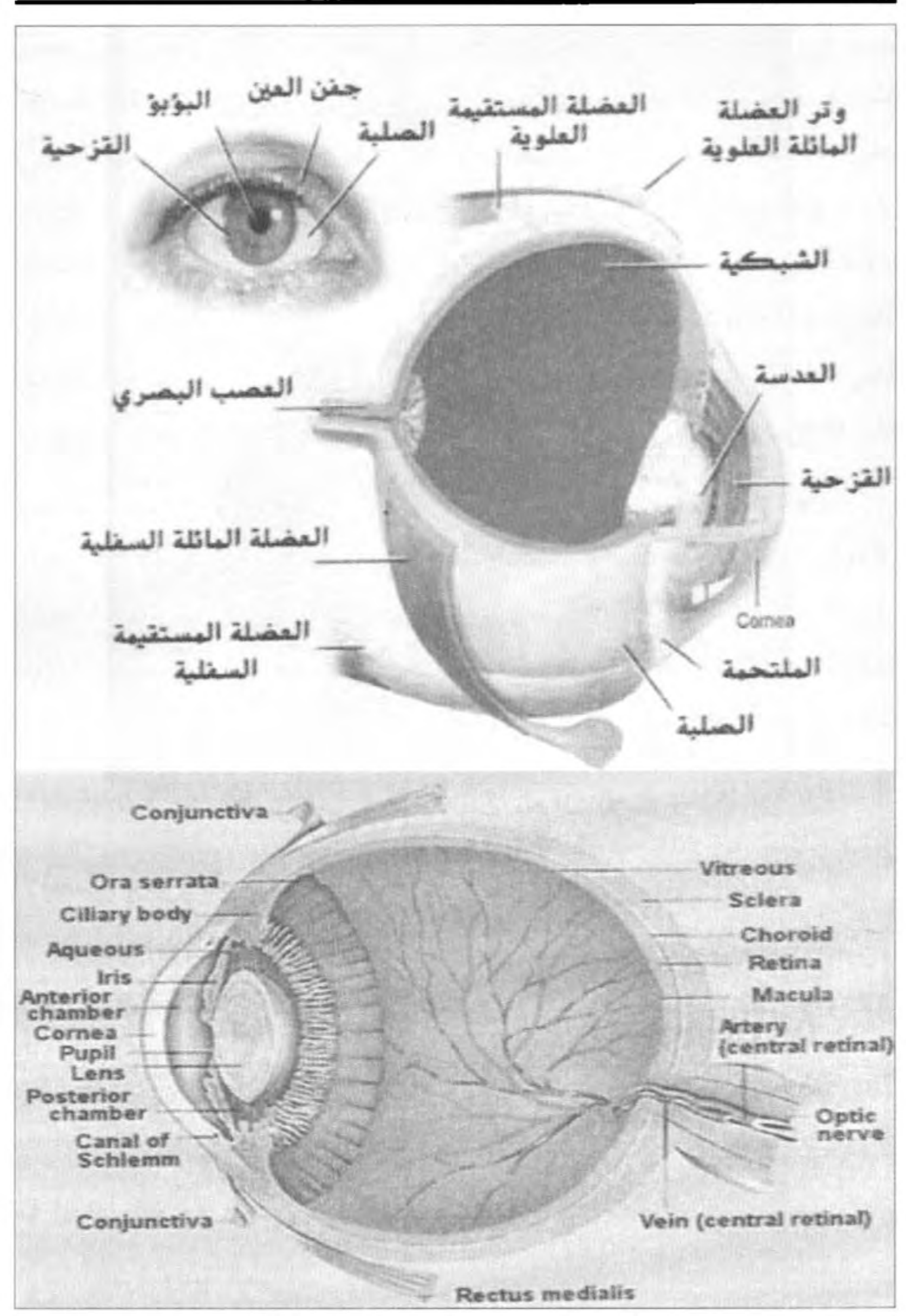
إن كرة العين هي من أروع غرف التصوير الفنية، فهي غرفة مظلمة مغلفة بثلاث جدران أو طبقات، هي من الظاهر إلى الباطن:

الصلبة: وهي التي تعطي اللون الأبيض للعين.

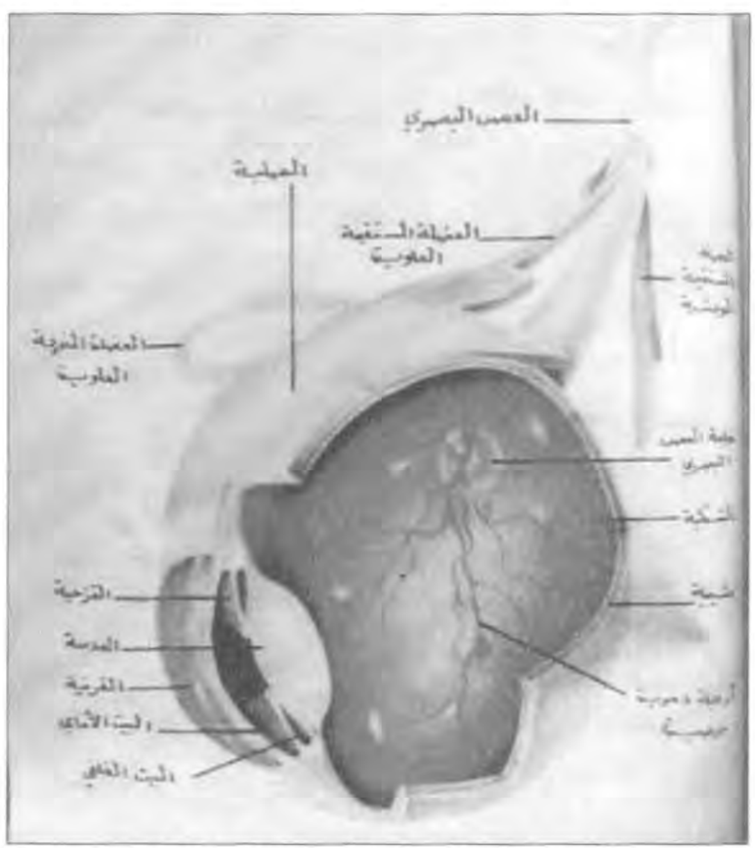
والشبكية: في الداخل وتحمل العناصر الحساسة والمستقبلة للضوء وهي المخاريط والعصيات، وفي المقدمة توجد بللورة رقيقة هي القرنية، وتشبه بللورة غطاء الساعة، وهي مكونة من خمس طبقات، تدخل النور

القادم إلى العين فيجتاز النور سائلًا شفافاً كاسراً للنور هو الخلط المائي وموقعه في البيت الأمامي بين القرنية والقزحية التي تحتها، ويفرز من بيت تحت القزحية هو البيت الخلفي الذي يتصل بالبيت الأمامي من خلال حدقة العين. وإن هذا السائل في العين يؤدي إلى مرض الزرق (الماء الأسود) الذي قد يسبب فقد الرؤية.

والقزحية: هي التي تعطي العينين لونها المعهود وتفتح في مركزها بفتحة واحدة هي الحدقة، لتسمح للعدسة البللورية خلفها باستقبال النور. والعدسة البللورية هذه أعجب بللورة في الوجود، فهي تتقلص وتتمدد إلى درجة كبيرة حتى تتطابق الصورة مع المناظر التي تقع أمام العين. وبتمددها وتقلصها تنظم البعد لتطابق صورة المرئيات في العين. وبعد هذه العدسة يدخل النور خلطاً جديداً شفافاً كاسراً للنور هو الخلط الزجاجي، فإذا وصل إلى الشبكية استقبلته أجهزتها الحساسة (العصيات والمخاريط) التي تنقل تأثيره بواسطة الأعصاب إلى الدماغ.



[الصورة عن: www.szil-optic.hu]



[الصورة عن كتاب: الطب محراب للإيمان]

الإبصار والرؤية

يبصر الإنسان بتلقي الشعاع الضوئي الصادر من الأجسام إلى العين، فيخترق العدسة إلى الشبكية التي تحتوي العناصر الحساسة للنور، وتنقل تأثيرها بشكل سيالة عصبية عبر ألياف العصب البصري ومن ثم إلى الفص القفوي في الدماغ، وهو مركز الرؤية العام، فيقوم بفهمها وتفسيرها.

ما أحاط الله به العين من لطف وعناية

١ ـ أجهزة وقاية العين:

العين محاطة بجهاز وقاية حفيظ، فبالإضافة إلى موقعها المنخفض

نسبياً في الوجه؛ فإن كرة العين موجودة في تجويف وكأنه محفور في عظم الجمجمة يسمى بالوقب وبينها وبين هذا التجويف وسائد شحمية للحماية. وهي مغطاة بجفنين يفتحان ويغلقان بمنتهى السرعة. فإذا اتصل الجفنان من الأمام وتداخلت الأهداب أغلقت وسترت العين. ويغلف العين من الأمام والأجفان من الداخل غشاء رقيق شفاف وساتر، هو ما يعرف بملتحمة العين. فإذا ما استطاعت ذرات الغبار أو بعض الجراثيم المتسللة أن تصل العين، أفرزت عليها غدة الدمع مادة مطهرة فطهرتها بها. وتوجد غدد الدمع هذه داخل الأجفان وكأنها المراصد، ترطب العين وتطهرها وتنظف شاشتها.

وبهذا الجهاز تحفظ العين من الصدمات واللكمات ومن ضوء الشمس والعرق النازل من الجبهة، حيث تقوم الحواجب بدورها في إبعاده أيضاً. وكذلك تحفظه من الرياح والغبار والجراثيم والأجسام الغريبة. إن ما تفرزه غدة الدمع باستمرار علاوة على تطهير العين وترطيبها؛ فإنها تجعل الرؤية صافية وتعطي العين بريقها الخاص.

إن هذا الإفراز له طريق خاص إلى الأنف لتصريف الزائد منه، وإذا زادت الكمية عن ذلك طفحت العين وفاضت بالدمع، كما يحدث عند البكاء أو التأثر الشديد:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣].

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢].

٢ - تنظيم حركة العين

والقزحية تحتوي على خلايا الصباغ التي تعطيها لونها وجمالها. وتحوي القزحية نوعان من الألياف العضلية التي تنظم فتحة الحدقة، وهي

ألياف دائرية وشعاعية، وينشأ التوازن من شد وجذب هذين النوعين من العضلات الذين يسيطر عليهما كل من العصبين الودي ونظير الودي. كما أن البللورة أيضاً تسيطر على تحدبها وتقلصها مجموعة من الألياف تنطلق من خلف القزحية، ويقرب عددها من (١٤٠) ليف عضلي. وإذا ضعفت هذه الألياف العصبية، ظهرت علامات عدم تطابق الرؤية وهي علامات لضعف البصر، فتفقد السيطرة الجيدة في فتح الحدقة وفي تحدب العدسة، فيحتاج الشخص إلى نظارات إضافية لتصحيح الرؤية.

٣ ـ السيطرة الدماغية في فهم الصورة

إن تفاعل الحدقة السريع معْ النور وانقباضها على قدر درجة الإضاءة تتعلق بمراكز انعكاسية موجودة في المنطقة السفلى من الدماغ.

أما تقدير المسافات والأبعاد (تحدب وتقلص العدسة) وفهم المرئيات، فهو يتعلق بقشر الدماغ حيث ترقد مراكز الوعي والإدراك والفهم والتحليل والذاكرة والإبداع.

وإصابة هذه المراكز تؤدي إلى العمى الروحي، أي أن الإنسان يرى الأشياء ولا يفهمها:

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ١٩٨].

أي أنهم لا يفهمون ما يبصرون.

٤ ـ الرؤية الملونة

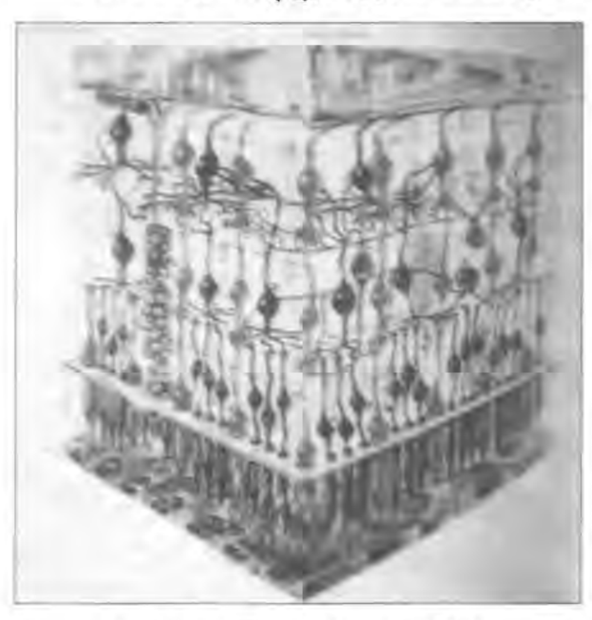
وجد أن في الشبكية أجهزة حساسة للنور، وأنها تتطابق مع النور والظلام بواسطة العصيات والمخاريط. إن عدد العصيات في العين الواحدة يقدر بـ(١٤٠ مليون) عصاة وعدد المخاريط بـ(٧ مليون) مخروط أي أن مجموع الأجهزة في العينين يقدر بحوالي (٣٠٠ مليون).

والعصيات حساسة للنور الضعيف، والمخاريط حساسة للنور القوي وللألوان. وهكذا تنتقل الصور في العينين عبر مليون جهاز تلفزيوني ملون! تنتقل الصورة بعد انطباعها بشكل مقلوب عبر العصب البصري ثم إلى نقطة تقع فوق الغدة النخامية وهناك يتصالب العصبان البصريان بنصفيهما حتى ترى الصورة مجسمة وصحيحة ثم تندفع الصورة بشكل أشعة من السرير البصري إلى مركز الرؤية العام في الدماغ حيث تنطبع وتفهم وترسل إلى مستودعات الذاكرة، وفي هذا سر عظيم.

٥ ـ جهاز التعتيم والتوضيح في العين .

إن العصيات والمخاريط تعمل بشكل يؤمن سلامة العين عمل جهاز التعتيم. وهو جهاز ينظم قوة النور فيعطيها ببطء ويأخذها ببطء، فيحصل التعتيم البطء. وكان الأحرى أن يسمى جهاز القبض اليسير، مأخوذاً من الآية الكريمة:

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٤٦].



الشبكية في العين بطبقاتها العشرة
[عن كتاب الطب محراب للإيمان]

فإذا دخلت غرفة مظلمة وقد كنت في النور فإنك لا ترى شيئاً ثم تعمل المخاريط على توضيح الرؤية شيئاً فشيئاً حتى تصل قوة الرؤية إلى خمسين ضعفاً، لكن الرؤية الليلية تعود إلى العصيات فتعمل عملها حتى تصل قوة الرؤية بعد ٤٥ دقيقة إلى خمسمائة ضعف. والسر في هذا يعود إلى وجود مواد كيميائية في العصيات تتحول في النور إلى مادة أخرى وفيتامين أ. وإن نقص هذا الفيتامين يسبب خللًا في الرؤية الليلية وهو ما يسمى بالعشى الليلي.

ومن الجدير بالذكر أن من جملة أسباب عمى الألوان، هو التسمم المزمن بالتبغ والخمر!

إن في العينين من الأسرار ما لا يسعه المجال في هذا الكتاب وإنما نكتفي هنا بهذا القدر للذكرى والعبرة، فقليلًا من الذكرى تكفي الحليم.

نعمتا السمع والبصر

إن نعمتي السمع والبصر هما من أعظم النعم على الإنسان، فعن طريقهما تنفتح للإنسان منافذ العالم الخارجي، ويتلقى منه المدركات فيسمع ويدرك ويحس بسيطرته وحياته ويسعى إلى ما ينفعه، ويتقي ما يضره، ويأتمن على نفسه.

وإن تعلم النطق يتم بالدرجة الأولى عن طريق السمع. وإذا ولد الإنسان أصم، فإنه يشق عليه الانسجام مع المحيط الخارجي، أو التفاهم معه وربما يبقى أخرساً (أبكم) ويحدث عنده قصور عقلي شديد. انظر علاقة العقل بالصمم في الآية الكريمة:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: ٤٢].

بمعنى آخر أن هذا الجهاز (السمع) هو الذي ينمي المدركات الذهنية والعقلية والوعي في الإنسان أكثر من البصر لذلك دائماً ترى أن الله سبحانه يقدمه على البصر في التذكير بهاتين النعمتين، ومنها:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون: ٧٨].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المُلك: ٢٣].

فهذه النعم العظيمة ينبغي علينا شكرها ليلاً ونهاراً، وكيف بنا إذ علمنا أن عبادة ستين سنة لم تف بنعمة البصر وحدها يوم القيامة! اللهم نبوء لك بنعمتك علينا ونحمدك ونشكرك عليها، فاغفر لنا وهبها لنا بفضلك ورحمتك إنك أنت العزيز الوهاب.

ثم تأتي الآية من سورة يونس لتذكر كيف تعمل هذه الأجهزة، ومن الذي يملك أمرها وتدبيرها وسرها، من بين ما يذكر به سبحانه من النعم والتدابير الكونية الأخرى لينبه الإنسان ويقيه من الغفلة:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١].

ثم يذكر بعظمة هذه النعم، وما سيكون عليه الحال عند فقدها، أو عندما يريد مالكها أخذها، وهل أحد غيره بعد ذلك قادر على منحها؟

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: ٤٦].

ويعبر القرآن الكريم عن الفهم والاهتداء بالسماع، أي سماع الهدى وتقبله وفهمه فيقول سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦].

فعبر عن الذي لا يسمع الهدى ولا يستجيب له بالميت، أي أن الباقين الذين لا يسمعون هم موتى أو كالموتى، مات عندهم العقل والفهم فلا يسمعون الهدى ولا يستقبلونه، كما يؤكد ذلك أيضاً قوله تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٢٢].

ويذكرنا سبحانه بهاتين النعمتين في صورة الحي المهتدي الذي يسمع الهدى ويبصر النور، وفي الفرق بينه وبين الضال الذي يتخبط في الظلمات ولا يستطيع الخروج منها:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

تفاوت تأثير السمع والبصر على الإنسان

لقد يصعب على الإنسان فقد العينين أكثر من فقد السمع في حياته الدنيا، لما للرؤية من أهمية في حياته وحركته وحريته وأمنه، لذلك نلمس من حديث الرسول الكريم الجزاء العظيم لمن ابتلاه الله بفقد عينيه وصبر على ذلك واحتسب ونصه:

«إن الله ﷻ قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة»[1].

حبيبتيه: يريد عينيه.

---

(١) رواه البخاري: ٥٢٢١.

أما في الحقيقة، فإن الضرر الذي يصيب الإنسان من فقد سمعه أعظم من الضرر الذي يأتيه من فقد عينيه، لما لهذا السمع من تأثير عظيم في تعلم الإنسان واهتدائه.

فإن الأصم الذي فقد سمعه منذ صغره، سيبقى أبكماً ولا يتعلم شيئاً، وسيبقى جاهلًا معزولًا عن مجتمعه ومحيطه وضعيفاً في شخصيته. إننا نرى كثيراً من فاقدي البصر هم من النوابغ، بينما لا يقابلهم في هذا المضمار من مثلهم من الصم لذلك وصف سبحانه الكافرين الذين لا يسمعون الهدى بهذا الوصف وبأنهم لا يعقلون:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧١].

ووصفهم في سورة الأنفال:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفَال: ٢٢].

ودل على سبب خيبة الظالمين بعجزهم عن السماع في الدنيا قبل عجزهم عن الإبصار بأنهم:

﴿... مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هُود: ٢٠].

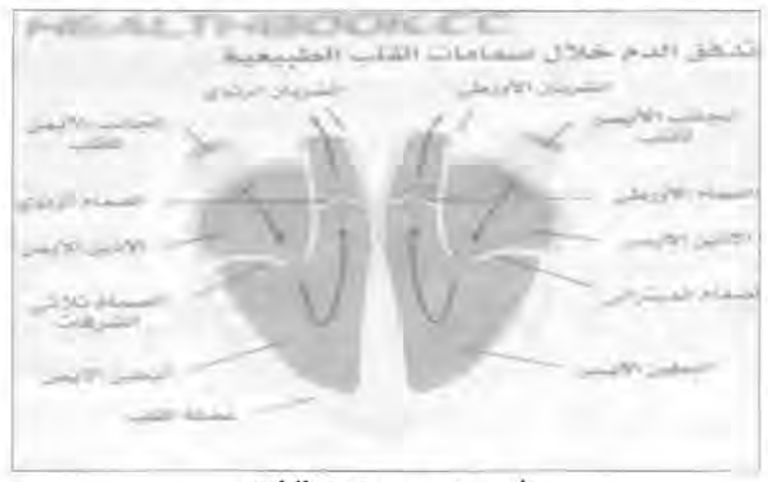
٧ ـ أجهزة أخرى رئيسية

إن كلًا من القلب والكبد والكليتين والرئتين مثلًا، إن كلًا من هذه الأعضاء هي أعضاء رئيسية أو أساسية تتعطل بفقدها أو بخللها حياة الإنسان. ففي الرئتين مثلًا سعة بحيث تفي بحاجة الإنسان ثمان مرات. ويمكنه أيضاً أن يعيش برئة واحدة أو حتى بجزء منها، لكنه بالطبع سيفقد النعيم الذي يجده السليم. كما أنه يستطيع العيش بكلية واحدة، وربما بجزء من الكبد، إلا أنه لا يمكنه العيش بجزء من القلب! علماً بأن كلًا من هذه الأعضاء آية وأعجوبة في الخلق!

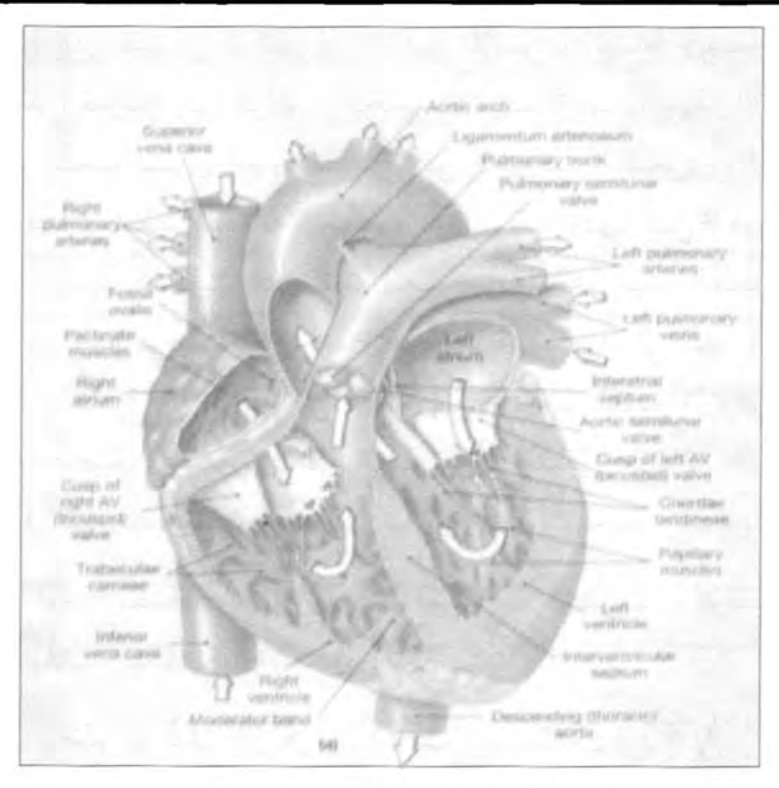
١ - القلب:

هذا العضو العجيب هو أقوى مضخة في الوجود رغم صغر حجمه (قبضة يد)، ورغم أنه مكون من عضلة طرية خاصة وألياف. وهو يعمل عمل مضخة وموتور في آن واحد. إنه يضرب (ينقبض وينبسط) في الدقيقة بمعدل ٧٠ ضربة في الحالات الاعتيادية، وله قابلية على زيادة ضرباته في الحالات الاضطرارية كحالات التعب والجهد أو الخوف، لتخليص الجسم من السموم المتراكمة من جراء ذلك، أو لتعديل حرارته، وبحسب حاجة الجسم. والعضلة المكون منها مجوفة فيها أربعة حجرات أو تجاويف، اثنان علويان هما الأذينان الأيمن والأيسر واثنان سفليان هما البطينان الأيمن والأيسر. فالأذينان في الانبساط تقومان بعمل السحب أو الامتصاص بعد انفتاح الصمامات بينها وبين البطينان فيفرغ ما في البطينان. وبالانقباض تسد الصمامات بواسطة ضغط الدم وتعمل البطينان عمل الدفع. وقد جعلت الصمامات بحيث تسمح بطريق واحد ولا تسمح بالعودة، حتى تستمر الدورة باتجاهها.

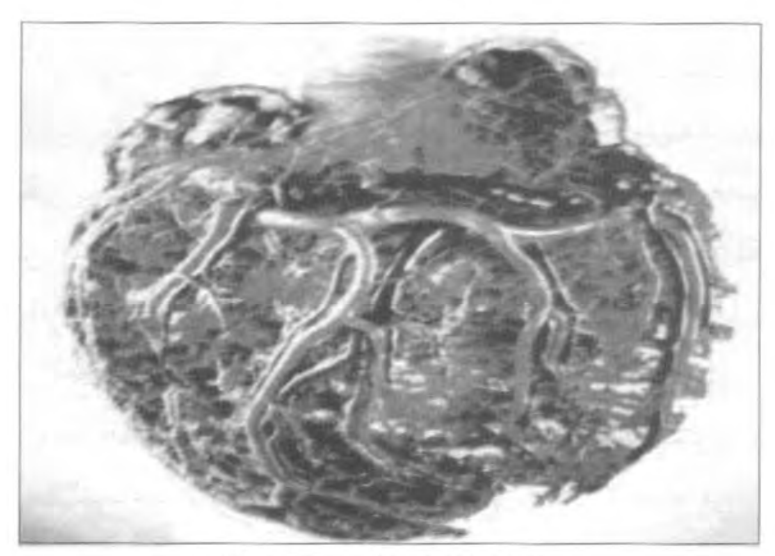
فيأتي الدم الفاسد إلى الأذين الأيمن من الرأس والجسم ويدفعه البطين الأيمن عند انقباضه إلى الرئتين للتصفية، انظر الشكل في الأسفل.



الصورة عن: ٦abib.com



[الصورة عن: www.bg.ac.uk]



شبكة القنوات الدموية في القلب

[عن كتاب الطب محراب للإيمان - د. خالص كنجو]

ويأتي الدم نقياً من الرئتين إلى الأذين الأيسر بالانبساط ويدفعه البطين الأيسر عند انقباضه إلى الرأس والجسم للاستفادة منه. وبهذا الانقباض والانبساط للقلب يسري الدم باستمرار في الدورتين الصغرى والكبرى، والقلب يمدها بالضغط بضرباته المستمرة دون توقف ودون كلل؛ فهو ينبض في اليوم الواحد ما يزيد على مائة ألف ضربة. وهو بهذا العمل يدفع ٢٢٠٠لتر من الدم في اليوم الواحد. وتمر الكرية الحمراء في الدورة حوالي ١٥٠٠مرة! وتستغرق دورة الدم من القلب إلى الرئة ثم العودة ٦ ثواني فقط! وهي سرعة عجيبة، بينما يعود الدم الذاهب إلى القدمين في ١٨ ثانية وهذا بسبب الفرق في المسافة في هذه الدورة الكبرى.

فهل توجد مضخة وموتور يعملان طيلة هذه السنين دون توقف ودون صيانة واستهلاك وبهذه الكفاءة؟.. إنه:

﴿... صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨].

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧].

٢ ـ الكبد:

الكبد وكما نسميه (المعلاق الأسود) يوجد في الجهة اليمنى من تجويف البطن تحت الحجاب الحاجز. وهو أيضاً عضلة من نوع خاص ويزن في الشخص البالغ حوالي: كيلوغرام ونصف. صحيح أنه عضلة، لكنه كما يقول الأطباء بأنه يقوم بعمل خمسين معملاً، فانظر إلى بعض ما يقوم به هذا المعمل العجيب:

أ ـ يفرز مادة الصفراء المخزونة في المرارة إلى الأثني عشري وحسب الحاجة لتساعد على هضم الدهون ومنع تعفن الأغذية في الأمعاء. وفي حالة إصابة الكبد تتسرب الصفراء إلى الدم وهو ما يعرف بمرض الصفراء (أبو صفار).

ب ـ يختزن سكر الكلوكوز من الدم وينفقه إلى الدم عند نقصه لكي تتعادل نسبته بانتظام. فالكبد هو المنظم لنسبة السكر في الدم. وإذا زادت هذه النسبة عن حدها، أصيب الجسم بمرض السكر.

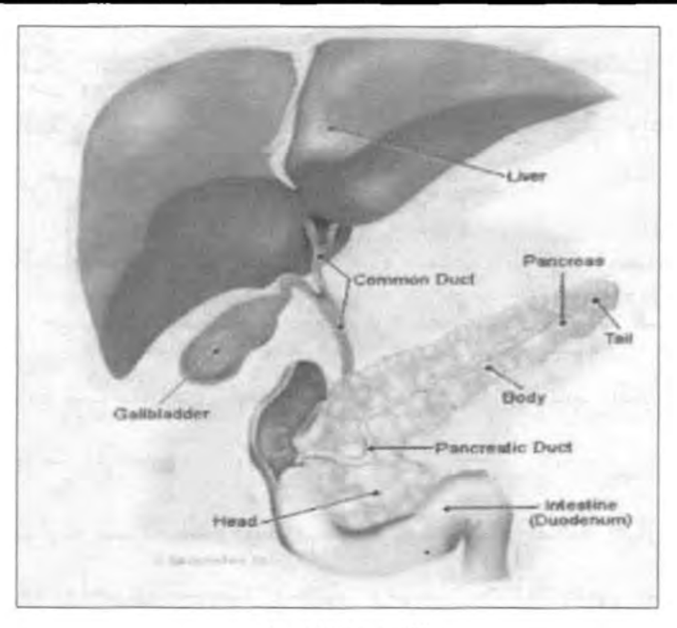
ج ـ يقوم الكبد بتكوين مادة البولينا من الأحماض الزائدة ويحملها الدم إلى الكليتين حيث يتم تصفيته منها وإفرازها مع البول، وإلا تسمم الجسم.

د ـ يفرز مادة تساعد على تخثر الدم، ولولاها لاستمر النزيف بالجرح حتى يموت الإنسان.

هـ ـ يقوم بموازنة سيولة الدم وينظم التوازن، حيث يمكنه إفراز مادة تسبب السيولة، وأخرى تسبب التخثر وبهما يحافظ على سيولة مثالية ومنتظمة، وهذه لها أهمية عظيمة في المحافظة على حياة الإنسان.

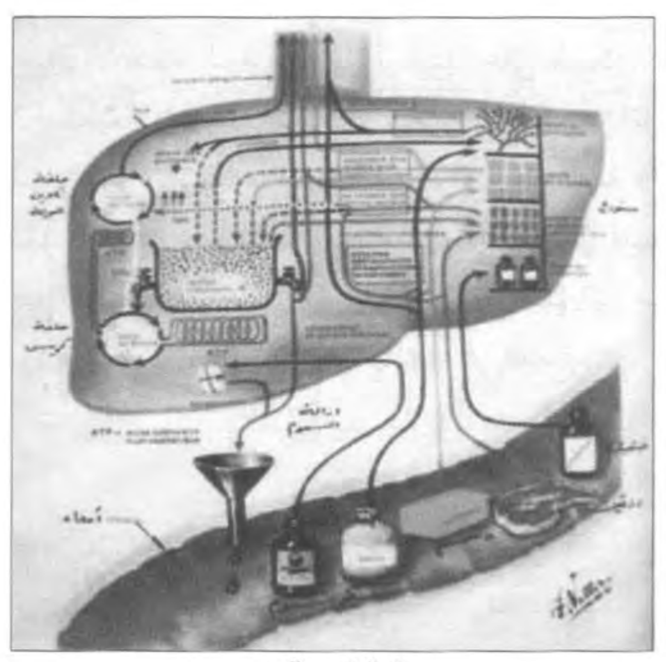
ز ـ يقوم الكبد بتعديل السموم وتخليص الجسم منها.

ح ـ يقوم بإمداد الأعضاء المعتمدة في تغذيتها على السكر كالدماغ مثلًا الذي لا يستطيع الاستغناء عن سكر الكلوكوز أكثر من ثوان معدودة، أو كالقلب الذي لا يستطيع الاستغناء عنه أكثر من دقيقة واحدة، فيقوم بإمدادهما بالسكر على وجه السرعة، وإذا لم يبق لديه خزين من السكر فله القدرة على تحويل أية مادة غذائية وقلبها إلى سكر وإرسالها على الفور! مستجيباً بذلك إلى نداء القلب أو الدماغ.



الكبد والبنكرياس

[عن: ...www.medicinehealth]



فعاليات الكبد

الصورة عن كتاب: الطب محراب للإيمان.

هذا بالإضافة إلى قيام الكبد بأعمال مختلفة من تخزين المواد المفيدة التي يحتاجها الجسم وتحويلها وقلبها إلى مواد أخرى صالحة للهضم. ويقوم بأعمال التكثيف وحلّ السموم، وإفراز المصنوعات، وتكوين البروتينات، وغير ذلك مما يجعله المخزن والمصرف والمنظم والميزان العام للجسم.

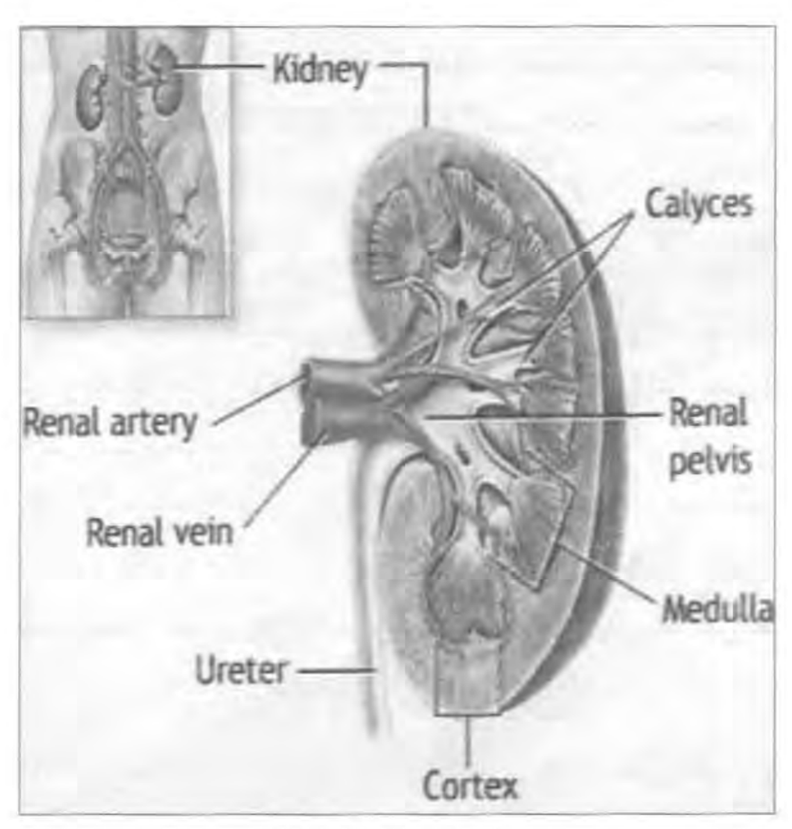
٣ ـ الكليتين:

والكلية هذا الجهاز الصغير الذي يقوم بتصفية الدم على أحسن ما يرام، فيحافظ على نسبة تركيز الأملاح والسكر وبعض المواد الأخرى المفيدة ويطرح ويفرز المواد الضارة وفضلات الخلايا والبولونيا، ويطرحها مع البول ومع الماء الزائد في الجسم. فالكلية تمنع مثلًا مرور الزلال خلال التصفية فتعمل عمل المنخل في حفظ المواد المفيدة وطرد الضارة. وعندما تمر هذه المواد من خلال الكلية المريضة يظهر العجز والضعف والمرض لعجز الكلية عن الترشيح الصحيح.

إن كل كلية تحتوي على مليون وحدة تصفية من الأنابيب الشعرية المصفاة وتسمى الكبة لكونها تشبه كبابة من الشعر أو الغزل. فخلال ٢٤ ساعة يمر ١٨٠٠لتر من الدم في الكلية ويرشح منه ١٨٠لتر يعاد امتصاصه إلا ٥ و١لتر فقط يطرح خارجاً وهو البول الاعتيادي. أي أن الدم يتصفى ٣٦ مرة كل ٢٤ ساعة، علماً أن حجم الدم العام هو ٥لترات فقط، وتقوم الغدة النخامية بإفراز هورمون خاص مضاد للإدرار للسيطرة على تصريف الماء، فعند قبضه ينطلق إدرار البول ويتخلص البدن من الفائض منه فيبقى الدم على الدوام صافياً نقياً من البول والمواد الضارة ويشعر الإنسان بالصحة.

وإذا أصيبت أحدى الكليتين، فإن الأخرى قادرة على القيام بالمهمة، بل إن الله سبحانه قد خلق فيها من الكفاءة بحيث أن ثلث كلية سليمة تستطيع القيام بالمهمة ويعيش الإنسان!

فانظر إلى رحمة الله وإلى هذه النعمة العظيمة. ففي حالة تعطلها يصبح المريض عميلًا دائماً للمستشفى حيث تعمل له تصفية ميكانيكية بجهاز خارجي ضخم يمر دمه بدورة خلال الجهاز بإضافة ١٨٠لتر من الماء المقطر بالتدريج لكل دورة وتستغرق العملية عدة ساعات. ثم يعود إلى التصفية مرة أخرى بعد أسبوع يكون بدنه قد امتلأ بالبول مرة ثانية وهكذا يلازم المستشفى كل أسبوع وهو يشعر بمضايقة شديدة لما يرى في هذه الحال من العذاب!



مقطع تفصيلي في الكلية

[الصورة عن: www.indg.in]



عن: الطب محراب للإيمان

٤ ـ الرئتين:

هما مع القصبة الهوائية ومجرى الأنف يكونان الجهاز الذي يزوِّد الدم بالأوكسجين ويخلصه من غاز ثاني أوكسيد الكربون. وبغير هذا يتسمم الإنسان ويموت.

والرئة جسم إسفنجي بشكله ونسيجه ويتألف من مجموعة هائلة من ملايين الحويصلات الرئوية المجهرية. تتصل القصبة الهوائية بشعبتيها في الرئتين ومن الأعلى بمجرى الأنف، ولها طريق اضطراري أيضاً من الفم.

والقصبة الهوائية مؤلفة من أنبوب من الأغشية والألياف تقويها حلقات غضروفية دائرية لتحافظ على بقائها مفتوحة، وهي غير كاملة من جهة

المريء الملتصق بها لتسمح له بالتوسع، وإلا اختنق الإنسان عند الأكل ولم يستطع التنفس. وهي مبطنة من الداخل بغشاء لزج وفيه أهداب تساعد على طرد الغبار والرشوحات والمواد الضارة وغيرها. وتتفرع الشعب القصبية داخل كل رئة إلى فروع ثانوية، ثم إلى أخرى وهكذا حتى تصل إلى فروع دقيقة لا ترى إلا بالمجهر، وتتصل هذه الفروع بدورها بالحويصلات الرئوية. وهذه الحويصلات عبارة عن أغشية على شكل كرات هوائية تسمح بنفوذ الغازات، وتفرش على سطحها الأوعية الشعرية الدموية، وهنا تتم تصفية الدم من غاز ثاني أوكسيد الكربون، وتزويده بالأوكسجين اللازم.

يقدر عدد الحويصلات الرئوية بـ(٧٥٠) مليون حويصلة، توفر مساحة تصل إلى (٢٠٠) متر مربع لتبادل الغازات على هذا السطح خلال عملية التنفس!

يتحد الأوكسجين مع صبغة الهيموكلوبين الموجودة في الدم، ويذهب إلى الأنسجة والخلايا ويأخذ منها ثاني أوكسيد الكربون ليطرد مع هواء الزفير.

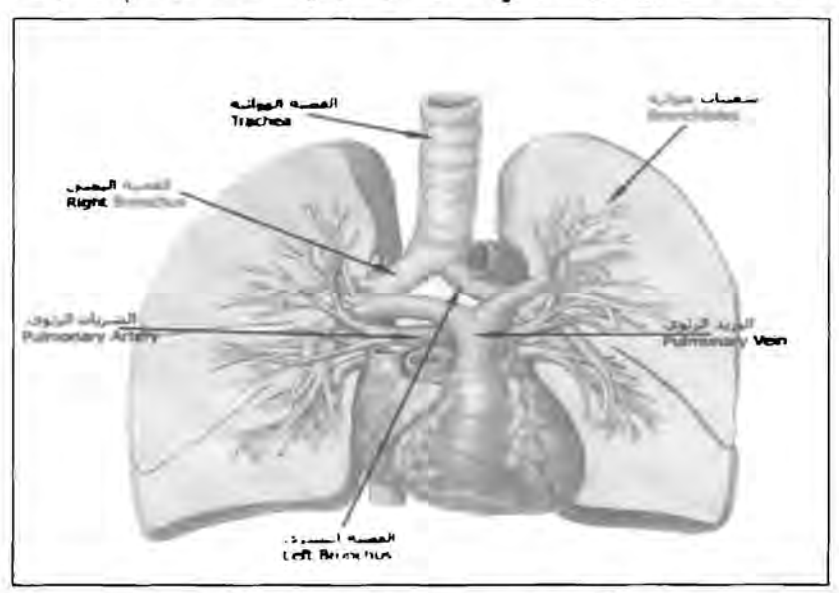
يتنفس الإنسان في اليوم ٢٥٠٠٠مرة ويسحب بهذا من الهواء ١٨٠متر مكعب، يستفيد منه بمقدار ٥ و٦متر مكعب من الأوكسجين يستعمله في تنقية دمه!

٨ ـ المعدة والهضم

المعدة هي وعاء كالقربة، يتألف من أربعة طبقات من الأغشية تتخللها العضلات. والطبقة الداخلية التي تبطن المعدة من الداخل والتي تشبه الخميلة هي الطبقة الهاضمة. والمعدة من أهم الأعضاء في جهاز الهضم التي تجب العناية بها، ليشعر الإنسان بالصحة والقوة. وهي حقاً من عجائب الخلق!

فهذه المعدة أو لنقل (الخباطة العظيمة) هي مأوى لأنواع الطعام المتباينة والشراب والماء وكل ما يمكن أن يتناوله الإنسان عن طرق الفم. إن هذه المواد المختلفة مؤلفة من عناصر ومركبات كيميائية متباينة ومتناقضة من بروتينات ودهون وسكريات وأملاح مختلفة، منها الحامضية ومنها القلوية،

ولو تفاعل هذا الخليط لأحدث حرارة وناراً محرقة! والمعدة هي التي تقوم بمعادلة هذه المواد وتفتيتها وهضمها بما تفرزه عليها من عصارات ومن غدد تبلغ في مجموعها ٣٥مليون غدة تقوم بتنظيم المواد وهضم الطعام وجعله عجينة لينة سهلة ثم تدفعها بعد ذلك إلى الأمعاء الدقيقة. وفي الأمعاء الدقيقة تتوالى الإفرازات والعصارات عليها من كيس الصفراء في الكبد ومن غدة البنكرياس. تقوم هذه الإفرازات بما فيها من مواد هاضمة وأنزيمات بحل هذه العجينة المهضومة المقدمة من المعدة وتغير تركيبها الكيميائي حتى يصبح قابلًا لامتصاصه من قبل الأمعاء، وصالحاً للاستفادة والتغذي عليه من قبل خلايا وأنسجة الجسم. وهكذا تتعاون الأمعاء الدقيقة مع المعدة في إكمال الهضم وتحويل الأطعمة المختلفة إلى مواد تغذي الإنسان وتديم طاقته وتحفظ حياته وصحته. فالمعدة تفرز الحامض والخمائر وتفرز مواداً مخاطية، وتفرز عاملًا مهماً لنشاط الدم وقوته وصيانة الجسم من مرض فقر الدم بمقدار دقيق يعد بالمليغرامات من فيتامين ب١٢، وإن ما تفرزه المعدة يومياً من هذه العصارات والمواد الهاضمة يصل إلى حوالي ٥ و١لتر لتؤدي أعمال الهضم والتوازن.

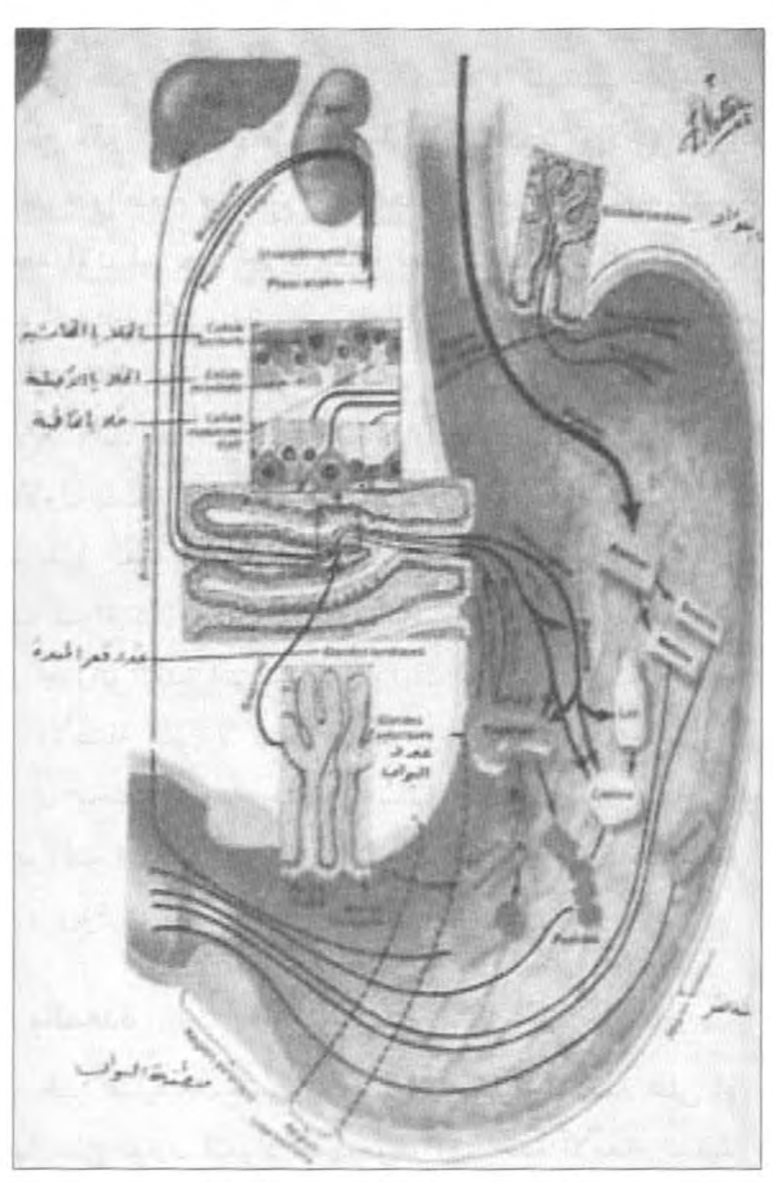


[الصورة عن: vb.arabsgate.com]



تصفية الدم في الرئتين والتبادل بالأوكسجين

[الصورة عن: كتاب الطب محراب للإيمان]



التفاعلات وهضم الغذاء في المعدة

[عن كتاب الطب محراب للإيمان]

لماذا لا تهضم المعدة نفسها؟

ويبقى هذا هو السؤال المحير. كيف لا تنهضم جدرانها وهي تلقي بداخلها من هذه المواد الهاضمة والقارضة كالخمائر والأحماض وهي تهضم أنواع اللحوم والطعام وتهضم أيضاً جدران معدات الأنعام التي نأكلها؟ إن الطب لحد الآن لم يجد جواباً مقنعاً لهذا السؤال، وكل ما يقال أن المعدة تفرز هذه المواد بشكل بدائي غير فعال ريثما يختلط بالمواد خارج جدرانها وخلاياها فتتخلص من تأثيره ويتعادل بشيء من الضبط! ويقال أيضاً أن المعدة لابد وأنها تفرز مع المخاط مواداً مضادة تمنعها من هضم جدرانها. والقول الأول يصح في الخمائر إلى حد ما، ولكنه لا يصح في الأحماض. بل كيف يفرز الحامض ويركب في الغدد وهو مادة قارضة مذيبة، وتركيبه هو نفسه سواءً كان خارج جدرانها أو داخلها؟ بل لماذا لا يقرض هذا الحامض جدران الغدة التي تفرزه، وكيف أمكنه أن يستقر فيها؟، هذا مثل كثير من الأسئلة التي لا تجد جواباً، وما هي إلا من آيات قدرة الخالق وتدبيره. إن محيط المعدة حامضي بينما محيط الأمعاء الدقيقة قلوي على عكس إفرازات المعدة لكي يعمل هذان العاملان على تنظيم توازن الغذاء المهضوم، ويوفران تعقيم دائم لهذه المواد ومنعها من الفساد!

العناية بالمعدة

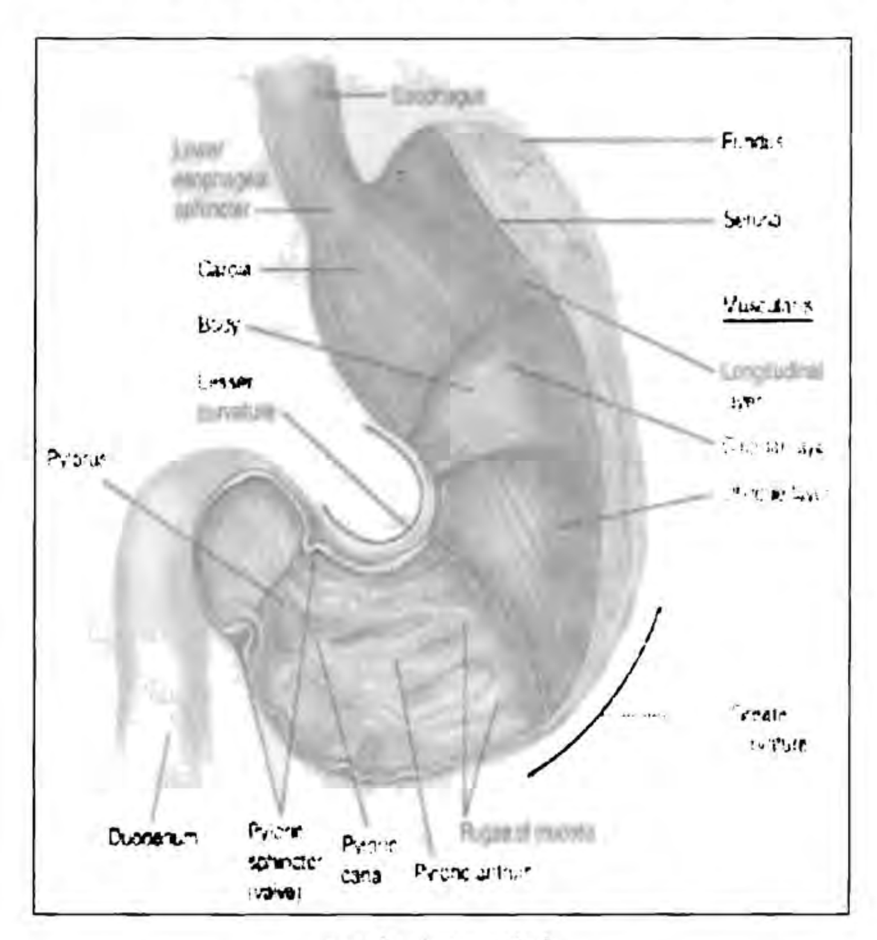
إن خير عناية يقوم بها الإنسان لمساعدة المعدة على إدامة قدرتها وسيطرتها على توازن المواد المهضومة ومساعدة الأمعاء الدقيقة في إتمام الهضم والامتصاص الجيد هو اتباع قانون الصحة العام وهو:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١].

إن هذا القانون يعطي الإنسان توازناً عظيماً في صحته وقوته ويعطي

الدولة والأمة ميزاناً اقتصادياً وتوزيعاً عادلًا لخيرات البلد فيتنعم بالصحة والقوة الأغنياء والفقراء على السواء. وما أحسن قول الرسول ﷺ في هذا الموضوع وما أحكمه إذ يقول:

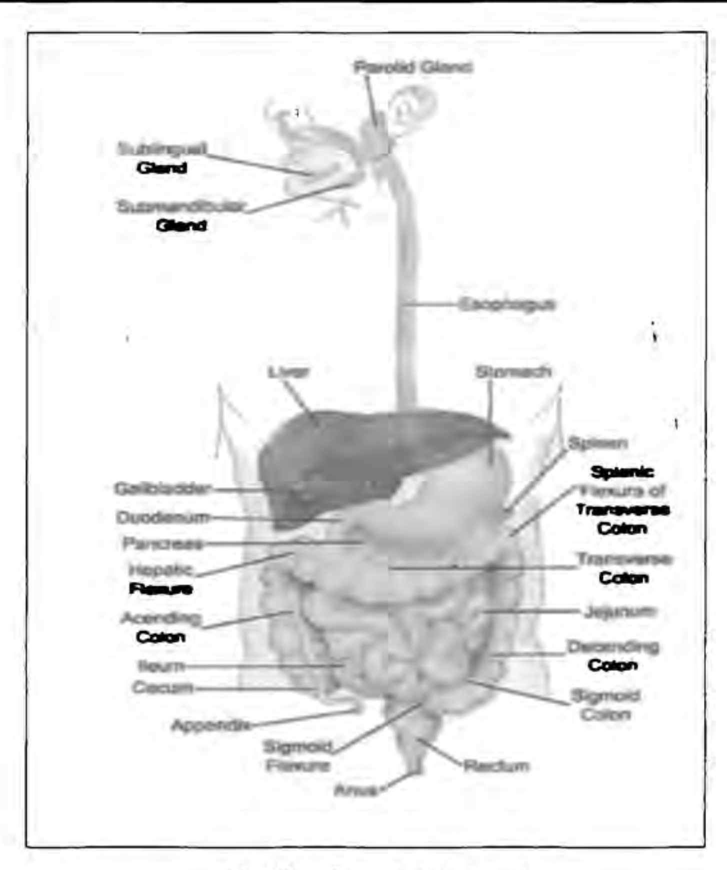
«ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[(١)].



طبقات جدران المعدة

[الصورة عن: www.riv.nl]

(١) رواه الترمذي: ٢٣٠٢.



الجهاز الهضمي في الإنسان

[**الصورة عن**: www.medicalook.com]

وصدق قائل المثل أو الحكمة المشهورة إذ يقول: المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء.

ذلك أن معظم الأمراض تأتي من إجهاد المعدة بكثرة الطعام، فلا تسيطر إفرازاتها على هضم الغذاء الكثير فيختل التفاعل وتبرز السموم. ومن المواد المجهدة للمعدة الحوامض والتوابل الحريفة والدهون والسكريات إذا أخذت هذه المواد بغير اعتدال.

ومن حكمة صيام شهر رمضان أنه يعطي المعدة استراحة سنوية لاستعادة نشاطها ونشاط غددها، ويوفر لها صيانة عامة وللجسم مما ترسب

فيه من بقايا المواد الضارة ومن فضلات السموم. وصدق الله العظيم في قوله:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٤].

إن المعدة تستحق كل جهد وضغط يتحمله الإنسان لأجل حمايتها وصيانتها، إذ لولا ما تقوم به المعدة من عمل في هضم هذه الأطعمة المختلفة وتصفيتها للتغذي، لأصبحت كل النعم والخيرات التي وهبها الله من الثمار والفواكه الكثيرة، وأنواع الخضار واللحوم والألبان وغيرها من لذيذ الطعام والشراب مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، لأصبحت كل هذه النعم حسرة على الإنسان، إذ يراها ويشتهيها ولا يستطيع التنعم بها ولو أكلها فلا يستطيع هضمها، فتتحول عنده إلى مواد نتنة وسموم وخمائر فاسدة مميتة، وهذا ليس إلا نوعاً من العذاب، سلطه الله على الكافرين بنعمته، المرتابين بقدرته:

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾ [سَبَإ: ٥٤].

فسبحان الله الذي وهبنا هذه النعم والحمد له، لنشكره على نعمه ونفكر وننظر في طعامنا كيف هيأه الله لنا وهيأ ما يمكننا من التنعم به والتمتع به، فتفكر في الآية الكريمة:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عَبَس: ٢٤-٣٢].

٩ - جهاز النطق

ويتألف من الفم وتجاويفه والحلق والحنجرة والفكين والشفتين واللسان والأسنان، يضاف إليها تجاويف عظام الوجه المحفورة في الجمجمة والتي تعمل عمل الصندوق المكبر للصوت، ثم الأعصاب المتصلة بها إلى الدماغ مركز الفهم والإدراك.

لنتأمل العمل الميكانيكي للنطق وكيف أن الحبال الصوتية تتحرك بالتقلص والارتخاء وتشترك معها عضلات اللسان وغضاريف الحنجرة وعضلات الوجه والشفتين والأسنان ثم تجاويف الفم والأنف وعظام الوجه وقوة النَفَس، وكيف تشترك كل هذه الأسباب في إخراج النطق ومجموعة الحروف، وكيف أن لكل حرف مَخرجاً خاصاً، فمنها مخرجها الحلق ومنها ما تخرج من أطراف اللسان ومنها مما بين الفكين والأسنان وما بين اللسان والشفتين. كذلك ما يحدثه تجويف الأنف من الغنة والرنين، وكيف أن كل هذه العوامل ومع تجويف عظام الوجه تعطي الصوت رنينه الخاص لكل إنسان بحيث يكون له صوته المميز! وكل هذه الأعضاء إنما يسيطر عليها الدماغ.

أما المعجزة الكبرى في هذا الجهاز، فهي كيف يتم التنسيق بين التفكير والإدراك والتخيل وبين تركيب الحروف والكلمات، ، ثم الجمل والأفكار ببعضها البعض حتى يخرج الكلام منسجماً ومتوازناً مع سرعة التفكير ويهدف إلى المعنى المقصود دون تلكؤ أو تباطؤ واختلاف؟ ثم كيف تنتقل هذه المعلومات والمسميات من عالم المادة المحسوسة إلى عالم الفكر والروح؟

إن علم الطب يقف مشدوهاً أمام هذه الظواهر العجيبة المحيرة.

ولولا هذا الجهاز لأصبح التفاهم بين البشر عملًا شاقاً، بل لتعطل

العلم وتأخرت البشرية. من ذلك نفهم أهمية هذا الجهاز، وهذا النطق الذي أقسم الله به في قوله سبحانه:

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣].

وكيف أنه نعمة ووسيلة بديعة للتفاهم والإدراك والاهتداء:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البَلَد: ٨-١٠].

وأن الله سبحانه برحمته هو الذي وهب هذا الجهاز ليعلم الإنسان:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرَّحمٰن: ١-٤].

وليفهمه رسائل الرسل:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤].

وليتم التفاهم والتعارف بين كافة الشعوب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحُجرات: ١٣].

١٠ ـ أجهزة مختلفة وآيات

وهناك من الأجهزة المختلفة والحواس المهمة وما فيها من خلايا تملك الإحساس والتجاوب وتقوم بأدق الأعمال اللازمة لحاجات الجسم المختلفة، وتؤمن توازنه وسلامته. نذكر منها على سبيل المثال:

أ ـ حاستي الذوق والشم، وما جهزت به من خلايا حساسة تتصل بأعصاب إلى الدماغ حيث تفسر وتميز بما يخدم الإنسان، فيجتنب ما فيها من الخبائث ويتنعم في الوقت نفسه بالطيبات من أنواع المذاق اللذيذ والروائح العطرية الطيبة.

ب ـ جهاز الوقاية العام (الجلد)، ويحتوي على الغدد الدهنية المرطبة وغدد العرق التي تعدل حرارة الجسم وكأنه جهاز تبريد وتكييف.

ج ـ أجهزة إنذار تتألف من جهاز عصبي حساس يقوم بكافة الأعمال الانعكاسية الفورية التي تجنب الخطر، مستلماً أوامره من المخيخ، دون انتظار تحليلها وفهمها من المخ.

د ـ أجهزة حساسة داخلية، نشعر بها عند الجوع أو العطش، أو التوتر أو الانقباض، وعند الحزن والفرح أو الرضا والغضب.

هـ ـ أجهزة حساسة داخلية أخرى غاية في الدقة، تطلق إشارات وتفرز هورمونات أو خلايا مراسلة خاصة، فتحث الغدد على إفراز المواد اللازمة في الوقت المناسب وبالدقة المطلوبة لإسعاف الأجهزة المحتاجة، ولإجراء التوازن في العمليات الحياتية المختلفة. وهذه من أعجب الآيات في خلق الإنسان.

و ـ أجهزة الإحساس الخارجي، كالخلايا الحساسة تحت الجلد فمنها خلايا تحس بالحر، وأخرى تحس بالبرد. وإذا تجاوزنا هذه الخلايا يقف وينقطع هذا الإحساس. وقبل أن تكتشف هذه الخلايا في الجلد، فإن الآية الكريمة قد أعلمتنا أن الإحساس بالعذاب بالنار يكون تحت الجلد:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦].

ز ـ أجهزة التقدير والحدود لكل عضو فيأخذ مكانه وحاجته ولا يتجوز مقداره، فكل شيء فيه بمقدار وميزان. قل عن ذلك في نمو العظام والأسنان مثلًا أو في الشعر أو الآذان أو في بقية الأعضاء، كيف تأخذ في نموها حجومها وحدودها؟

﴿... وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ [الرّعد: ٨].

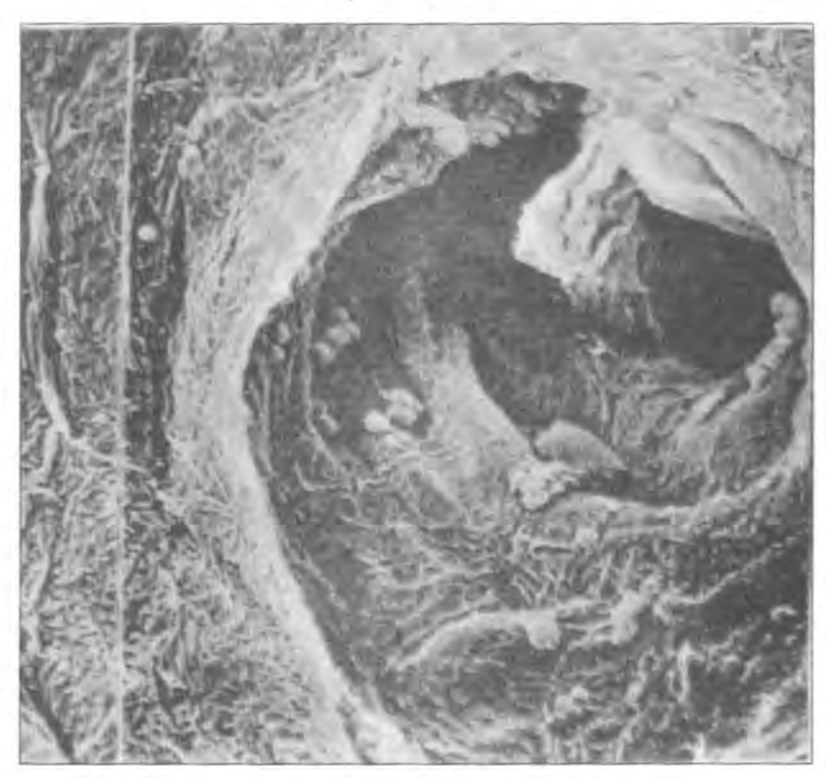
﴿... مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩﴾ [الحجر: ١٩].

﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفُرقان: ٢].

وبعد نمو الإنسان يبلغ أشده في الأربعين سنة، وهي قمة القوة ثم يعود للتراجع والنكوص ولا يتجاوزه أو يستمر في الصعود، وهذا ما تذكره لنا الآيات التالية:

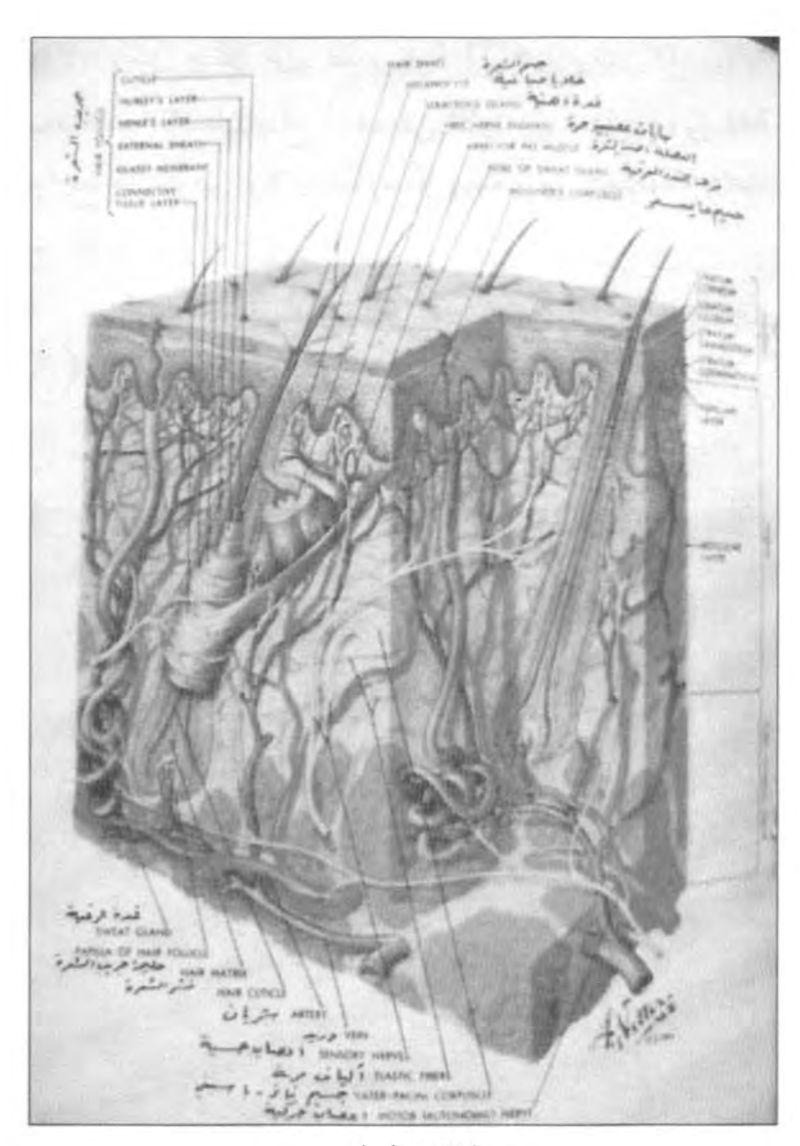
﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ...﴾ [الأحقاف: ١٥].

مسام عَرَقي



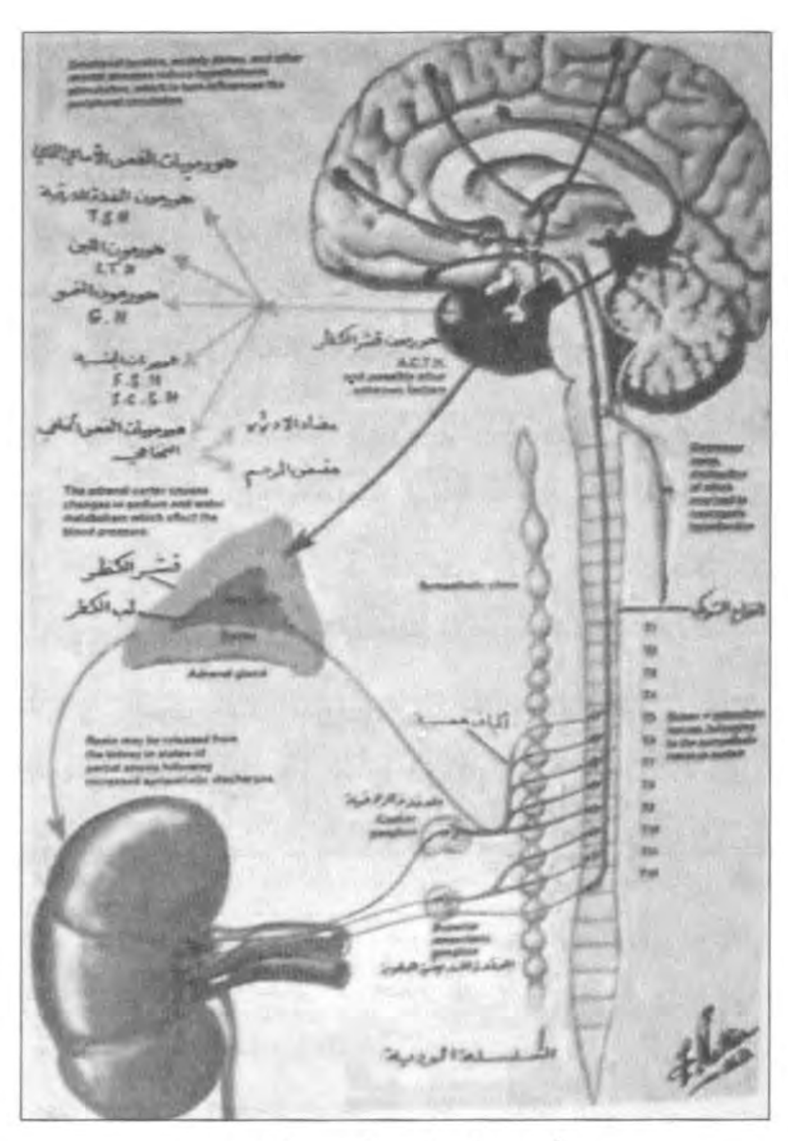
مسام في الجلد

[عن: الطب محراب للإيمان]



طبقات الجلد

[عن: الطب محراب للإيمان]



أجهزة السيطرة والهورمونات

[عن: الطب محراب للإيمان]

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الرُّوم: ٥٤].

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس: ٦٨].

أي أفلا يتفكرون بعقولهم فيعلموا أن كل هذا الميزان وهذا التقدير الحكيم لم يأت اعتباطاً وإنما وراءه مقدر ومدبر! وكلما فكرنا في الإنسان فإننا نرى العجب العجاب في أعضائه وأنسجته المختلفة، وكيفية عملها، وفي النظام والدقة والتوازن الخَلقي العظيم. فترى وكأنك أمام منظمة أو مؤسسة كاملة تعمل بشكل منسق منظم يتعاون أفرادها بتفان وإخلاص لا مثيل له في أمم الأرض. ومثل هذا النظام تراه في كل الحيوان وليس في الإنسان فحسب! وصدق الخالق العظيم:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

وأول الخطوات إلى الحشر هو الموت، ونحن نرى أن الكل يموتون! . . خاضعين إلى أمر ربهم. هذا هو نهاية خلق الإنسان الذي لا مفر له منه:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجُمُعَة: ٨].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحَج: ٦٦].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٦].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل: ٧٠].

هذه ملاحظات للتذكير والذكرى فقط، وإلا فلا يمكننا الكلام عن كل عضو أو جهاز وعن تشريحه ووظائفه وما فيه من عبرة وإعجاز، إذاً لاحتجنا

إلى المجلدات والأخصائيين والأطباء والخبراء الذين في النهاية سيعجزون هم أيضاً عن الوقوف على أسرار هذا الخلق. وسيبقى الإعجاز الذي يدل على قدرة الخالق العظيم وحكمته في بدائع صنعه وفي خلقه قائماً، يقف أمامه كل الخبراء والعلماء حائرين خاشعين لأنهم ليسوا إلا خلقاً ضعيفاً من خلقه، ولم يؤتهم إلا قليلًا من علمه.

فالإنسان نفسه معجزة كبرى من معجزات الخلق تظهر فيه قدرة الخالق في إحسان خلقه وتقويمه، فسبحانه إذ يقول:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤].

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧].

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ولا تزال تظهر الآيات في خلق الإنسان للعلماء كلما تقدموا في العلم، ولا يزال الإنسان يقف أمامها حائراً وعاجزاً. إنه عاجز حقاً عن معرفة أسرار خلقه، وكيف تعمل أجهزته؟

إنها لا ريب تعمل بقدرة الله، وبحكمة الله وبقوة الروح التي أودعها سبحانه فيه، وهي من أمره وحده:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الانشقاق: ٢٠].

ونختم بالذكرى في الآية الكريمة:

﴿هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١١].



الفصل الأول: التفكير في السموات

الفصل الثاني: النظر في السماء وموقعنا في المجرة.

الفصل الثالث: سعة الكون والنظرية النسبية.

الفصل الرابع: من بدائع السماء.

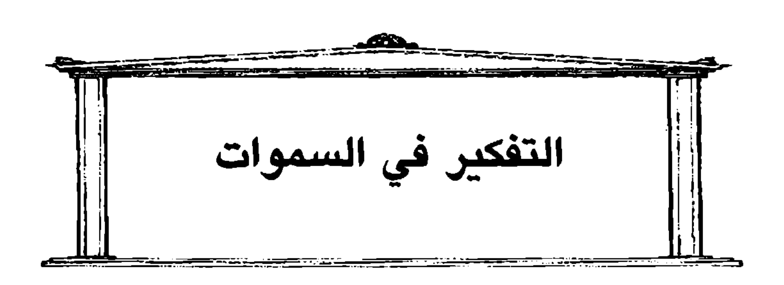
الفصل الخامس: المخلوقات الأخرى في الفضاء.

الفصل السادس: تمدد وتوسع الكون.

الفصل السابع: المصير المحتوم.

الفصل الثامن: غرور الإنسان والعودة العاقلة.

الفصل الأول



التفكير في السموات

يحث القرآن الكريم الإنسان على النظر في السموات والتفكر فيها، فهي أعظم شيء يمكن أن يقع عليه بصره، فيستقبل منها العظمة والرهبة، ويستلهم منها النور والهدى، ويحس بغريزة الالتجاء فيرجو القرب والرضوان من خالق الروح وبارئها، الذي بيده ملكوت السموات والأرض، فتهدأ الروح بنوره، ويطمئن القلب بذكره، ويسبح بحمده وشكره أن جعله في مكان أمين من أخطار هذه السموات الرهيبة، فهو لطيف به، خبير بصغره فيها، رحيم بحاله الضعيف الذي خلقه عليه:

﴿... وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج: ٦٣].

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٦٥].

يقول سبحانه فيما يحثنا به على التفكير في خلق السموات والأرض:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٨٩-١٩١].

وفي الحديث عن ابن عمر ما نصه:

(قال: قلت لعائشة أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ، فبكت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي ثم قال: يا عائشة هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟ فقلت يا رسول الله إني لأحب قربك وأحب هواك قد أذنت لك. فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلي وجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض! فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة (الصبح) فرآه يبكي فقال له يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: **«يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً»** ثم قال: **«وما لي لا أبكي وقد أنزل الله عليّ الليلة:**

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾ [البَقَرَة: ١٦٤]» ثم قال: **«ويل لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها»**[(١)].

ولنا في نبيّ الله إبراهيم أسوة حسنة أيضاً. فهو أول ما اهتدى إليه من نبذ الأصنام والاتجاه إلى فاطر السماوات والأرض، تفكيره وتدبره في السماء باحثاً عن إله غير الأصنام. فأخذ يراقب الكواكب والشمس والقمر والنجوم، ثم رأى أنها ليست هي الإله، كلا فأعلن للملأ:

﴿. . . قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩].

(١) الحديث أخرجه ابن عساكر وابن حبان في صحيحه، انظر تفسير هذه الآيات في الدر المنثور للسيوطي وفي غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري.

وقد كان الله معه في إخلاصه وصدقه في البحث عن الإله الحق، فأراه الله آياته:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥].

فاجتباه ربه وهداه إلى صراطه المستقيم.

ولقد كانت السماء مصدر إلهام ومحط تفكير للقدماء. وحتى في زمن عبادة الأوثان في الجاهلية، قد كان هناك طائفة من أولي الألباب لهم في السموات والأرض هدى وتفكير خاص، ننقل من ذلك خطبة قس ابن ساعدة الأيادي، وكان من الموحدين ألقاها في سوق عكاظ قبل بعثة النبي ﷺ بقليل وهي خطبة مشهورة، جاء فيها:

أما بعد: فإن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، أرض ذات فجاج، وسماء ذات أبراج، نجوم تمور، وبحار لا تغور. أقسم بالله قس قسماً لا كاذباً فيه ولا آثماً، إن لله تعالى ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، وقد أتاكم أوانه ولحقتكم مدته.

ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟..اهـ[1].

ولا تزال هي مصدر إلهام، ومنهل تفكير، وتخيل وتأمل لكل ذي لب وبصيرة، ولكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولعل من المستحسن أن ننقل لك أخي القارئ بعض ما قاله السيد قطب في تفسيره لهذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾ [البقرة: ١٦٤].

قال: إن مجرد التأمل في هذه الآيات عن إدراك ووعي، ليقود إلى الإيمان بالله والإيمان بالآخرة في غير عناء ولا التواء..، ويقول: إن التعبير

---

(١) انظر كتاب إعجاز القرآن للباقلاني ص: ١٥١، ط/ ٤، دار المعارف بالقاهرة.

هنا يرسم صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثرات الكونية في الإدراك السليم، وصورة حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار بالليل والنهار. فهذه الصورة تمثل صفاء القلب، وشفافية الروح، وتفتح الإدراك واستعداده لتلقي الآيات الكونية الكامنة في هذا الوجود. إن لحظة العبادة على هذا النحو هي لحظة اتصال ولحظة استقبال، فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر، وأن يكون مجرد التفكير في خلق السموات والأرض ملهماً للحقيقة الإلهية الكامنة فيهما، ولإدراك أنهما لم يخلقا عبثاً ولا باطلًا. اهـ[1].

لهذا رأيت النبي ﷺ في الحديث السابق يبكي ويطيل البكاء عندما قرأ هذه الآيات ليلة أنزلت عليه، معبراً بذلك عن شدة الإدراك النفسي واستغراق القلب بذكر ربه وتشرب الروح بالإيمان به، ورجاء رحمته ومحبته، وطلب رضوانه والتقرب إليه سبحانه.

إن الإنسان عاجز أمام إحسانه بتقديم الشكر والعبادة التي يراها لا توفي نعمه الكثيرة! فتتملكه حالة من التوفير العظيم، والرهبة لربه، والخشية من عظمته وقدرته والإكبار لجلاله وسلطانه. إن هذه الحالة من الإجلال والتعظيم والخوف والرجاء هي حالة صفاء الروح وجلاء القلب وانشراح الصدر وصحة التفكير، وهي لب العبادة المقصودة من الآية السابقة.

ويذكر سبحانه وتعالى في كتابه المجيد في مواضع كثيرة بالنظر والتفكير في السموات لكي يهتدي البشر - بما يرى من عظمتها التي لا ترام - إلى خالقها وإلى بديع صنعه فيها. نذكر منها الآيات التالية فلنتأملها ولنتدبرها:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب، ص: ٧٣ - ٧٤، ط/٢ - دار إحياء الكتب العربية.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الرُّوم: ٨].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفُرقان: ٦١، ٦٢].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [المُلك: ٣، ٤].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرّعد: ٢].

ويدرك الناس جميعاً فضلًا عن العلماء والمهندسين، استحالة رفع مثل هذه السماء العظيمة ذات الفضاء اللانهائي بغير عمد، إلا بقدرة القادر العظيم.

وتذكرنا الآية التي في سورة البقرة أيضاً في خلق السموات والأرض، وبنعم الله وقدراته الأخرى بما يصاحب السماء والأرض من آيات، فتنقلب نعماً عظيمة ومنافع للناس:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى

فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٤].

وفي كل هذه الآيات وفي غيرها من آيات القرآن المجيد، تعليم عظيم، وتوجيه للتفكير والتدبر في آيات الله، لتمتلئ النفس بخشية الله، وترتاح بعبادته، وتطمئن بذكره، وليكون المؤمن على بينة من إيمانه وعلى يقين، فيزداد قلبه نوراً وعلماً وهدىً. وتنتقد الآيات السابقة الذين لا يؤمنون ولا يتفكرون في آيات الله ولا يفهمون مقاصدها وما ترمي إليه، بل إن الله مدح أقرانهم المؤمنين المتبصرين والمتفكرين وأثنى عليهم، من ذلك:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفُرقان: ٧٣].

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعَام: ٣٦].

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرّعد: ١٩].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السّجدَة: ١٥].

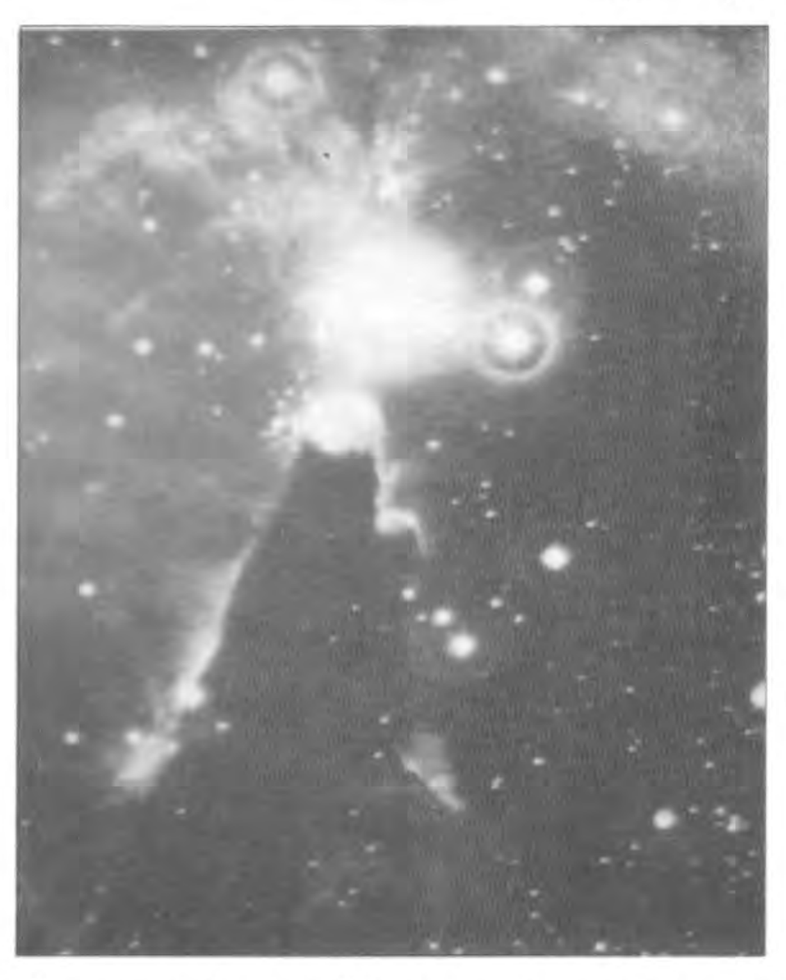
﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فَاطِر: ١٨].

إن هؤلاء المؤمنين المتفكرين في آيات الله، الفاتحين أعينهم وقلوبهم

عليها، الذين يخشون ربهم ويتقونه، هم الذين يتلقون إنذار ربهم، فيجتبيهم الله ويزيدهم علماً وهدىً:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَنٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

فيعلمون أن هذا كله بأجل، فيستجيبون لربهم، ويخافون الإنذار، ويخافون يوم الحساب:



سحابة رهيبة من الغاز المعتم تخفي وراءها جزأ من مجموعة نجوم وحيد القرن وتبعد عنا نحو ٤٠٠٠ سنة ضوئية، قد لا يتاح للإنسان أبداً أن يعرف ماذا وراء هذا الغاز [عن كتاب الكون، المكتبة العلمية (لايف)]

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرّعد: ٢١].

والمعاندون الكافرون لا يبالون ويعرضون عن إنذار ربهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٦].

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣].

وهكذا تكون ثمرة الاستجابة والتفكير في خلق السموات والأرض، قائدة إلى الهدى والإيمان وإلى العلم واليقين بالخالق جلَّ جلاله:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعَام: ٧٥].

وإن الفصول القادمة في هذا الكتاب ما هي إلى روافد ضئيلة تصب في هذا البحر، بحر السموات الرهيب. وإن التفكير والتأمل في السموات ليهدي إلى بديع السموات والأرض جلّت عظمته وقدرته، ووسع علمه ورحمته كل شيء.

ويذكرنا نبي الهدى في خضم هذا التفكير، ويهدينا إلى معالم التفكير الصحيح ليحفظ تفكيرنا من التيه والضلال فيما لا طاقة لنا به، وفيما تعجز عنه مدارك الإنسان، فيقول:

«تفكَّروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله، فإنكم لم تقدروا قدره»[(١)].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية، وروى نحوه ابن حبان في كتاب المجروحين: ٢/٣٠، وابن كثير في تفسيره: ٧/٤٤١.

فالله سبحانه فوق مدارك البشر:

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٤].

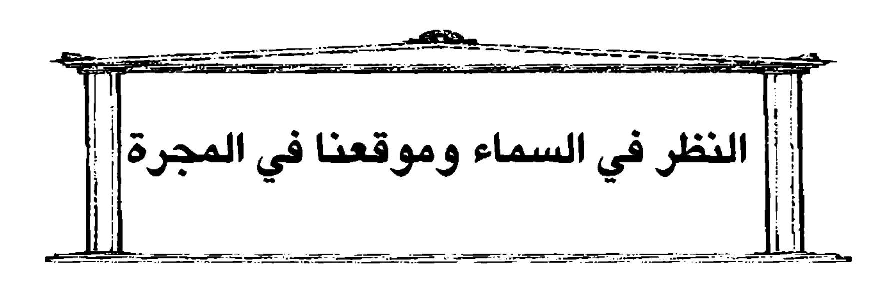
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

بل إن الإنسان لا يمكنه إدراك حقيقة نفسه، ولا كيف يعمل دماغه، ولا يمكنه إدراك حقيقة ما يحيط به من المرئيات، فكيف بما لا يبصره، وبما هو خارج عن قدرة حواسه؟ فالذات الإلهية أجل وأعظم من كل شيء في هذا الوجود، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام.



الفصل الثاني



النظر في السماء وموقعنا في المجرة

لا بد لكل مؤمن أن يتعرف على معلومات أولية عن النظر في السماء حتى يعرف كيف يقرأ خارطتها وكيف يفكر فيها على هدى وبالعلامات الدالة التي يتبصر بها نجوم السماء:

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧].

فهو يجد نفسه بين الحين والحين حاجة ملحة، ورغبة وشوقاً إلى معرفة دلالات هذه النجوم المختلفة، وإلى معرفة تسمياتها المتبعة، وإن كانت قديمة وأسطورية. وكلما قرأ آيات القرآن التي تبصره وتحثه على التأمل والتفكير في السماء، ازداد شوقه للاطلاع ومعرفة ما استجد من اكتشافات عن حقائق وبدائع السماء وعن نجومها وأبراجها، وحتى عن الأرض والشمس والقمر! فيزداد إيمانه ويزداد علمه بتفسير هذه الآيات وبعمق حقائقها ومقاصد معانيها. فيستلهم منها العبرة، ويهتدي إلى عظمة خالقها وبديع صنعه فيها، فالقرآن يرشد إلى هذه الغاية، وهي بحد ذاتها من أسمى العبادات. ومن هذه الآيات:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

علماً أن النبي ﷺ كان كلما استيقظ لصلاة التهجد بعد منتصف الليل، نظر في السماء ثم قرأ الآيات السابقة من آخر آل عمران... وقال يوم أنزلت عليه: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها. ومنها:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٦-١٨].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢].

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

إذاً لابد للمؤمن من معلومات أولية يعرف بها كيف ينظر إلى السماء ويتفكر فيها وفي حركات النجوم والكواكب وكيف يميزها ويتعلم مواقعها. وكيف يتفكر في حركات الشمس والأرض والقمر وحصول الليل والنهار والفصول والظواهر الأخرى حتى يفهم مقاصد آيات الله فيها وتذكيره سبحانه بها، ونحن نوجزها هنا كما يلي:

١ ـ الأرض والشمس والقمر:

هذه الأجرام الثلاثة هي أهم الأجرام التي لها مساس في حياة الإنسان، لذلك يأتي ذكرها في القرآن أكثر من غيرها، فهي تؤثر بشكل مباشر في حصول الليل والنهار وحصول الفصول الأربعة، وفي أحوال ومناخ الأرض، وظواهر أخرى كالخسوف والكسوف، إضافة إلى أن حياة الأرض كلها معتمدة على الشمس.

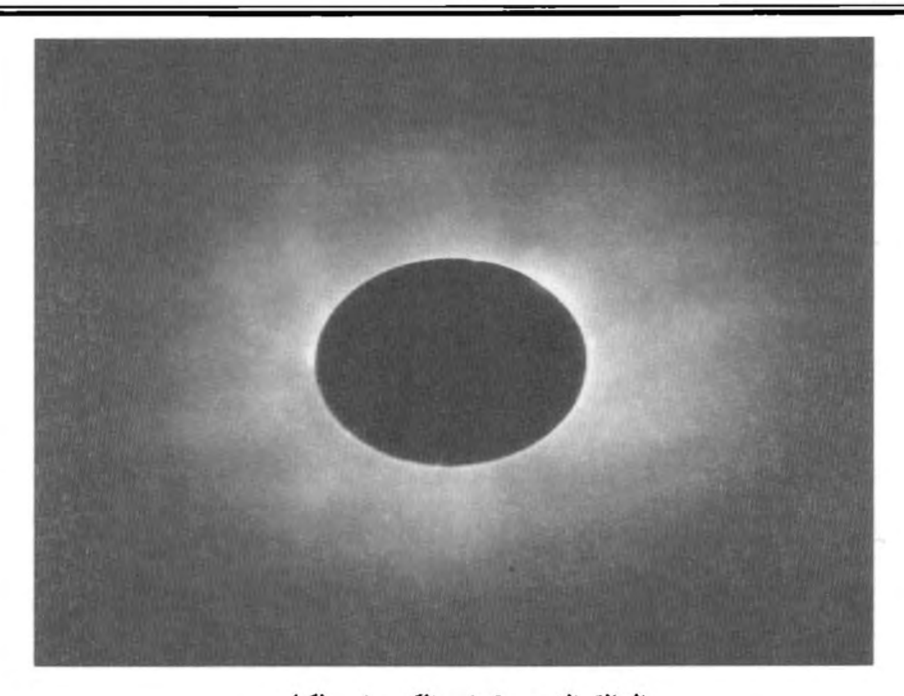
إن كلّا منا يعرف ببساطة كيف يحصل الليل والنهار من دوران الأرض حول نفسها في مقابلة الشمس. فالقسم المواجه لها وهو نصف كرة يصبح نهاراً، والنصف الخلفي من الكرة يكون ليلاً، وهو واضح من قول الله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ [الزمر: ٥].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: ٣٧].

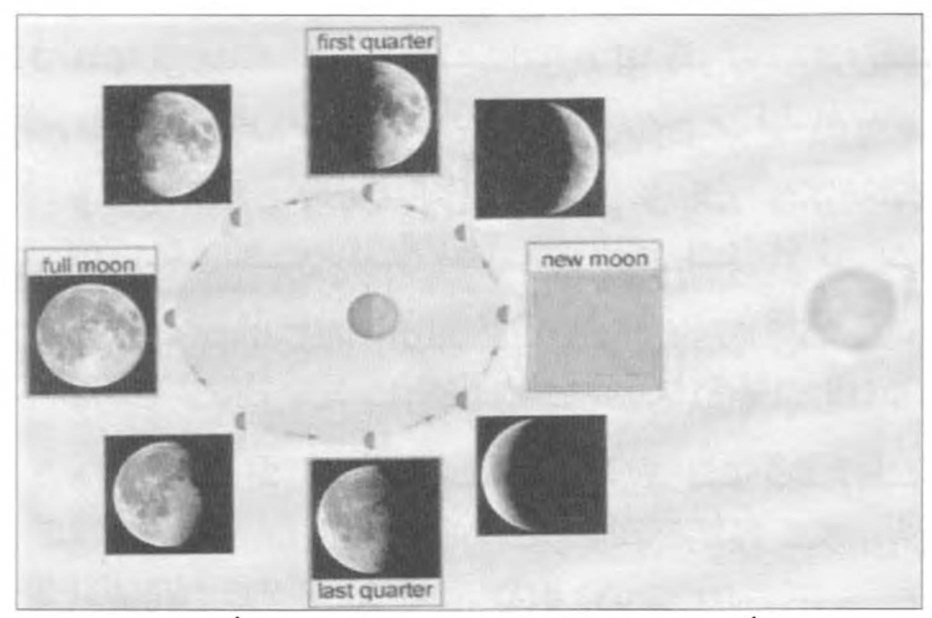
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤].



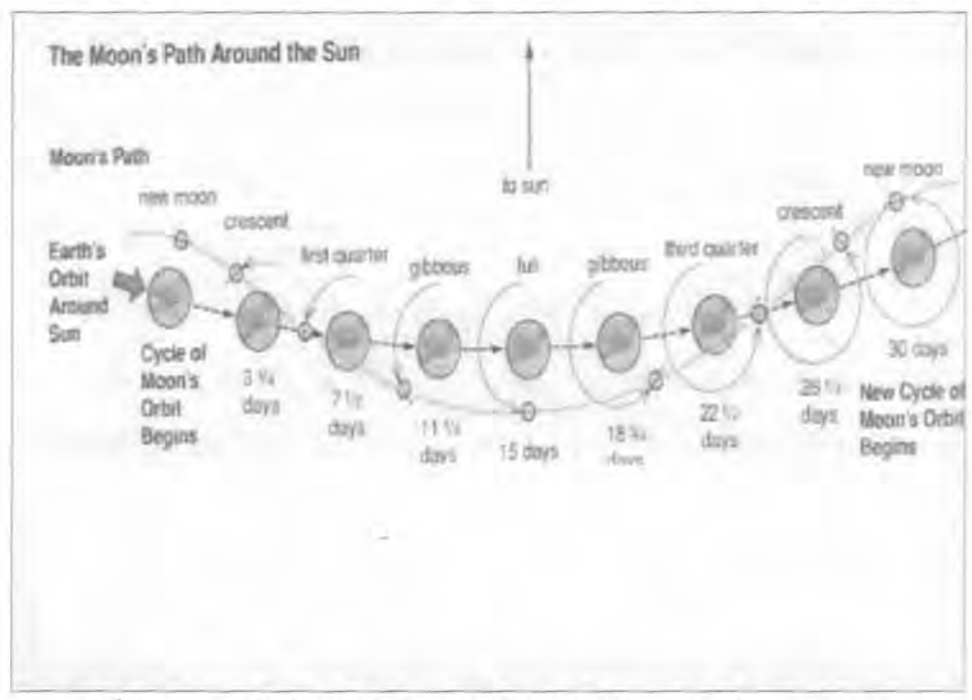
الهالة الشمسية في الكسوف الكلي

[الصورة عن: ...www.companycounsel]



أوجه القمر المقابلة للشمس في دورانه حول الأرض

[www.isfahan.ir]



مسار القمر حول الشمس (الخط الزرق) ودورة كاملة كل شهر حول الأرض
[www.cache.eb]

لكن قليلًا منا من يفكر وينظر يومياً في هذا الحدث العظيم، وبحركة هذه الأجرام العظيمة بهذه الدقة والميزان الذي لا يتغير وكأنه أزلي، فيغفل عنه الغافلون، ويعتبر به أولوا الأبصار!

ويعرف كذلك أن الشمس هي السراج المستعر الذي يبعث لنا الحرارة والضوء، وأن القمر ما هو إلا كوكب كالمرآة يعكس ضوء الشمس إلى الأرض فينيرها ليلًا. ومن ذلك قوله سبحانه:

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نُوح: ١٦].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النَبإ: ١٣].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفُرقان: ٦١].

كذلك يعرف كل منا كيف تظهر لنا أوجه القمر المقابلة للشمس بشكل تكاملي ثم يكون بدراً كاملًا ليلة الرابع عشر وهي منتصف الشهر القمري ثم يعود بشكل تناقصي هلالًا في منازل كما نراها بين كل ليلتين، وهو قوله تعالى:

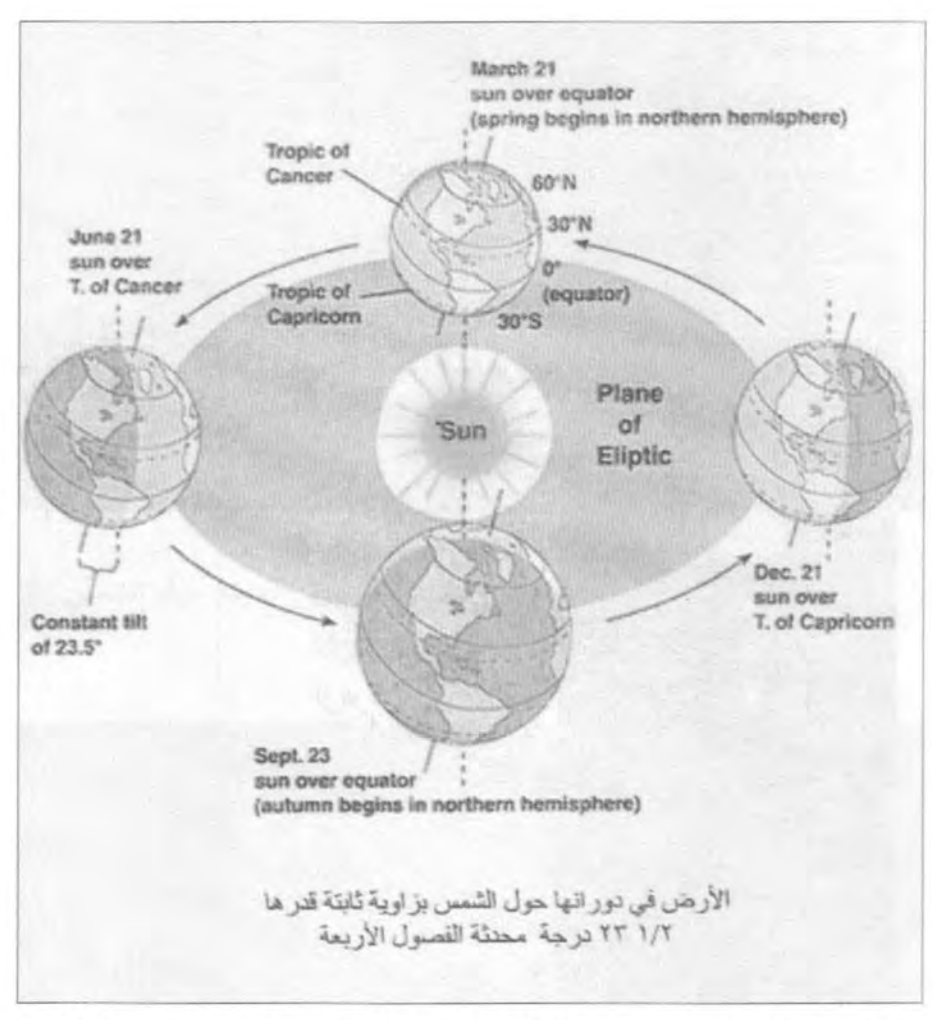
﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٩].

والعرجون هو الشكل الهلالي، وأصله في اللغة (السعفة المعوجة) وأن ذلك يحصل بسبب الفرق بين سرعة دوران الأرض اليومي حول نفسها وسرعة دوران القمر الشهري حول الأرض. وهو أحد توابعها، بينما الأرض هي إحدى توابع الشمس (كواكبها) التي تدور حولها ومقيدة بجذبها. انظر أيضاً الرسم التالي:

وأن الفصول الأربعة تحصل بدوران الأرض حول الشمس في مدار بيضوي وبميل المحور المار بين قطبيها عن مستوى المدار (وهو مدار الخسوف والكسوف) بزاوية ثابتة مقدارها ٢/ ٢٣١ درجة. وبسبب انتقال الأرض في حركتها على جانبين متعاكسين من الشمس وبشكل تدريجي، تظهر لنا وكأن الأرض تغير زاويتها مع أشعة الشمس. ونحن لا نرى إلا الحركة الظاهرية للشمس وكأنها ترتفع صيفاً وتنخفض شتاءً.

٢ ـ الكواكب والنجوم

إن النجوم هي أجرام حرارية مستعرة ومضيئة كالشمس، فهي أنواع من الشموس، لكننا لا نتأثر بحرارتها وضوئها لشدة بعدها السحيق عنا، لذلك سميت نجوم لتمييزها عن شمسنا. وتظهر ألوانها مائلة إلى الأبيض والأزرق لشدة لمعانها وإضاءتها، والتي غالباً ما تفوق شمسنا، فمثلًا إن شدة الإضاءة للشعرى اليمانية تفوق شمسنا بـ٢٦ مرة، وإن نجمة ذنب الدجاجة تفوقها بـ١٠٠٠٠ مرة، ونجمة رجل الجبار تفوقها بـ١٥٠٠٠ مرة.



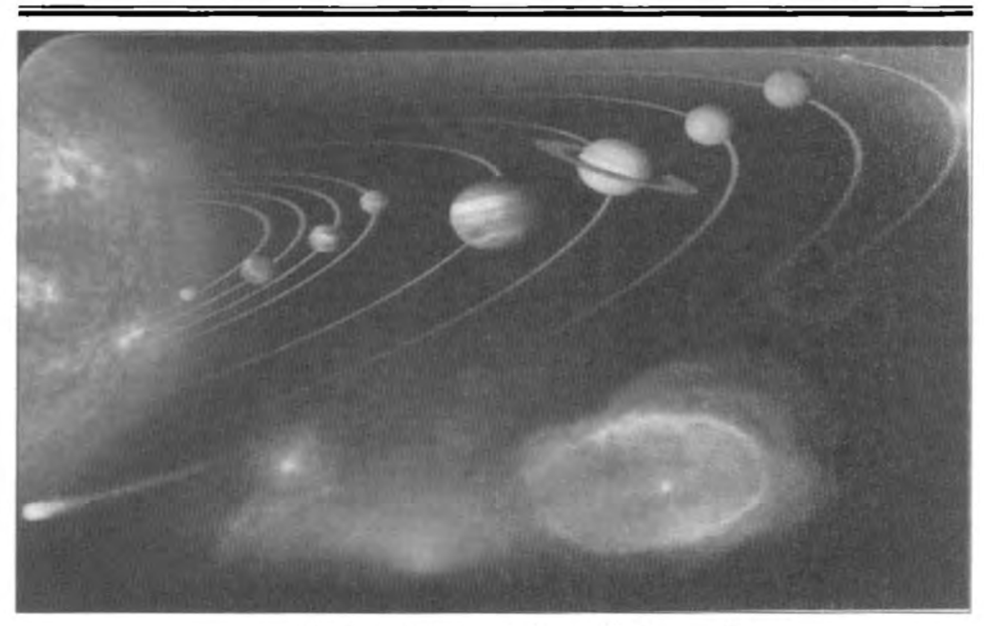
الأرض في دورانها حول الشمس بزاوية ثابتة قدرها ٢/ ٢٣١ درجة محدثة الفصول الأربعة

[www.hort.purdue.edu]

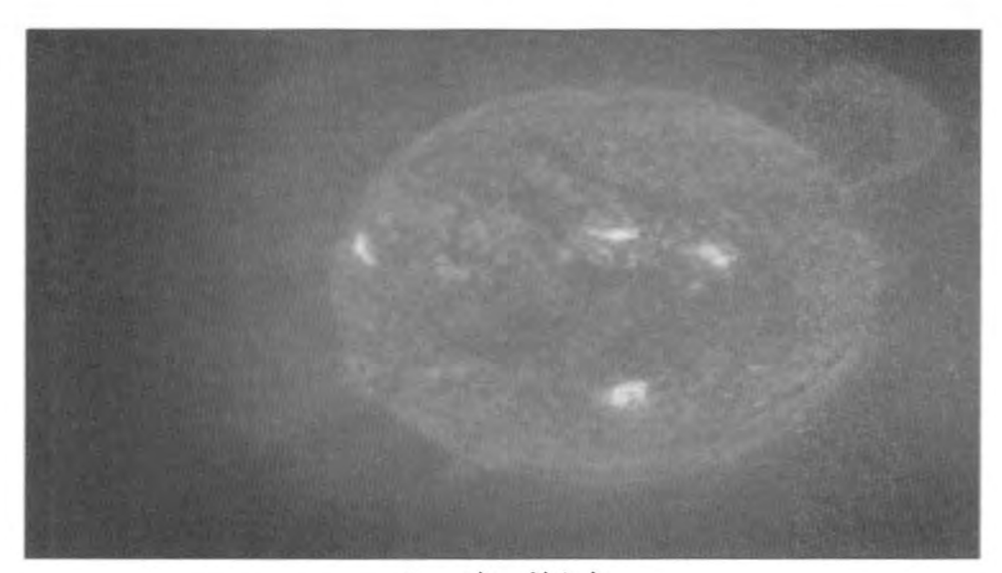


المجموعة الشمسية

وهي مرسومة بمقياس واحد لبيان حجومها وتسلسلها في بعدها عن الشمس وليس البعد أو المسافات الحقيقية وإلا لاحتاجت الأرض إلى مسافة ١١ ياردة وبلوتو إلى ربع ميل لتمثيل البعد.. الصورة عن كتاب الكون، المكتبة العلمية، لايف



المجموعة الشمسية في دورانها حول الشمس
وقد أظهرت الصورة أحد السدائم، ومذنب يقترب في دورته حول الشمس
[www.amnaka.multiply.com]



الشلالات الشمسية
قد يصل ارتفاعها إلى مئات الألوف من الأميال
[www.Content.answers.com]

أما الكواكب فهي كالأرض، أجرام تعكس ضوء النجوم أو الشموس القريبة منها. وتظهر ألوانها مائلة إلى الأصفر لبرودتها. ولا يمكن رؤية كواكب النجوم بالعين المجردة، وإنما نرى كواكب المجموعة الشمسية القريبة بوضوح بالعين المجردة. ومعظم الكواكب لها أقمار تدور حولها. وإن أرضنا هي إحدى الكواكب السيارة التسعة المعروفة التي تدور حول الشمس.

والفلكيون الذين يدرسون النجوم ويراقبونها بمراصدهم الكبيرة، لهم أجهزة ومقاييس يعرفون بها ويصنفون أقدار النجوم حسب أحجامها وحرارتها وألوانها وشدة لمعانها، فالزرقاء والبيضاء تدل على اللمعان الشديد والحرارة العالية، بينما الصفراء أو الحمراء تدل على تناقص الحرارة والضوء.

٣ ـ الخسوف والكسوف:

كذلك يعرف بأن في الخسوف تعترض الأرض في مسارها بين الشمس والقمر، فتلقي بظلها على القمر وتحجب عنه نور الشمس. فالخسوف إذن يحصل للقمر. جاء في قوله سبحانه:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾ [القِيَامَة: ٧، ٨].

أما الكسوف فيحصل للشمس وهو وعندما يتوسط القمر في مساره بين الأرض والشمس فيلقي بظله على الأرض ويحجب عنها ضوء الشمس كلياً أو جزئياً، فنقول إن الشمس قد كسفت عندما نرى قرص القمر يتداخل في حركته ويسد عنا قرص الشمس حتى تنتهي الحركة ويرى وهو خارج عنها. وعندما يتطابقان فهو يحجبها تماماً في الكسوف الكلي، وتظهر مساحته مساوية لمساحتها. فسبحان من جعلهم باختلاف حجومهم على البعد الذي يتطابقون فيه في الخسوف والكسوف. فقطر الشمس هو (٨٦٥٣٨٠) ميل لكن بعدها عن الأرض يساوي (٩٣) مليون ميل، وأما قطر القمر فهو (٢١٦٠) ميل بينما بعده عنا يزيد قليلًا عن ١/٤ مليون ميل. أما قطر الأرض فهو (٧٩٢٧) ميل.

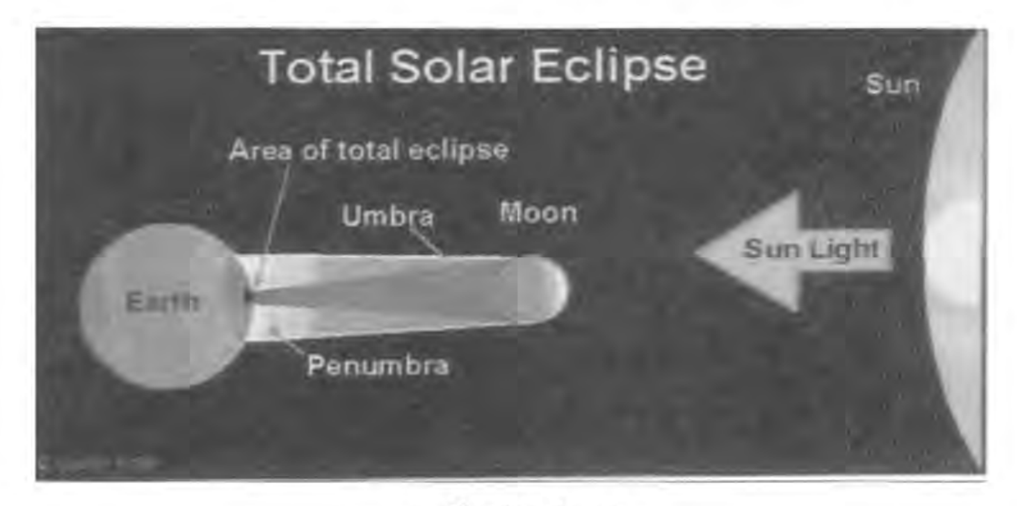
وفي مقارنة الأحجام، فإن حجم الأرض يمكن أن يستوعب خمسين قمراً، بينما يمكن أن يستوعب حجم الشمس مليون كرة أرضية.

٤ ـ المجرة:

هي مجموعة نجومية هائلة تتألف من آلاف الملايين من النجوم، منها ما هي أكبر من شمسنا، ومنها ما هو أصغر، وتنتظم في مسارات داخل المجرة. وكل نجم له كواكبه التي تدور حوله، وأكثر الكواكب لها أقمار تدور حولها. وتتخذ هذه النجوم مدارات حول مركز المجرة الأكثر كثافة، أي أن المجرة تدور حول نفسها وتتخذ في دورتها مساراً بين المجرات لا يعلمه إلا الله:

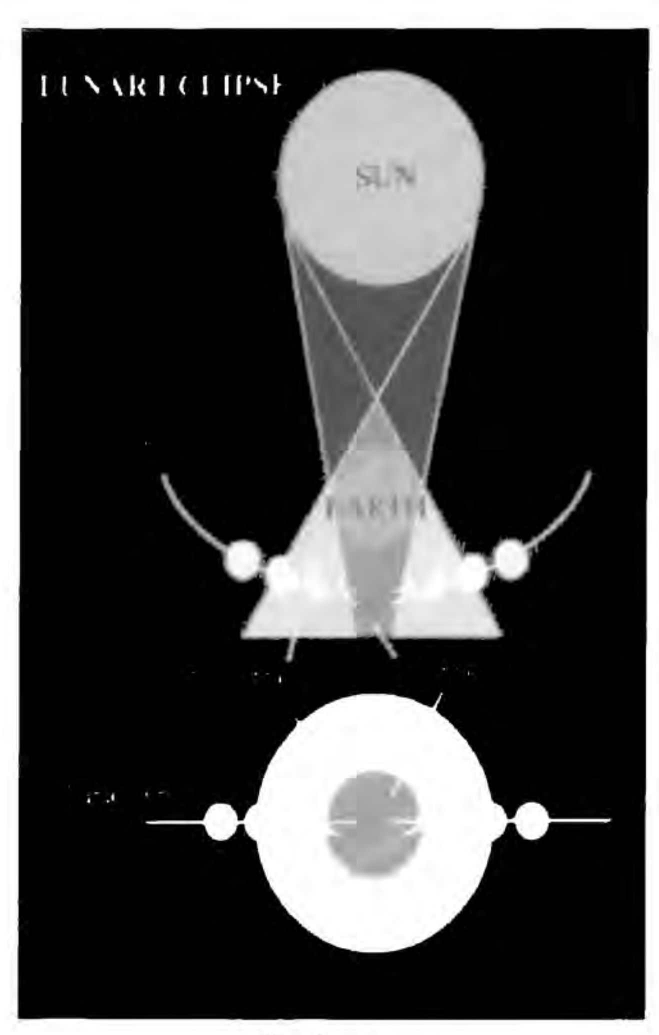
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وأهل الرصد والفلكيون يقولون بأن مجرتنا تتجه في مسارها نحو النسر الواقع والله أعلم.



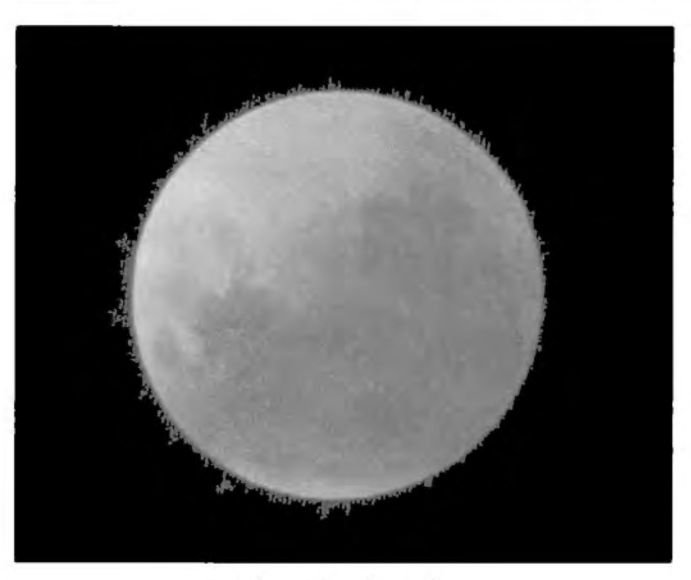
رسم كسوف الشمس

www.geocities.com



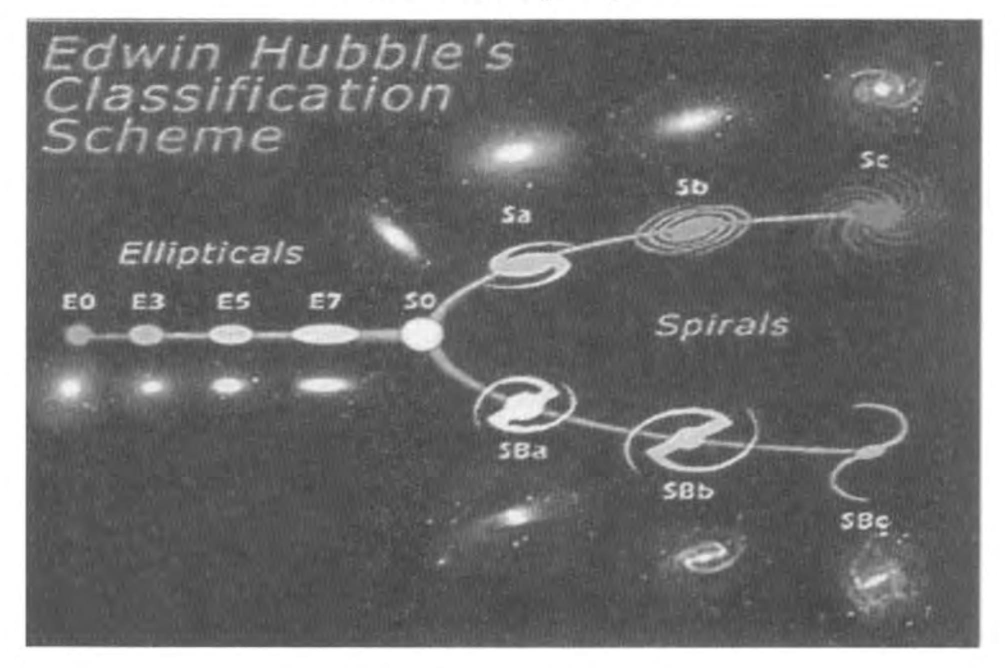
رسم خسوف القمر

[Lunar.arc.nasa.gov]



القمر في الخسوف

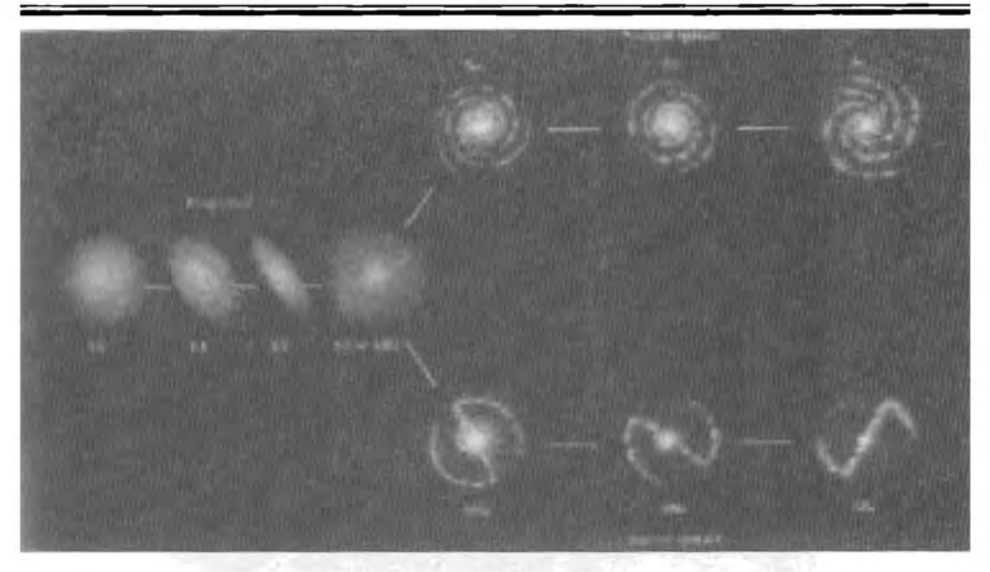
[الصورة عن: Apod.nasa.gov]



أشكال وأصناف من المجرات

تصنيف العالم الفلكي - هبل -

[www.fas.org]



تصنيف آخر لأشكال من المجرات

[Zebu.uoregon.edu]

٥ ـ البروج

هي مجموعات نجومية تظهر في دائرة البروج، ودائرة البروج هذه هي دائرة مسار الشمس الظاهري. وتظهر وكأنها ذات علاقات معينة وثابتة بالشكل والأبعاد فيما بين نجومها، وتبقى محافظة على هذا الشكل لشدة بعدها عنا، ولربما لا يكفي عمر البشرية ليشاهد التغيير! أما هي فشديدة البعد فيما بينها، وعظيمة الضخامة في نجومها. ولها تسميات قديمة منها برج الثور، وبرج الميزان، وبرج العقرب، وبرج السرطان.. إلى آخره. ومجموعها اثنا عشر برجاً.

ولكي نرقب دورتها في القبة الفلكية، فإن الشخص الواقف في نصف الكرة الشمالي لو اعتبر محور الأرض خارج من مركزها إلى النجم القطبي الشمالي وتصور دوران الأرض حول هذا المحور من الغرب باتجاه المشرق لشعر أن حركة الأبراج الظاهرية في السماء ستكون بعكس حركة الأرض. أي من المشرق إلى المغرب.

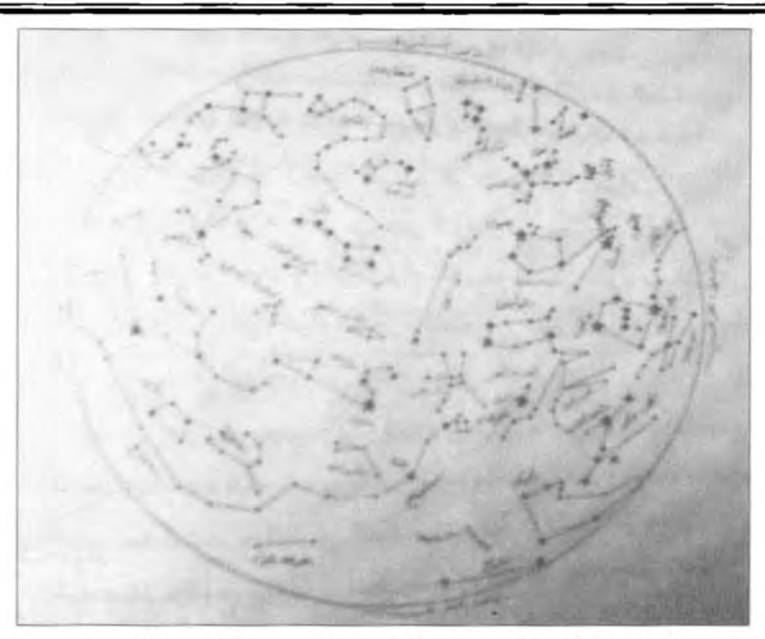
ونحن نراها تتقدم ببطء، فيظهر لنا في كل شهر جديد، حتى يكتمل ظهورها على مدار السنة. وعلى الواقف في نصف الكرة الجنوبي أن يتخيل بأن محور الأرض يمر بالنجم القطبي الجنوبي.

إن عرض هذه المنطقة في دائرة البروج هو ١٨ درجة، وأما المجموعات النجومية الأخرى فهي تملأ السماء أيضاً ولها أشكال مثل البروج ولها أسماء خاصة بها، ويمكن التعرف عليها من خارطة النجوم.

٦ ـ مجرة درب التبانة

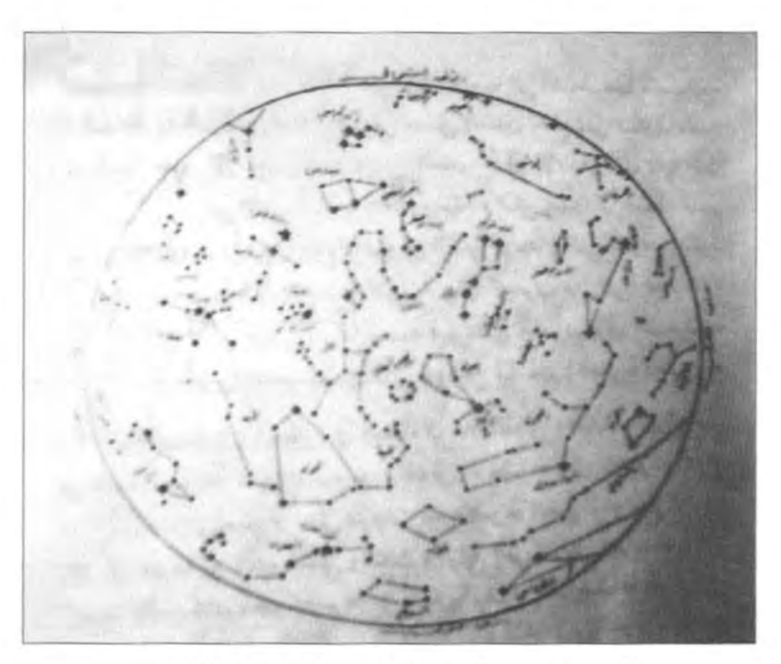
إن مجموعتنا الشمسية تنتمي إلى هذه المجرة التي تظهر كسحابة من النجوم، ويقدر الفلكيون بأنها تحتوي على ما يقرب من مائة ألف مليون نجم. وهي تظهر بشكل العدسة المفلطحة، أو بشكل طبقين من أطباق الطعام مقلوبين على بعضهما. ويبلغ طول هذه العدسة من أحد أطرافها إلى الطرف المقابل مائة ألف سنة ضوئية، ويقدر سمكها في الوسط بـ٦ آلاف سنة ضوئية. علماً بان السنة الضوئية هي مسافة أو مسيرة الضوء لمدة سنة بسرعته البالغة: ١٨٦٠٠٠ميل/ ثانية أو: ٣٠٠٠٠٠كم/ ثانية وهي تقرب إلى مسافة: ٦×١٠ أس ١٢ميل إلى ٦ وأمامها اثني عشر صفراً بالأميال.

إن موقع شمسنا ومجموعتها هو في أحد أطراف المجرة وليس في وسطها كما ترى في الشكل (الصورة المرفقة). هذا هو مكاننا وموقعنا في هذه المجرة، أما المجرة نفسها فلا يمكن لأحد أن يعين مواقعها في السماء!

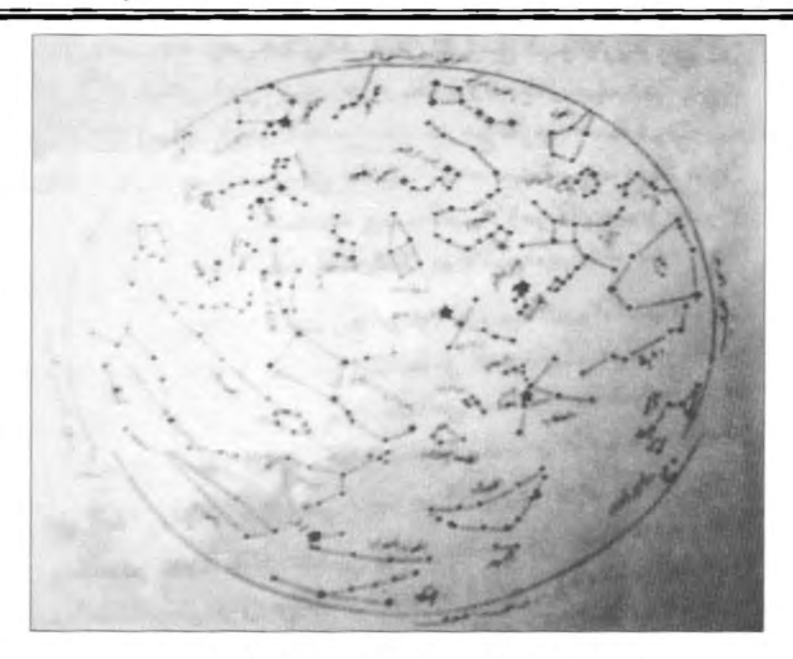


المجموعات النجومية والبروج في سماء فصل الربيع،
كما ترى في أول نيسان، الساعة التاسعة مساءً

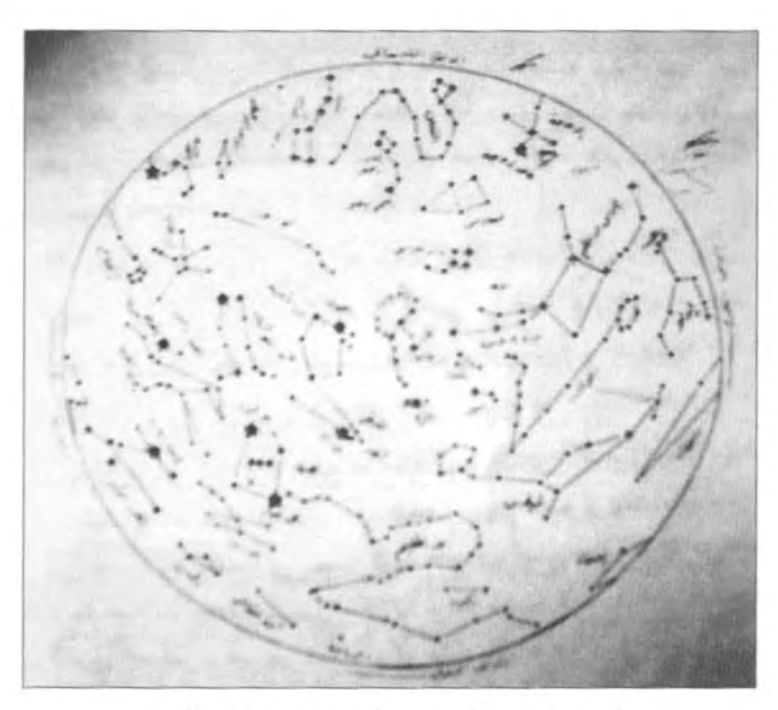
[الصور الأربعة للمجموعات النجومية عن كتاب: دليل السماء والنجوم، للدكتور: عبدالرحيم بدر]



المجموعات النجومية في سماء فصل الصيف



المجموعات النجومية في سماء فصل الخريف



المجموعات النجومية في سماء فصل الشتاء



حركة النجوم الظاهرية في مرصد راديوي
النجوم وكأنها تدور حول القطب الشمالي بسبب حركة الأرض وهي تبدو كخطوط بيضاء في هذه الصورة فوق منظار راديوي أسطواني الشكل،
وقد ظلت العدسة مفتوحة لمدة ٩٠ دقيقة
[عن كتاب: الكون، المكتبة العلمية - لايف]

من ذلك نرى أن الأرض ليست إلا جرماً صغيراً جداً في المجرة. وإننا حين ننظر إلى نهر المجرة في قبة السماء، فإنما ننظر على مجرتنا التي نحن في داخلها لذلك لا نستطيع أن نراها إلا كنصف دائرة عريضة من النجوم التي تظهر متضببة وكأن بينها سحابة من الدخان. وحين ننظر إلى المنطقة الكثيفة الضبابية ذات السحاب اللامع عند برج الرامي، فإننا ننظر إلى مركز المجرة. وقد سميت بمجرة درب التبانة لشبه ضبابيتها بالتبن المتساقط في طريق التبانة (ناقلي التبن) أو في طريق اللبانة (ناقلي اللبن) أو الحليب

كما يسميها الغربيون (the milk way). ولقد درجت كتب وخرائط الفلك على التسميات القديمة مهما كانت أساطيرها، ولا تغيير فيها، ومنها كلمات عربية لأن علماء الفلك الغربيون نقلوها عن الفلكيين العرب، والتسميات مهمة جداً للتمييز بين النجوم.

٧ ـ السماء الدنيا

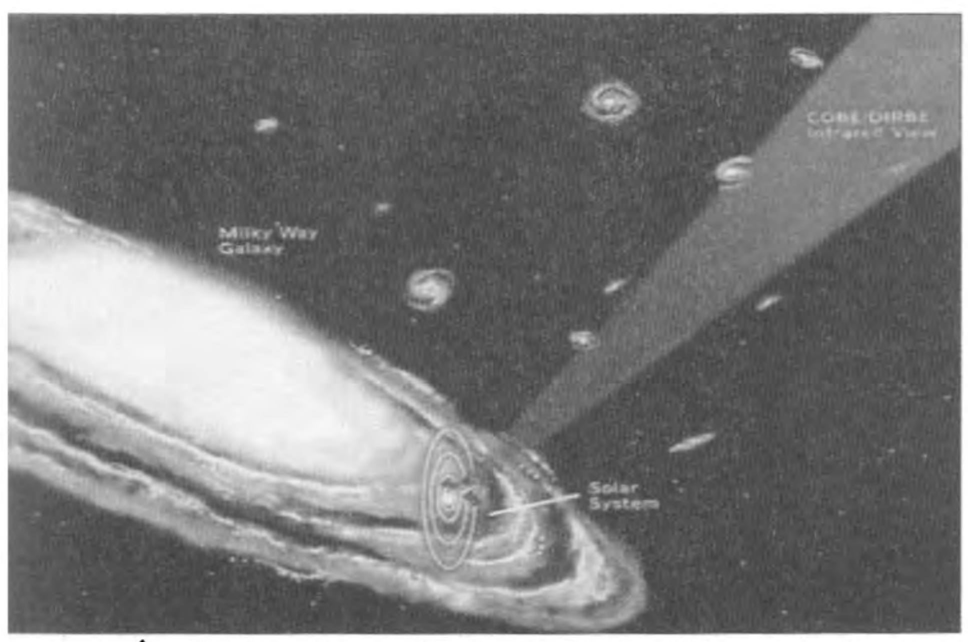
إن جميع ما تراه العين من نجوم، إنما هي نجوم مجرتنا في السماء الدنيا. ولا يمكن رؤية المجرات الأخرى بالعين المجردة لشدة بعدها السحيق في الفضاء، اللهم إلا مجرة واحدة هي التي يمكن رؤيتها بالعين المجردة وهي المجرة م٣١ في سديم المرأة المسلسلة وتبعد عنا بمقدار مليون وسبعمائة ألف سنة ضوئية، ولشدة هذا البعد فلا يمكن رؤيتها كمجرة بطبيعة الحال، وإنما ترى كنجمة واحدة صغيرة. وهي تسمى أيضاً مجرة أندروميد.



Chandra.harvard.edu



مجرة درب التبانة - أو الطريق الحليبي - ومؤشر عليها موقع الشمس
[www.public.iastate.edu]



موقع المجموعة الشمسية في المجرة، وتظهر في الصورة مجرات أخرى
[الصورة عن: Astroph.chungbuk.ac.kr]



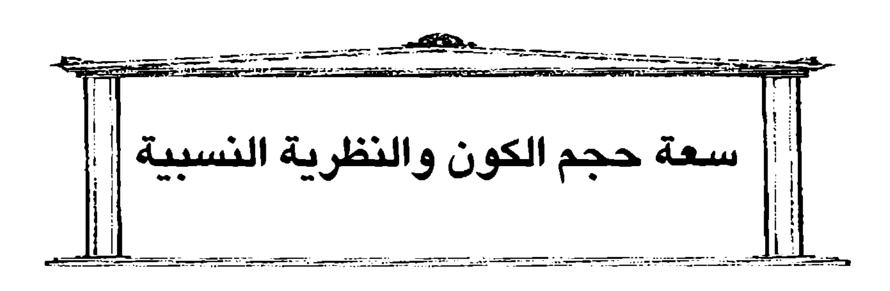
مجرة M١٣ المرأة المسلسلة أو أندروميدا

وهي أقرب مجرة إلى مجرتنا فبينهما ما يقارب مليوني سنة ضوئية

[Apod.nasa.gov]



الفصل الثالث



سعة حجم الكون والنظرية النسبية

لقد أعطى علماء الفلك أرقاماً خيالية للتعبير عن سعة الكون، لو أنه أخرج حديثاً إلى الوجود، ولم يكن يتمدد، وإن أكبر رقم أعطي لسياحة الضوء حول العالم هو ٥٠٠٠٠٠ مليون سنة ضوئية[١] أي ٥٠٠ بليون سنة ضوئية. وقد قدروا سعة الكون قبل التمدد وبعده استناداً لسياحة الضوء بحدود ما بين (٨٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠٠) مليون سنة ضوئية. وإن أقوى المراصد المستعملة يصل مداها إلى ١٤٠ مليون سنة ضوئية وهذا لا يساوي إلا كسراً صغيراً من سعة الكون، فإن نسبة ١٤٠ إلى ٥٠٠٠٠٠ تمثل كسراً يقترب من الصفر. أي أن ما أمكن مراقبته من الفضاء يقترب من الصفر نسبة لحجم الفضاء!

وهم في هذه الأرقام متشككون، حيث أن هذا التقدير ليس إلا خيالًا لا إثبات له ولا يملك إلى الحقيقة سبيلًا ولا دليلًا.

هذا بالرغم من أنه بهذا المرصد يمكن رؤية نحو مليوني سديم (السديم: مجموعة نجومية هائلة ترى على شكل دخان أو غيوم) ويوجد في كل سديم نحو ألفي مليون شمس مثل شمسنا[٢].

(١)(٢) انظر كتاب النجوم في مسالكها، للسير جيمس جينز ص: ١٥٩، ط/٣، ترجمة: د. أحمد عبدالسلام الكرداني - القاهرة.

إذاً فإن كل مقدار أو رقم عددي يعطيه العلماء، سيكون عاجزاً عن التعبير عن سعة حجم الكون، فضلًا عن أنه غارق في الخيال، بعيد عن الحقيقة. ثم إن فكر الإنسان وبأقصى حدود تصوره، هو الآخر عاجز عن تخيل هذه السعة أو إدراك غايتها. وليس هنالك وسيلة للإحاطة بها أو إحصائها، لا بالأجهزة الرادارية ولا بغيرها. وإلا فماذا يعني أو كيف يمكن تصور أن أكثر من ١٠ مليارات مجرة يدور يدور في كل منها ١٠٠ مليار نجم؟ وفي هذا يتوضح لنا بعض قوله تعالى:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

إن خير وسيلة لتقريب الخيال إلى فهم حقيقة السعة اللانهائية هو التشبيه النسبي. إن الإنسان يجب أن يعترف بالحقيقة بأنه أمام هذا الكون العظيم، المخلوق مادة والموجود فعلًا، هو أصغر من أن يستطيع أن يتخيل وجوده في الخيال فقط؟

إن القرآن الكريم أراد أن يفهم الإنسان هذه الحقيقة. إن الوسيلة النسبية والتشبيه البسيط بأحسن وأقرب الأمثلة هي ما خاطب بها القرآن العقل البشري ليدله ويقرب إليه فهم حقيقة سعة هذا الكون التي لا ترام. هذه السعة العظيمة التي لا يمكن تخيلها بالأرقام. فنرى أن القرآن الكريم يقرب لنا الخيال ويهدينا إلى التفكير الصحيح، ويخبرنا بالحقيقة، ويعلمنا بأن كلمات الله التي خلق بها هذا الخلق العظيم ووضع فيه آياته، هذه الكلمات لا تنتهي ولا حدود لها:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩].

فليتأمل الإنسان كم من الكلمات يمكن أن يكتب بماء البحر لو كان حبراً؟ وحتى لو نفد فلن تنفد كلمات الله التي هي آياته أو مخلوقاته

أو معجزاته التي لا حدود لها. بل يزيد القرآن الإنسان تخيلًا ويقرب إليه الحقيقة بالمثل فيقول سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٧، ٢٨].

هكذا يزيده تصوراً لاتساع كل شيء، تصوراً مغنياً عن الأرقام الخيالية الضخمة لكي يمتلئ قلبه بالإيمان ويتفكر مندهشاً في قدوة الله! وحتى يعلم ويفكر لما يقرأ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٠] التي ترددت مراراً في القرآن يفهمها ويؤمن بها لتكون طباً لنفسه وما قد يجده في صدره. وبهذا الإيمان الراسخ لا يجد الشيطان إليه سبيلًا ولا يعود به كالممترين ويشككه في قدوة عظيمة كهذه. أو يعود كالجاهلين المكابرين، فلا يؤمن إلا أن يرى بعينه، أو يلمس بيده، أو يتأكد بنفسه فيصعد إلى السماء ليرى ما فيها وهو لا يعلم أخطار ما في السماء، ولا يعلم ما مقداره فيها!

لقد خاطب القرآن هؤلاء المنكرين المجادلين بما سيكون حالهم لو فتح لهم باباً للصعود إلى السماء، فقال جلت حكمته:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

أي لو فتحنا لهم طريقاً في السماء واستمروا في الصعود لادعوا الخلل في أعينهم، والسحر في عقولهم، لما سيشاهدونه من العجائب التي تأخذ بالألباب وتبهر الأفئدة. بل إن مجرد النظر إلى السماء يكفي ليدلك على العجب من هذا الفضاء الفسيح وهذا السقف المحفوظ:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ

ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [المُلك: ٣، ٤].

إن هذا لعمري هو الشعور الذي ينتاب الإنسان كلما وقف في نسخة وأخذ يتأمل في السماء، فيحس بعد قليل بنفسه تتصاغر أمام جلال هذه العظمة، ويحس بدهشة حسيرة أمام هذا البناء الذي لا أول له ولا آخر!

ثم انظر إلى العظمة والجلال، وإلى سعة ملك الله من خلال الحديث القدسي الذي يرويه الرسول ﷺ عن ربه ﷻ، وجاء في آخره:

«. . . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. . .».

فانظر إلى حجم الماء الذي تحمله الإبرة عند إدخالها في البحر ثم رفعها ماذا تنقص من ماء البحر؟ إن نسبة ما تنقصه هذه الإبرة من ماء البحر يمثل ما يسأله ويتمناه جميع الخلق من الإنس والجن من أول الخليقة إلى آخرها نسبة إلى ملك الله العظيم!

بهذا التشبيه الذي يفهمه الإنسان، عبر سبحانه عن هذه السعة وهذه العظمة. أليس هذا التشبيه خير من جموع الأرقام الخاوية ومغنياً عنها وأقرب لفهم السعة العظيمة؟

إن هذه الفكرة النسبية قد هدت المسلم إلى الحقيقة، وأعطته الشفاء والقناعة بأن قدرة الله ليس لها حدود وأن ملكه لا نهاية له. وأن الإنسان بطاقاته المحدودة أصغر من أن يعالج موضوعاً بهذا القدر من العظمة التي لا ترام والجلال الذي لا يرقى إليها خيال، وأنه لو ترك بغير هدىً من الله لضلَّ وضاع في الظلمات! وهنا يبرز شعار المسلم: الله أكبر، وكلما انتهى

خياله ابتدأ من جديد بالله أكبر، وهو يعيدها ويكررها دوماً كل يوم في صلواته وفي سكناته.

النظرية النسبية

إن هذه السموات التي لا يمكن للإنسان أن يتخيَّل عظمتها وسعتها، إنها عند المسلم ليست أعظم شيء في الوجود. إن عنده في الخيال أن الكرسي هي أعظم من السموات وقد وسعت السموات والأرض جميعاً، ففي قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ما يدل على أن الكرسي هيكل عظيم يحيط بالسموات والأرض. ثم إن مخلوقاً آخر هو العرش (عرش الرحمن) أعظم من الكرسي بكثير، كما يبيِّن رسول الله ﷺ سعة هذه الكائنات العظيمة بنسبة بعضها إلى بعض. ففي الحديث: «**ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس**».

وروي أيضاً عنه قوله: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**».

بهذا التشبيه وبهذه النسب يعطي النبيّ ﷺ فكرة الفروق في العظمة بين هذه الكائنات التي يغيب علمها عن البشر. ولكن أليست هذه هي خلاصة نظرية النسبية؟

في واقع الأمر لقد كانت النظرية النسبية موجودة ومعروفة عند كافة الناس قبل أن يسجلها آينشتاين، ولكن لم تكن في تلك الأزمان دواوين ومؤسسات علمية لتسجل السبق للمكتشفين!

وهكذا يعطي النبي ﷺ علامات ومصابيح كشف مضيئة للمؤمنين ليتفكروا في خلق السموات والأرض، ولينضووا في مرتبة أولي الألباب المحمودة في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ويذهب القرآن الكريم إلى أبعد من هذا في إفهامنا النسبية، وليذكرنا بين الحين والحين بما يغيب عن أذهاننا وخيالنا من عجائب وأسرار هذا الكون، وأن ما يجري فيه من تدبير وهيمنة وموازين إنما هي من شأن العليم القدير ومن تقدير العزيز العليم.

فحين يقص قصة أصحاب الكهف مثلًا ويذكر مدة لبثهم في كهفهم بالزمن المتعارف عليه عند الناس، يقول جل شأنه:

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٢٥].

ثلاث مائة سنين: وهذه مدة لبثهم بالتقويم الشمسي.

وازدادوا تسعاً: وهي نفس المدة بالتقويم القمري، لأن كل مائة عام شمسية هي مائة وتسع سنين قمرية.

ولكن هذا هو الزمن الظاهري المعروف عند الناس، وهو الزمن الخاضع للنظام الفلكي في مجموعتنا الشمسية فقط. وهو ليس إلا زمناً نسبياً لما قد يكون عليه الزمن الحقيقي لهذا الكون. فالكون مملوء بالمجرات وفيه أنظمة كثيرة وأزمنة تتبع أفلاكها، فأراد سبحانه أن ينبهنا إلى أن الزمن الحقيقي الذي لبثه أهل الكهف هو من علم الغيب، وتمتنع معرفته إلا لله مدبر هذا الكون فيقول جل شأنه متمماً للآية:

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ٢٦].

فعجلة الزمن الحقيقي عنده وهي من علم الغيب، هو وضعها وهو يعلمها:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ...﴾ [الأنعام: ٥٩].

ولو شاء سبحانه أن يعيد عجلة الزمن لأعادها، ولكن هذا لا يكون إلا بمشيئته، فالسنن التي وضعها سبحانه لهذا الكون لا تتبدل ولا تتغيَّر:

﴿... فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

هكذا لو تدبرنا آيات القرآن:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

لو تدبرناها لتملكنا الشعور بالدهشة والعظمة، ولملئنا نوراً وهدى، ولظهر للناس يقيناً بأن هذا الكلام الذي يحوي المعجزات لم ولن يكون لرجل أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب أن يخرجه من دون الله. كلا ولا يمكن أبداً أن يصدر إلا عن مدبر قادر، عليم ومهيمن على خلقه هو ربّ العالمين وحده:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧].

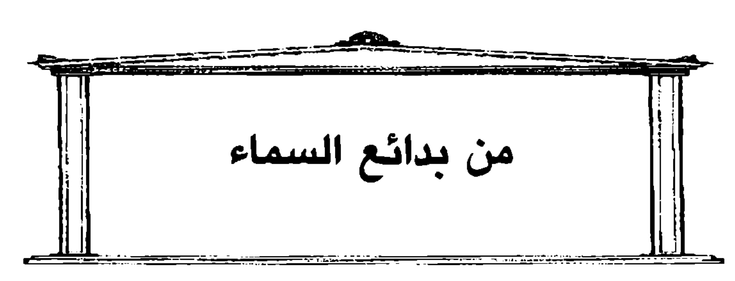
﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٦].

السر: هو الناموس والميزان الذي قامت به السموات والأرض، وضعه سبحانه بعلمه وقدرته، وحفظه بهيمنته وسلطانه، فهو قيم السموات والأرض، المتصرف في خلقه.

غفوراً: لما كان من جهلهم وخطأ ظنهم.

رحيماً: بضعفهم وقصورهم.

الفصل الرابع



من بدائع السماء

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

هنا نريد أن ننظر في بعض الظواهر العجيبة في السماء، وإلى بعض ما فيها من بدائع الخلق الرهيبة والأسرار المدهشة، ولكن بإيجاز شديد وقدر الذكرى، فنحن لسنا من علماء الفلك!

الكويكبات:

وجد أن أبعاد الكواكب السيارة عن الشمس تتبع نظاماً خاصاً يشبه نظام الجدول الدوري للعناصر الكيميائية. لكن العلماء وجدوا أن هناك انقطاعاً أو فراغاً في الجدول بين المريخ والمشتري، وعبثاً حاولوا كشف الكوكب المفقود! إنهم لم يجدوا كوكباً لكنهم وجدوا في مداره أجراماً كثيرة، وهي على شكل صخور مختلفة الأشكال والأحجام، وهي تختلف في لمعانها بين الحين والحين لأنها ليست كروية، وكأنها حطام لذلك الكوكب المفقود، فسموها الكويكبات لصغر حجمها بين الكواكب. وهنا نتذكر كم كان جهل مشركي مكة كبيراً عندما تحدوا دعوة الحق، داعين على أنفسهم بهذا الدعاء:

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولم يعلموا أن السماء مليئة بالحجارة والصخور وقطع الحديد والنيكل وشواظ النار والنحاس والعذاب الأليم!

الكويكبات:

الكويكبات المكتشفة تطوف في المنطقة العريضة بين المريخ والمشتري، وقد أمكن اقتفاء وتسجيل ما يقرب من ١٦٠٠ من أكبر هذه الكويكبات، لكن حوالي ٢٠ منها يتجاوز قطرها ١٠٠ ميل. وقد يكون هناك ٣٠٠٠٠ جسماً آخر منها يبغ قطرها ميلًا واحداً أو أكثر، وملايين أو بلايين أخرى حجمها كحجم الجلاميد والحصى!



إلى اليسار: إن حجم إيروس السابح عبر الفضاء
بحركة مستمرة رأساً على عقب
يوازي مساحة جزيرة منهاتن
تستغرق دورة إيروس حول الشمس ٢١ شهراً،
وقد صور عام ١٩٣١
عندما اقترب من الأرض مسافة ١٦ مليون ميل
[عن كتاب الأرض: المكتبة العلمية (لايف)]

النيازك:

هي حطام النجوم المتفجرة تسقط بعض شظاياها المبعثرة على الأرض بعد أن تنفلت من مدارها. وهي تكون إما من الحجارة أو الحديد أو كليهما. وتحتوي معظم النيازك الحديدية على ١٠٪ من النيكل، ومن العجيب فيها ظهور البلورات المنتظمة وشوهدت بوضوح بعد صقلها وتنظيفها بالحوامض. أما النيازك الصخرية فتظهر في المجهر كرصف من الحجارة ملئت فيما بينها بالإسمنت، والعجيب فيها وجود كتل من الحصى الكروي وعروقاً من المعدن. ويسقط منها على الأرض في كل عام بين ٤ إلى ٨ نيازك صغيرة. ومن حسن الحظ أنها تسقط في مناطق غير مأهولة وفي العراء أو البحار، إلا قليلًا جداً:

﴿. . .وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٧٤].

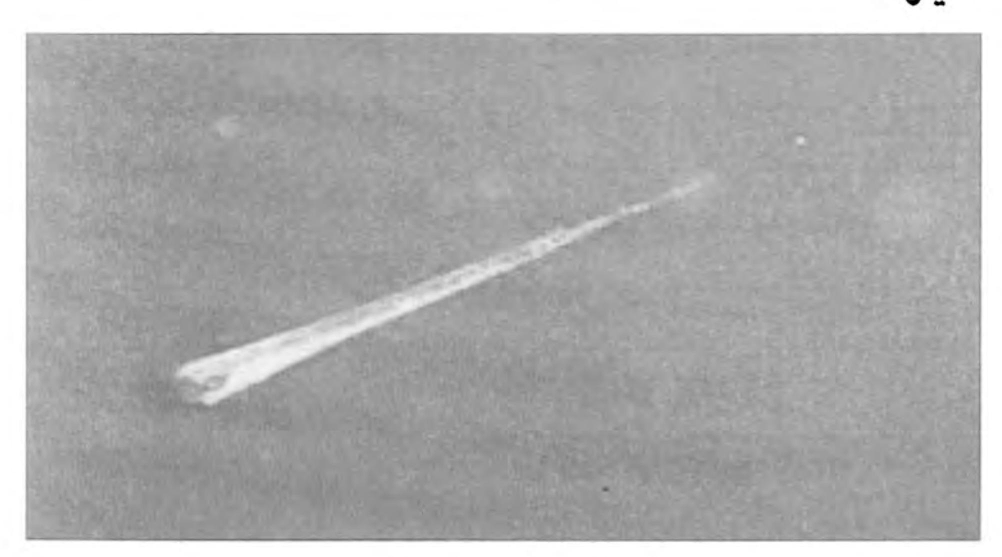
وأما النيازك الكبيرة فربما تسقط كل قرن أو أكثر. وأكبر نيزك عثر عليه في الولايات المتحدة سنة ١٩٠٢ يزن ١٢ طناً وهو عبارة عن سبيكة مخروطية الشكل من الحديد والنيكل. وهي عند سقوطها تحدث حفراً في الأرض وتخلف وراءها دخاناً متصاعداً لكونها لا تزال حارة جداً.

أما الحجارة التي أسقطها الله على قوم لوط، فالله أعلم بها، وهي حجارة من سجيل (جهنم) وقد أحدثت في الأرض حفرة هي الآن بحيرة عظيمة مسممة لا يعيش فيها سمك حتى اليوم!

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هُود: ٨٢، ٨٣].

وهنا تستوقفنا كلمة (منضود) وهو ما يتبين من الشرح أعلاه ومن الصور المرفقة المأخوذة لبعض النيازك الساقطة ومنضودها الواضح. وكلمة (مسمومة) أي معلمة بعلامات هي عند ربك وبأسماء من سقطت عليهم من قوم لوط.

النيازك



[www.amnh.org]



[www.maxforum.net]

نوعان من النيازك:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٣٥].

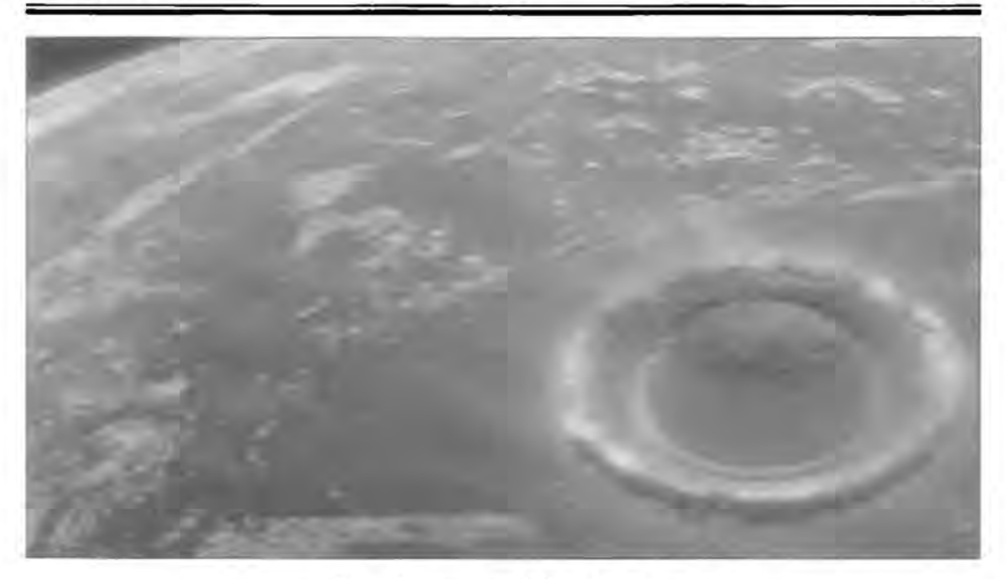
آثار سقوط النيازك



حفرة كبيرة أحدثها نيزك اصطدم بالأرض وهي ما تسمى بجراح النجوم
[Brightest-kidz.squarespace.com]



نيزك يضرب القمر
[www.daviddarling.info]



صورة نيزك ساقط وهو يصطدم بالبحر
[**الصورة عن**: www.cherrycoloured.com]

الشهب:

هي أجزاء صغيرة وهشة من حطام النيازك، أو مخلفات المذنبات أفلتت من مدارها ووقعت في جاذبية الأرض، فهي تهوي إلى الأرض بسرعة ٣٠ ميلًا في الثانية. وبهذه السرعة تزداد حرارتها بالاحتكاك مع الهواء عند دخولها الغلاف الجوي، وتبدأ بالاشتعال عادة على ارتفاع ١٠٠ ميل من سطح الأرض(١). وهي تشتعل لمدة ثانية أو بضعة ثوان ثم تتلاشى وتنطفئ على ارتفاعات ما بين ٧٠ إلى ٧ أميال من سطح الأرض. إن المواد المخلفة بعد الاشتعال لا تضيع في الجو وإنما تسقط على الأرض هباءً منثوراً وببطء شديد. ووجد بأن مع هذا الهباء والغبار جسيمات دقيقة من الحديد والنيكل الصلب. ويستغرق هذا الهبوط من ارتفاع ٦٠ ميلًا عن سطح الأرض مدة ٣٠ يوماً تقريباً.

لا تبدو الشهب فرادى دائماً وإنما تكون متتابعة أيضاً، ومن مكان

---

(١) انظر: دليل السماء والنجوم، للدكتور عبدالرحيم بدر، ص: ٧٠، دار الحرية للطباعة - بغداد.

معين مقابل أحد أبراج السماء وتدعى حينئذ بأسراب الشهب. وقد تحدث في فترات أطول أن تنشأ عاصفة من الشهب كما حدث في العاصفة الأسدية (نسبة إلى مكان انطلاقها الظاهرة في مجموعة الأسد) عام ١٨٣٣. لقد سقطت هذه العاصفة كالأمطار ورافقها ازدياد لمعان أكثر من ١٠٠ نجم في السماء وأذهلت الناس في حينها حتى ظنوا أن القيامة قد قامت[١]. والسماء مملوءة من هذه الشهب ولكنها لم تكن تسقط على الأرض حتى جاء مولد النبي ﷺ. وقبله كانت الجن تتخذ لها مقاعد في السماء تسترق السمع، وبعد ذلك منعت بالشهب، فانظر إلى ما قالته الجن في كتابه العزيز:

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ٩، ١٠].

فلما لم يعلم الجن سبب هذه الشهب، وهل أن كارثة ستحدث في الأرض أم أن الله أراد بأهلها رشداً؟ جابوا الأرض - أي تجولوا في أرجائها - وعلموا أن الله سبحانه قد أراد بهم رشداً ببعثه ﷺ رحمة للعالمين.

وعلماء الفلك لا يجدون سبباً لانطلاق هذه الشهب حتى الآن. أما القرآن العظيم فأخبرنا بأن الله سبحانه قد زين السماء الدنيا بمصابيح وكواكب وحفظها من كل شيطان رجيم، إلا من استرق السمع فأتبعه بشهاب ثاقب مبين:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٦-١٨].

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصَّافات: ٦-١٠].

---

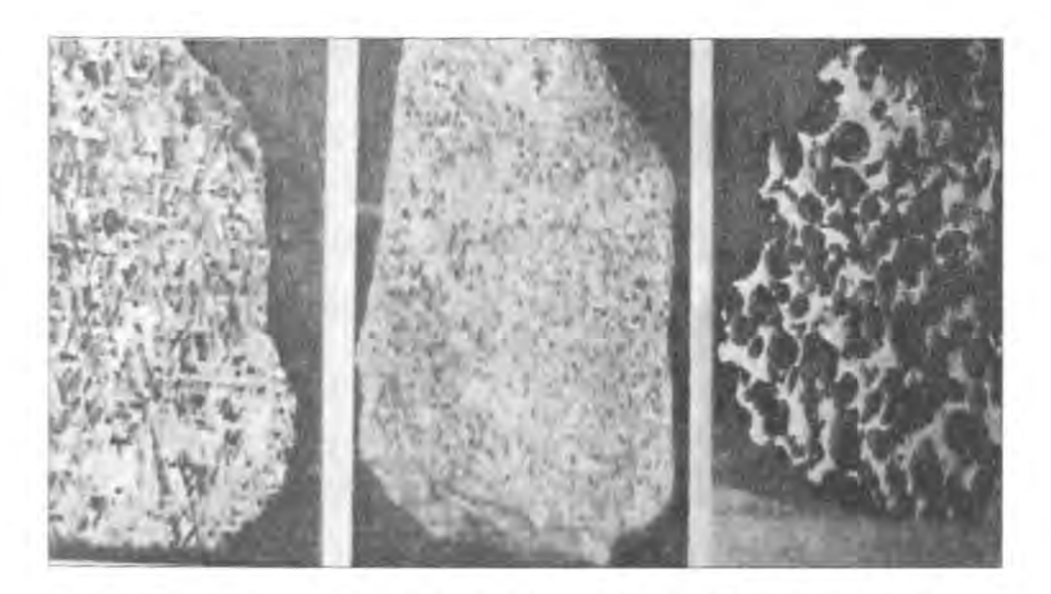
(١) انظر بدائع السماء، لجيرالد هوكنز، ترجمة الدكتور رحيم بدر، ص: ٣٥٧، المكتبة العصرية، ١٩٦٧ - بيروت.

هذا هو السبب الحقيقي الذي أخبر به مدبر هذا الكون. وعلماء المادة لا يؤمنون به، لأنهم يبحثون في نفق ضيق من العلم:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشُّعَراء: ٢٠١].

﴿. . . مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرُف: ٢٠].

فحص بقايا النيازك



مقطع لنيزك حديد — مقطع لنيزك حجري — مقطع لنيزك من الحديد والحجارة

انظر إلى كلمة منضود الواردة في الآية ٨٢ من سورة هود التي تدلك على حقيقة تركيبها المجهري، وقد ظهر نضيد موادها بجلاء بعد قطعها وصقلها

[الصورة عن كتاب الأرض - المكتبة العلمية (لايف)]

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هُود: ٨٢].

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هُود: ٨٣].



صورة شهاب يحترق [www.islamonline.net]

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠]



شهاب يسقط ليلاً تحت ضوء القمر [www.ap.stmarys.ca]

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٨]



أسراب الشهب
[الصورة عن: www.ap.stmarys.ca]

المذنبات:

تظهر المذنبات في السماء في أوقاتها وكأنها نجوم مستطيلة ولها رأس ونواة وذنب مختلف في الطول والقطر. وهي في حقيقتها ليست من طائفة الكواكب أو النجوم. إنها حسب تقدير العلماء مكونة من جليد ومواد ترابية وغازات متجمدة وقطع من صخور النيازك. فظاهر المذنب ليس إلا كرة من جليد مترب يجر وراءه ذيلًا طويلًا ينتشر على شكل بخار. ويحتوي الرأس على نواة كثيفة في وسطه وهي قابلة للانفجار! تدور المذنبات حول الشمس بمدارات استطالية مختلفة، وكلما اقتربت في دورتها من الشمس استدارت وقذفت إلى جهة أخرى بعيدة. ويكون الرأس متجهاً إلى الشمس عند اقترابه منها. وأحجام المذنبات كبيرة، فمذنب هالي يبلغ طوله ٥٠ مليون ميل في الوقت الذي يبلغ فيه قطر الأرض ٨ آلاف ميل. وهو يقترب في دورته من الأرض كل ٧٥ - ٧٦ سنة. ولو قدِّر لهذا المذنب أن يصطدم بالأرض فإنه

سيغطيها بمادته الضخمة وهي ليست إلا جرم صغير أمامه، بل إنه سيطمها بترابه طماً وهو ما يشابه تعبير الآية الكريمة:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النَّازعَات: ٣٤].

ولكن الله وحده أعلم أين هي، ومن ستكون الطامة الكبرى.

المذنبات



[www.thunderbolt.info]



مذنب هالي، يدور حول الشمس كل ٧٥ سنة تقريباً مقترباً من الأرض
[والصورة عن: ...jpoling.cosam.calpoly]

العناقيد:

هي تجمعات من النجم مقتربة مع بعضها يسميها الفلكيون عنقوداً. وإذا كانت متباعدة فتسمى (العناقيد المنفتحة) والتي تكون داخل المجرة تسمى (العناقيد المجرية)، وهذه العناقيد لها صفة مميزة هي أنها تسير باتجاه واحد. ومن أمثلة العناقيد في مجرتنا: عنقود الثريا، وعنقود القلائص في

مجموعة الثور، والنثرة في مجموعة السرطان. ويحتوي العنقود بضعة نجوم، أو بضعة مئات من النجوم، ومعدل قطره: عشرون سنة ضوئية.



عنقود الثريا

[Apod.nasa.gov]



الجمع الكروي العنقودي M١٣، سديم من بلايين النجوم يرى في برج الجاثي يبعث من الضوء قدر ما تبعثه الشمس ٢/١ ٢ مليون مرة، لا يرى بالعين المجردة إلا بصعوبة، يرجع ترجيعاً بموجات ترددية تسبح لخالقه، ويعتبر مصدراً مهماً من المصادر القوية للطاقة اللاسلكية

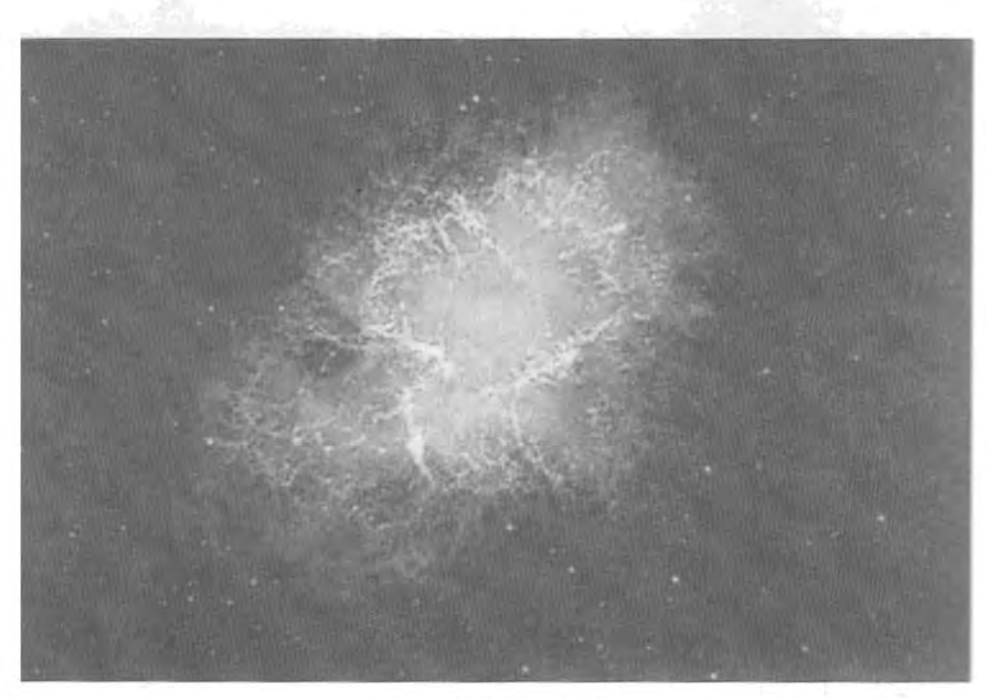
[الصورة عن: ...www.wendelsteino-ob]

[المعلومة عن: مجلة علمية]

السدم:

السديم هو سحابة عظيمة من النجوم البعيدة، يطغى فيها ضوء النجوم الكثيفة فتظهر كالدخان أو السحاب، ويطلق عليها أيضاً اسم اللطخة السحابية، وعلى ذلك يمكن تسمية نهر المجرة سديماً. ويظهر السديم أحياناً على شكل غاز وليس فيه نجوم وهو السديم المظلم، ومنها ما هو مضيء وفي وسطه نجم كبير ويسمى السديم الكوكبي. وكل هذه الأنواع موجودة في

السماء بكثرة، ومعظم هذه السدم ذات حجم هائل، بحيث أن الضوء يحتاج لاختراقها الملايين من السنين الضوئية. ونرفق فيما يلي صوراً لبعض السدائم المأخوذة من المراصد الفلكية.



السديم م ١ السرطان

[الصورة عن: Upload.wikimedia.org]



سديم في برج الصياد أو (الجبار) يدعى سديم أوريون
[الصورة عن: www.astro.caltech.edu]

أشباه النجوم:

هي أجرام عظيمة اكتشفت حديثاً من الإشارات اللاسلكية القوية التي تبثها في الفضاء. لقد وجد بالتحليل الطيفي أنها تبعد أبعاداً سحيقة تقدر بآلاف الملايين من السنين الضوئية. ولا يعرف - بسبب هذا البعد الشديد - هل هي نجوم منفردة أم هي مجرات، ثم ما هي هذه الطاقة العظيمة المنبعثة منها حتى تصل موجاتها إلينا؟

لا تزال هذه الطلاسم قيد الدرس عند الفلكيين.

الثقوب السوداء:

هي أجرام أو نجوم عظيمة الحجم انفجرت على نفسها، ولكونها غازية قليلة الكثافة وعظيمة الحجم، فإن انفجارها يكون بضغط سالب وبقوة

إلى المركز في داخلها، فتنكمش مادتها وتتكتل على نفسها بقوة شديدة إلى درجة تلتحم فيها ذراتها، فيصغر حجمها بشكل كبير جداً، وقوة جذبها تصبح هائلة بقوة جذب وزنها الأصلي. لقد وجد بأن وزن ١ سم٣ من هذه المادة بعد الانكماش يعادل ٣٠ طناً من الحديد وذلك لشدة كثافتها. لذلك فهي تجذب كل ما هو قريب منها أو هو في مجال جذبها، وكأنها تنظف ما حولها من الأجرام الأقل وزناً منها. وقد سميت بالثقب الأسود لأن الضوء نفسه لا يستطيع الإفلات منها أو اختراقها فلا ترى، فسميت بالثقب الأسود. إنني حين أفكر بوصف هذه الأجرام أقول في نفسي أليست هذه هي الجوار التي أقسم الله بها ليتفكر المؤمن في عظمتها وفي عظمة القسم في قوله تعالى:

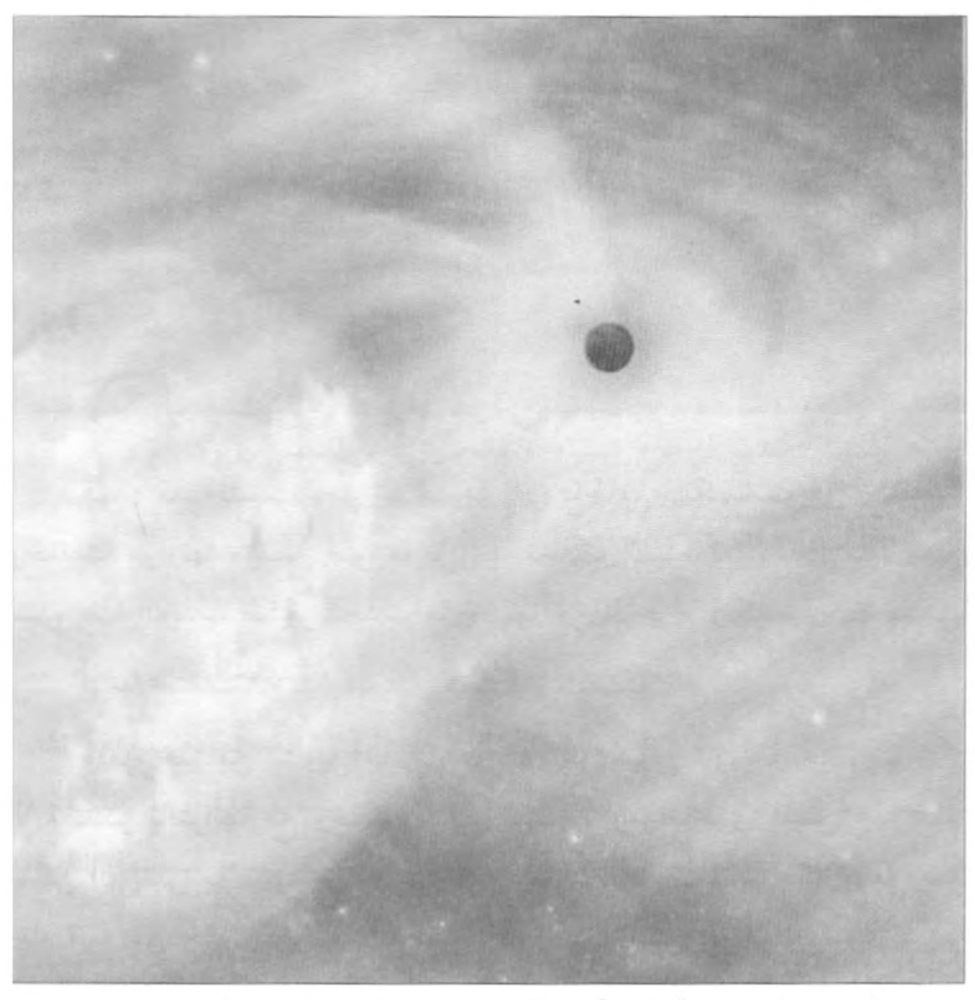
﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]

فهذه قد خنست بعد انفجارها إلى داخلها وانكمشت في حجمها وخمدت حرارتها وانقطع ضوؤها بل إنها تجذب الضوء فلا ينفلت منها وهي لشدة هذا الجذب الكبير تجذب ما حولها من الأجرام وتكنسها كما يكنس المغناطيس برادة الحديد!

ولعل هذا من التأويل الذي وعد الله بأنه سيأتي تأويله، خصوصاً وأن الآية تذكر باقترانها مع وصف الليل والصبح! ومرة أخرى فليس هذا علم يمكن أن يدلي به بشر أمي قبل أربعة عشر قرناً. ويقسم سبحانه بهذا وبما جاء قبله من حقائق كونية بأنه ليس إلا وحياً، ليس إلا قول رسول كريم (هو جبريل):

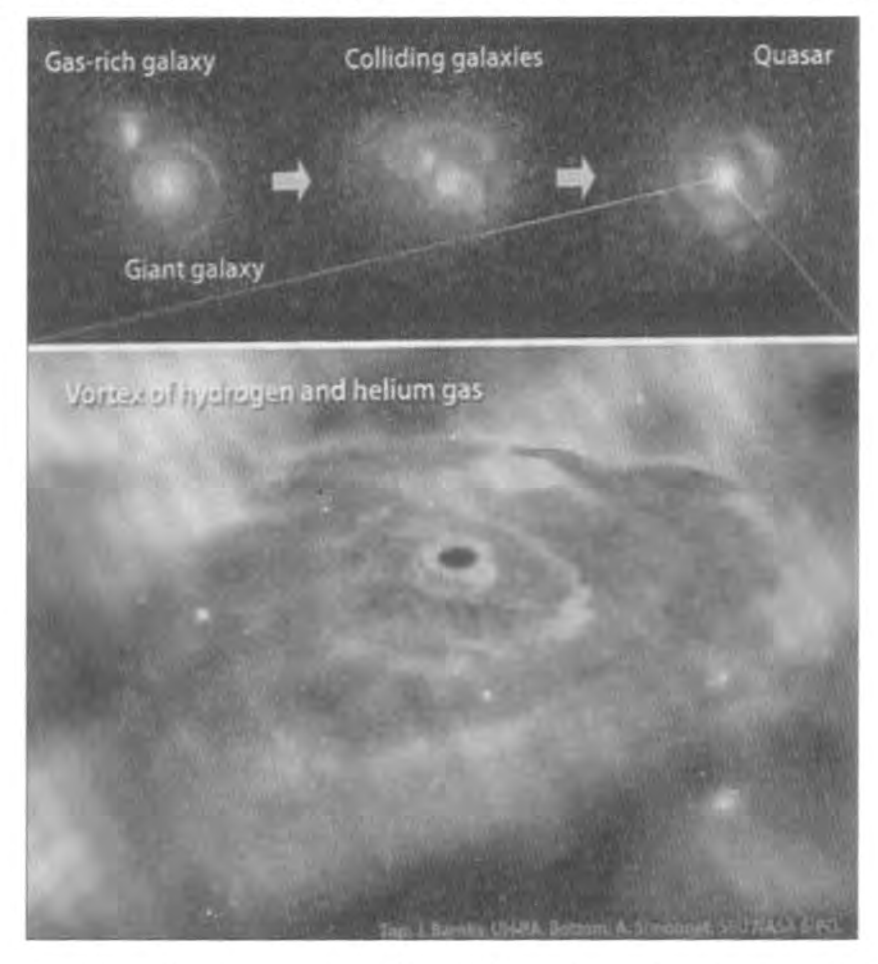
﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ١٥-٢٢].

الثقوب السوداء



ثقب أسود يجذب نجماً عملاقاً ويسحب مواده حتى يدمره ويحوله إلى كتل غازية

[الصورة عن: Img.qj.net]



ثقب أسود وحوله دوامة من كتب هائلة من غازي الهيدورجين والهليوم أثناء دورانه وجذبه لهذه الغازات من النجوم
[والصورة عن: www.ifa.hawaii.edu]

المتألق الجديد أو (السوبر نوفا):

والسوبر: شيء فائق أو خارق، والنوفا: الجديد، ومعناه ظهور نجم جديد فائق في تألقه، أو ذو لمعان شديد يدل على عظمته. وهو يظهر بلمعانه شديد في الأيام الأولى من تألقه ثم يخفت تدريجاً حتى يعود إلى قدره الأصلي. فمثلًا نوفا العقاب التي ظهرت في مجموعة العقاب عام ١٩١٨ ازداد

لمعانها ٤٠ ألف مرة في مدة أربعة أيام[١]، هكذا تألقت في لمعانها! ماذا حدث لها؟ ولماذا تألقت هكذا؟ يعتقدون أنها انفجارات داخل النجم نفسه، ولكن لا أحد يعرف الأسباب إلا الله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].



المتألق الفائق أو المستعر الجديد، والذي في الصورة يدعى: real supernova
[الصورة عن: www.eskesthai.blogspot.com]

---

(١) دليل السماء والنجوم - د. عبدالرحيم بدر، ص: ٨٢.



المستعر الجديد ويدعى: supernova - remnant - 1...
[الصورة عن: www.spacearchive.info]

النابضات:

هي أجرام في السماء ترسل موجات لاسلكية منتظمة كل بضعة أجزاء من الثانية، وكأنها ترسل نبضات بتردد منتظم. ولعل هذه النبضات أو الذبذبات هي الترجيع أو الرجع المذكور في الآية الكريمة:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١﴾ [الطارق: ١١].

وهذا الوصف ينطبق أيضاً على أشباه النجوم التي اكتشفت بإشاراتها اللاسلكية القوية وبهذه الخاصية القوية أقسم الله سبحانه، وقد كانت مجهولة في السماء وهي لا تزال مجهولة وغيباً ليتفكر الإنسان في هذه القدرة العظيمة، وفي هذه الأسرار البعيدة المنال وهي لا يرى منها إلا أنها تبعث

وميضاً من الضوء لا تعلم أسبابه. وهي تظهر كما وصفها الشاعر المهاجري بأنها لامعة غمازة:

يا هند تظهر نجمة غراء لامعة الجبين   غمازة فكأنها تهدي إليها العاشقين

وليس هناك تفسيراً علمياً لها غير تخمينات العلماء والفلكيين بأنها نجوم استهلكت كل طاقتها في الانفجار والضغط على نفسها بحيث تحطمت فيها الجزيئات والذرات وأصبحت سائلًا بروتينياً ولذلك فهي تدور حول نفسها بسرعة هائلة لا تتجاوز في دورتها بضعة أجزاء من الثانية! ولكن كيف ولماذا لا تعود فتنفجر ثانية وتتبعثر؟

إن هذه التفسيرات ليست إلا محاولات لتعليل هذه الظواهر الكونية الغامضة التي لا يعلم من أمرها شيئاً.

إنه لا يعلم أحد حقيقة ما يجري في هذا الكون الرهيب إلا القوي العزيز العليم الذي خلقه ووضع ميزانه وأخفى السر فيه:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرَّحمٰن: ٧].

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفُرقان: ٦].

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ [يُونس: ٦].

إننا ننظر ونتفكر في آثار هذه القدرة العظيمة لكي نؤمن بعظمة مدبرها فنتقيه ونطيعه وننتظم في مسيرة هذا الكون بما يرضيه ويحقق إرادته، فنعبده ونشكره ونقر له بالربوبية والوحدانية، قال تعالى:

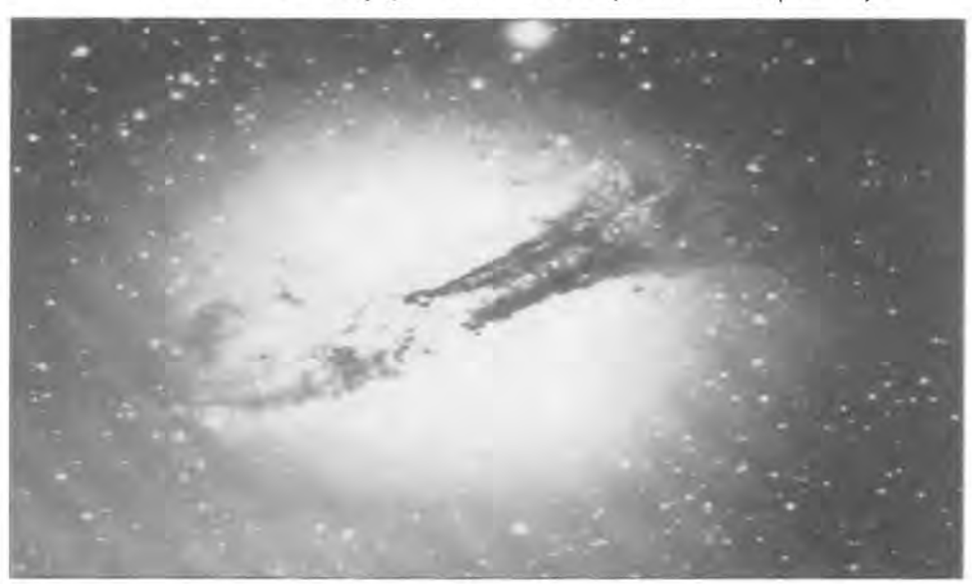
﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [البَقَرَة: ١١٦، ١١٧].

وقال سبحانه أيضاً:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣].

إن التفكر في السماء وفي عظمة الكون ليقودنا ويفكرنا بعظمة خالقه، وإن كنا في غيب شديد عن هذه العظمة، ولم ندرك منها إلا شيئاً قليلًا. بل إن الإنسان لم يرصد حتى الآن إلا جزءاً يسيراً جداً من السماء. وهب أننا وصلنا برصدنا إلى نهايات الكون وأننا لمسنا السماء - وهذا شيء ممتنع ومستحيل على البشر - هب أن ذلك قد يحصل، فهل هذا هو كل العلم؟ إن هذه المنظورات ليست إلا المواد التي نبصرها أو نسمعها في ملك الله، وإن التي لا نبصرها ولا نسمعها من عالم الملكوت هي أشد وأعظم، حتى لقد أقسم الله بها:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

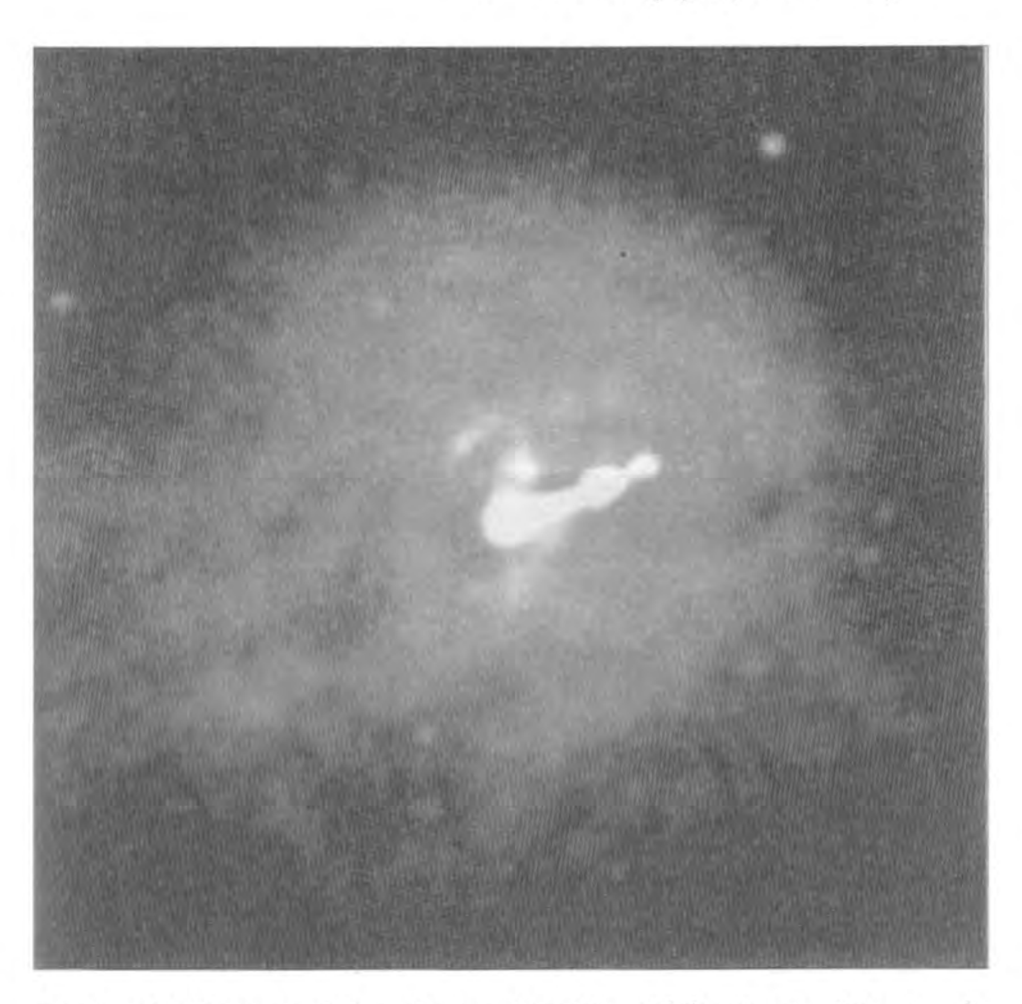


المجرة الغامضة: NGC ٥١٢٨

[الصورة عن كتاب: الكون، المكتبة العلمية - لايف]

تبعد عنا بمسافة تبلغ ١٥ مليون سنة ضوئية، وتبعث أصواتاً لاسلكية بكثافة تزيد ١٠٠٠ مرة عن تلك التي تصدر من أي مجرة عادية، كما لو كان الجزء الأكبر من مادتها قد تحول إلى طاقة راديوية. وهي تذكرنا بالآية الكريمة:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾﴾ [الطارق: ١١].



المجرة م ٨٧ سديم في العذراء ينفث مادة متوهجة من نواته ويصدر إشارات راديوية (من قاموس كتاب: بدائع السماء - لجيرالد هوكنز) المكتبة العصرية، ١٩٦٧ بيروت [الصورة عن: Chandra.harvard.edu-m87]



صورة أخرى للمجرة م ٨٧ في برج العذراء وتظهر النواة البيضاء في قلبها وهي تنفث منها مواد متوهجة وتصدر إشارات راديوية
(عن القاموس الماحق بكتاب: بدائع السماء لجيرالد هوكنز)
[وأما الصورة فعن: Apod.nasa.gov-m87]

إن بقية الإدراك وهو الأعظم في الإنسان مقره القلب مركز الإدراك الذي يمتلئ رهبة لهذه العظمة. وإن خلق السماوات والأرض شيء عظيم، وأعظم من خلق الإنسان: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

فهلا تفكرنا في المخلوقات العظيمة غير المنظورة التي تملأ السماء، وفي القوى الهائلة التي تسيره وتمسك بزمامه، وبأسرار هذه القدرة العظيمة المسخرة والمهيمن عليها من قبل العزيز الحكيم؟ إن المؤمن ليزداد رهبة وإيماناً حين يتحرر تفكيره وينطلق في الآفاق ويرتفع عن المادة ويفكر بالجبروت والملكوت لرب العرش العظيم. وحين يفكر بالملائكة العظام وغيرهم الذين لا تراهم العيون ولا تطالهم الظنون ولا تبصر ما هم فيه

مسخرون، لا تحس ضغط حركتهم ولا شدَّة قوتهم ولا دقة انتظامهم في سجودهم وعبادتهم وطاعتهم لربهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦].

إن المؤمن ليتفكَّر بهذا بقوله سبحانه فيهم:

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

فيحس بتقصيره في جنب الله، ويحتقر عمله، ويستصغر نفسه.

وهلَّا تفكَّرنا بالحرس الشديد والملائكة السجود لمقام المعبود، وبالمسخرين في شأن هذا الكون بما لا نبصره ولا ندركه؟ وبما لا نسمع من جلبتهم وحركتهم؟ وبما لو سمعنا أو أبصرنا، لصعقتنا واختفينا حتى لا يُرى لنا نار ولا دخان!

روي عن النبي ﷺ أنه قال:

«إني أرى ما لا ترون وإني أسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى»(١).

أطَّت: أي صوتت عن كثرة جلبة الملائكة وحركاتهم.

تجأرون: تستغيثون.

---

(١) رواه الترمذي: ٢٢٣٤.

أي لو رأيتم من القدرة الهائلة والملك والسلطان، ومن العظمة والجبروت وانقياد الكون كله لخالقه وقنوت وسجود الملائكة العظام وخشوعهم، والغلاظ الشداد وطاعتهم للملك الديان، لتملككم الخوف والرهبة ولحقرتم أنفسكم وخرجتم إلى المرتفعات تستغيثون وتدعون ربكم ليرحمكم ولا يبطش بكم بما أنت مفرطون بحقه عليكم!

إن المؤمن ليتفكر في هذه العظمة وفي ملائكة السماء متذكراً آيات الله:

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى: ٤، ٥].

ثم في الملائكة العظام حملة العرش العظيم الذي وسع السموات والأرض:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

ثم كيف إذا تفكر في مصائر البشر - وأين هو منهم - وقد قضى رب العزة بينهم بالحق وأخذوا مواقعهم والملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥].

وليس من مخلوق ولا شيء إلا يسبح بحمده:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

حليم غفور لكم عن تقصيركم، وإنه هو سبحانه الذي يمسك هذا الكون بقوته ويحفظه بلطفه ورحمته في كل لحظة، وأنتم من خطره آمنون:

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

وهو الذي يستحق العبادة والتسبيح والحمد في كل حين، لأنه هو الذي يحفظكم في كل حين ولا يغفل عنكم:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠].

فالعبادة والخضوع والسجود للخالق العظيم، وليست لمخلوقاته:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٧، ٣٨].

ثم يذكرنا سبحانه أن نتفكر ونفيق من هذه الغفلة ونتجه إليه سبحانه بالسجود والعبادة: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: ٥٩-٦٢].

هذه هي الغاية، معرفة الرب الخالق ثم عبادته، الغاية عبادة الله وهي أمر الله ودعوة الرسل. أما الذي يتفكر في المخلوقات ولا يهتدي إلى

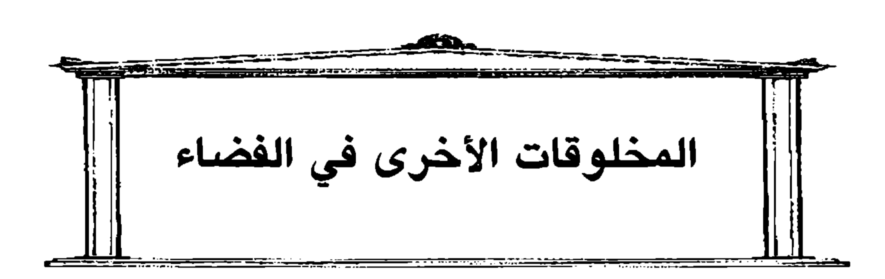
خالقها، والذي يتفكر في المادة ولا يهتدي إلى منشئها، أو الذي ينظر إلى الآلة ولا يفهم الغاية من صنعها، هو جاهل متغافل، مثله:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجُمُعَة: ٥].

أسفاراً: كتباً.



الفصل الخامس



المخلوقات الأخرى في الفضاء

لا يزال البحث عن أسباب الحياة في الكواكب الأخرى جارياً من قبل العلماء والفلكيين دون جدوى.

وحين أعلنوا بأنهم على وشك اكتشاف بحيرات من الجليد أو آثار الماء في المريخ أو في إحدى الكواكب الأخرى، أعلنوا أيضاً بأنهم سيكتشفون بعد هذا وجود حياة ومخلوقات عاقلة وربما تكون أذكى من الإنسان، ولكن لم يفلح الاتصال بها حتى الآن، وهم رغم هذه المحاولات لا يزالون في شك مريب.

إن موضوع وجود مخلوقات في كواكب أخرى غير الملائكة قد صرح به القرآن الكريم. وقد قضى سبحانه منذ ذلك الوقت - وقت نزول القرآن - على ما يمكن أن يحير ويجادل فيه العلماء حتى اليوم. وإن الآيات التالية تبين أنه كما توجد مخلوقات ودواباً في الأرض كذلك توجد في السماء: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل: ٤٩].

وفي هذا دليل واضح على أن هذه الدواب - وهي كل ما يدب على الأرض - هي مخلوقات ذكية وتفعل ما تؤمر هي والملائكة!

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى: ٢٩].

وفي هذا أيضاً تصريح بأن الله بث دواباً في السموات وفي الأرض وهو قادر على جمعهم من تخوم الأرض ومن غياهب السموات!

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: ٦].

وهنا تذكير وحث على التفكير في آيات الله، وفيما خلق الله في السموات والأرض من مخلوقات سواء كانت مخلوقات حية أم كائنات جامدة، وأن هذه هي صفات عباد الله المتقين.

وهنا أيضاً لم يبين سبحانه نوع المخلوقات ولا بين نوع الدواب في الآيتين اللتين سبقتاهما، ذلك لحكمة عنده، لأن معرفة هذه المخلوقات ليست هدفاً، ولكي لا يفتح باباً غيبياً يتخبط فيه البشر طيلة حياتهم وهو فوق طاقتهم، وربما لا يكفي عمرهم للجدال فيه. فالدواب كما نعلمهما هي كل ما يدب ويمشي على الأرض غير محددة بنوع من حيوان أو إنسان، بل هي مخلوقات مختلفة الله عليم بها كما قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥].

إذاً فليس من شرط أن تكون تلك المخلوقات بشراً كآدم وذريته. ونحن لا نعلم حتى الآن كوكباً لا في مجموعتنا الشمسية ولا في مجرتنا بهذا التمهيد والتكييف الخاص بالأرض، ولا بهذه المواصفات التي اختص الله بها آدم وذريته وما بث فيها من دواب وأنعام خلقوا خلقاً متوافقاً بما مهدت به الأرض. وأراد سبحانه أن يجعله خليفة في هذه الأرض ويسكنه فيها، أما الكواكب الأخرى التابعة لشمسنا فليست مكيفة لعيش الإنسان. وأما عن المخلوقات في غيرها في هذا الكون فلا نعلم شيئاً عنها

ولا في أيها تكون المخلوقات التي ربما تشابهنا أو لا تشابهنا. ولكن متى وكيف إذا كانت أقرب المجرات إلينا تبعد ما يقرب من مليوني سنة ضوئية؟ وكيف ومتى إذا كان عدد المجرات البعيدة الأخرى بالمليارات؟

ما أخبرنا الله به في كتابه العزيز أنه قد خلق سبع أرضين مثلما خلق سبع سموات:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

كذلك نعلم أن الله قد خلق سبع أرضين من. دعاء النبي ﷺ:

(اللهم رب السموات السبع وما أظلت، ورب الأرضين السبع وما أقلت. .).

وما أقلت: أي ما حملت من مخلوقات.

وهذا العلم يوقظ الأمل ويرغب الإنسان في البحث، ولكن إن كان له بذلك من سلطان أوجد له مأرب ليكتشف ما يستطيع من هذه الأراضي الستة الباقية!

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣].

ولكن هيهات هيهات لهذا الاختيار الرهيب:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمن: ٣٥].

والإنسان حتى الآن عاجز عن التجوال في مجرته، بل إنه لحد الآن لا يستطيع الخروج من المجموعة الشمسية التي هو منها فقط، فكيف بالمجرات الأخرى سحيقة البعد؟ إذاً فالنفوذ من أقطار السموات عمل ميؤوس منه ولا مطمع فيه.

أما الاتصالات:

فبعد تطور علم الفلك الراديوي، أخذ الفلكيون يتسمعون إلى ذبذبات معينة مصدرها السماء خصوصاً على موجة طولها ٢١ سم وهو الطول الموجي للهيدروجين الذري، ولكن لا يمكن فهما ولا معرفة اتجاه مصدرها. ويأملون أن يجدوا مدنيات في أراض أخرى مماثلة وفي مجرتنا بالطبع. إن الاتصال بها بواسطة الموجات التي هي أسرع الوسائل المتوفرة لاجتياز هذه المسافات السحيقة هو الآخر سيكون مملاً ومنقطعاً للغاية حيث أنه سيستغرق الآلاف من السنين. وعلى الرغم من ذلك فقد أطلقت أقوى إشارة حتى الآن (٣ مليارات كيلو واط) عام ١٩٧٢م من الأرض إلى (م ١٣) في مجرتنا وهو عنقود نجمي يتألف من ٣٠٠ ألف نجمة تبعد عنا بمقدار ٢٥ ألف سنة ضوئية. فهل سيرجع إلينا الجواب بعد ٥٠ ألف سنة؟

وجدلًا نقول فأي اعتبار سيكون له بعد هذه المدة، وبعد أن يكون قد تغير كل شيء؟

أما لو أرسلنا إشارة (ولنفرض أنه أمكننا إرسالها بالقوة المطلوبة) إلى أقرب مجرة إلينا وهي تبعد عنا بمقدار ١,٧٥٠ مليون سنة ضوئية تقريباً. فسيحتاج الجواب لرجوعه بسرعة الضوء إلى ٣,٥ مليون من السنين! هذ على افتراض أن المجرات لا تتباعد فيما بينها، وإلا فهي تحتاج إلى مدة مضاعفة لأن كثيراً منها تتباعد بسرعة الضوء! أي أنها سوف لن تصل أبداً. وإن هذا التفكير سيكون هراءً وستقوم الساعة قبل ذلك بكثير بل ربما ستقوم قبل أن تخرج الإشارة من مكانها، فمتى وأين القوة القادرة على إرسالها؟ وهل سيكون هذا تفكيراً علمياً أم تخبطاً وضلالًا في ظلام اللانهائية! ثم متى سيكون الاتصال بمليارات المجرات البعيدة الباقية لكي نواصل طموحنا العلمي والاستكشافي!؟

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦].

العليم بأسرار خلقه والعليم بما يختار لهم من مكان:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨].

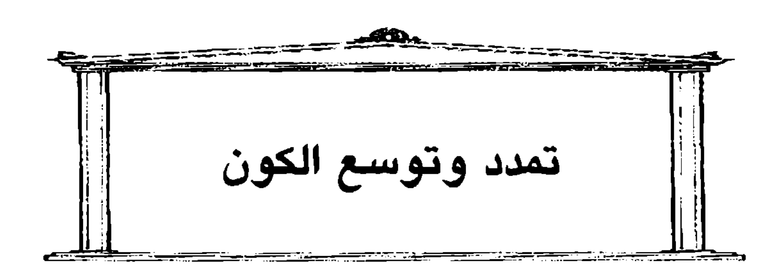
وما دام البحث عن هذه الأرضين من الاستحالة والإعجاز، وما دمنا لا نملك حتى وسائل الاتصالات بالمجرات، وما دمنا لا نمثل إلا أقل من قطرة في هذا البحر العظيم الذي لا تدرك أطرافه، فلماذا الاستبداد بهذا العلم القليل، ولماذا الغرور رغم الضعف الشديد والعجز الكبير؟ فالأحرى بنا أن نكتفِ بالتفكير في عظمتها وفي عظمة هذا الخلق الرهيب، لنعظم خالقه في نفوسنا ونتقبل رسالته إلينا وهي الرسالة الوحيدة الحقة التي تنبئنا بالعلم الحق، ونطيعه ونعبده قبل أن يكون قد اقترب أجلنا فتضيع أعمارنا القصيرة من حيث لا ندري! بل وخير لنا أن نتدبر قول ربنا جلَّ وعلا وهو ينبهنا من هذه الغفلة، وينقذنا من الحيرة والضلال:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٤، ١٨٥].

الملكوت: هو الملك العظيم المتواري عن الأنظار بسره وهوله وعظمته.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس



تمدد وتوسع الكون

لقد وجد عند قياس أطياف المجرات بأن بعضها ينزاح نحو الضوء الأحمر كما لو كانت تبتعد عن الأرض وتدعى هذه الظاهرة بظاهرة دبلر. لكن فلكياً آخر هو هيبل استطاع أن يثبت بإمعان المتابعة بأن جميع المجرات تنزاح أطيافها نحو الأحمر، وأنها كلما تكون بعيدة يزداد انزياحها نحو نهاية الطيف الأحمر. أي أنه كلما بعدت المجرة عن كوكبنا ازدادت سرعة ابتعادها، فهي تبتعد بتعجيل وتسارع. واستناداً إلى هذه الملاحظة نشأت نظرية توسع الكون.

فالمجرات الممعنة في البعد يخفت ضوؤها إلى أن تتلاشى عن الأنظار، ولا يمكن بعد ذلك رصدها. اللهم إلا إن كان هنالك سبب آخر يؤدي إلى خفوت ضوئها غير الابتعاد. لكن هذا غالباً ما يظهره المطياف فليس هناك سبيل غيره للقياس.

ومما يؤدي إلى سرعة التباعد هو أن النجوم تفقد من أوزانها في كل ثانية ملايين الأطنان بسبب تحول مادتها إلى طاقة ضوئية وحرارية وإشعاعات مختلفة. إن شمسنا مثلًا تفقد في كل ثانية ٤ملايين طن من

وزنها في تحول الهيدروجين نووياً إلى طاقة! فتأمل عظم وزنها وحجمها. وهكذا النجوم تقل طاقتها يومياً ويقل تبعاً لذلك وزنها وحجمها ولمعانها، ومن ثم قوة التجاذب فيما بينها، فيزداد بذلك تباعدها وسرعة جريانها في مداراتها. ولكننا لا نرى من هذا شيئاً وليس له أثر يذكر بمقياس النجوم، فهي من العظمة بحيث أن هذا النقصان يحتاج إلى ملايين السنين لكي يظهر لنا بشكل يستحق الذكر!

فتفكر أخي في حجوم هذه الأجرام، وفي سعة المسافات الهائلة بينها، وفي سرعة انطلاقها، وماذا يمكن أن يفعل البشر إزاء هذه القوى الجبارة فيما لو اتجهت واحدة منها مثلاً نحو مجرتنا:

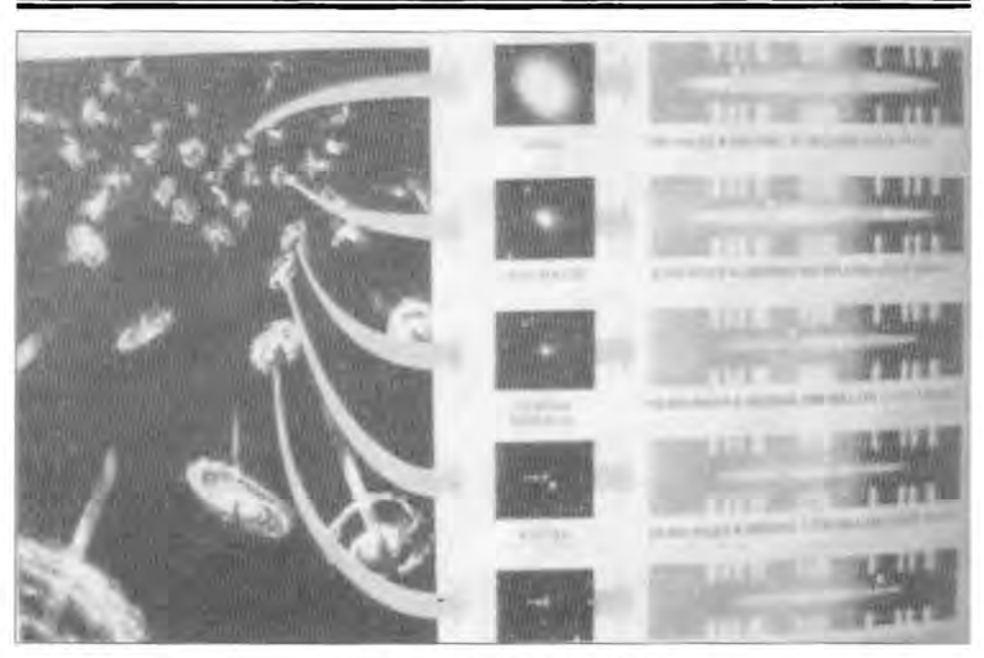
﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: ٢٩].

وتأمل قوله سبحانه وما ينطوي عليه من معنى السرعة والقوة في وصف داهية الساعة التي يكذب بها الكافرون:

﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: ٤٠].

ولا هم ينظرون: ولا يمهلون أو يمنحون مدة انتظار.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزخرف: ٦٦].



تباعد المجرات وتوسع السماء

توضيحاً للجدول في يمين الصورة ندرجه مترجماً أدناه:

المجرة	بعدها عن الأرض	سرعة تباعدها
العذراء	٥٠ مليون سنة ضوئية	٧٥٠ ميل في الثانية
الدب الأكبر	٦٥٠ مليون سنة ضوئية	٩٣٠٠ ميل في الثانية
أكليل القطب الجنوبي	٩٤٠ مليون سنة ضوئية	١٣٤٠٠ ميل في الثانية
راعي الشاء	١٧٠٠ مليون سنة ضوئية	٢٤٤٠٠ ميل في الثانية
الشجاع	٢٧٠٠ مليون سنة ضوئية	٣٨٠٠٠ ميل في الثانية

يتبين منه أنه كلما زاد بعد المجرة عن الأرض، زادت سرعة ابتعادها. ويعرف ذلك من زحزحة ضوئها نحو نهاية الطيف الأحمر في المقياس. وكلما ابتعدت خفت ضوؤها وتزحزح نحو نهاية الطيف الأحمر. فالكون بمجراته المتباعدة يتمدد ويتوسع عن كتاب الكون، المكتبة العلمية - لايف.

وتفكر أي قوة عظيمة تحرك هذه الأجرام العظيمة بهذه السرعة الخاطفة، بل وانظر وتفكر من خلال ذلك إلى جلال الخالق العظيم ذو الجلال والإكرام من له القوة جميعاً ومن له العزة جميعاً ومن بيده ملكوت السموات والأرض وتأمل قوله سبحانه قبل أن يكتشف هؤلاء التوسع في السماء:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧].

هذا هو القول الفصل، وهذا هو القول الحق الذي آمن به المؤمنون من قبل، وهو الحق الذي يكذب به المجرمون. وليت لهم في تكذيبهم هذا دليل علمي واحد غير التكذيب والتخرص والظن:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وها قد اكتشف الإنسان الآن هذا المعنى (وإنا لموسعون) بأضعاف مضاعفة عما تراه أعين الرعاة، وأعين البدو في صفاء السماء. وقد أراهم الله بعض آياته لتكون حجة دامغة على المكذبين، وازدياداً لإيمان المؤمنين. وستظهر آيات الله على مر العصور كما وعد بذلك سبحانه ووعده الحق وقوله الحق:

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: ٥٣، ٥٤].

ولو عدنا وتفكرنا في المسافات المتوفرة في كافة الاتجاهات لهذه

السرعة الهائلة التي قد تقترب من سرعة الضوء وبالتالي ما هي السعة المتوفرة لها، وما هي نتيجة هذا التسارع والتوسع المستمر، لما كان هناك جواب إلا أنه لا مناص من كارثة كبرى أو انفجار عظيم، وإلا أنه غيب لا يعلمه إلا الله:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزخرف: ٦٦].

لكنها ستأتيهم حتماً، وإن كانوا عنها غافلين، أو كانوا بها مكذبين:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر: ٥٩].

فالزمن يمضي، والسرعة في تزايد، والمسافات تتسع، والاتجاهات مجهولة، والكل في حركة دائبة بشكل رهيب جداً. لو تفكرنا في هذا لأدركنا شيئاً من قوله تعالى:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٥، ٦٦].

ناهيك عن المخلوقات الغيبية كالملائكة والجن والشياطين التي لا ترصد، بل إن هناك مجرات هائلة أيضاً لا ترى، وتعمى عنها عين أكبر مرصد معروف - وهو المرصد العملاق في جبل بالومار - وعينه ذات القطر ٥ أمتار (٢٠٠ بوصة) ولم يلتقطها إلا المرصد الراديوي! وإن منها ما لا يرصدها أي مرصد!!



الرادار الأكبر في العالم ويدعى تلسكوب هيل وهو منشأ على جبل بالومار في كاليفورنيا بأمريكا وقطر عدسته (٢٠٠) بوصة
[الصورة عن: www.stanchfield.com]

كذلك لو تفكرنا في مثل هذه المجرات التي تسير بهذه السرعة وما يمكن أن تحدثه في لمح البصر، لأصابتنا الدهشة والرهبة. ولكن كيف ومتى سيحدث هذا الخطب الجسيم؟ لو تفكرنا لعلمنا الدقة في معاني قوله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

إلا بغتة: دلالة على السرعة العظيمة.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل: ٧٧].

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠].

لأنها بهذا التشبيه أقرب وأسرع من لمح البصر.

ولو تفكرنا في طاقات هذه الأجرام وعظمتها وهول الساعة لتبصرنا أكثر في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١، ٢].

وهكذا نتلمس الحكمة والعبرة والموعظة من توجيه القرآن للإنسان، وحثه على أن ينظر ويتفكر في السماء، ويعلمه بأن مصير النجوم والشمس والقمر والكواكب والأرض ومن عليها هو الزوال والموت والفناء:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧].

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨﴾ [القصص: ٨٨].

فليستعد الإنسان لما بعدها من حياة، بالعمل الصالح وتوحيد الله وعبادته:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

وإن هذا النظر والتفكير هو عبادة مطلقة تؤدي إلى الإيمان بعلم، فضلًا عن أنه طاعة لأوامر القرآن وتوجيهاته:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس: ١٠١].

وتتوالى الآيات التي تنبه العقول إلى التفكير بما يغيب عن نظر الإنسان وتؤكد حقيقة القرآن:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٣].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦].

هذا القسم يشير إلى ما تكلمنا عنه عن حركة وسرعة وتباعد المجرات وتغير مواقعها في الفضاء. فمواقع النجوم التي نراها في خريطة السماء مثلًا وكأنها ثابتة في مواقعها داخل المجرة، إنما هي من البعد الرهيب بحيث نحتاج إلى ملايين السنين لرؤية تغيرها. والذي لا نراه هو أنها ونحن معها في المجرة نسير بسرعة المجرة الهائلة ولا نحس بشيء من ذلك! وكما رأينا فإن حقيقة معرفة ومتابعة مسارات ومواقع النجوم في السماء عسيرة جداً. فملايين المجرات التي تملأ السماء تسير باتجاهات مجهولة وليس في الكون شيئاً ثابتاً يمكن إسناد الاتجاهات إليه، وهي تسير بسرع مختلفة وهائلة وفي تباعد مستمر، فأصبح معرفة مواقع انتشارها أمراً عظيماً بل ومستحيلًا على البشر. لذلك أقسم سبحانه بها، فلا يمكن لأحد أن يحصي مواقعها المتغيرة في كل لحظة ومساراتها وأفلاكها إلا خالقها ومسيرها وهي عنده محفوظة في كتاب:

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢].

لو أنكم تعلمون شيئاً من العظمة في مواقع النجوم، لعلمتم أن هذا القسم عظيم وهو فوق طاقة علم البشر. ذلك القسم العظيم الذي يحمل هذا السر في السماوات لدليل على أنه قول علام الغيوب، وأنه ليس من صنع البشر وإنما هو تنزيل من رب العالمين. فانظر إلى تسلسل الآيات رعاك الله:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠].

ولم يكن القسم العظيم لتقرير أن القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين فحسب وإنما شمل القسم أنه أيضاً في كتاب محفوظ عنده في السماء، ولا يمسه إلا الملائكة المطهرون. كما قال عنه سبحانه:

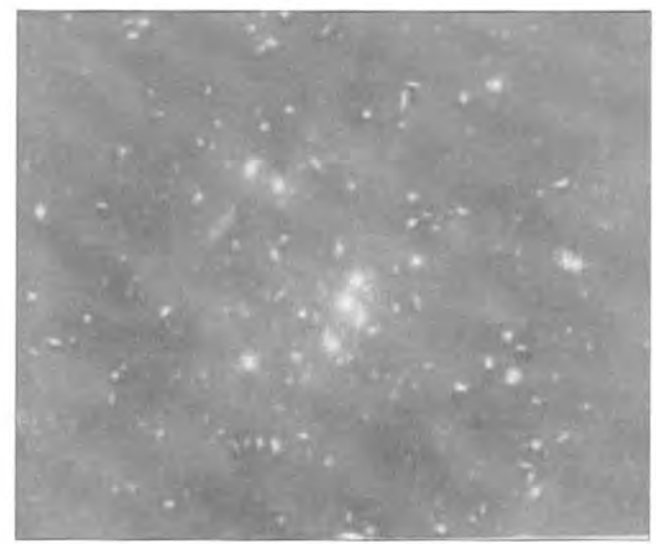
﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وهكذا يتضح بأن أحدث وأعجب ما اكتشف من علوم الفضاء، وهو تمدد وتوسع الكون كان معروفاً لدى المسلمين منذ نزول القرآن. وهكذا تبقى الآية العظيمة الدالة على توسع هذا الكون الوسيع خالدة في ذهن المسلم المتفكر في السماء، ظاهرة جلية ومهيمنة كما هو القرآن:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

تباعد المجرات؛ صورتان لمجرات متباعدة



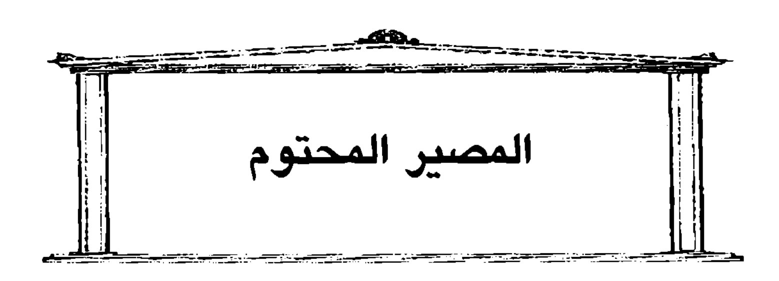


[الصورتان أعلاه عن: www.55a.net]

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].



الفصل السابع



المصير المحتوم

إن هذا العنوان وضعه وقرره علماء الفلك أنفسهم. إنهم دهشوا لما رأوا من تحول المادة وأثرها في مصائر النجوم، والنهايات الخطيرة لكثير من المجموعات النجومية والشموس وحتى على مستوى المجرات. رأوا أن عوامل الفناء وبذور الموت تسير ملازمة لأعضاء هذا الكون منذ نشأته. فكل نجمة تفقد طاقتها بمعدل مئات الألوف من الأطنان في اليوم الواحد. إن هذا الرقم قياساً إلى حجم النجمة يعتبر صغيراً لكنه بمرور الزمن يعتبر نذيراً خطيراً بالفناء لكل النجوم. لذلك فلا غرابة أن يأتي عليها الزمن وينطفئ نورها، وتخمد حرارتها، وتتجمد الكواكب والأقمار، وتموت كافة الأحياء في كل مكان!. إن ذلك سيستغرق ملايين السنين قياساً إلى أحجام النجوم وطاقتها العظيمة. وإن شمسنا مثلًا ستؤول إلى الانفجار بعد ٥٠٠٠ مليون سنة وتؤدي الحرارة الناتجة بالكواكب القريبة منها مثل الأرض إلى الغليان. إن هذه المدة قد احتسبت استناداً إلى ما قد يترسب من الهليوم الناتج من احتراق الهيدروجين في لب الشمس حتى يرغم التفاعلات النووية على الانفجار بسبب ازدياد الحرارة العالية[١].

---

(١) كتاب الكون: لايف المكتبة العلمية - قصة حياة الشمس.

إن هذا المصير لا يمكن معرفته هكذا باحتساب أحد العوامل وإغفال مئات الأسباب والعوامل غيرها، وباعتماد التخمين الذي قد لا يطابق شيئاً من الواقع. إننا لا نفرح بهذه العلوم التخمينية كونها توافق في النتيجة بعض ما جاء به القرآن الكريم من خراب الكون وقيام الساعة كلا. إن استنتاجاتهم هذه مبنية على الأساس الخاطئ نفسه الذي تخيلوا به المدد الزمنية التي استغرقها خلق الكون. إنهم يقدرون المدد بأن يتركوا للمادة أن تأخذ دورها في تحولاتها الكيميائية والطبيعية دونما تدخل لأحد، وكأنها قد خلقت ذاتياً وستموت وتتدمر ذاتياً أيضاً. وكأنه ليس لهذا الكون مدبر ومسيطر يقضي فيه ما يشاء، ويمسك زمانه، ويحفظ توازنه[١].

هذه هي علة الغرب اليوم الذين بنوا أسس علمهم على عدم الاعتراف بالخالق وبالأديان، فسارت بهم إلى طريق الباطل وإلى ضلال العلم. وستسير بهم يوماً إلى النار جزاء ما أنكروا من الحق، وما استكبروا في الأرض بغير الحق، وأصروا إلا على الكفر بالذكر:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصِّلَت: ٤١، ٤٢].

وليس لهذا التمرد على الحق والمظاهرة على خالق الكون جزاءٌ إلا النار:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [فُصِّلَت: ٢٨].

ويظهر التناقض في هذا التفسير عندما يقرون بأن هذا النظام في الكون وهذه السيطرة والموازين الدقيقة المحكمة لا يمكن أن تصدر إلا عن مدبر قادر، عليم حكيم، ثم يعودون ويغفلون يده سبحانه في تدبير الأمور،

---

(١) تراجع العلماء الفلكيون مؤخراً عن هذه الفكرة، وأقروا بأن الكون حقيقة فكرية لها مدبر.

ويتركونها للمادة والطبيعة تتحكم في الأحداث على رسلها دون رب مدبر ولا خالق مسيطر!

كلا ليس هذا هو المصير المحتوم، وليس بهذه الحسابات الضيقة البعيدة عن الحقيقة كلا إن المصير الحقيقي المحتوم:

هو ما أخبرنا به رب السماوات والأرض الذي خلقهن، ووضع موازينهن، ووضع أجلهن ونهايتهن بعلمه وبتقديره وتدبيره. إنه سيأمر أمراً من عنده بفناء هذا الكون وإيقاف عجلته وميزان عمله بعد انقضاء أجل مسمى عنده لا يعلمه إلا هو. وما أخبرنا بما سيصير إليه المصير حقاً وواقعاً وصدقاً. وسيكون ذلك قبل أن تبرد النجوم أو تفنى طاقتها، كلا بل إنه سيفنيها بقدرته وبأمر من عنده، وعندما ينتهي الأجل المسمى، ينفخ في الصور وتقوم الساعة.

والفرق بين التفسيرين شاسع عظيم. فالتفسير المادي للمصير المحتوم، لم ولن يتمكن من الوصول إلى حقائق الغيب في هذا الكون العظيم ولا يحيط بها علماً، وكيف وهو ليس إلا كذرة غارقة في بحر زاخر عظيم؟ أما التفسير الحقيقي للمصير المحتوم فهو ما أخبر به خالق ومبدع هذا الكون، والعالم بكل أسراره، وليس شيء أصح منه ولا خبر أصدق منه:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧].

والفرق بين التفسيرين كالفرق بين الحقيقة والخيال، وبين الحق والباطل. الحق أن نأخذ العلم والخبر اليقين من صانع هذا الكون ومبدعه وقد آمنا به وبكتابه، والباطل أن نأخذ هذا العلم من بشر قاصر خطاء لا يعلم من كنه نفسه شيئاً، وهو يتخبط في علوم السماء وغياهبها بقياسات ضالة وخيالات تائهة، وتخرصات وظنون لا سند لها من الحقيقة! وهي تعاني من شك مريب بخالقها. وهل يقارن إخبار الخالق وعلمه بعلم المخلوق؟

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

إن عمر الإنسان قصير على هذه الأرض، أما عمر الكون والنجوم فإن تاريخ البشرية كله لا يعدل طرفة عين نسبة لعمر النجوم، ولا يرى الإنسان منه شيئاً، إلا كما يرى السائح الأرض في ومضة من البرق[1]. وبهذا العمر القصير لا يمكنه أن يرى شيئاً من عمر النجوم كما يرى من تغير مراحل عمره. إن مصير السماوات والأرض سيكون مفاجأة لكل البشر، سيكون كالانفجار المباغت ولا ينتظر حتى تفقد النجوم طاقاتها. وإذا جاء أجله المسمى عند الله، فسيأتي بغتة كلمح البصر كما أراده الله وليس متروكاً لأحداث المادة تفعل به ما تشاء كما يظنون، فالمصير إليه سبحانه وليس للمواد المخلوقة له، الطائعة لأمره!

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ [النُّور: ٤٢].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التّغَابُن: ٣].

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

أما ما يحدث في الكون عندما يحين الأجل المسمى وهو أمر الساعة. فقد جاءت به الآيات الكثيرة وسنأتي بها مفصلة في الكتاب التاسع من هذا المسلسل في موضوع الساعة إن شاء الله، لكننا نذكر هنا بعضاً من هذه الآيات كما يلي:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

---

(١) النجوم في مسالكها، ترجمة د. أحمد عبدالسلام الكرداني. ط/٣، ص: (١٦١ - ١٦٢).

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقَّة: ١٣-١٥].

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ١-٦].

وفي هذه الواقعة ما يرج الأرض رجًّا بما فيها من منصهرات، ويدك الجبال بضربة تفتتها وتجعلها هباء منتشراً، والهباء ما يتعلق من الغبار في الهواء.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ [التكوير: ١-٦].

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾ [الانفطار: ١-٤].

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النّازعات: ٣٤].

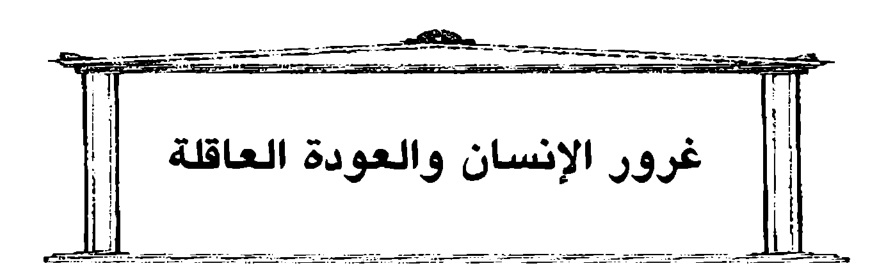
﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يُونس: ٢٤].

هذا هو المصير الحقيقي الذي سيؤول إليه الكون وهذا هو المصير المحتوم حقاً مهما كذب الكافرون وظنَّ المتخرصون:

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يُونس: ٥٣].

❁❁❁

الفصل الثامن



غرور الإنسان والعودة العاقلة

لقد كان طموح الإنسان في التطلُّع إلى كشف مجاهيل الفضاء طموحاً شديداً، حشدت له كل الإمكانات والطاقات الكبيرة، وبدأ السباق فيه على قدم وساق. لقد تحول من الرصد الأرضي إلى الرصد الجوي والمراقبة الفضائية بالأقمار الصناعية التي تطلقها الصواريخ.

لقد تطوَّرت هذه الصناعة التي ظاهرها الكشف عن الفضاء وباطنها البحث عن أسباب السيطرة والتملك والنفوذ والتسلُّط والغرور، وبالتالي الغطرسة وإثارة الحروب وما يسمى بحرب النجوم، ثم الإفساد في الأرض وشقاء البشرية تبعاً لذلك.

لقد أدرك الفلكيون والقائمون على هذه الصناعة، أن الفضاء بحر محيط لا ساحل له! وبأنه لو استنفد أجيال البشرية كلها حتى نهاية كوكبنا وحتى لو توفرت له الملايين من السنين، فسوف لا يمكن للإنسان أن يسبر غوره إلا كمن يأخذ نقطة من بحر عظيم. لقد أدركوا عبث ما يحاولون ويرمون إليه عندما أحسوا بأنهم تائهون في فضاء سحيق رهيب لا أول له ولا آخر:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

وكمثل على ذلك ما أدركه أحد علماء الفلك، وهو العالم البريطاني - آرثر كلارك - إذ صرح في ختام كتابه (الفضاء يتحدى سفينة الفضاء) فقال:

نستطيع أن نتعرف على الكثير من المجهول لدينا من مظاهر الطبيعة في الكون. أما أن نغزو الفضاء، فهذا هو المستحيل!

وحتى عندما تتوصل الأجيال القادمة إلى أبعد حدود العلم، وتنتشر في الكون الضخم تبحث عن حقيقته، فإن هذه الأجيال لن يكون موقفها أبعد من موقف مستعمرات النحل فوق كوكب الأرض! وهذه المستعمرات التائهة على كثرتها لا تعرف كل منها عن الأخرى شيئاً. هكذا سيكون حال الناس الذين سيخرجون تائهين في عالم الفضاء.

لهذا فإنني أدعو بني البشر إلى التخلص من نوبة الغرور التي تملكتهم، وأوحت لهم بأن الإنسان قادر على غزو الفضاء، والتعرف على أرجاء الكون.

هذا من الناحية الفلكية، أما من ناحية الآلة الإنسانية، فمشكلتها أعصى من أن تحل. فلكي يتمكن الإنسان أن يعيش خارج كوكبه، لابد له أن يغير في أجهزته الداخلية والعصبية بما يلائم الحياة في الفضاء التي تختلف ظروفها عن ظروف الأرض وهذا أيضاً من المستحيل علمياً.اهـ.

إن هذا الإدراك يفرض عليهم أن يراجعوا الطريق الذي بدؤه عندما أرادوا غزو الفضاء، لكن الغرور الذي انتابهم يدفعهم إليه دفعاً لا يدع لهم مجالًا للتراجع.

إنهم في غرورهم هذا يريدون أن يتواصلوا مع حضارات ذكية أخرى في الفضاء ربما تكون هي التي أرسلت إليهم الأطباق الطائرة، اللهم إن لن تكن هي الأخرى لعبة من لعبهم! ولكن لا بأس لنقل جدلًا بأنكم تواصلتم مع إحدى حضارات السماء كما تتوقعون، فليت شعري بما ستخبرونهم؟ أم بم ستبشرونهم؟

أتخبرونهم بأنكم قد عمرتم كوكبكم، وأنشأتم السدود والقناطر والجسور، وأنشأتم المطارات والقطارات والطرق والعمران، وإن أخبرتموهم فهل سيفرحون حقاً بذلك؟ كلا، إنهم سينتقدونكم ويتهمونكم بأنكم قد أفسدتم كوكبكم، وأسأتم استعماله، ولم تعتنوا به أو تحافظوا على نظافته، فنشرتم السموم والنفايات، وعملتم على تلويث الأرض والجو والماء، وصنعتم الأسلحة الفتاكة، لتبثوا الرعب والدمار والخراب، ولتفسدوا في الأرض وتهلكوا الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد.

لقد مكنكم الله في الأرض والذين يمكنهم الله في الأرض عليهم أن يصلحوا فيها:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

لكنكم لم تفعلوا ذلك بل على العكس منه، اغتررتم بعلمكم، واستكبرتم وكذبتم بالكتاب وبما أرسل الله به الرسل، وبطرتم وفرحتم ومرحتم في الأرض بغير الحق، وبغيتم على الناس. فسوف تعلمون ما سيكون جزاء كل ذلك.

اكتشفتم سننا طبيعية في الكون فأنكرتم مسببها، وغركم ما عندكم من العلم والقدرة الهزيلين أمام هذا الكون، فكفرتم بخالقه وعصيتم أوامره، وتحديتم قوته وجبروته، وغركم الغرور بأنه يمهلكم ولا يستعجل لكم العذاب:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ٥٨].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

هم يريدون اكتشاف أرض جديدة وكنوز بعيدة مجهولة، فلربما ينتقلون إليها إذا حل بأرضهم الخراب. سبحان الله، فلماذا نفسد في أرضنا ونعصي أمر الله فيها ثم نخاف المصير الذي ينتظرها؟ ونبحث عن أخرى لتكون الدار الآمنة البديلة، وهب أننا حصلنا على البديلة - وهو يكاد يكون من المستحيلات - ونحن بهذه النفوس المريضة فهل سيكون مصير هذه البديلة إلا كمصير سابقتها؟

تباً لك أيها الإنسان ما أطمعك! صدق رسول الله ﷺ إذ قال:

«لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وادِيَان مِنْ مَالٍ لابْتَغَى ثَالِثاً ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ ويَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ»[1].

أليس هذا هو الإسراف في الأمر والغرور:

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

أليس هذا هو البطر والطغيان؟ وإذا طغى الإنسان أفسد في الأرض، هذه هي صفة أعمال بني آدم منذ بدء الخليقة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

---

(١) رواه البخاري: ٥٩٥٦ ومسلم: ١٧٣٩.

ومرة أخرى هبوا أنكم تواصلتم مع إحدى حضارات السماء كما يحلو لكم أن تسموها، فمن يستطيع الجزم بأنكم لا تتواصلون مع أعداء سيقومون بتدميركم والقضاء عليكم؟ وربما لا تجدون إلى الخلاص منهم سبيلًا ثم لا تجدون ولياً ولا نصيراً. وإن أنتم تغلبتم عليهم فلم تفتحون على أنفسكم جبهة أعداء جديدة ومجهولة ربما تستنفد كل طاقاتكم، وفي كلتا الحالتين خسارة لا تحتمل!

أيها العلماء إن السماء ليست مملوءة حضارات أو مخلوقات بشرية أو ما يشابهها كما تظنون. إنها ملئت حرساً شديداً وشهباً، إنها ملئت ملائكة غلاظاً شداداً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، إنها ملئت خلقاً أقوى منكم، إنهم يرونكم من حيث لا ترونهم ولا تسمعونهم ولا تحسونهم. إنكم لو كان معكم الجن فلا تستطيعون النفوذ من أقطارها إلا بسلطان، ولو كان معكم أنتم والجن، ذلك السلطان فأيضاً لا تنتصران لأنه:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمٰن: ٣٥].

إن فهماً صحيحاً لهذه الآية، كان يمكن أن يجنب الإنسان ذلك الاتجاه المغرور ويوفر كل تلك الجهود لخير البشر.

فلو راجع القائمون على صناعة الأقمار الصناعية لسبر أغوار الفضاء وصنع أسلحة الغزو، لو راجعوا عملهم هذا وعادوا إلى رشدهم، وإلى العدل والحكمة، لما استمروا في هذه الطموحات التي لا طائل وراءها إلا شقاء الإنسان.

ألم يكن من الأولى أن يوقف طغيان الغرور هذا، وتوجه هذه الجهود لإسعاد البشرية جمعاء؟ إذاً لرفع البؤس والشقاء، وانمحى الظلم والفقر من العالم.

أن بحراً لم يسبر منه الإنسان قيد قطرة حتى الآن لجدير بأن يجعل باباً مسدوداً، باباً إلى الموت أقرب منه إلى الحياة.

نعم إن الكشف عن عجائب الفضاء وبدائع السماء وزيادة العلوم بما يحيط بنا من مظاهر الطبيعة في الكون شيء حسن لو بقي كذلك ولكن. . !

إن السماء بالعين المجردة تعطي قدراً من الإعجاب وتبهر الألباب بسعتها وجلالها وعلوها وبقدرة خالقها. أما النظر إليها بالمناظير والمراصد الكبيرة، ثم بالمراصد الرادارية وما جمع بها من صور ومعلومات لأجرام السماء، فهو يذهب بالألباب ويأخذ النفوس بالدهشة والإعجاب. إن ذلك ليغني القلب ويشبع الروح عبرة وإعجاباً بهذا الجلال الذي لا يرام.

وهذه هي الغاية من ترغيبنا وحثنا إلى أن ننظر ونتفكر في خلق السماوات والأرض لنملأ قلوبنا من جلال الله وعظمته، فنعرف ربنا ونؤمن به أنه وحده الذي خلق السماوات والأرض وهو خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير.

وإن الإنسان لو قدر له أن يتجول في الفضاء كما يشاء، ويرى كل شيء، فسيختل عقله ويبقى جاهلًا في غياهب السماء:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

إن في السماء من الأسرار والغيب والنواميس التي ليس بوسع الإنسان أن يحسها أو يبصرها أو يسمعها، إنها من الغيب العظيم، وعلمه ليس إلا لله:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يونس: ٢٠].

إن علينا أن نتفكر في السماء وهولها، وفي مخلوقات الله لنخلص له العبادة ونوحده ونرجو رضوانه بما علمنا من العمل الذي يرضيه لنكون في

مأمن من هذا الجبروت وهذا السلطان العظيم. وغاية العبادة لله معلومة، هي السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة قبل أن ينقضي العمر، ويضيع الجهد، ويفاجئنا الأجل، ومن ثم تكون الندامة...

إن عمر البشرية كما رأيت لا يتسع لغزو الفضاء الذي يحتاج إلى ملايين السنين، بل إن عمر البشرية منته، والساعة آتية لا ريب فيها، وإنما يكفينا أن نتدبر قول ربنا سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وأعود فأقول لو راجع هؤلاء عملهم، وانتهوا عن غيبهم، وعادوا إلى رشدهم، لكانت فعلًا عودة عاقلة!. ولكن:

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: ١٨٦].





الفصل الأول: الروح في الإنسان

الفصل الثاني: تدرج النفس في الإسلام والإيمان

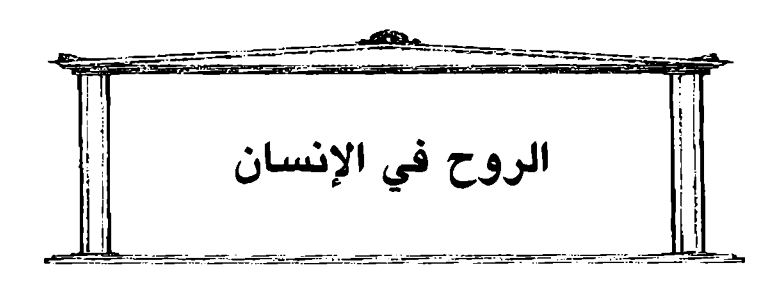
الفصل الثالث: تمحيص الإيمان بالبلاء وتحصين النفس من الفتنة

الفصل الرابع: أهداف وآداب الحرب عند المسلمين

الفصل الخامس: إعداد الأمة المؤمنة



الفصل الأول



حاجة العالم إلى التربية الروحية:

الإنسان كما نعلم مخلوق من مادة وروح. ومادته معروفة مرئية، أما الروح فغير مرئية ولا معلومة، وهو السر العظيم الذي أودعه الله هذا المخلوق، فنفخ فيه الحياة ودبت في أعضائه، وعملت به أجهزته، فأصبح يسمع ويبصر ويعمل ويفكر ويفهم، قال تعالى:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السَّجدَة: ٧-٩].

ولكون هذا الروح هو الذي يحدد صفات الإنسان وشخصيته وأعماله وكافة تصرفاته، وأن الجسم ما هو إلا ماكينة له، كان الجانب الروحي من هنا هو الجانب الأساسي الذي يتحكم في الإنسان. ومن هنا كانت الحاجة الكبرى لأن يولى بالعناية والدراسة، والسيطرة والتهذيب، حتى يتوجه الإنسان الوجهة السليمة التي يمكن أن تنقلب على العالم بالخير والمنافع.

معاناة الغرب من الإخفاق في علوم الروح والحياة:

لقد بدأ علماء الغرب ومن تبعهم بالشعور بهذه الحاجة نظراً لتخلفهم وجهلهم في هذا الجانب إزاء تقدمهم الهائل في الجانب المادي من العلوم. ويعترف بذلك الدكتور أليكسيس كاريل في كتابه: (تطورات علم الإنسان) فيقول:

هناك فرق عجيب بين علم المادة الحديث وبين علم الحياة. إن علوم الهيئة والميكانيكا والطبيعة مؤسسة على تصورات يمكن بيانها باختصار وبأسلوب جميل ولغة رياضية، أما علوم الحياة فهي ليست من هذا النوع. إن الذين يبحثون في مظاهر الحياة كمن يدخل غابة طلسمية توجد فيها آلاف مؤلفة من الأشجار الملونة التي تغير مواقعها وأشكالها بصورة مستمرة، وإنه ليستحيل الخروج من تلك الغابة بعد دخولها مرة واحدة. فهؤلاء الباحثون في علوم الحياة ستصبح عقولهم مشلولة، لا لشيء إلا لسبب كثرة الحقائق المطروحة أمامهم. وحقيقة أنهم سيستطيعون أن يعبروا بعض الشيء عما يرونه، لكنهم لن يستطيعوا التعبير عن الحقائق في مثل وضوح معادلات الجبر والتفاضل. ويضيف الدكتور كاريل:

إن التقدم البطيء في علم الإنسان مقابل التقدم المدهش في ميادين الطبيعة والهيئة والكيمياء والميكانيكا يرجع إلى ندرة الفرصة أمام آبائنا وأجدادنا وإلى تعقد الموضوع ذاته وإلى التكوين الخاص لأدمغتنا. إن هذه العوائق أساسية وليس هناك أمل في إزالتها. ويضيف أيضاً:

إن علمنا عن ذاتنا لن يكسبنا بساطة الطبيعة والتجريد والجمال. ولعله من المستحيل إزالة العقبات التي حالت دون تقدم هذا العلم. إنه يجب أن نعترف بكل صراحة أن علم الإنسان هو أصعب العلوم على الإطلاق. اهـ.

ويعلق الأستاذ وحيد الدين خان على هذا في كتابه القيم: (الدين في مواجهة العلم) فيقول:

لقد سلم المؤلف - يقصد الدكتور كاريل - بأنه ليس بمقدور الإنسان أن يصل إلى علم الحياة بجهوده الذاتية. ولكنه بالرغم من هذا الاعتراف الصريح، فإنه يقيم أملًا واهياً بدون أساس علمي واقعي يعتقد فيه أنه بإمكان الإنسان الوصول إلى ذلك العلم. ويقول أيضاً في موضع آخر من نفس الكتاب:

هناك فرق أساسي بين العلوم المادية والعلوم الإنسانية. وهذا الفرق هو الذي يؤكد أن الإنسان لم يفهم ذاته عن طريق علوم مختلفة تماماً عن ماهيته. إنه لن ينجح في فهم ذاته بنفس الطريقة التي يفهم بها الأوصاف الظاهرية للمادة. اهـ.

ثم يقول الدكتور كاريل في كتابه الشهير: (الإنسان ذلك المجهول) ما يلي:

إن سيادة المادة ستنتهي، وستصبح دراسة الأعمال الأخلاقية والجمالية والدينية هامة كدراسة الرياضيات والطبيعة والكيمياء. وسيتساءل خبراء الصحة في هذا الوقت: لماذا نولي كل عنايتنا لمكافحة الأمراض الجسمية؟ ولماذا لا نبحث عن الأمراض العقلية والعصبية؟ كما أن الأطباء سيدرسون صدمات الأخلاط البدنية كما يدرسون صدمات الأعضاء، وسيجب عليهم معرفة تأثير الدماغ على الأنسجة وتأثير الأنسجة على الدماغ إلى آخره. وفي نهاية كل هذا سنصل إلى حقيقة هامة هي أن الأصل في مشكلات الإنسان هو التقدم غير العادي في مجال العلوم المادية بينما ظل علم الإنسان بنفسه - أي علم الأجسام الحية - في حالة بدائية.

ولولا هذه الحقيقة لكنا قد رأينا الإنسان في حالة أخرى كتلك الحالة

التي نرى فيها الزفت الأسود ذا الرائحة الكريهة يتحول إلى منتجات ملونة جميلة، أو كقطعة حديد قبيحة تتحول إلى ماكينة جميلة نافعة. وعلى حد قوله:

(نحن ضحايا تخلف علوم الحياة عن علوم المادة) ويضيف الدكتور كاريل:

ولا علاج لهذه المشكلة إلا باكتساب المزيد من المعرفة العميقة عن ذاتنا. وهذه المعرفة هي التي ستمكننا من فهم الطرق التي تؤثر بها الحياة الحديثة على شعورنا وأجسامنا. وسنتعلم بها كيف نصوغ أنفسنا وفقاً لبيئتنا المحيطة بنا، وكيف نغير هذه البيئة إذا كان ذلك ضرورياً. وهذه المعرفة أيضاً ستدلنا على ضعف أفعالنا وعلى أمراضنا الخلقية والعقلية. ذلك لأنه ستظهر نوعية استعدادنا في ضوء فطرتنا الحقيقة، وستظهر لنا طرق إبراز هذا الاستعداد. وحقيقة الحقائق إننا نفتقد الوسائل اللازمة لمعرفة القوانين الثابتة لنشاطنا الروحي، وللتمييز بين الحرام والحلال ولمعرفة كوننا أحراراً في بناء ذاتنا وبناء بيئتنا. لقد اكتسب علم الإنسان أهمية عظمى بالنسبة لسائر العلوم الأخرى لاسيما بعد أن هدمت الحضارة الحديثة الأصول الطبيعية للحياة. إن جميع النجاحات المحرزة في العلوم تعتبر غير هامة بصورة كبيرة بالنسبة للحياة. وأهم سبب لهذا الإخفاق هو أن الذخيرة العظيمة من العلوم مختزنة في مختلف الأدمغة والكتب، ولم يتمكن فرد واحد من استيعابها.

ولكي نتمكن من تحقيق الاستفادة الحقة من هذه العلوم فإن من الواجب علينا أن نعمل على جمع هذه الذخيرة في دماغ فرد واحد. ولكن هذا غير ممكن، ومع ذلك فإذا نجحنا في أن نجعل فرداً واحداً يستوعب هذه العلوم بعد دراسة مستمرة لها لمدة خمس وعشرين سنة مثلًا، فإن مائة عالم من هذا الطراز سيكون بإمكانهم - بعد بلوغ سن الخمسين - القيام بقيادة مؤثرة في الحياة الإنسانية وحركة الحضارات.اهـ.

وهكذا يعلن علماء المادة ومعهم الدكتور كاريل - هذا الجراح العبقري - جهلهم وفشلهم في مواجهة علوم النفس والحياة. لأنهم ببساطة ظنوا أن علوم النفس وعلوم الروح يمكن أن يسيطر عليها بالدراسة الذاتية للإنسان، ولم يفكروا بأنها ليست مادة مختبرة حتى تجرى عليها التجارب، وتفهم بالدراسة كما تفهم العلوم المادية[1]!

حاجة الروح (أو النفس) إلى السيطرة والانضباط

أن الروح قوة خفية مجهولة المقادير كثيرة الاتجاهات متغيرة الحركة صعبة المراس لا تحب الحصر والضوابط، وهذا ليس إلا جزءاً يسيراً من أوصافها. إذاً هي ليست كالكهرباء قوة معينة ثابتة قابلة للتوجيه والتصريف والسيطرة والقياس. وإذا شبّه الإنسان بالماكينة فهو ماكينة حية حساسة معقدة أشد التعقيد. إنها خاضعة وبإحساس شديد إلى تأثير وتحكم الروح فيها، وهي تخضع للقيام بمختلف الوظائف الداخلية - وظائف حفظ وتشغيل أجهزة الماكينة نفسها - ومختلف الوظائف الخارجية - وهي ما يمكن أن تؤديه من أعمال إنتاجية نافعة، وأعمال أخرى تخريبية ضارة - ولكون الروح تمتلك هاتين الصفتين، أقصد صفتي الخير والشر، فإنها تحمل في طياتها خطراً. أصبح لزاماً بل واجباً أساسياً لضمان أمن وسلامة هذا الكائن المجهول (الإنسان) بل لأمن وسلامة المجتمع الإنساني كله.

الحل في الإسلام

إن ما يشكو منه علماء الغرب من التخلف والجهل في العلوم الإنسانية سببه أنهم لم يصغوا إلى تعاليم الدين وكفروا بها واغتروا بعلمهم، وحسبوا أنهم قادرون على الوصول إلى كل شيء عن طريق البحث والدراسة.

---

(١) انظر الفصل السابع من كتاب: الدين في مواجهة العلم - لوحيد الدين خان، ط/١، ١٩٧٢م، دار الاعتصام.

ولقد كان الحل كامناً في الدين، لأن الروح من أمر الله وأن النفس من خلق الله ومن علم الله، وهو أعلم بها. وهم قد رفضوه جملة وتفصيلاً، بعد أن وجدوا في الإنجيل ما يتعارض مع الحقائق العلمية، فرموه بالتحريف وهو أعلى كتاب عندهم، وبالطبع فما بعده يكون أقل شأناً وأقل اهتماماً لديهم. ومن هنا كان خطؤهم، ومن هنا أصابهم التخلف في هذا الجانب، وفقد الإنسان بالمادة قيم الحياة وبهجتها!

ما قيمة هذه المظاهر المادية إذا أصبح الإنسان يعيش عيشة الذئاب والحيوانات المفترسة؟ إذاً لقد ارتد إلى أسفل سافلين ولم يعد إنساناً. ولو أنهم تواضعوا قليلًا ودرسوا الإسلام بتجرد ونزاهة - الإسلام صاحب النص والتنزيل الإلهي الذي لم ولن تطاله يد التحريف والتزييف - لعلموا الحقيقة ووقعوا على قارورة الدواء، ولم يبق بينهم وبين الإفادة منه إلا أن يؤمنوا، فإن آمنوا فقد اهتدوا وتم لهم كل شيء، وإن لم يؤمنوا فلا يمكنهم القيام بتكاليفه واتباع منهجه الذي فيه الحل لتربية الروح وتزكية النفس!

إن الإنسان كما سبق وتم الاعتراف به أنه لا يعلم من أمر الروح شيئاً، وهذا صحيح فالروح من أمر الله الذي لا يمكن أن يطلع عليه البشر:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقليل العلم هو العلم المنظور والمحسوس لنا فقط.

والله سبحانه الذي خلق الإنسان ووضع فيه هذه الروح هو من يعلم بها وبما يجول في خاطرها:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

أي أنه أقرب إلى قلبه منه وهو حائل بينه وبين قلبه فلا تخطر فيه خاطرة إلا ويعلمها. والله سبحانه يخبرنا بأنه قد جبل هذه وألهمها نوازع الخير والشر:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وأنه قد أوضح لنا وهدانا الطريقين وخيرنا فيهما ليبتلينا:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢].

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد: ٨-١١].

إذاً فالعالم بسر هذه النفس ليس إلا خالقها. ولا يؤخذ التوجيه في تهذيبها وتربيتها إلا منه سبحانه وهو المصدر الوحيد لهذا العلم. وسنرى في الفصل القادم ما أمدنا الله به سبحانه في كتابه العزيز وما بين لنا رسوله ما بهذا الكتاب من علوم تربوية وتوجيه في تنشئة الإنسان المستقيم الصالح التقي وفي تنشئة المجتمع أو الأمة المؤمنة بالروح المستقيمة المنضبطة نفسها بنفسها - دون رقابة البشر ودون سيطرة الدولة - الروح الصابرة على الحق، الدائبة في فعل الخير، ولعامة الناس، المجانبة لأعمال الشر، المبتعدة عن الإضرار بالنفس أو بالناس. وسنرى كيف استفاد المؤمنون من هذه العلوم التربوية، وكيف نشأ عند الرسول ﷺ بهذا المستوى من الروح والعلم والإيمان أمة بأسرها:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

أمة كاملة، وليس مائة من العلماء الخياليون الذين تخيلهم الدكتور كاريل ليدرسوا خواص الروح دراسة مجردة من الإيمان (أي مجردة من الروح) ليكونوا قادة الحضارة ويؤثروا في إصلاح الناس!

إن هؤلاء القادة العلماء رسمهم الدكتور المذكور في تصوره سيكون علمهم مختلطاً وإحساسهم بالروح ميتاً، لأنهم لا يعلمون أن الروح تحيا بالإيمان، وهم من الإيمان خواء. فكيف يؤثروا في الناس وهم لا يملكون التأثير في أنفسهم؟

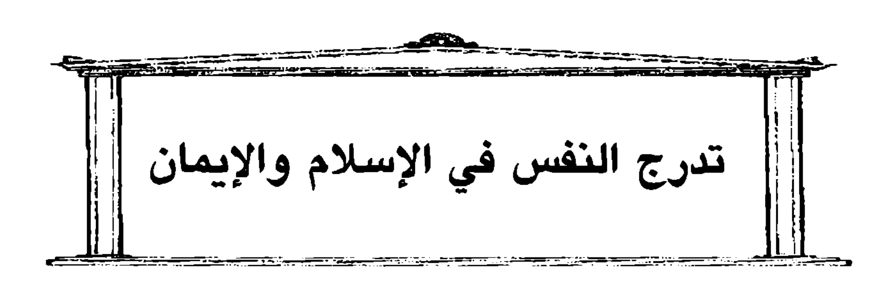
أما أمة الإسلام والإيمان فقد آمنت بالروح واستلهمت علمها وإيمانها من خالق الروح ومن كلامه المجيد واهتدت بنوره وسارت على صراطه المستقيم:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

هذا هو الهدف من الفهم والعلم بالروح وتوجيهها للخير وحفظها على الاستقامة. وقد حققه الإسلام بأعلى مستوى وبأسهل الوسائل وأيسر وآمن السبل وأشدها قبولاً، فأحدث أعظم التأثير في الناس، بكلمة الله العزيز العليم التي تحيا بها القلوب كما تحيا الأرض بالمطر، وتستقيم النفوس رضـ بنور الإيمان، وتستعد الأرواح فرحاً بهدي الرحمن.



الفصل الثاني



تدرج النفس في الإسلام والإيمان

في هذا الفصل نبين خطوات تطور النفس وتدرجها في سلم الإيمان، وكيف تتزكى وتطمئن بالإيمان، وترتقي به حتى تكتسب صفة المؤمنين المتقين، وربما ترتفع بإحسان التقوى إلى درجة المقربين.

١ ـ الإسلام:

يبدأ الإسلام بالدعوة إلى الله والتعريف بمبادئ الإسلام، وبما جاء به من الحق والتعاليم السمحة، والقيم السامية، والمثل العليا، من عبادة خالق السموات والأرض ونبذ ما دونه من الآلهة والطواغيت والأصنام، حتى تكون العبودية والطاعة له وحده، فهو وحده الذي يستحقها، ويكون تلقي الهدى منه وحده، فهو أحق من يتبع:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣٥].

ويكون الدين كله له، فتعاليمه تهدي إلى الخير والحق وتدعو إلى العدل والسلام وتهدي إلى صراط مستقيم:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

وتنهى عن الظلم والخبائث والرذيلة، وهي رسالة للناس جميعاً دون تمييز. فالكل خلق الله والكل عباد الله ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحُجرَات: ١٣].

فإذا عرفت النفس هذا الحق وقبلت به دون إكراه ودون أي استكبار، بل إسلام لدعوة الله الواحد القهار رب العالمين، فعليها النطق بالشهادة وهي أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وبأداء هذه الشهادة يكون قد بدأ إسلامها ودخلت فعلًا في الإسلام، وتكون قد أدت الركن الأول من أركان الإسلام الخمسة. وهي تعني أنه لا إله ولا معبود إلا الله خالق السموات والأرض وما فيهما، وخالق كل شيء وهو رب العالمين جميعاً، فلا تكون العبودية إلا له وحده، فلا طواغيت ولا آلهة ولا أصنام ولا طاعة لأحد في معصيته، ولا خوفاً من أحد إلا منه، وهو فوق كل شيء يرى ويسمع كل شيء.

وتعني الإيمان بأن هديه وتعاليمه قد أنزلها إلينا بالوحي على رسوله محمد ﷺ فبلغها إلينا، وبين لنا مقاصدها بالقول والعمل فاستحقت بذلك طاعة رسوله لأنه لا ينطبق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. وبهذا يكون المستجيب لهذه الدعوة قد أدى الشهادة على وجهها، والله شهيد على السرائر.

ثم تعرض عليه بقية أركان الإسلام بالتدريج وهي إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلًا.

أخرج البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ:

[لَمّا بَعثَ مُعاذاً رَضِيَ اللّهم عَنْهُ عَلى اليَمَن قالَ: «**إنّكَ تَقدَمُ عَلَى قَوْم**

أهلِ كِتابٍ فَلْيَكُنْ أوَّلَ مَا تَدْعوهُمْ إِلَيْهِ عِبادةُ اللهِ فإذا عَرَفُوا اللهَ فأخبرْهُمْ أنَّ اللهَ قدْ فرَضَ عَلَيهمْ خَمْسَ صَلَواتٍ فِي يَوْمِهمْ وَليْلَتِهمْ فإذا فَعَلوا فأخْبَرْهُمْ أنّ اللهَ فرَضَ عَلَيْهمْ زَكاةً مِنْ أمْوالِهِمْ وتُرَدُّ عَلَى فُقَرائِهمْ فَإذا أطاعُوا بها فخُذْ مِنْهُمْ وَتوَقّ كَرائِمَ أمْوال النّاس»][1].

هكذا وليس جملة واحدة حتى لا يشق على الناس أداء الطاعات وأداء التكاليف.

٢ ـ الإيمان:

أما الإيمان فهو خطوة ثانية تأتي بعد ممارسة أركان الإسلام حتى يدخل الإيمان في القلب ويتمكن من النفس والروح:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤].

لا يلتكم: لا ينقصكم.

وسوف تؤتي ممارسة أركان الإسلام ثمارها في النفس الإنسانية فتؤمن وتطمئن بإذن ربها وينمو الإيمان ويقوى جنباً إلى جنب مع إسلامها فتؤمن بالإيمان كله وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. فالإسلام أولًا ثم الإيمان ثم الإحسان ومن الإيمان بالغيب الإيمان بالساعة وهي نذير انتهاء الدنيا وقيام القيامة ويجمع ذلك الحديث التالي:

[عن عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْم إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَديدُ سَوَادِ الشَّعرِ لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ

(١) البخاري: ١٣٦٥.

وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلى النَّبيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلى رُكْبَتَيْهِ ووَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلام؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ وَنُقِيمَ الصَّلاةَ وَنُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيهِ سَبِيلًا»** قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيْمَانِ؟ قَالَ: **«أَنْ نُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ورُسُلِهِ وَاليَوم الآخِرِ وَنُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ»**، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟ قَالَ: **«أَنْ تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»** قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: **«مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»**، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا؟ قَالَ: **«أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلونَ فِي البُنْيَانِ»** قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيّاً ثُمَّ قَالَ لِي: **«يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟»** قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **«فَإِنَّهُ جِبْرِيلَ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»**][1].

أماراتها: أي علامتها، ربتها: سيدتها، العالة: الفقراء، الشاء: جمع شاة.

فتمارس النفس أركان الإسلام وآداب وأخلاق الإيمان حتى يتملكها وتجد حلاوته، وكمثل على ذلك ما جاء في الحديث:

[عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**][2].

٣ ـ التقوى:

والتقوى حالة نفسية عالية تأتي بنمو الإيمان وتمكنه في النفس وتقترن

(١) رواه مسلم: ٩.

(٢) رواه البخاري: ١٥.

بالأعمال الصالحة، فيحس المؤمن بأنه يعمل دوماً بمرضاة ربه وطاعته، وبأنه بتفكره وإيمانه بحقيقة الكون وخالقه، وبصحة هذا الدين ورسالته، أن ربه دائماً معه، يراه ويرعاه ويظن بأنه قريباً سوف يلقاه. فيخافه ويخشاه، ويرجو رحمته ورضاه، فتحلو له العبادة، وتهون عليه التكاليف من صيام وصلاة، وحج وزكاة، ويدأب عليه ويعتاد حتى تكون سعادته فيها:

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٤٥،٤٦].

فمخافة الله تؤدي إلى عمل الصالحات واجتناب السيئات، ومخالفة أمر الله وعصيان أوامره توجب سخطه وعذابه. وبطاعته نتقي غضبه وعذابه ونبتغي رضوانه والتقرب إليه، وهذه هي التقوى. فالتقوى تأتي من صدق الإيمان وخشية الله، وتوجب الاستقامة في العمل، بتجنب المحرمات وفعل الخيرات. وعلامتها دوام العبادة لله، والازدياد من الطاعات بأداء الفرائض، والرغبة في التقرب إلى الله بكثرة النوافل، ودوام ذكر الله وخشيته في السر والعلن. ولهذه الدرجة من الإيمان قيم وأخلاق، هي صفات المؤمنين المتقين:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١-٥].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] [وهي أول التقوى، مخافة الله].

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢] [مما عرفوا ما في هذه الآيات من الحق].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢-٤]. [لعلمهم بقدرته وحسن تدبيره ولطفه بهم، فهم يثقون برحمته، ويفوضون أمرهم إليه، وهو خير من يتولاهم، وهو يتولى الصالحين].

وذكر آخر في وصف عباد الله المتقين الصادقين:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

ويجتنبون ويحرمون ما حرم الله من الخبائث والفواحش، وتمقته نفوسهم كما مقتها الله:

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

درجة التقوى هذه في الإيمان بالله واليوم الآخر الذي هو أساس الإخلاص والعمل المستقيم، وفي أداء الفرائض والأعمال الصالحة واجتناب المحرمات والفواحش التي نهى الله عنها، هي الدرجة العامة التي يجب أن تكون عليها صفة كل المؤمنين، وهي درجة أصحاب اليمين، أو الأبرار، أو المتقين الصادقين.

وهؤلاء هم الناجون من عذاب الله يوم القيامة، الفائزون بجنات النعيم:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ [الطُّور: ١٧، ١٨].

والمتقون درجات:

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٦٣].

وأعلى درجات المتقين هم المقربون.

٤ ـ المقربون:

وهؤلاء هم الذين بلغ بهم الإيمان والتقوى مبلغاً عالياً من خشية الله ومحبته دفعهم إلى التضحية بكل شيء في سبيل مرضاة الله وطاعته وابتغاء وجهه والتقرب إليه سبحانه. فزادوا في الأعمال الصالحة والطاعات المفروضة، طاعات إضافية من أعمال التطوع والسنن والنوافل ومن أعمال البر والإحسان، وصفاء السريرة وحسن الخلق والصبر على الشدائد، والبذل والتضحية، والإيثار على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، والمسارعة في الخيرات عامة.

كما ازدادوا بعداً عن حدود الله، وعن المعاصي والمحرمات بالابتعاد عن الشبهات، مجرد الشبهات، أو المكروهات التي يأباها الذوق السليم

ويترفَّع عنها الخلق الحسن، ذلك لكي يكونوا في مأمن بعيد عن المحرمات. فهم يحيون دائماً في خشية الله وكأنهم على مرأى ومسمع دائم قريبٍ منه سبحانه، وهذا هو معنى الإحسان في العبادة الذي أوجزه الرسول ﷺ عندما سئل عن الإحسان في حديث عمر بن الخطاب ﷺ آنف الذكر، فقال: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**.

وهؤلاء هم المتسابقون في الخيرات، المتسارعون فيها، وهم المتنافسون السابقون إليها. والمثل الأعلى لهؤلاء في هذه الأمة، المهاجرون والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان ثم الذين جاؤوا من بعدهم من المؤمنين المتقين:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: ٧٤].

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

ثم من يصطفي الله من عباده المؤمنين المتقين والشهداء، تعبر عنهم الآيات التالية:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ

مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٥-١٩].

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١٠-١٤].

وهؤلاء هم في أعلى الفردوس، في عليين تحت عرش الرحمن مع الملائكة المقربين الذين يشهدون كتاب الأبرار:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطففين: ١٨-٢١].

وقد كانوا في الدنيا في أهلهم مشفقين، ومن خشية ربهم وجلون، يدعونه ويتضرعون إليه ويستغفرونه وهم له خاشعون:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٦-٢٨].

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢].

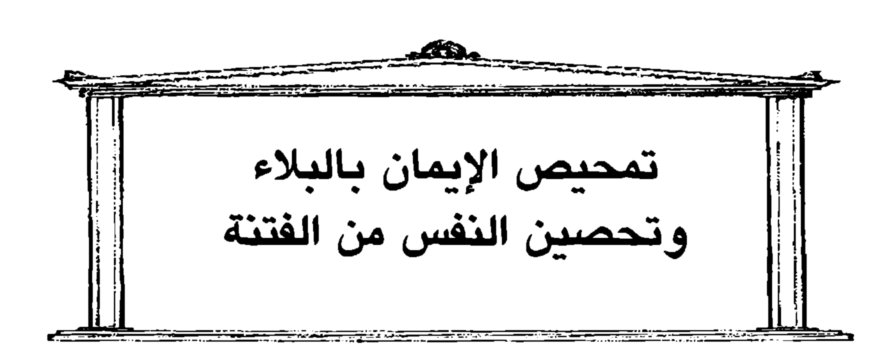
﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ (٨٩)﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩].

وبهذا فاز هؤلاء المتقون المسارعون في الخيرات، السابقون لها بالجنات والنعيم، ونالوا درجة المقربين من الملك الرحيم.



الفصل الثالث



تمحيص الإيمان بالبلاء وتحصين النفس من الفتنة

وهنا نستعرض نماذج أخرى من التربية الروحية القوية لتثبيت الإيمان وتمحيصه في النفوس بتعريضها للمحن والبلاء. فيذهب ضعف النفوس وأمراضها وخبثها كما يذهب بالنار خبث الحديد، ويظهر المعدن النقي الأصيل. فليس الإيمان مظهراً للتباهي، وإنما هو عقيدة تترسخ جذورها وتنمو وتقوى فروعها فتورق وتؤتي ثمارها كالشجرة العظيمة أو كالبنيان الشامخ. ولا تظهر قوته إلا بعد تعرضه للهزات:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

ويبتلي الله المؤمنون بأنواع البلاء ليمرنهم على الصبر ويهديهم ويطهرهم:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ

ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٥-١٥٧].

فبتعريض المؤمنين للفتن والمحن والساعات العسرة، يتقوى ويتمحص عندهم الإيمان حتى يثبت ويصمد أمام هذه المحن، وتتربى النفوس على الصبر بهذه الرياضة الشديدة فتتقوى وتطمئن بالإيمان فلا تميل ولا تهزها الرياح.

إن خير أمة أخرجت للناس هم أصحاب محمد ﷺ، وقد نالوا على درجة من التربية الروحية وهم يجاهدون معه حاملين إيمانهم في قلوبهم يدافعون عنه بأرواحهم وهم يتقلبون به من فتنة إلى محنة، ومن محنة إلى ابتلاء، صابرين محتسبين، مجاهدين مجالدين حتى يأتيهم نصر الله. فيخرجون من الشدة والمحنة وهم أقوى عزيمة، وأشد شكيمة. وهم فرسان في النهار، أشداء على الكفار يقاتلون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. فيخرجون من الشدة والمحنة وهم أصفى أرواحاً وأرق قلوباً، رهبان في الليل يبكون من خشية الله ويستغفرون لذنوبهم ويطيعون الله ورسوله، فرحين بما آتاهم الله من فضله من العزة والنصر أو الشهادة والفوز بالجنة وبرضوان الله في الآخرة. فلننظر إلى تربيتهم وتدريبهم وما تعرضوا له من البلاء والامتحان.

١ ـ الاضطهاد:

تعرض أصحاب رسول الله في أول اعتناقهم للإسلام إلى أنواع الفتن والبلاء، فمنها هجر أهلهم لهم ومقاطعتهم، أو حبسهم وضربهم بالسياط أو كيهم بالنار أو غير ذلك من أنواع العذاب. وكان للعبيد والمستضعفين النصيب الأشد من هذا العذاب. وبعد الجهر بالدعوة، ازداد الاضطهاد لدرجة لا تحتمل، فأذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة.

٢ ـ الهجرة:

وفي الهجرة تعرض شديد وتدريب قاس للنفوس تتمثل في ترك الأهل والأحبة وترك الديار والأموال والأعمال، والفرار إلى الله ورسوله. كانت الهجرة الأولى من مكة إلى الحبشة لطائفة من المسلمين المضطهدين، بإشارة من النبي ﷺ لأنه كان فيها ملك مؤمن طيب آواهم ونصرهم بما علم من صدقهم وصدق دينهم. وكانت الهجرة الثانية وهي الكبرى لكافة المسلمين من مكة إلى المدينة المنورة، ليلحقوا بنبيهم الذي كان قد سبقهم إليها. لقد كانت شديدة على المسلمين لما كان فيها من تربص المشركين بهم ومطاردتهم لهم، وما فيها من أخطار الطريق وقلة الزاد والمتاع. لقد كانت الدليل القوي على ترجيح كفة الإيمان وحب الله ورسوله وتفضيلهما على كل هذه القيم الدنيوية المادية الأخرى. ولقد صارت الهجرة الحد الفاصل بين الإيمان والنفاق:

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٨٩].

ثم أصبحت حداً فاصلاً أيضاً بين المؤمنين المهاجرين، وبين المؤمنين الذين لم يهاجروا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: ٧٢].

ولقد أثنى الله على هؤلاء المؤمنين المهاجرين بما وصفهم به من المكانة المقبولة وصدق الإيمان وأنهم أهل الدرجة الأولى في الاستحقاق والعطاء:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

وحسبك من فضيلة الهجرة وعظم مكانة المهاجرين وسبقهم في الإسلام، حديث صهيب ﷺ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«المهاجرون هم السابقون، الشافعون، المدلون على ربهم ﷻ، والذي نفسي بيده إنهم ليأتون يوم القيامة وعلى عواتقهم السلاح، فيقرعون باب الجنة، فيقول لهم الخزنة من أنتم؟ فيقولون نحن المهاجرون، فتقول لهم الخزنة هل حوسبتم؟ فيجثون على ركبهم، وينثرون ما في جعابهم، ويرفعون أيديهم فيقولون: أي رب أبهذه نحاسب، لقد خرجنا وتركنا المال والأهل والولد. فيجعل الله تعالى لهم أجنحة من ذهب مخوصة بالزبرجد والياقوت، فيطيرون حتى يدخلوا الجنة. فذلك قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥]. ثم قال: **فلهم بمنازلهم في الجنة أعرف منهم بمنازلهم في الدنيا»**[١].

٣ ـ الإيواء والنصرة:

تعرض الأنصار الذين نصروا المهاجرين المضطهدين وآووهم أيضاً إلى أنواع من البلاء والمحن. فقد أغضبوا الناس عليهم، وعاداهم حلفاؤهم من قبائل العرب واليهود والمشركين، وقاطعوهم وتربصوا بهم الدوائر. وكان عليهم أن يقاوموا شح أنفسهم وما تبديه من أنانية وحب للذات. وقد تجاوزا كل ذلك في سبيل الله ونصرة هذا الدين. فتآخوا على ما آخاهم عليه رسول الله ﷺ وأسكنوهم ديارهم وشاركوهم أموالهم وطعامهم وشرابهم حتى لقد كان منهم من تنازل عن بعض أزواجه لأخيه المهاجر فطلقها وزوجه إياه!

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية: ص ١٥٦، المجلد الأول، ط/٢، دار الكتاب العربي - بيروت.

نفوس كريمة، إخاء ومحبة وإيثار، وحدث عظيم ليس له مثيل:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

ثم أكرم الله عامة المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان بذكرهم في السابقين الأولين وبرضاه عنهم ووعدهم بالجنات والفوز العظيم:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

٤ ـ القتال والجهاد:

بعد أن تحمل المؤمنون الاضطهاد والتعذيب من المشركين وتحملوا الهجرة وما فيها من الشدة والبلاء، والخروج عن الأهل والمال والولد، وتعرضوا آخر الأمر إلى المحاصرة والإبادة، أذن الله لهم بالقتال لدرء هذا الظلم:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

فكان لابد من القتال لحماية صرح الإيمان، ودفع الخطر عن دين الله وعن رسوله ﷺ وعن المؤمنين أنفسهم الذين هم نواة الإسلام الأولى. والقتال نفسه هو شدة وتمحيص للإيمان حتى يتبين صدقه:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

لا بد بعد أن يقع العدوان، أن تتجمع الهمة وتتوطد النفس وتصمد للمقاومة ولإثبات الشخصية والكيان، ولا تتراخى فتظهر الضعف والوهن أمام العدو فيطمع في التسلط والإيذاء. لا بد هنا أن يظهر الحق وينتصر، ويتمسك به أهله، ويذودون عنه بكل قواهم، ويضحون من أجله بالغالي والنفيس حتى يرتد الباطل ويزهق. وبغير هذه المواقف تضيع الأمة وتضيع قيمها وتهان كرامتها وتنتهك حرماتها وتداس مقدساتها، وذلك هو الخسران المبين.

وسنمر مر الكرام على أربعة من المعارك، أو الغزوات الحاسمة في تاريخ الإسلام لنستعرض فيها الدروس والعبر ونستلهم التربية الروحية ونستذكر المواقف الحازمة للمؤمنين في ساعات المحنة والبلاء، منها اثنتان نصر الله فيها المؤمنين بنص من عنده وبجند من الملائكة تقاتل معهم. واثنتان لم يحصل فيها التحام في القتال، وإنما نجى الله المؤمنين بآيات من عنده، رد به العدو على أعقابهم، بالريح التي سلطها عليهم خاصة وبالرعب الذي قذفه في قلوبهم.

ولقد أظهرت امتحاناً عسيراً للنفوس حين وضعتها في قلب المحن والشدائد، فتكشفت حقائقها، وعلم المؤمنون إخوانهم الصادقين الصابرين من غيرهم من الضعفاء والمتخاذلين ومروجي الإشاعات والفتن، ومن المنافقين المتخلفين عن القتال.

أ ـ المحنة في غزوة بدر الكبرى:

والمحنة في هذه المعركة أن المسلمين لم يكونوا متجهزين لحرب، إنما خرج طائفة منهم ليأخذوا عير قريش لقاء ما اضطروهم به من الهجرة ترك أموالهم بمكة، فتحولت بالنتيجة إلى حرب. وذلك أن انحازت العير وأفلتت إلى مكة، فتجهزت قريش بزعمائها وعددها للقتال وخرجت تطلب النبي وأصحابه في بدر.

والمسلمون قلة في العدد والسلاح، لا يزيدون على ثلث جيش المشركين المجهزين بالعدة والسلاح. وهنا يظهر الحصار وشبح الموت والساعات

الحرجة، فيتشجع المؤمنون، ويصبرون ويحتبسون، ويزداد إيمانهم وأملهم بنصر الله وبوعد ربهم ورسوله، ويلجؤون إلى الله يدعونه ويستغيثون به ليمدهم بنصره. فاستجاب لهم سبحانه وأمدهم بنصره وبالملائكة تقاتل معهم:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال: ٩-١٣].

ولقد كانت معركة حاسمة من أخطر المعارك، فإما أن يظهر الحق وينتصر، وإما أن يختفي ويندحر بقتل هذه الفئة المؤمنة التي هي نواة الإسلام في الأرض. لكن الله سبحانه قد أراد النصر لدينه وحفظه بعنايته. لقد نجاهم الله ونصرهم في هذه المحنة ليزدادوا ثقة وإيماناً بأن الله معهم وأنهم يحملون رسالة الحق.

لقد نال أهل بدر الذين ثبتوا في هذه الساعات الحرجة المباركة من تاريخ الإسلام، المنزلة العظيمة، حتى بشرهم الرسول ﷺ بمغفرة الله لهم، ففي الحديث عن حاطب:

[فقالَ إنّهُ قدْ شَهدَ بَدْراً وما يُدْريكَ لعلَّ اللهَ اطّلعَ على أهلِ بدرٍ فقالَ اعْمَلوا ما شِئْتُمْ فقدْ غَفَرْتُ لَكُمْ][(١)].

---

(١) رواه البخاري: ٣٦٨٤، ومسلم: ٤٥٥٠.

ب ـ المحنة في غزوة أحد:

بعد أن مارس المؤمنون المعركة في بدر وقويت نفوسهم في قتال الكفار، وأحسوا بالثقة بالنصر، عاد المشركون بقوة كبيرة ليهاجموا المؤمنين بعقر دارهم (المدينة) وليأخذوا بثارات زعمائهم قتلى بدر، وليشفوا غليلهم من المؤمنين وليغسلوا العار والخزي من خسارتهم ببدر. فأعدوا عدة من ثلاثة آلاف مقاتل للقضاء على محمد وأصحابه وطمس هذا الدين إلى الأبد! فخرج إليهم رسول الله ﷺ بألف مقاتل عسكروا في أحد، وجعلوا الجبل في ظهرهم وجعل ﷺ خمسين من الرماة لحماية ظهر الجيش، وأمرهم أن لا ينزلوا إلا بأمره.

فانسلخ من جيش المسلمين المنافق عبدالله ابن أبي ابن مسلول مع ثلاثمائة من أصحابه وأتباعه من المنافقين وبقي المسلمون بسبعمائة مقاتل. وبعد بدء المعركة انتصر المسلمون وأخذوا يطاردون العدو ويقتلون ويغنمون، حتى ولوا هاربين يدعون بالويل والثبور. وظن أكثر الرماة الذين على الجبل بأن المعركة قد انتهت بالنصر وقرروا النزول من الجبل إلا عشرة منهم ثبتوا على الجبل مع أميرهم عبدالله ابن جبير ﷺ ونزل الآخرون فكانت هذه هي المخالفة. وأراد الله سبحانه أن يمحص المؤمنين في هذه المعركة بدروس أبلغ، ويذيقهم نوعاً من الهزيمة والخسران في الحرب جزاء ما خالف الرماة من أمر رسول الله ﷺ في ترك أمكنتهم من الجبل. ورغبتهم في اقتسام الغنائم بعد أن ولى المشركون واندحروا في الساعات الأولى من المعركة. لكن جيش المشركين عاد بعد هزيمته والتف حول الجبل وأخذ يهاجم المسلمين من الخلف حتى انكشفوا وتعرضوا إلى القتل والجراح. وكان أصحاب النبي ﷺ يتلقون النبال بصدورهم وظهورهم، يحمون رسول الله ﷺ حتى جرح وكسرت رباعيته (السن المجاور للناب) وشج في وجهه وتخضب بالدم فلم يزد على أن يقول اللهم اغفر لقومي

فإنهم لا يعلمون، كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم. ولما قتل مصعب بن عمير الذي كان كثير الشبه بالنبي، أشيع الخبر بمقتله ﷺ، فأصاب كثير من المؤمنين الوهن والحزن والأسى المرير، وبرد المشركون في قتالهم حتى خمدت المعركة. ثم قفلوا راجعين يزهون بالنصر الذي أحرزوه وبأخذهم لثاراتهم. وكان ممن قتل في هذه المعركة حمزة عم النبي ﷺ وأنس بن النضر وكثير من الصحابة منهم زيد بن السكن وخمسة من أصحابه الذين كانوا يصدون النبال رضوان الله عليهم أجمعين. وقد انبرى المرجفون من اليهود والمنافقين يظهرون الشماتة بالمسلمين زيادة في إيذائهم. وما أن بات المسلمون يوماً وليلتين في المدينة يداوون جراحاتهم، حتى ندبهم رسول الله ﷺ للخروج. وفي هذا امتحان شديد آخر تظهر فيه قوة العزيمة والإيمان، فخرجوا وهم بجراحاتهم يتبعون المشركين، وعلى بعد عشرة أميال من المدينة عسكروا (بحمراء الأسد) وأوقدوا فيها نيراناً عظيمة، فلما وصل الخبر إلى المشركين الذين كانوا يأتمرون للرجوع إلى المدينة والقضاء على المسلمين، دخل في قلوبهم الرعب وأسرعوا عائدين إلى مكة.

إن ما ذاقه المسلمون في هذه المعركة من المحن وترويض النفس ودروس البلاء ليس له مثيل في معاركهم الأخرى. ولا يمكن استقصاؤه بهذه الذكرى العابرة، لكن الآيات التالية التي نزلت في حينها تعبر عن تلك الدروس خير تعبير:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ

وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٤٨].

وهكذا تستمر الآيات معهم تذكرهم بأحداث المعركة وتلقي عليهم الدروس المستخلصة منها وتثبتهم وتصبرهم وتشجعهم حتى هذه الآية:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ثم يعلمهم بأن هذا التمحيص لا بد منه، وليتبين المؤمن من المنافق:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ج ـ المحنة في غزوة الخندق أو (غزوة الأحزاب):

خرج نفر من اليهود من بني النضير إلى مكة وأقنعوا قريشاً بالتحالف معهم للقضاء على محمد، ثم ذهبوا فأقنعوا كذلك بقية القبائل من غطفان وبني فزارة وبني مرة بالتحالف نفسه وعلى أن ينصرهم اليهود من داخل المدينة لما يهاجمها المشركون وتعاهدوا وتواعدوا على ذلك. واجتمعت

الأحزاب على تطويق المدينة من كل جانب، فأشار سلمان الفارسي ﷺ على رسول الله ﷺ بحفر الخندق. فيشرع المؤمنون المخلصون بالعمل ويتظاهر المنافقون فيه ويتسللون دون استئذان، فتنزل الآيات من السماء لتفضحهم وتكشف مواقفهم وتثبت المؤمنين وتربط على قلوبهم. ولما اقتربوا من المدينة فوجئوا بالخندق، فعسكروا حولها. وهنا ينشط المثبطون والمتخاذلون المنهزمون كما هو حالهم في كل معركة يكونون فيها. . وينشط اليهود وبين محمد حتى يمكنهم محاربته من الداخل. وهنا تضيق الأرض بالمسلمين وتزيغ الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر ويتزلزل الإيمان زلزالًا شديداً باقتراب النهاية وبمواجهة الموت والهلاك. ويزداد المؤمنون صبراً وإيماناً وثباتاً على الحق وبوعد الله الذي لا يخلف الميعاد، وأن الجنة والشهادة لا تؤتى إلا بمثل هذا الصبر وهذا الجهاد! وقد يبلغ المؤمن في هذه الساعات الفريدة المباركة من المنزلة ما لا يبلغه في غيرها مهما أدى من العبادات! فالمطلوب في هذه الساعات الدفاع والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، والثبات بحزم أمام طغيان الكفر وأئمته.

لقد بقي المسلمون في هذا الامتحان محاصرون بضعة عشر يوماً ولم يكن قتال ولكن نجى الله المؤمنين وهزم الأحزاب بعاملين اثنين.

هدى الله أحد المشركين إلى الإسلام دون علم المشركين به، فأرسله رسول الله ﷺ ففرق بين المشركين وحلفائهم من اليهود بفطنة جعل كل فريق يتهم الآخر بالغدر والخيانة، وبذلك أفسد عليهم تحالفهم المشبوه. ثم أرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً لم يروها (وهذا هو العامل الرئيس) ريحاً على قدر مساحتهم، فشتت شمل الأحزاب ومزقت خيامهم وقلبت قدورهم وأطفأت نيرانهم، فهاموا لا يلوون على شيء حتى أرغمتهم على الرحيل والرجوع إلى مكة خائبين.

والآيات التي نزلت فيها تحدثنا ببلاغتها وحلاوتها عن شدة الموقف وأحوال النفوس في تلك الساعات الحرجة، وكيف تثبت قلوب المؤمنين وتعلمهم الصبر وتريهم سوء حال الكافرين والمنافقين ومصيرهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٩﴾ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٩-٢٥].

لقد كان هذا درساً بليغاً وامتحاناً شديداً ثم نصراً عزيزاً ثبت الله به نفوس المؤمنين. فئة قليلة، ضعيفة التجهيز والعدة تصمد أمام قوة تزيد على ثلاثة أمثالها بالعدد والعدة وتحيط بها من كل جانب، وأخرى تكيد لها من الداخل لتضعف عزمها، لكنها تصمد وتثبت كالبنيان المرصوص.

د ـ المحنة في غزوة تبوك:

حين بلغ المسلمين أن الروم قد جمعت جموعاً ضمت إليها قبائل من المشركين كان قوامهم أربعين ألفاً، استنفر رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج وجلى لهم الأمر ليتأهبوا أهبته.

ومن محنتها أن الوقت كان صيفاً في شدة الحر والقيظ. وكان الناس في عسرة من العيش وفي شدة القحط والمحل وهم ينتظرون ثمار المدينة وقد أينعت وحان قطافها. فكانت الرحلة شديدة على النفس وتثاقل منها الناس:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٣٨-٤٠].

ومرة أخرى ينبري المنافقون يثبطون العزائم وينفثون السموم ويشلون

الهمم كما هي عادتهم. يقولون لا تنفروا في الحر، وجاء رجل (هو الجد بن قيس) إلى النبي ﷺ يقول أذن لي ولا تفتني إني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر (الروم) ألا أصبر، فأعرض عنه النبي ﷺ وهو الذي نزلت فيه:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩].

وعسكر عبدالله بن أبي بن سلول في ضاحية المدينة يجمع إليه الناس من أتباعه وحلفائه، حتى إذا سار النبي، تخلف هو ومن معه. وهو بهذا يعيد مكيدته التي فعلها بجيش المسلمين في غزوة أحد، وهم الذين نزلت فيهم الآيات:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

وهؤلاء دائماً هم المترفين الذين يكرهون القتال ومن أصحاب الثراء المتنعمين والذين لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون. ويقول الله سبحانه لرسوله فيهم:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

ونجد في سورة التوبة وصفاً دقيقاً وشاملًا لهؤلاء المنافقين والمثبطين ونواياهم وسعيهم في بث البلبلة والتخاذل، وكيفية التعامل معهم بما يجعل المؤمنين على بينة من أمرهم وفي حيطة من كيدهم.

وفي الجانب الآخر نجد المؤمنين من الصحابة الكرام يبذلون كل ما في وسعهم، ويعدوا للمعركة كل ما استطاعوا من قوة ومال، باذلين أنفسهم وأموالهم في سبيل الله وتجهيز جيش المسلمين.

جاء عمر بن الخطاب بنصف ماله فقال له الرسول ﷺ ما أبقيت

لأهلك فقال مثله. وجاء أبو بكر بكل ماله فقال يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك فقال أبقيت لهم الله ورسوله، فقال عمر لا أسابقه إلى شيء بعدها أبداً. وجهز عثمان ﷺ جيش العسرة بثلاثمائة بعير بأقتابها وأحلاسها ومعها ألف دينار نثرها في حجر رسول الله ﷺ حتى قال عنه: ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم. وجاء الناس بما عندهم من قليل وكثير، ورغم كل ذلك فالتجهيز شحيح على الأفراد. وجاء نفر من الشباب إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يحملهم في المعركة، فقال لهم لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا يبكون (فسموا فيما بعد بالبكائين) وفيهم نزلت الآية:

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة: ٩٢، ٩٣].

لقد بذل المؤمنون في هذه الغزوة جهوداً مضنية، وسفراً شاقاً، وصبراً عظيماً، وآثروا الشدة في سبيل الله على الراحة والنعيم، وبذلوا الأموال والعدة في وقت العسرة والشحة وقلة الزاد، وتوكلوا على الله وعزموا على طاعته وتنفيذ أمره مفوضين أمرهم إليه. فكان الاثنان والثلاثة منهم يتعاقبون على البعير الواحد، وبلغ بهم العطش والمجاعة حتى اضطروا إلى نحر الإبل ليأكلوا ويشربوا ماءها.

وكان المسلمون يومئذ ثلاثون ألفاً، فلما وصلوا تبوك لم يجدوا فيها أحداً ولا كيداً ولا قتالاً فقد قذف الله في قلوب أعدائهم الرعب، فتفرقوا واختفى كل من تجمع من العدو لقتالهم. وصالح يوحنا حاكم أيلة رسول الله ﷺ على الجزية ثم قفلوا راجعين. ولقد كان في هذه الغزوة تمحيص وتربية، وعظات بالغة للمؤمنين، ودروس من أشد دروس المران وتدريب النفوس، تشهد وتزخر بها السورة العظيمة (التوبة). لقد كان المتخلفون عن هذه الغزوة بضعة وثمانين رجلاً جاؤوا إلى رسول الله ﷺ إثر

رجوعه من تبوك يعتذرون عن تخلفهم ويحلفون له، فقبل منهم ظاهرهم واستغفر لهم. وأرجأ أمر ثلاثة هم نفر الصدق الذين لم يختلفوا لأنفسهم الأعذار، وقاطعهم المسلمون بأمر النبي شهراً حتى نزلت آيات بقبول توبتهم وندامتهم على ما فعلوا، وقد كانوا صادقين:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٨].

ونجد أيضاً في هذه السورة الكريمة، تثبيتاً للمؤمنين الصادقين. وتحصينهم ضد عدوى الأمراض النفسية التي تؤدي إلى الوهن، وتفت في عضد المقاتلين وتفل عزمهم وتشتت أمرهم حتى يصبحوا فريسة للعدو، كما توضحها الفقرتان التاليتان:

٥ ـ تحصين النفوس ضد المثبطين المتخاذلين أو المرجفين:

وهو ما يسمى اليوم بالطابور الخامس. هؤلاء إذا حلوا في أمة وهي في حرب، أفسدوا همم المقاتلين، وأضعفوا عزائهم عن القتال أو الاستعداد، وأقعدوهم عن البذل والدعم للمعركة - وهو ما يسمى بالمجهود الحربي - وبثوا الفتن والتنازع والاختلاف بين طوائف المقاتلين بالإشاعات المغرضة، حتى تهبط المعنويات وتخور القوى، ويتردد المقاتلون ويفقدون حماسهم ويبدون انصرافهم عن القتال. وتجد هذه الصفات متأصلة في اليهود والمنافقين وأتباعهم، والآيات التالية تبين لنا بعض أوصافهم:

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ

وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٤٥-٥٠].

وتستمر السورة في التعريف بهم وكشف نواياهم:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: ٥٦-٥٨].

وتنبئهم بما في قلوبهم وتحذرهم من العبث:

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٤-٦٦].

وتأتي أيضاً الآيات من سورة الأنفال لتبصر المؤمنين وتثبتهم ضد هذه الفئة المتحالفة مع الشيطان:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم

﴿مَرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٩].

وإذا استفحلت هذه الفئة فلا سبيل لتطهير الأمة منها، إلا عزلها وإخراجها واجتثاثها واستئصالها، كما يُخرَج المرض الخبيث من جسم المريض:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

كما أجلى رسول الله ﷺ يهود بني النضير من المدينة بعد إرجافهم وخيانتهم ونقضهم للعهود في محنة الخندق يوم الأحزاب، أجلاهم إلى الشام بأمر من الله:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [الحشر: ٢-٤].

٦ ـ تحصين النفوس ضد التفرقة:

هؤلاء الذين يبتدعون اتجاهات متفرقة وأساليب ملتوية مناهضة. فيصدون عن سبيل الله، ويتخذون سبلًا أخرى تضل عن سبيل الله وسبيل المؤمنين. وما تؤدي هذه الاتجاهات إلا إلى التفرق والتشتت في الأمر. وما يؤدي تعدد الأهداف هذا إلا إلى الانقسام والضعف حتى تتجزأ القوى وتصغر، وعند ذلك يسهل قهرها وتدميرها.

فتحذر الآيات من هؤلاء وتذم طريق الغي والضلال، وتؤكد التمسك بطريق الهدى وبصراط الله المستقيم. الطريق الوحيد الذي جمعهم على الهدى، حتى لا ينخدعوا وينخرطوا في طرق الضلال فيتفرقوا وتذهب ريحهم وينتهي أمرهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠٥].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾ [النساء: ١١٥].

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

ويؤكد سبحانه على اتباع سبيله المستقيم دون غيره من السبل:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ويثني سبحانه على الذين عرفوا الحق فتمسكوا به، وعرفوا ما جاء به النبي فاتبعوه ونصروه، ويعدهم بالفلاح والرحمة وبالفضل والهدى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

٧ ـ طمأنة النفوس بوعد الله:

هذه النفوس المؤمنة التي تريضت وتعبت وتحملت كل هذا البلاء والعناء بصدق وإخلاص، ما تحملته إلا بإيمانها بوعد ربها الذي لا يخلف الميعاد. وغايته رضوان الله عليها ثم الفوز بجناته ونعيمه المقيم في الآخرة. فضلاً عن العزة والنصر في الدنيا. فلا بد لهذه النفوس التي استقامت وأطاعت وأبلت بلاء حسناً أن تركن وتخلد وتسعد بوعد ربها العظيم. لا بد أن يفرح المؤمنون بهذا الإيمان الذي اعتزوا به في الدنيا، واقتحموا به كل العقبات، فذلت لهم الصعاب وانحلت عندهم عقدة الخوف، ودانت لهم الدنيا، لا بد أن يفرحوا ويستبشروا به في الآخرة ويتطلعوا إلى ما أعد الله لهم من فوز وكرامة يوم لقائه العظيم. لقد كان الإيمان بهذا الوعد وهذ الأمل هو عنصر القوة وعصب الحياة في ثبات المؤمنين وصبرهم

واستقامتهم.. (رضوان الله والجنة!) هو الهدف العظيم وعنصر الصمود في كل ميادين قتالهم وجهادهم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢٠، ٢١].

وليس ذلك في وقت الحرب فقط، وإنما تطمئن به في السلم أيضاً، فآخر مراحل النفس المطمئنة هي الاستقامة على توحيد الله والعمل الصالح وعبادة الله حتى يوم اللقاء، يوم البشرى والفرح العظيم:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٨، ٩٩].

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤٤].

ويطمئنهم الله بأنه قد حفظهم بأولياء من الملائكة في الدنيا، ويحفظهم بهم أيضاً في الآخرة وينزلهم عليهم عند الموت، يطمئنونهم بأن لا يخافوا ولا يحزنوا ويبشرونهم بالجنة التي وعدهم بها سبحانه:

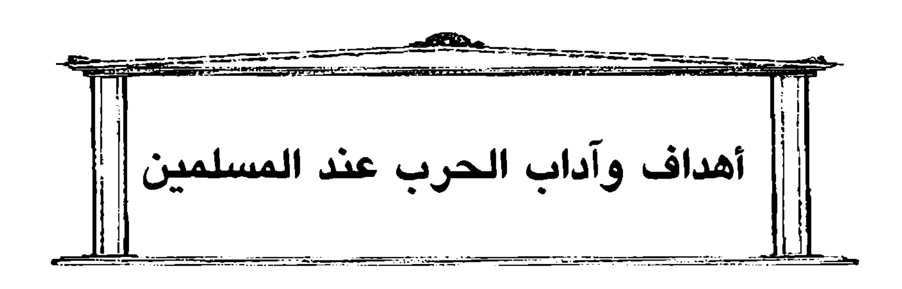
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

❀ ❀ ❀

الفصل الرابع



لو تصفحنا تاريخ الحرب عند المسلمين، لوجدنا آداباً وأخلاقاً لا مثيل لها عند غيرهم من الأمم. ولا يسعنا الإحاطة بها في هذا الكتاب، لكنا آثرنا أن نذكر فقط بعضاً من هذه القيم الإنسانية والمثل العليا، لكي يرى القارئ الكريم بنفسه سماحة وعدل الإسلام وسمو مبادئه، ويرى الفارق العظيم بين جند الحق وجند الباطل، وبين الإيمان والكفر، وبين الخير والشر، وتأثير ذلك على الأمم والشعوب.

أولاً - الهدف من القتال:

الهدف من القتال عند المسلمين هو إما للدفاع عن دار الإسلام من أي عدوان، وهذا حق مشروع ومتعارف عليه بين أمم الأرض، وإما لإقرار عبادة الله في الأرض والتخلص من عبادة الطاغوت وظلم الحكام، وإخراج الناس من الواقع الفاسد الذي هم فيه، إخراجهم من الظلمات إلى النور. فهدفهم في هذا إقامة الحق والعدل ونشر الخير والإحسان بين الناس، والإصلاح في الأرض ورفع مكانة الإنسان وهو سبيل الله الذي يأمر به. ويقاتل الكفار في سبيل تثبيت الواقع الفاسد المبني على البغي والفساد في

الأرض واستعباد الناس وظلمهم وغمط حقوقهم، وهو سبيل الحكم الظالم وطغمته المتمثل بالطاغوت الذي يأمر بما يأمر به الشيطان:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النساء: ٧٦].

ولم يكن القتال إلا للكفار والمشركين الذين يحاربون الإسلام، وأما أهل الأديان من أهل الكتاب فلا إكراه في الدين. ولم يكن الإسلام يوماً ليرغم الناس على تغيير دينهم بالقوة أبداً كما يفعل الآخرون، لكنه يدعوهم للمشاركة بهذا الخير وهذا النور الذي أكرمهم الله به، ولإنقاذهم من الفساد المؤلم الذي يرزحون تحته ومن جور الأنظمة الظالمة. وهم في ذلك مخيرون إن أرادوا البقاء على دينهم دفعوا الجزية للمسلمين - وهي مبلغ زهيد جداً مقابل ما يدفع المسلم من الزكاة. ويؤخذ سنوياً من الرجل القادر على العمل فقط - وإن أبوا فالقتال لإقامة الحق العادل ودحر الباطل الظالم، هذا هو الهدف:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦].

وليس هدف الإسلام التظاهر والغطرسة واستعراض القوة لإرهاب الناس وظلمهم وسلب أموالهم ونهب خيراتهم:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧﴾ [الأنفال: ٤٧].

ولا ينتصرون إلا على من ظلمهم أو بغى عليهم:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾ [الشورى: ٣٩].

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢].

وهم مأمورون بقتال من يقاتلهم وأن لا يعتدوا:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٠].

فهدف القتال عندهم الجهاد في سبيل الله لإقامة شرع الله في الأرض، وهي تعني تحرير الناس من عبادة الشر (الطاغوت) إلى عبادة الله. وقد ظهرت جلياً في إجابة ربعي بن عامر لرستم قائد كسرى حين قال له: ما الذي جاء بكم إلينا؟ فأجاب: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور السلطان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة. اهـ[(١)].

بهذه العبارات الموجزة المعبرة عن المعاني الكبيرة أخرس جندي من جند الإسلام قائداً من قادة الكفر.

ثانياً - أخلاقيات المقاتلين:

يتميز جند الإسلام بتمتعهم بالأخلاق العالية، وبالسيطرة النفسية للقادة والجنود في الاستقامة والعدل والرحمة ولو كانوا في أوج النصر والمقدرة. فلا يعذبون أحداً من البشر ولا ينتقمون لأنفسهم من أحد، ولا يقتلون شيخاً ولا طفلًا ولا امرأة، ولا يهلكون الحرث والنسل ولا يعيثون في الأرض فساداً. فهذه تعاليم وآداب الإسلام التي آمنوا بها وألزموا أنفسهم بها، والله معهم وهو رقيب عليهم في كل أحيانهم، وآيات القرآن في قلوبهم

---

(١) من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - لأبي الحسن الندوي.

ووصايا الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون للمقاتلين يزخر بها تأريخهم. ولا يمنعهم من مخالفتها إلا إيمانهم وخشية الله في قلوبهم.

في الوقت الذي تضيع القيم وتنفلت المعايير ويزهو الطغيان والغرور ويحلو الانتقام في جيوش الجاهلية والضلال ومدعي العلم والحضارة! فهم يقاتلون من أجل الأطماع والسيطرة وبسط النفوذ والمصالح المادية. وهم يقاتلون بنفوس مريضة لا يضرهم ظلم الناس وتدميرهم ونهب خيراتهم دون رادع من دين أو وازع من ضمير. فلا أهداف إنسانية لهم ولا رحمة بل إنما غرضهم في الحرب إنزال أكبر الضرر بالعدو ظلماً وعدواناً. وهذه عندهم قاعدة عسكرية تدرس في معاهدهم، وهذا ما يشهد به تاريخهم القديم والحديث!

ثالثاً - الوفاء بالعهود واحترام المواثيق:

هذه أخلاقهم وما اشتهروا به في معاملة العدو يشهد بها تاريخهم والذين دخلوا حروباً معهم، ونحن نجد التشديد عليها في كتاب الله حيث يأمرهم بالتزام بالمواثيق والوفاء بها. ونراه يستثني دائماً أهل الميثاق من الأحكام أو الإجراءات الخاصة بالعدو التزاماً واحتراماً للميثاق الذي بينهم، فيقول سبحانه:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء: ٩٠].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٤].

ولا يقاتلون العدو ولا ينقضون العهد حتى ينقضه العدو:

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ١٢].

ولا تجوز نصرة المؤمنين على الكافرين الذين لهم ميثاق مع المسلمين التزاماً واحتراماً للميثاق:

﴿... وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: ٧٢].

بل جعل أهل الميثاق في معاملتهم مع المسلمين، كمعاملة المسلمين لأنفسهم في حفظ حقوقهم. فمن قتل خطأ أحداً من المسلمين فعلى القاتل دفع الدية وتحرير رقبة. وكذلك جعل من قتل خطأ أحداً من أهل الميثاق:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

وهذا هو أعلى احترام وتقدير لأصحاب المواثيق في دين الصدق والوفاء. وهذا ما شهد به العدو نفسه، فلما حاول حيي بن أخطب إقناع كعب بن أسد زعيم بني قريضة لنقض الميثاق بينه وبين محمد يوم الأحزاب، أجابه أول ما أجابه: ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلا صدقاً ووفاءً(١).

رابعاً – معاملة أسرى الحرب:

تجري في الإسلام معاملة الأسرى بالحسنى، فلا إهانة ولا إيذاء حتى يكون فكاكها. ويكون الفكاك إما بالمن، يمنون على من يشاءون دون مقابل. وإما بالفداء، يفتدي الأسير نفسه بمال أو بعوض من أسرى المسلمين. وقد

(١) من كتاب فقه السيرة – للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٢٢٧، ط/ ٧ – دار الفكر.

جعل رسول الله فكاك من يقدر من الأسرى أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة، وهكذا جعله سبباً لنشر العلم. بل إن القرآن الكريم طمأن الأسرى بأن من لا ينوي منهم شراً بالمسلمين، فسيؤتيه الله خيراً مما أخذ منه من الفدية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال: ٧٠].

هذه رحمة وإنسانية الإسلام، وليس كما نرى من الأعمال الشنيعة التي تمارس معه الأسرى من الإهانة والتعذيب أو الاغتصاب، أو الجرائم البشعة الأخرى التي تقشعر لها الأبدان، وهي ترتكب بحقهم من قبل أكبر الدول حضارة وتمدناً وادعاءً بالإنسانية. فأين هذا الظلم من رحمة الإسلام؟

خامساً - العفو عند المقدرة:

جاء الإسلام مبشراً يلقي الأمن والمحبة والسلام في قبول الناس وجاء نذيراً لهم من الأخطار المحدقة بهم، وليرفع عنهم الأغلال التي كانت عليهم، ولم يأت منتقماً متسلطاً يزرع الرعب والخوف فيهم، ولم يأت مثيراً لكوامن الشر عندهم، بل ليخرج عوامل الخير في نفوسهم. فتراه حين ينتصر ويتمكن يعفو ويصفح، وهذه لعمري هي صفة الكرم والشجاعة، وصفة الحكمة وعلو الأخلاق.

بعد أن تم فتح مكة لرسول الله ﷺ وتمكن من قريش والذين أساؤوا إليه وإلى أصحابه وأرادوا بهم شراً، وهو اليوم في موقع القادر على الانتقام، لكنه قال لهم: أيها الناس ما تظنون أني فاعل فيكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء[١].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ص: ٨٧٠، ج٤، ط/١، مطبعة المدني - القاهرة.

بهذا العفو والصفح الجميل، والكرم الإنساني النبيل، قضى رسول الله ﷺ على ضغينة النفوس وأحقادها، ومسح النيات الخبيثة من الصدور، وحل مكانها الطيب والحب والتسامح، وهو هدف من أهداف تزكية النفوس وتطهير القلوب، وقاعدة جليلة في إصلاح أرواح البشر:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

أليس هذا أصلح من الانتقام الذي لا يثير إلا العنف والانتقام؟ أليس هذا خير من التدمير والإبادة الوحشية لإشفاء غليل الحقد وغل الجاهلية بما يندى له جبين الإنسانية في دول العلم والحضارة الغربية؟

سادساً: أخوة الإسلام:

إذا أسلم أهل الدولة المحاربة، فقد دخلوا في حضيرة الإسلام وجرت عليهم قوانينه وقيمه وأصبحوا بحكمه إخوة للمسلمين، يتمتعون بما يتمتع به المسلم من حقوق مهما كانت جنسيتهم، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. ولا يمكن أن يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية كما يستخدمهم المتحضرون واليهود. إنهم في الإسلام إخوة ومواطنون من الدرجة الأولى وسواسية أمام القضاء:

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: ١١].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحُجرات: ١٠].

هذه بعض صفات جند الحق ودعاة السلام الذين جاؤوا بالنور والهدى، وأرسوا دعائم العدل والمساواة في الأرض، وعاش الناس في كنفهم بالأمن والحرية الحقيقية ردحاً من الزمن، وتنعموا بالرخاء والرفاه.

وهذه هي نتائج إقرار عبادة الله في الأرض. نتائجها العناية بنفس الإنسان. وإخراجها من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهدى.. إلى هدى الله ونوره:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٥٧].

وكتاب الله مليء بالآيات التي تعنى بالروح وتطهرها وترفعها إلى أعلى مستوى، وهو المنهل العظيم لهذا العلم والنور المبين، وفيه الهدى والرحمة والشفاء:

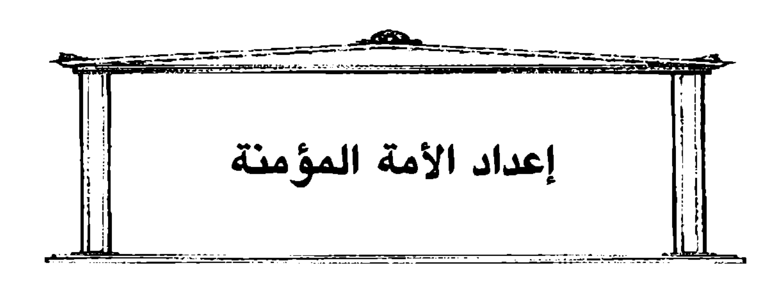
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يُونس: ٥٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النّساء: ١٧٤، ١٧٥].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المَائدة: ١٥، ١٦].

❁ ❁ ❁

الفصل الخامس



إعداد الأمة المؤمنة

إن المؤمن التقي هو أعلى مستوى للمواطن الصالح المستقيم، الذي لا يحتاج إلى رقيب عليه، فربه رقيبه الدائم، وإيمانه بربه هو ضامن إخلاصه في الغيب والشهادة، وفي المنشط والمكره، وفي كل أحواله. هذا المؤمن هو الهدف المقصود واللبنة الأساسية في بناء الأمة المؤمنة التي هي غاية التربية الروحية المنشودة.

إن سمات وروابط هذه الأمة هي الإيمان والإخاء والإخلاص والرحمة والإحسان وطاعة الوالدين والبذل ومساعدة الأقرباء والمحتاجين والمساكين، والتعامل بمستوى الكرم والإباء، والاستقامة في الصرف وعدم التبذير، واجتناب الجرائم المحرمة كالزنا وقتل النفس بغير الحق وأكل مال اليتيم، والغش في الكيل والميزان، وعدم الوفاء بالعهد. كذلك تطهير النفس من الاعتداء والتجاوز بما يتعلق بالسمع والبصر والقلب، واجتناب البطر والكبر وغمط الناس. إن كل هذه الأعمال وغيرها مما تندرج في اتجاهي الخير والشر تحتاج من النفوس إلى الممارسة في السيطرة والانضباط لأدائها بالوجه الصحيح والاستقامة المطلوبة، حتى ينشأ عندنا المواطن الصالح المستقيم. وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الإيمان بالله وإحسان عبادته وطاعته والإخلاص له في السر والعلن.

إن الاستقامة في العمل إذا مارسها الفرد من نفسه وبطواعيته ورغبته، حفظ على مجتمعه أو على الدولة جهوداً عظيمة وطاقات هائلة ومبالغ طائلة، وجنبها كل المشاكل التي تعاني منها الدول اليوم، والتي ستكون العامل الحاسم في نجاحها وظهورها إذا سارت عليه وتمسكت به، أو في فشلها وسقوطها إذا أعرضت وحادت عنه. لقد فشلت كل قوانين العالم في تقويم الإنسان وإصلاحه بالشكل الذاتي المطلوب. لكن كلمة الله وسلطانها على القلوب هي التي تلين الحديد، وتحيي الموتى، وتهدي العمى والصم والبكم، ومن كان في ضلال مبين!

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٠].

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٨٠، ٨١].

فالإيمان بالله ورسوله وحبهما وتفضيلهما على كل شيء وطاعتهما في كافة مقتضيات الإيمان هو الضابط النفسي العظيم لاستقامة النفس وانضباط الروح وصلاحها، دون الضوابط الأخرى من رقابة السلطة وغيرها التي لا تستعمل بعد ذلك إلا في حالات استثنائية قليلة.

إن السمات التي ذكرناها لهذه الأمة المنشودة، هي التي هدى الله الإنسان إليها والتي نجدها مجتمعة تارة ومتناثرة أخرى في ثنايا الكتاب العزيز.

نذكر منها ما اجتمع في سورة الإسراء من هدي المؤمنين إلى تزكية نفوسهم ووضعها في الصراط السوي وضمن حدود الله وحدود الأمن والسلام. وهي تؤكد ما سبق أن ذكرناه من صفات المؤمنين التي أصبحت هي سماتهم ومميزاتهم وأخلاقهم وصفة مجتمعهم الفاضل الطاهر. ونرى أنها

تبدأ بتوحيد الله ونبذ الإشراك به وتنتهي بتوحيده كذلك، لأن توحيد الله أساس هذه الغايات وأساس الإخلاص في كل الأعمال:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٢-٣٩].

تلك هي أركان التربية الحصينة، وتلك هي أعمدة الحكمة التي تتزكى بها نفوس المؤمنين. وهكذا عرفوا بها الحلال والحرام. الحلال الطيب الذي يرضاه الله فاتبعوه، والحرام الخبيث الذي يمقته الله فاجتنبوه وكرهوه.

وامتثلوا هذه التعاليم ووضعوها موضع التنفيذ من نفوسهم، واطمأنوا إليها، لأنهم وجدوها تأمرهم بالخير وتنهاهم عن الشر.

وصار المجتمع لمحبته لهذه القيم يأمر بالخير وينهى عن السوء، وكان من نتيجته أن تطهر المجتمع وتوحد على قاعدة الإسلام العظيمة، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

وزادتهم أعمال البر والإحسان والمسارعة في الخيرات قوة وتعاوناً وتكاتفاً وتآلفاً لأن هذه الأعمال تصب كلها في مصلحة مجتمعهم، فأصبح كالبنيان المرصوص. وبتوحده هذا في فعل الخيرات وترك المنكرات، أصبح كالجيش الواحد يسير في اتجاه مستقيم واحد. وهكذا زكت نفوسهم، وتطهرت أرواحهم، بكلمة الله التي نزلت على قلوبهم كالماء البارد وكالبلسم الشافي، فتلقتها قلوبهم كما تتلقى الأرض العطشى ماء المطر. لقد انقلبوا بإيمانهم إلى نفوس متشوقة متلهفة إلى نزول الآيات ليأخذوها في صدورهم ويحفظوها عن ظهر قلب، ويتلوها ليلاً ونهاراً حتى يحيلوها إلى أفعال وأخلاق، تتحلى بها نفوسهم، وتشفى بها صدورهم بما يجدونه من حلاوة الإيمان. لقد دفع الإيمان هذه النفوس بما غرس القرآن فيها من أهم غايات الخلق، من إخلاص العبادة لله وحده، والتقوى، واجتناب الحدود، والاستقامة وإصلاح السرائر، دفعها إلى الانقياد لهذه الضوابط، بل لحبها والاطمئنان بها فهي كلمة الله الغالية!

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّعد: ٢٨].

وعليه جاءت نفوس المؤمنين على خير ما تتربى عليه النفوس وتصطلح فيه القلوب. فإن الله خاطب القلوب وخاطب العقول التي هي وسائل صلاح الروح في البشر. ويؤكد ذلك رسوله الكريم عندما يتكلم عن الحلال والحرام فيخاطب القلوب ويجعل الشبهات سياجاً أمنياً أمام الحدود حتى لا يقربوا الحرام. فيقول ﷺ:

«إنَّ الحَلالَ بَيّنٌ وَإنَّ الحَرَامَ بَيّنٌ وَبَيْنَهُما مُشْتَبَهاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فِيهِ ألا وَإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً ألا وإنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ ألَا وَإنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلحَتْ صَلحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ألا وَهِيَ القَلْبُ»[1].

وفي رواية أخرى، يشير بيده الشريفة إلى صدره ثلاثاً ويقول: **«التقوى ههنا»**.

أي في القلب، والقلب يعبر به عن النفس والروح.

على مثل هذه التربية وهذه الأخلاق من الصدق والأمانة والإخلاص والطاعة، والاجتهاد في أداء الأعمال، نشأت عند رسول الله ﷺ صحابته المحيطة به. وهي الجماعة المؤمنة القوية المتماسكة المتآخية على قلب رجل واحد. وكانت الطليعة الأولى السابقة بحمل أعباء الرسالة بقوة، التي أخذت على عاتقها نشر وإعلان هذا النور وهذا الحق إلى أرجاء الجزيرة العربية ثم إلى أرجاء العالم، بما حملته من هذا الإيمان الذي بعث فيها الحياة والسعادة النفسية العظيمة.

لقد تحررت من الخوف إلا لله، وتحررت من العبودية لغير الله،

---

(١) رواه مسلم: ٢٩٩٦.

وتحررت من شهوات النفس وسلطان الشيطان، فهان عندها كل شيء من أسباب الدنيا وعلائقها التي تصد عن سبيل الله وإعلاء كلمته، وإقامة الحق والعدل. وكان إيمانهم بالله ورسوله ثابتاً صادقاً لم يرتابوا فيه، بل ذادوا عنه بأموالهم وأنفسهم:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

وحين تخلوا عن هذه الدنيا وعلائقها التي تقعد عن الجهاد والهجرة إلى الله وأحبوا الله ورسوله حباً مخلصاً وجدوا به نفوسهم حلاوة الإيمان. وجدوا فرحاً عظيماً استعذبوا فيه الجهاد في سبيل الله، فلم يبالوا ما بأجسادهم من نصب ولم يحسوا ما بها من آلام، فرحين بما سيؤتيهم الله من فضله ورحمته، فرحين بما استبدلوا بالكفار من إخوة مؤمنين تحبهم وتنصرهم في مجتمعهم الجديد.

هؤلاء الصفوة المختارة من المؤمنين، من المهاجرين والأنصار هم السابقون الذين نالوا أعلى الدرجات وأعظم الفوز في السبق إلى الإسلام دين الحق. وهؤلاء هم ثمرات وأهداف التربية الروحية وعلوم النفس البشرية:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

لقد كان لهذه الصفوة المؤمنة والقدوة الحسنة التأثير البالغ في الناس وظهور التابعين لهم بإحسان، وتابع التابعين، والذين جاؤوا من بعدهم وساروا على نهجهم وهداهم حتى انتشر الإسلام. لقد اجتهدوا بنشره بقوة هي أسرع

من النار في الهشيم، لقد فتحوا في ربع قرن الأمصار شرقاً وغرباً حتى أينع الإسلام وأزهر في ربوع الأرض. وعاش الناس في كنفه وأمنه أحقاباً من الزمن. وما فقدوه إلا بعد أن تغيروا وتزحزحوا شيئاً فشيئاً عن الإسلام.

هذه لمحة من مراحل تربية الروح وإعداد النفس المؤمنة في الإسلام وهي تعني إعداد مجتمع الخير وإعداد الجيل والأمة المؤمنة التقية الصالحة لخلافة الأرض. هؤلاء هم الذين إذا مكنهم الله في الأرض زرعوا في ربوعها الأمن والسعادة والسلام وأقاموا فيها الحق والعدل باستقامتهم على شريعة الله وطاعته وعبادته:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

وعاقبة الأمور: الأمن والسعادة والسلام في الدنيا، والجزاء العظيم والنعيم المقيم في الآخرة بما يوافي كلًا منهم بدرجته عند الله.

وهؤلاء هم الذين وعدهم الله بالتمكين في الأرض والاستخلاف فيها:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

وهؤلاء هم العباد العابدون الصالحون الذين يرثون الأرض بحق، وبكتاب من الله سبحانه مالك الأرض والسموات:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٧].

وفي نهاية المطاف يكون هؤلاء المتقون الصالحون هم الذين يربحون الآخرة ويفوزون بالجنات وبعقبى الدار:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الرعد: ٢٢، ٢٣].

وتسلم عليهم الملائكة وتهنئهم وهم في دارهم آمنين:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].

فهل كان يمكن لكارليل وأمثاله أن يخرجوا جماعة مؤمنة صالحة مستقيمة لا تحيد عن الحق والعدل بمثل هذا المستوى لتؤثر في الناس؟ هل كان يمكنهم إخراج نفوس بهذه التربية بدراسة الروح مختبرياً، وإجراء البحوث المادية عليها، ليبنوا بها مجتمعاً ويخرجوا أناساً يستقيمون حسب رغبتهم وخيالهم؟ وهل يعلم أحد منهم ما هي الروح حتى يتعامل معها بدراستها مادياً؟ وهل كان يمكنه أن يستنبط هذه الطاقات الروحية ويستثمرها كما يزين له خياله؟ كلا إنه الغرور والجهل بالروح!

ولولا كلمة الله التي تلين القلوب وتؤلف بينها، لما استطاع محمد ﷺ أن يؤلف بينها:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولولا أن الله يهدي من يشاء لما استطاع محمد ﷺ أن يهدي أحداً:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

﴿. . . مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧].

لكن القلوب تطمئن بذكر الله، وتؤمن بوعد الله الذي لا يخلف الميعاد:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩].

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٤].

لكن هؤلاء الضالون المستكبرون المغترون بعلمهم الفرحون به، لا يريدون أن يسمعوا الهدى، ولا أن يؤمنوا به، لأن على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم غشاوة طبع الله عليها بكفرهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: ٦، ٧].

وهم كالموتى لا يستجيبون للهدى ولا يسمعونه:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦].

وحتى لو استمعوا إليك فهم لا يفهمونك ويجادلونك مهما جئتهم به من البراهين:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥].

ولا تحزن لإعراضهم فهم لا يؤمنوا بكل آية إلا أن يشاء الله:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٥].

ثم كيف لهم بالتأثير في نفوس الناس وقيادة أرواحهم، وهم بهذه النفوس المريضة والأرواح الخبيثة التي رفضت الإيمان وأعرضت عن هدى الله وغرقت في المجون، واستهانت بالحرمات وكفرت بالله ورسوله؟

كيف تنبت البذرة الخبيثة شجرة طيبة؟

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].



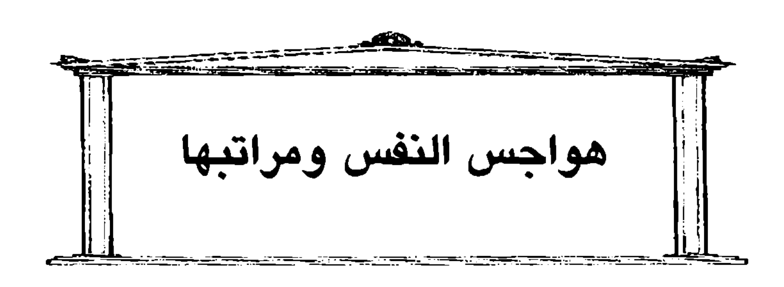


الفصل الأول: هواجس النفس ومراتبها

الفصل الثاني: توقعات وتنبؤات المؤمن



الفصل الأول



هواجس النفس ومراتبها

١ ـ الفطرة:

وهي نزعة الميل والالتجاء إلى الخالق جل وعلا، كلما داهم الإنسان خطر الموت. وتظهر هذه الحقيقة في نفسه واضحة جلية، فلا يدعو حينذاك إلا ربه ولا يستغيث إلا به، فهو حينئذ عبد مخلص موحد. لكنه سرعان ما يعود إلى شركه وكفره بعدما ينجيه الله من ذلك الخطر:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣٢].

وهذه هي الفطرة، قد ظهرت كما يظهر المعدن الأصيل بعد زوال الكلس والصدأ من عليه:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

فالفطرة هي الحنيفة السمحاء، هي طبعة الخلق النقية الأصلية على

التوحيد الخالص والإسلام لرب العالمين، والاعتراف له بربوبيته التي أول ما يولد الإنسان عليها. فعن النبي ﷺ:

«مَا مِنْ مَوْلودٍ إلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبواهُ يُهَوِّدانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تَحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ . . .﴾ [الرُّوم: ٣٠]»[١].

هذه الفطرة السليمة النقية الخالصة لرب العالمين، وهذا اللجوء والتعلق المخلص المباشر بالرب في ساعة الخطر دون غيره من المقربين والمنقذين، ما هي إلا مظهراً للعهد القديم الأول الذي أخذه الله على عباده في عالم الغيب وقد كانوا نطفاً في ظهر أبيهم آدم، أخرجهم بقدرته وهم بحجم الذر، (قال العلماء: لو أن الخليقة كلها حتى قيام الساعة جمعت في مثل حجم الذرة لما تجاوز حجمها بوصة مكعبة واحدة) ثم أشهدهم على أنفسهم وأشهد عليهم ملائكته، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في تفسيره لهذه الآية قال: [خلق الله آدم ثم أخرج ذريته من ظهره مثل الذر فكلمهم ثم أعادهم في صلبه، فليس أحد إلا وقد تكلم فقال ربي الله. فقال وكل خَلق خُلق فهو كائن إلى يوم القيامة، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها][٢].

---

(١) رواه البخاري: ١٢٧١.

(٢) انظر تفسير ابن جرير، ج:٩، ص: ٧٥، ط/٣، دار المعرفة للطباعة - بيروت.

وفي رواية أخرى عن عبدالله ابن عمر عن النبي ﷺ قال:

«﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ . . .﴾ قال: **أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بَلَى، قالت الملائكة: شَهِدْنا أنْ تقولوا يَوْمَ القِيامةِ إنّا كُنا عَنْ هَذا غافِلين»**[1].

فهل يعتبر الإنسان ويتفكر في هذه النتيجة المختبرية لنفسه وروحه وقد ظهرت بالحقيقة التي طبعه الله عليها؟ ظهرت بعد التمحيص والتعرض لضيق الدنيا وشبح الموت. إنها صورة العهد القديم والميثاق الأول الذي أعطوه لربهم في عالم الغيب وأشهدهم فيه على أنفسهم (ألست بربكم؟ قالوا بلى). ثم يعقب سبحنه على الآية السابقة: ١٧٣ - الأعراف بقوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٤].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠].

٢ ـ واعظ الله في قلب المؤمن:

وهاجسة أخرى هي إحساس الإنسان بصراع نفسي بين نقيضين، أحدهما يزين له السوء ويأمره بالفحشاء ويحثه ويدفعه إليها فلا يملك نفسه، ويشعر وكأنه مقبل على لذة عظيمة، وهذه لمة الشيطان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النُّور: ٢١].

وأما لمة الملك أو لمة الرحمن فإنه على عكس ذلك يبصره ويذكره

---

(١) نفس المصدر السابق. وأخرجه ابن مندة أيضاً.

ويعظه ويحذره من سوء العاقبة حتى لا يقع في الإثم، وهذا هو واعظ في قلب المؤمن. عن النبي ﷺ أنه قال:

«إنّ لِلشّيطان لمّة بابْن آدمَ ولِلمَلكِ لمّة فأمّا الشّيطان فإيعادٌ بالشّرِّ وتَكذيبٌ بالحَقِّ وأمّا لمّةُ المَلكِ فإيعادٌ بالخَيْرِ وتَصْديقٌ بالحَقِّ فمَنْ وجَدَ ذلِكَ فلْيَعْلمْ أنّهُ مِنَ اللهِ فلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ الأُخرَى فليتعوّذْ باللهِ مِنَ الشّيطان الرّحيم ثمَّ قرأ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] الآية»(١).

وهذا الصراع يبقى قوياً حتى يتغلب أحدهما. فإن استعاذ المؤمن بالله من الشيطان الرجيم وتذكر وتبصر واستعان بالصبر والصلاة ودأب على ذكر الله، كان في حفظ وحرز من الشيطان وكيده. وكلما أراده هاجس الشيطان إلى عمل سوء أو إثم وزينه له، نهض واعظ الله في قلبه فأبصره وذكره وأيقضه، فاستمع وانتفع، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وهذه هي درجة المتقين يتبصرون ويتغلب ويتقوى عندهم هذا الواعظ بزيادة التقوى والمواظبة على الطاعات وذكر الله. وأما الغافلون المتهاونون بالفرائض والذين لا يذكرون الله إلا قليلًا فيغلبهم الشيطان ويوقعهم في المعاصي، وبالدوام على ذلك يضعف عندهم صوت الواعظ فيقعون في شرك الشيطان ويستمعون إليه وإلى وعيده وتمنيه:

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

فيخيبون ويخسرون وهم الصنف الثاني في الآية التالية:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠].

---

(١) رواه الترمذي: ٢٩١٤.

وهؤلاء الخائبين يستحوذ عليهم الشيطان دائماً ويعزلهم منفردين في الميدان وينسيهم ذكر الله القوي العزيز فلا سند لهم ولا ناصر لهم وبالتالي يقهرهم ويتمكن منهم فهم الخاسرون:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٩].

هذا الصراع هو ابتلاء وامتحان سلط الله فيه الشيطان على الإنسان من جملة البلاء المسلط على الإنسان في هذه الدنيا وجعل له قناة إلى قلبه يحس فيه بكلامه ووسوسته. ومنذ الخلق الأول وسوس إلى آدم وأنساه فيها وصية ربه بما زين له ودلاه بغرور حتى ذاق الشجرة الممنوعة ووقع في المعصية. لكنه وبرحمة من الله أحس بالخطيئة وندم عليها وبادر بالتوبة إلى ربه فاجتبه ربه وتاب عليه وهدى:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

وهذا هو الحل والمخرج عند الفشل في الصراع، وهذه هي السنة الحسنة التي سنها لنا أبونا آدم والحمد لله الذي هداه إليها فلم يصر على المعصية كما فعل الشيطان الرجيم والعياذ بالله من معصية الرب الرحيم. لقد أوضح بهذا لذريته طريق النجاة، فكلما وقع ابن آدم في الخطيئة يعود ويثابر بالتوبر والاستغفار ويلجأ إلى الله ويكثر من ذكره حتى ينزع عنه هاجس الشر الشيطان، فيتغلب عليه وينتصر ويعود يقوى عنده واعظ الله حتى يطمئن قلبه.

٣ ـ القلب المتقلب وهاجس الشك:

والشك والريب وسيلة الشيطان، وخاطر يهاجم القلب حتى لا يدعه يستقر أو يطمئن، بل يدفعه إلى التقلب والتردد. والله سبحانه هو المهيمن

على القلوب، وهو يحول بين المرء وقلبه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد! وكما روي عن رسول الله أنه قال: **«إنّ قُلوبَ بَني آدَمَ كُلّها بَينَ إصْبَعَيْن مِنْ أصابِعِ الرّحْمَن كقَلْبِ واحدٍ يُصَرِّفُهُ حيثُ يشاءُ، ثُمّ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: اللهمَّ مُصَرّفَ القُلوبِ صَرِّف قلوبَنا على طاعَتِكَ»**[1].

لذلك لا نعجب من دعاء رسول الله في حديث أم سلمة عن شهر بن حوشب قال:

(قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»** قالت: فقلت: يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال: **«يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ»** فتلا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨])[2].

وقد يكون التقلب عقوبة يجعلها الله في قلوب الذين يؤمنون ويجادلون في آيات الله، وفي قلوب الطغاة الذين استحقوا الفتنة واستحقوا غضب الله. قال تعالى:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

وكم من أناس تقلبوا بين الإيمان والكفر حتى ازدادوا كفراً وضلالًا فطبع على قلوبهم وأضاعوا فرصة التوبة، فضاعوا وانتهى أمرهم إلى الضلال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: ٣].

---

(١) رواه مسلم: ٤٧٩٨.

(٢) رواه الترمذي: ٣٤٤٤.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء: ١٣٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ [آل عمران: ٩٠].

ولكي يطمئن القلب لا بد أن ينبذ الشك الذي يهاجمه ويطرده باليقين. ولا يسلم أحد من هذا الشك الدخيل المهاجم للقلب، فهذا نبي الله إبراهيم يريد أن يطمئن الله قلبه عندما هاجمه هاجس الشك، فأراه سبحانه اليقين:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وفي الحديث عن أبي زميل قال:

[سألت ابن عباس فقلت ما شيء أجده في صدري قال ما هو قلت والله ما أتكلم به قال فقال لي أشيء من شك قال وضحك قال ما نجا من ذلك أحد قال حتى أنزل الله ﷻ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ [يونس: ٩٤] الآية قال فقال لي إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣]](١).

[وعن عائشة أن رسول ﷺ قال: «**إن أحدكم يأتيه الشيطان فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله، فيقول: فمن خلق الله فإذا وجد ذلك أحدكم فليقرأ آمنت بالله ورسله فإن ذلك يذهب عنه**»](٢).

وبعد فإن هذا سؤال شيطاني ومغالطة خاطئة مضللة لا تصح، لأن كل

---

(١) رواه أبو داود: ٤٤٤٦.

(٢) رواه أحمد في مسنده: ٢٥٠٠٦.

من يُخلق فهو مخلوق وكل من يخلق سيكون هو الخالق إذاً فالخالق لا يكون مخلوقاً، ولما لا يتسنى الخلق إلا لله فلا يمكن أن ينتهي الخلق إلا الله خالق الخلائق وخالق كل شيء:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾ [الزُمر: ٦٢].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٦٢﴾ [غافر: ٦٢].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم يا مصرف القلوب اصرف قلوبنا على طاعتك، اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، اللهم ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

٤ ـ القلب المنير والقلب المغلف والمطبوع:

إن المؤمن يعرف نفسه من قوة الإرادة والانتباه إلى دحر ما ينفثه الشيطان في روعه، وما يزينه له، أو ما يدخل فيه من شك وريب. وإن مجرد مقاومته هو دليل الإيمان كما في الحديث:

[سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عَن الوَسْوَسَةِ قالَ تِلكَ مَحْضُ الإيمان][1].

---

(١) رواه مسلم: ١٨٩.

إن عمل القلب النفسي أو الروحي يبدأ من الفطرة ثم يتقوى فيه الإيمان ويرتقي حتى يبلغ درجة المؤمنين المتقين الذين لا يجد الشيطان إليهم سبيلًا. فاستثناهم من قسمه حين قال لربه:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

ولم يجعل الله له سلطاناً على هؤلاء العباد بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥].

فالقلب النقي يبصر ويحس بأن شيء يدخله الشيطان وهذا هو دليل التقوى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ذلك أن قلب التقي كالمرأة الصافية تظهر فيها أي نكتة دخيلة، وإذا ما دخلها النور أضاءت كالمصباح المنير. وهذا القلب جعل الله فيه النور وضربه مثلًا لنوره:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

وأما قلب الكافر أو الفاسق فقد علاه الران والصدأ والتكلس فقسي وتصلب:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البَقَرة: ٧٤].

فأصبحت كالحجارة الصماء، لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه شيئاً:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

ذلك بسبب الذنوب المتراكمة على القلب حتى يصدأ ثم يزداد عليه الصدأ والتكلس بزيادة الذنوب ويكون عليه غلافاً سميكاً قاسياً مانعاً من نفوذ النور والهدى.

[عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه فإن زاد زادت فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه:** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]»][(١)].

وهذا الغلاف السميك حجب عنهم رؤية نور ربهم وسماع هداه، فعاقبهم سبحانه بهذه العقوبة يوم القيامة في قوله:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

---

(١) رواه ابن ماجة: ٤٢٣٤. ورواه الترمذي وصححه والنسائي.

وهي من أشد العقوبات لما يجدون فيها من الخسارة العظيمة في البعد عن رحمة الله ومرارة الحسرة والندم وشدة الاحتقار والعزلة المهينة.

والقلوب المغلفة التي أصابها الصدأ علاجها التوبة والاستغفار وذكر الله كثيراً وتلاوة القرآن وقد سبق في الحديث: **«فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها»**.

وبذلك يجلوها ويعيد إليها الرقة والصفاء، لأنه ليس هناك ذنب مهما عظم إلا وله عند الله مغفرة حتى الشرك ولكن تجب التوبة منه قبل الموت توبة نصوحاً. وقد عفا الله سبحانه عن اليهود التائبين بعد أن اتخذوا العجل:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

أما القلب المطبوع عليه فهو ذلك القلب المغلف إذا دام على حاله وما هو عليه وما هو عليه من الكفر والضلال تعرض لمرحلة أشد منها وهي الطبع. فإذا طبع الله عليه ختم وانغلق فلا يسمع الهدى بعد ذلك ولا يبصر نور الحق أبداً. ومن ذلك قوله سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٠].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٥].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

فهي قلوب طبع عليه وختم عليها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تهتدي.

٥ ـ القلب المفتي:

قلب المؤمن التقي مقياس حساس يفرق بين الحق والباطل. ذلك أن الله سبحانه وعد بمنح من يتقيه هذه الميزة العقلية الواعية، وبغفران ذنوبه وسيئاته فيطهر قلبه وتصفو نفسه ويهتدي بقوة إلى الحق والصواب ويميز بين الحق والباطل في دقائق الأعمال ولا تختلط عليه الظنون، وهذا فضل من الله عظيم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال: ٢٩].

فعمل الخير وعمل الشر للمؤمن واضح بيّن كما قال ﷺ: «**الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات**...»[١]. ففي الأمور المشتبهات وما يخفى منها، يجعل الله له في قلبه فرقاناً وميزاناً دقيقاً يفرق به بين الأعمال هل هي من البر أم من الإثم. وهو في ذلك يقظ حذر مهتد للحق مميز ببصيرة. ولكن كيف يعمل هذا الميزان وما خصائص هذا الفرقان؟ بين لنا رسول الله ﷺ ذلك عندما سئل عن هذا المعنى.

[أنّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ لِوابِصَة: «**جِئْتَ تَسْأَلُ عَن البرّ والإثم**» قالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قالَ: فَجَمَعَ أَصابِعَهُ فَضَرَبَ بها صَدْرَهُ وقالَ: «**اسْتَفتِ نَفْسَكَ اسْتَفتِ قلبَكَ يَا وابصَةُ**» ثلاثاً «**مَا اطْمَأَنَّتْ إليهِ النفسُ وَاطْمأنَّ إليهِ القلبُ وَالإِثْمُ ما حَاكَ في النَّفْس وتَرَدَّدَ في الصَّدْرِ وإنْ أفتاكَ النَّاسُ وأفتوكَ**»[٢].

وفي توضيح آخر:

[عَنِ النّواس بْنِ سِمْعانَ الأنْصارِيّ قالَ سَألْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ عَن البرّ

---

(١) وهو مطلع الحديث الذي رواه البخاري: ٥٠.

(٢) رواه أحمد: ١٧٣١٥. والدارمي: ٢٤٢١.

وَالإثم فقالَ: «**البرُّ حُسْنُ الخُلُق وَالإثْمُ ما حاكَ فِي صَدْرِكَ وكَرِهْتَ أنْ يَطلِعَ عَليهِ النَاسُ**»][(١)].

هكذا يوضح رسول الله معنى البر والإثم وكيف أن القلب هو المستفتى في التفريق بينهما، وهو الميزان المتأرجح الحساس في دقة التمييز بينهما. ذلك أن صفة القلب التردد والإحاكة في الصدر إزاء الإثم، والاطمئنان والاستقرار إزاء البدر. ويحس بذلك كل مؤمن، هكذا وضحت المسألة بكلمات قليلة جامعة.

البر: حسن الخلق، بما يحويه حسن الخلق من معان عالية وما يشمله من أعمال الإحسان والبر والذوق الرفيع، فانتهى المعنى عند السائل وفهمه بكل سهولة.

والإثم: ما حاك في النفس وتردد في الصدر، فلا يطمئن ويظل يعاود الإنسان بأفكاره ويتأرجح ولا يرتاح وعنده شيء يكره أن يطلع عليه الناس.

هذا هو المقياس الذي يحمله قلب المؤمن، إنه جهازه الحساس وهو دائماً معه لا يفارقه، وإن أفتى الناس الفتاوى بمحاولة التبرير أو التمرير. إنه المفتي الأمين وهو الفرقان! ولا عجب من هذا البيان الصادر عن نبي الهدى الذي لا ينطق عن الهوى. تُرى لو أننا سألنا أحداً من حملة الشهادات العالية في زمننا هذا هل كان يمكنه أن يعرفنا بالبر والإثم بمثل هذه الحقيقة وهذا الدليل؟

أما قلب الكافر فهو مغلف بالذنوب مثقل بالسيئات، لا يتجاوب ولا يهتدي إلى التمييز بين العمل السيئ والعمل الحسن، ويضل في التفريق بينهما، بل إن من أضله الله قد يرى السيئ حسناً:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٨]

---

(١) رواه مسلم: ٤٦٣٢.

٦ ـ مراتب النفس الثلاث:

أ ـ النفس الأمارة:

يعلم الإنسان أحوال نفسه في مراحل تدرجه في الإيمان والتقوى. فقبل أن يدخل الإيمان قلبه ليحوله من الإسلام إلى الإيمان تكون نفسه لا تزال مهيئة لتأمره بالسوء فهي في هذا الظرف نفس أمارة بالسوء، سهولة دخول الشيطان إليها ووسوسته وتزيينه لها بالسوء. فيأمرها بالشهوات والمحرمات صراحة وهي لا تتردد كثيراً لأنها تأمل فيها منفعة ولذة فتندفع لهذا التزيين اندفاعاً لا يكاد يملك المرء زمامها وكأنها تندفع بإرادة الشيطان، كما اعترفت بذلك امرأة العزيز لما شغفت بيوسف فكانت نفسها تدفعها دفعاً لا تستطيع مقاومته، اعترفت في النهاية عند الشهادة أمام الملك، وبعدما انكشفت عنها تلك الغشاوة وظهر لها الحق:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يُوسُف: ٥١].

واعترف كذلك يوسف بعد أن أثبت براءته من خيانة الملك أثناء غيابه:

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يُوسُف: ٥٢].

فقال له جبريل وحتى لما هممت بها فأكمل إجابته بهذا الاعتراف:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يُوسُف: ٥٣].

فالنفس في هذه الحالة أسيرة الشيطان ومحطاً لأوامره، يأمرها بالسوء

أمراً صريحاً لأنه يعلم بأنها لا تملك حساً ومقاومة تستنكر بها أمره وغوايته وتزيينه:

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٩].

فهي لا تستقبح الكبائر، ولا تقدر خطرها، ولا تشعر بضررها، بل ولا تشعر بالندم عليها في أغلب الأحيان.

ب ـ النفس اللوامة:

بعد دخول الإيمان وتعلم مبادئ الإسلام ومعرفة الحلال والحرام، تتبين النفس الفروق بينهما وتحس بآثارهما. لكن الإيمان لم يترسخ بعد ليعطيها القوة الكافية للمقاومة، فيغويها الشيطان ويزين لها الشهوات ويسهل عليها أمر عواقبها، فعند ذلك لا يتمالك الإنسان نفسه فيقبل على الشهوات والآثام حتى إذا وقع فيها ندم على تورطه، ورأى أن لذته لم تدم ولم يحصل على شيء بعدها إلا الندم والملامة، فقد ذهب المتاع القليل فشعر بارتكابه الخطأ وهنا يبرز الشيطان بعد فرحه بالنصر على هذه النفس فيزيدها حزناً وندماً ويتبرأ منها بل ويتشفى فيها، فهي لا تفتأ تلوم صاحبها:

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦].

وهذا اللوم والندم هو دليل الإيمان، لأن الندم هو توبة كما في الحديث:

[قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«النَدمُ توبةٌ»** فقالَ لهُ أُبَيّ أنْتَ سَمعْتَ النبي ﷺ يقولُ: **«الندم توبة»** قال: نعم][1].

---

(١) رواه ابن ماجة: ٤٢٤٢ وأحمد: ٣٨٠٩.

لكن النفس حين ارتكابها هذه الآثام تكون قد فارقها الإيمان:

[عَنْ أبي هُريرةَ أنّ النبيّ ﷺ قالَ: **«لا يَزْني الزّاني حينَ يزْني وهوَ مُؤمنٌ ولا يسرقُ حينَ يسرقُ وهوَ مؤمنٌ وَلا يشرَبُ الخمْرَ حينَ يشربُها وهُوَ مُؤمنٌ والتوبة معروضةٌ بعدُ»**](١).

والنفس في حالتها هذه تعلم أنه إثم وحرام وهي غير ناسية فكراً وعقلاً، إنما هو نسيان القلب وغفلته:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

هذه حالها عند ارتكابها الإثم ومفارقتها الإيمان، لكنها بعد ذلك تفيق وتصحو على ما فعلت فتلوم نفسها. وبهذه الصفة للنفس أقسم الله سبحانه مع ما أقسم بيوم القيامة الذي آمنت به فكان سبباً لخوفها ولومها ولأنه سبحانه هو خلقها وهو أعلم بها:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ [القيامة: ١-٣].

وملامة هذه النفس في الآخرة أشد وأمر. فمن لم تلمه نفسه في الدنيا حتى يصلح حاله ويتوب إلى الله ويخرج من هذه المرحلة، فهو في الآخرة في عذاب الملامة والحسرة والأبدية، وقانا الله منها.

ج ـ النفس المطمئنة:

وهذه هي النفس التي ثبتها الله بالإيمان وعمرها بالتقوى حتى

(١) رواه البخاري: ٦٣١٢ ومسلم: ٨٧ واللفظ له.

قويت بالله وأصبحت من أوليائه وأهل محبته وطاعته الذين لا يفترون عن ذكره وعبادته. هذه النفس التي طمأنها الله بذكره:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّعد: ٢٨].

هذه النفس المؤمنة المستقيمة على التقوى، المطمئنة بذكر الله التي لم تتخذ ولياً إلا الله، يبشرها ربها في الدنيا والآخرة برحمة منه ورضوان وبجنات ونعيم مقيم مع عباد الله الصالحين ويؤمنها من الخوف والحزن:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فُصّلت: ٣٠].

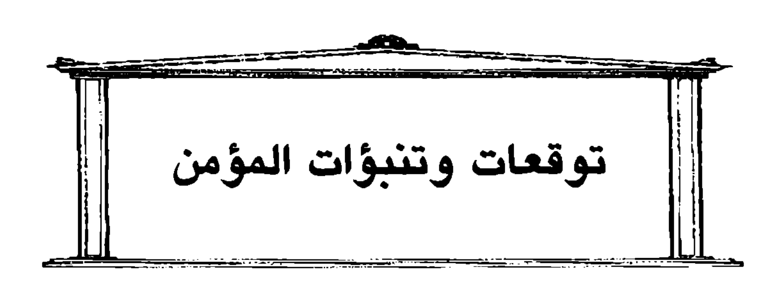
﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبَة: ٢١، ٢٢].

ويخصها يوم القيامة بالنداء الإلهي العزيز بالقبول والرضوان والدخول في جنته وفي عباده الصالحين:

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].



الفصل الثاني



توقعات وتنبؤات المؤمن

١ ـ المؤمن ينظر بنور الله:

وهو ما يسمونه بالحاسة السادسة، ويعزون مقرها إلى الغدة الصنوبرية في الدماغ[١]. وهذه الغدة تمتلك الإحساس بتأثيرات خارجية لا سبيل إلى إدراكها بالحواس المعروفة، فتسمع وتبصر أشياء بعيدة مخفية بطريقة حسية. وقد أجريت تجارب على بعض الحيوانات والحشرات كالضفدع والنحلة وتبين أن مقر هذا النوع من الإحساس هو الغدة الدماغية. وعند الإنسان لا تزال هذه الحالة مجهولة ويسمونها بالبصر المغناطيسي أو تراسل الأفكار، وتحدث صدفة عند أناس قليلين جداً. هذا هو التفسير المادي الطبي الذي لم يجد لها تفسيراً. وربما حدثت عند أناس غير مؤمنين أصلًا ليُري الله البشر كيف أن حدوث مثل هذا بمشيئته وليس غريباً في قدرته!

أما عند المؤمنين فهو كثير الحدوث فهو نور وهدى يقذفه الله في قلب المؤمن فينظر ويبصر وتظهر الصورة في مخيلته وكأنه ينظر إليها عياناً أو

(١) انظر كتاب الطب محراب للإيمان موضوع الغدة الصنوبرية، ج١، ص: ١٧٢ طبعة مكتبة المنار - بغداد.

يسمعها بصوت يجده في أذنه من غير أن يكون صوتاً مسموعاً لأحد. وهذه بصيرة خاصة وعلم وفراسة يضعها الله في قلب المؤمن يؤكد ذلك الحديث:

[قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«اتّقوا فِراسَةَ المؤمنِ فإنّه يَنْظُرُ بنور اللهِ»** ثُمّ قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥]][1].

وقد روي في تفسير هذه الآية: للمتوسمين قبل للمتفرسين.

وكمثل على ذلك أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يخطب على المنبر ثم توقف فجأة ونادى يا سارية الجبل الجبل وعمر ﷺ في المدينة والقائد سارية في نهاوند فسمع القائد نداء عمر على هذا البعد والتزم الجبل ونجا بجنده وكان له النصر، وهذه القصة مشهورة في تاريخ الإسلام.

إن شيئاً مثل هذا قد حدث لكثير من المؤمنين، ووقع لهم ما يشابهه بصورة أو بأخرى، لكنه عند الأنبياء هو نبوءة صادقة وحق واضح لا يقبل الجدل فمثلاً:

لما بدأ إخوة يوسف عليه السلام بالحركة للرجوع من مصر إلى أبيهم، أحس يعقوب عليه السلام بريح يوسف لأنه كان قد أرسل معهم قميصه إلى أبيه:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يُوسُف: ٩٤] ثم إن يوسف كان قد قال لهم:

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يُوسُف: ٩٣].

فكان كما قال يوسف:

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يُوسُف: ٩٦].

---

(١) رواه الترمذي: ٣٠٥٢.

ومن قصة الإسراء والمعراج لنبينا محمد ﷺ[1].

أنا أبا بكر ﷺ أتى رسول الله ﷺ فقال يا نبي الله أحدَّثت: القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: **«نعم»**. قال: يا نبي الله فصفه لي فإني قد جئته. فقال رسول الله ﷺ: **«فرفع إلي حتى نظرت إليه»** (يعني صورة بيت المقدس) فجعل رسول الله يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر: صدقت أشهد أنك رسول الله كلما وصف له منه شيئاً قال: صدقت أشهد أنك رسول الله حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: **«وأنت يا أبا بكر الصديق»** فيومئذ سماه الصديق.اهـ.

وكذلك القصة والوصف الذي وصفه رسول الله ﷺ للمشركين المكذبين عن قافلة الطريق في رجوعه، فذهبوا يسألون القافلة ويتحققون منها حتى تأكد لهم أنه كان وصفاً دقيقاً صادقاً.

ومثل هذا شيء كثير وجده الصحبة مع رسول الله في مختلف الأحوال أثناء صحبتهم له وهو كذلك شيء اعتيادي عند الأنبياء.

وليس حديث الرسول السابق (اتقوا فراسة المؤمن) هو الدليل الوحيد على نظر المؤمن الثاقب وحسه المرهف وإصابته للرأي الصحيح والقصد السديد، وإنما تؤكده آيات القرآن ومنها:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعَام: ١٢٢].

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُّمَر: ٢٢].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثاني - طبعة المدني.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس: ٩].

وهو ما سبق أن تطرقنا إليه في الكتاب الأول في موضوع اكتساب العلم النافع - بهداية من الله -.

٢ ـ الرؤيا الصادقة:

كثيراً ما نرى رؤيا في المنام ثم يكون لها ما يحقق صحتها، أو موافقتها لأمور تقع في اليقظة ويكثر هذا عندما يكون في القلب صفاء ورقة. وقلب المؤمن كما قلنا كالمرأة الصافية والصفاء أيضاً درجات كما أن المؤمنين هم درجات:

﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝١٦٣﴾ [آل عمران: ١٦٣].

فرؤيا المؤمن غالباً ما يكون لها ما يحققها أو يؤولها لكنها لا يمكن اتخاذها كحجة أو كأساس للحكم أو للعمل بموجبها. إنما هي أحاسيس يتوقع منها المؤمن خيراً أو تفسيراً خاصاً مناسباً لكل حادثة. أما إذا كانت شيئاً مكروهاً للنفس فهي من الشيطان فليتعوذ بالله منه ولا يتشاءم فقد جاء في الحديث:

«الرُّؤيا مِنَ اللهِ والحُلُم مِنَ الشّيطان فإذا رَأى أحَدُكُمْ شيئاً يَكرَهُهُ فلْيَنفِث حينَ يسْتَيقظُ ثلاثَ مرّات ويتعوذْ مِنْ شَرّها فإنها لا تَضُرُّهُ»[1].

فالرؤيا من الله هي الرؤيا الصالحة التي لا تخليط فيها يراها النائم فيبشر الله بها عبده. والحلم وما يراه من الشر والفزع فهو من تهويل الشيطان:

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«إذا اقتربَ الزّمانُ لمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيا المؤمن ورُؤيا المُؤمن جزءٌ مِنْ ستة وأربعينَ جُزءاً من النُّبوة وما كان منَ النبوة فإنّه لا يكذبُ»**[2].

---

(١) رواه البخاري: ٥٣٠٦.

(٢) رواه البخاري: ٦٤٩٩.

والمؤمن الذي يقرأ القرآن متدبراً له، ممتثلًا لأمره، عاملًا به، يلهمه الله من البصيرة ما يراه متفقاً في تفسير معنى الحدث، فيفهم ما تدل عليه بعض رؤى المنام ويتقرب إليه التعبير عن الحقيقة.

اشتهر محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللهُ من السلف الصالح في تفسير وتأويل الأحلام ورؤى المنام ووضع لذلك كتاباً، وكان الناس يأوون إليه فيفسر لهم أحلامهم وكانوا يروا صحتها في اليقظة.

لكن المؤمنين وبما بلغوه من قوة الإيمان، فإن تفسيراتهم للأحلام تخطئ وتصيب ذلك أنهم ليسوا أنبياء ولم يخصهم الله بما خص به الأنبياء، وهذا ما يؤكده حديث ابن عباس:

[أنّ رَجُلًا أتَى رَسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: إنّي رَأيْتُ اللّيْلَةَ فِي المَنامِ ظلّة تَنْطُفُ السّمْنَ والعَسَلَ فأرَى النّاسَ يَتكَفّفونَ مِنْها فَالمُسْتَكثِرُ وَالمُسْتَقِلّ وإذا سَبَبٌ واصِلٌ مِنَ الأرْضِ إلى السّماءِ فأراكَ أخَذْتَ بهِ فَعَلَوتَ ثمّ أخذَ بهِ رجلٌ آخَرُ فعَلا بهِ ثمّ أخذَ بهِ رجُلٌ آخرُ فعَلا بهِ ثمّ أخذَ بهِ رجُلٌ آخرُ فانقَطَعَ ثمّ وصِلَ، فقالَ أبو بَكر: يَا رَسولَ اللهِ بأبي أنتَ واللهِ لتَدَعَنّي فَأعْبُرَهَا، فقالَ النبيُّ ﷺ: **«اعْبُرْها»** قالَ: أمّا الظُّلةُ فالإسْلامُ وأمّا الذِي يَنْطُفُ مِنَ العَسَلِ والسّمْنِ فالقُرْآنُ حَلاوَتُهُ تَنْطُفُ فَالمُسْتكثِرُ مِنَ القرآنِ والمُسْتقلُّ وأمّا السّببُ الواصِلُ مِنَ السّماءِ إلى الأرض فالحقُّ الّذي أنتَ علَيهِ تَأخُذُ بهِ فَيُعْليكَ اللهُ ثمّ يأخُذُ بهِ رجُلٌ منْ بَعْدِكَ فيعْلو بهِ ثمّ يأخُذُ بهِ رجُلٌ آخَرُ فيَعلُو بهِ ثمَّ يأخُذُهُ رجُلٌ آخرُ فينقَطِعُ بهِ ثمّ يُوصَلُ لهُ فيَعْلُو بهِ، فأخبِرْني يا رَسولَ اللهِ بأبي أنتَ أصَبْتُ أمْ أخْطأتُ؟ قالَ النبيُّ ﷺ: **«أصَبتَ بعْضاً وأخْطأتَ بعْضاً»** قالَ: فوَاللهِ يا رَسولَ اللهِ لتُحَدّثني بالّذي أخْطَأتُ قالَ: **«لا تُقْسِمْ»**][(١)].

---

(١) رواه البخاري: ٦٥٢٤.

فإذا كان مؤمن مثل أبي بكر يخطئ ويصيب، فما دونه أحرى أن يخطئ أكثر منه!

وهي كما قلنا لا تعد حجة للحكم بها أو للعمل والاتباع، وإنما فيها استئناس وسلوى وبشرى للمؤمن سيما وأن رؤيا المؤمن كما سبق جزءاً من ست وأربعين جزءاً من النبوة! وأن ما لهدي القرآن من تأثير كبير في ذلك، كما يؤيد ذلك الحديث التالي: **«من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه. لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجد من وجد، ولا يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله»**[(١)]. أما الأنبياء فإن تأويلهم للرؤيا يأتي حقاً، بما يعلمهم الله ويوحي إليهم. وقد خص الله نبيه يوسف الصديق عليه السلام بمعجزة تأويل الأحلام وكان تأويله لا يفارق الحقيقة أبداً وهكذا جاءت قصته في القرآن الكريم. وهكذا كان رسول الله ﷺ أول ما بدئ به الوحي ففي الحديث:

[عن عائشة أنها قالت: أول ما ابتدي به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به أن لا يرى شيئاً إلا جاءت مثل فلق الصبح فمكث على ذلك ما شاء الله أن يمكث وحبب إليه الخلوة فلم يكن أحب إليه من أن يخلو][(٢)].

وفي رواية البخاري:

[أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، . . حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال إقرأ. . فذكر تمام الحديث][(٣)].

---

(١) انظر الترغيب والترهيب للمنذري ج٢، ص: ٣٥٢، ط/٣، إحياء التراث العربي - بيروت.
(٢) رواه الترمذي: ٣٥٦٥.
(٣) رواه البخاري: ٣، رواه مطولاً بكامله وقد اقتبسنا منه ما جاء أعلاه بما يخص الرؤيا.

ولقد حاول علماء النفس الماديون الدخول في هذا الباب واعتباره علماً يمكن تحصيله بالدراسة والتجارب الملموسة، ولا يزالون يحاولون بشتى الطرق لكنهم فشلوا فشلًا ذريعاً، وسيظلون يفشلون لأن الوجهة ضالة من البداية. فهذا ليس علماً مادياً حتى يتعلمه أياً من كان، ولا من كان من الفساق أو الفجار وغيرهم، إنما هو هدى ونوراً يقذفه الله في قلوب عباده المؤمنين وليس تخليطاً للشياطين:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٠-٢١٢].

٣ ـ المؤمن يتوقع عاقبة الأمور:

يتوقع المؤمن عواقب الأمور من سنن الله الماضية:

أ ـ في الظالمين والمفسدين:

جرت سنة الله في أن الظالمين ما طغوا واستكبروا في الأرض بغير الحق، وتمادوا في ظلمهم حتى لا يجد الناس من يستطيع منعهم ولا من يردعهم أو يصدهم عن الظلم، فإن الله يوشك أن يهلكهم أو يعمهم بعذاب. فلا بد أن تنقلب بهم الموازين، فالظلم ظلمات يوم القيامة والظلم لا يدوم وإن دام دمر كما يقال وقد هددهم الله بهذا في قوله سبحانه:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧].

هذه العاقبة يتوقعها المؤمن لأنها سنة الله التي لا تتبدل، وقد مضت في الأمم السابقة وهي ماضية في الأمم اللاحقة وإلى يوم القيامة:

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ٥٩].

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هُود: ٨٢، ٨٣].

وهي كحجارة النيازك معلمة منضودة مسومة أمطرها عليهم حتى أهلكهم(١). وإن الله يمهل الظالم ويملي له ويمده بأسباب القوة والرفاهية حتى لا يبقي له حجة، لكنه لا يهمله بل ينظر ماذا سيفعل، فإن دام على ظلمه وغيه وانتابه الغرور وأخذته العزة بالإثم، أخذه بغتة فإذا هو في حيرة ويأس من أمره:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

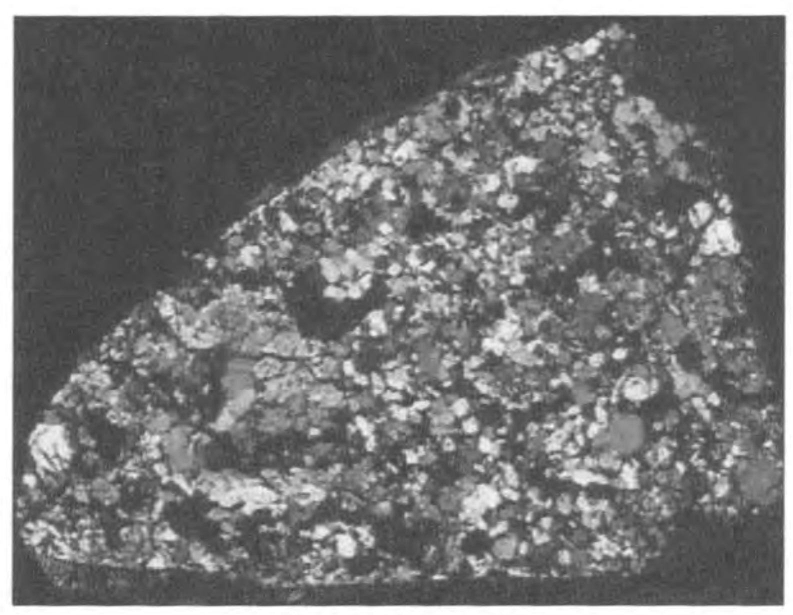
ذلك أن الله سبحانه لا يعذب الناس إلا بذنوبهم، وبعد أن يقيم عليهم الحجة:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العَنكبوت: ٤٠].

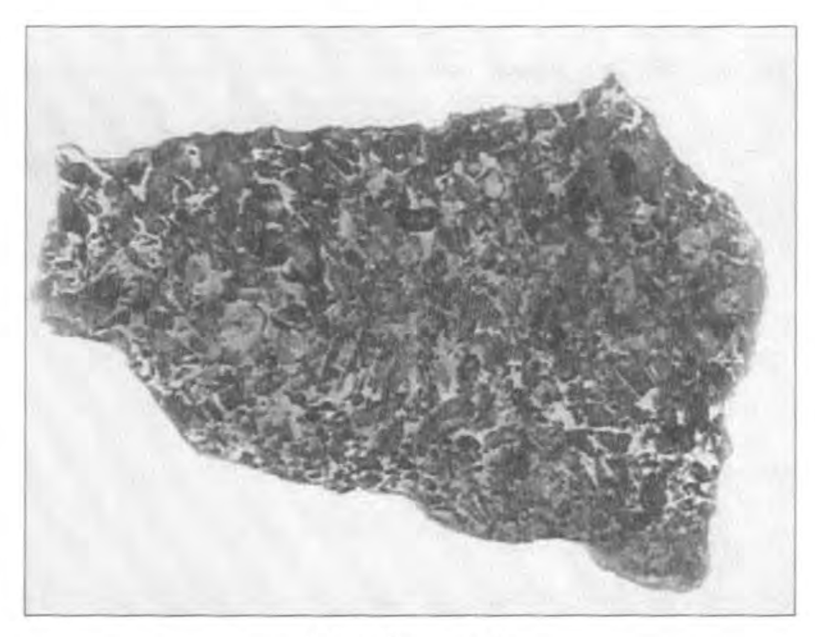
---

(١) وانظر كتابنا الخامس من هذا المسلسل (موضوع النيازك ص: ٢١).

حجارة النيازك المنضودة الساقطة من السماء



[www/geokem.com]



Meteorites.asu.edu

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: ١١].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٩].

لكن الكافرين لا يؤمنون بأن أسباب نزول العذاب من الله هي ذنوبهم وانحرافاتهم، وهي ظلمهم واغتصابهم لخيرات الدول الضعيفة وقرصنتهم وخداعهم لها، وإعراضهم عن صراط ربهم المستقيم، بل إنهم لا يعترفون بذلك ويقولون إنما هذه كوارث اعتيادية من مظاهر الطبيعة. وهم بذلك بضاهؤون قول الذين كفروا من قبل. فهؤلاء قوم عاد من قبلهم لما رأوا العذاب قالوا مثل ذلك، قالوا هذا عارض من عوارض الطبيعة وسوف يمطرنا:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وهذه هي الريح العقيم التي أرسلها عليهم وهي مثل الريح النووية تدمر الناس وكل شيء ولا يبقى إلا البنيان والمساكن.

في الكافرين:

وجزاء الكافرين مثل جزاء الظالمين إلا أن جزاء وعقاب الظالمين أشد وأعم وأسرع، ذلك أن الكافرين جحدوا بآيات الله والله واسع حليم والظالمين زادوا على ذلك بأن ظلموا خلقه وعباده الضعفاء والله سبحانه لا يقبل الظلم ويعاقب عليه بشدة كما أنه سبحانه لا يرضى لعباده الكفر وعاقبة الكافرين الجحيم:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾ [المائدة: ١٠].

أما في الدنيا فهم ليسوا في مأمن من عذاب الله، فقد عاقب الله أقواماً بكفرهم وأرسل عليهم العذاب مثل أهل سبأ لما كفروا بنعم الله حرمهم من تلك النعم:

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٦، ١٧].

وكذلك ما أصاب عاداً وثمود بكفرهم فعذبهم الله وأبعدهم:

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: ٥٩، ٦٠].



[الصورة عن: www.treehugger.com]



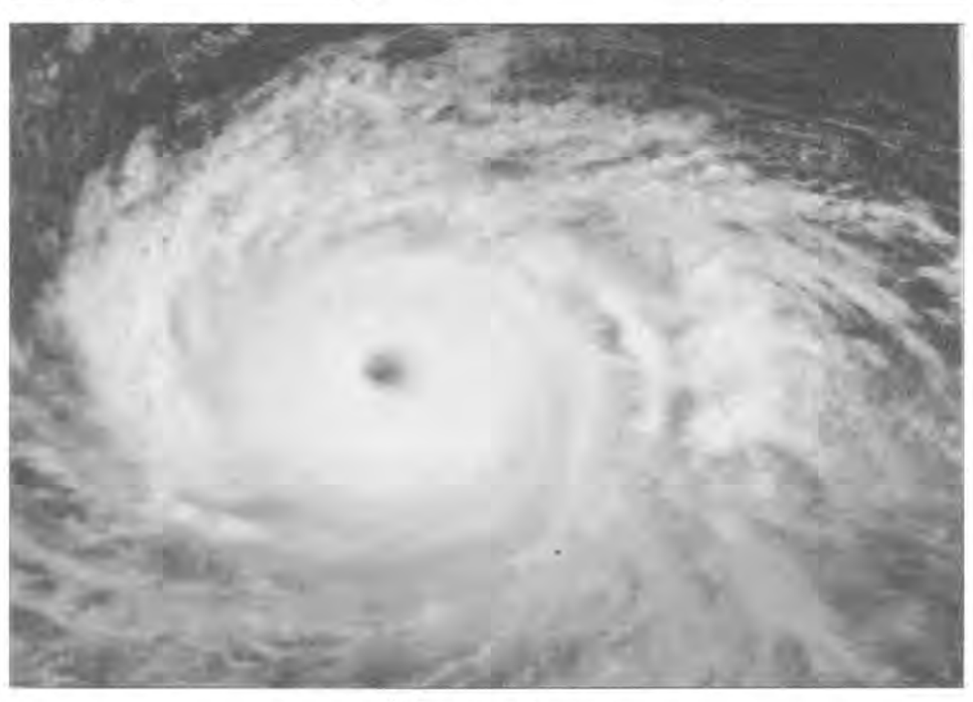
الرياح العاتية في: إعصار ترنادو، وفي الصورة السابقة، يرافقه البرق
[www.seanbuckley.ca]



[www.surfersvillage.com]



الرياح المدمرة أو الإعصار المسمى - هيرروكين وهو من أعتى الأعاصير في أمريكا، والصورتان أعلاه للإعصار الذي ضرب كاترينا



إعصار كاترينا من الأعلى
[www.essc.psu.edu]

والذين من بعدهم كثير أيضاً ومرير، وما هذه الكوارث والمصائب التي نراها في عصرنا هذا إلا أمثلة من العذاب المسلط على أقوام بكفرهم وبذنوبهم. فهذه الفيضانات السنوية التي تهلك الآلاف وتغرق مزارعهم ومساكنهم وهذه الزلازل والبراكين، والهزات الأرضية والأعاصير، التي تدمر المنازل على أهلها وتخرب المنشآت وتدمر وتحرق الغابات وتشيع الخراب، ما هي إلا نماذج وأمثلة مستمرة. وهي في تزايد وتصاعد حتى قيام الساعة، ذلك وعد الله الذي لا يخلف الميعاد وكل ما يحدث فإنما هو بعلمه وقدرته وعن هذا يقول سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٣١].

وهم لا يزالون بعد ذلك مستهزئين ولكن ماذا كان عاقبة المستهزئين:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرّعد: ٣٢].

والله سبحانه يرسل هذه الكوارث التقريعية تحذيراً وإنذاراً لعباده لعلهم يرجعون إليه ويتذكرون قبل أن يأتي الأجل المسمى الذي قد أمهلهم إليه وهو قيام الساعة، وإلا فهو قادر على إفنائهم بلمح البصر. كما يحذرهم من اليوم الآخر:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [المُزمّل: ١٧، ١٨].

ج ـ في مرتكبي الكبائر المتعدين حدود الله:

وهذه الكبائر والحدود قد ذكرها الله في كتابه وبينها وبين عواقبها رسوله الكريم أيضاً وحذر منها. [عن النبي ﷺ قال: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقول الزور** أو قال: **وشهادة الزور**»][1].

ومنها أيضاً:

[عَنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «**اجْتَنبوا السّبْعَ المُوبِقاتِ قالوا يا رَسولَ اللهِ وَما هُنَّ قالَ الشِّركُ باللهِ والسِّحرُ وقتلُ النفس الّتي حَرّم اللهُ إلاّ بالحقِّ وأكْلُ الرِّبا وأكْلُ مال اليَتيم وَالتّولّي يَوْمَ الزّحفِ وقذفُ المُحْصَناتِ المُؤمناتِ الغافِلاتِ**»][2].

---

(١) رواه البخاري: ٦٣٦٣.

(٢) رواه البخاري: ٦٣٥١.

آثار الزلازل والهزات الأرضية



الدمار والخراب والحرائق الناجمة عن الهزات الأرضية

[Stuartfrew.wordpress...]



صورة أخرى عن خراب الهزات والزلازل الأرضية

[www.tombradeleylega]

حرائق الغابات



[www.filebuzz.com]



[tiee.ecoed.net]

هذه من أشهرها وهي كثيرة فقد صنف الإمام الذهبي مثلًا في كتابه: الكبائر، سبعين كبيرة وهو كتاب قيم جدير بالاطلاع في معرفة خطورة هذه الكبائر وعواقبها الوخيمة. ولننظر الآن في بعض عواقب الكبائر والحدود، من الأحاديث التالية:

قال رسول الله ﷺ:

«ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم،

ولا ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلَّط الله عليهم الموت،

ولا منع الزكاة قوم إلا حُبس عنهم القطر»(١)، القطر أي المطر.

وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنه:

[قالَ أقبلَ علَيْنا رَسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: **«يا مَعشرَ المُهاجرينَ خَمسٌ إذا ابْتُليتُمْ بهنَّ وأعوذُ باللهِ أنْ تُدرِكوهُنّ لمْ تُظْهَر الفاحِشة في قومٍ قطُّ حتّى يُعْلِنوا بِها إلاّ فشَا فيهِمُ الطاعونُ والأوْجاعُ الّتي لمْ تكُنْ مضَتْ في أسْلافِهم الّذينَ مَضَوْا ولَمْ ينقُصُوا المِكْيالَ وَالميزانَ إلاّ أخِذُوا بالسّنينَ وشدّةِ المَنونَةِ وجَوْرِ السُّلطانِ عليهِمْ ولمْ يمنَعُوا زكاةَ أمْوالِهِمْ إلاّ مُنِعوا القطْرَ منَ السّماءِ ولوْلا البَهائِمُ لمْ يُمْطرُوا ولمْ ينْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وعهْدَ رَسولِهِ إلاّ سَلّطَ اللهُ عَلَيهِمْ عدُواً مِنْ غيرِهِمْ فأخَذوا بعضَ ما في أيْديهِمْ وما لمْ تحكُمْ أئِمّتُهُمْ بكتابِ اللهِ ويتَخيّروا مِمّا أنْزَلَ اللهُ إلاّ جعلَ اللهُ بأسَهُمْ بينهُمْ»**](٢).

ونحن نرى ونحس هذه العواقب جلية في مجتمعات الكفر الحديثة. وما أمراض الزنا المتفشية اليوم والتي تسبب موت الملايين مثل مرض الإيدز الذي أصبح شبح الموت المهدد للبشرية، وكذلك مرض القرود الإيبولا الذي يحصد الملايين ولا يمهل مريضهم أكثر من يومين!

---

(١) الحديث رواه الحاكم عن بريدة، وقال صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه ابن ماجة: ٤٠٠٩.

كذلك إذا لم يقيموا حدود الله ويقيموا العدل، فسيدب الفساد وتكون النتيجة لا محالة العذاب والهلاك. قال رسول الله ﷺ:

«يا أيها الناس إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(١).

كذلك إذا كانت الاستهانة بالأمانة وبالإخلاص وبمراقبة الله في حقوق المسلمين، تسوء الإدارة وتحل الكارثة:

[بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم: بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه قال: «**أين أراه السائل عن الساعة؟** قال: ها أنا يا رسول الله، قال: **فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة** (أي البلاء) قال: كيف إضاعتها؟ قال: **إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»](٢).

ذلك بما سيفسده هؤلاء الذين أسندت إليهم إدارة أمور الناس وهم ليسوا أهلًا لها، كذلك ما وصل إليه حال من أسندها إليهم من ضعف الإخلاص والمراقبة. والنتيجة لينتظروا البلاء واقتراب الساعة.

كذلك يعلم المؤمن بأن الاستهانة بحدود الله توجب العذاب في الدنيا فضلًا عن الدنيا فضلًا عن العذاب في الآخرة، كما في الحديث التالي:

[قال رسول الله ﷺ: «**إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فقيل وما هن يا رسول الله قال إذا كان المغنم دولاً والأمانة والزكاة مغرماً وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه وارتفعت الأصوات**

---

(١) رواه ابن ماجة: ٢٥٣٧.

(٢) رواه البخاري: ٥٧.

في المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وشربت الخمور ولبس الحرير واتخذت القينات والمعارف ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفاً ومسخاً»[(١)].

المغنم دولًا: اختلاس أموال الناس وتداولها دونهم. القينات: المغنيات.

ونحن نرى اليوم بعض هذه الخصال كيف بدأت تتفشى في مجتمعنا وما تفشى فينا أيضاً من أمراض المجتمعات الأجنبية الفاسدة التي تنتقل إلينا بالتقليد الأعمى دون تمحيص أو نظر في العواقب.

يسهر الشباب في مجالس اللهو الجماعية على حفلات وملذات يقضون بها الليل وليس فيها ما ينفعهم في مستقبل بلادهم، وليس فيها ما ينفعهم في مستقبل حياتهم في الدنيا أو الآخرة، وهم سامدون غافلون لا يعرفون ما ينتظرهم، والعدو في سباق مع الزمن! ولقد كان المنتصرون من أسلافنا يقضون الليل بذكر الله وبالصلاة وتلاوة القرآن والدعاء والتضرع إلى الله لينصرهم على عدوهم وليثبتهم على الهدى وعلى الصراط المستقيم. وبذلك تستقيم نفوسهم وتصفو قلوبهم وتعتدل أعمالهم، فيسعدوا بهذا النور الذي أنزل إليهم، ولم يكونوا يوماً لينسوا غايتهم في رضوان الله ولا ليضيعوا أعمارهم في لهو هذه الدنيا القصيرة سريعة الزوال، لقد كانوا كما وصفوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار! هكذا فتحوا لنا الأمصار ونشروا فيها الحق والعدل ووطدوا لنا فيها الأمن من عدونا. ونحن قعدنا عن كل ذلك واستجبنا لخداع عدونا ومن يتربص بنا ويطمع في خيراتنا ويحسدنا على نعم الله فينا، ونسينا ما أنذرنا به سبحانه من العذاب إن نحن قعدنا عن الجهاد والنفير:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٩].

---

(١) رواه الترمذي: ٢١٣٦.

الصواعق والبرق



[Img.dailymail.co.uk]



[www.freemypeople.com]

وقال رسول الله ﷺ:

«ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب»[(١)].

بالعذاب: بالذل واستعباد العدو لهم وأسرهم وقتلهم والتحكم في رقابهم واغتصاب أراضيهم ونهب خيراتهم.

كذلك من التجارب الملموسة في ارتكاب الكبائر هي أن من يعق والديه، يسلط الله عليه أولاده فيعقونه لا محالة!

هذه حقائق واقعة وهي عوقب الأعمال المتقدمة يتوقعها المؤمن لأنها من سنن الله وسنن الحياة.

د ـ في المؤمنين المتقين:

وهي توقعات لما قد كانت شواهد ماثلة وواقعة في أيام مجد الإسلام نختصرها كما يلي:

١ "– الأمن:

نتيجة الإيمان والتقوى المتوقعة أن يعم الأمن في المال والأهل والولد وفي العمل وفي كل شيء:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ

(١) رواه الطبراني انظر المنذري ج٢ ص: ٣٣١، ط/٣ - إحياء التراث العربي.

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

أو كما قال رسول الله ﷺ:

«... واللهِ ليُتِمّنَّ هذا الأمْرَ حتّى يسيرَ الرّاكبُ مِنْ صنْعاءَ إلى حضْرَموتَ لا يخافُ إلاّ اللهَ أو الذّئبَ على غنمِهِ ولكنّكمْ تسْتَعْجِلونَ»[1].

وبعكسه فالخوف من الاعتداء والسرقة وضعف الأمانة وفقد الإخلاص وغياب مراقبة الله في العمل وكلها تأتي من ضعف الإيمان وقلة التقوى، وقد أفشلت هذه كافة المشاريع وأفسدتها وعادت بالضرر العام على الأمة.

٢"- الزهد والاعتدال في النفقات:

باتباع الزهد الفردي والإنفاق المعتدل وتجنب الإسراف سيتحقق الاكتفاء الذاتي العام ويعم الخير على البلد:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

وهاتان الفقرتان (١"، ٢") أعلاهما عماد الاقتصاد في العالم، فالأولى تحقق الاستثمار الجيد بالإخلاص والاستقامة للعمال ورب العمل، والثانية تحقق الاكتفاء الذاتي والادخار بأعلى مستوياته وتتبعهما النتيجة التالية:

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري: ٣٣٤٣.

٣" - البركة:

وستفيض البركة بهذه الاستقامة على مرضاة الله وبوعد منه:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

٤"- النصر والإسناد:

إيمان جازم بأن الله مع المؤمنين يمدهم وينصرهم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

وبأن لهم إخوة يؤازرونهم:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحُجرات: ١٠].

وهم معهم قوة كالبنيان المرصوص:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصَّف: ٤].

٥ "- السعادة والعزة:

سيحس المؤمن بالسعادة البالغة في مجتمع الإيمان المتمثل في طاعة الله وإقامة دينه، في مجتمع العدل والإحسان والرحمة والمحبة والأخلاق والمثل العليا، في حياة قد ارتقت إلى أعلى مستوياتها الإنسانية ولكن بحق وصدق. لا خوف من فقر أو مرض، ولا خوف من ظلم أو تعسف، أو اغتصاب للحقوق، بل اطمئنان برحمة الله ورضوانه، وشعور بالمنعة والعزة بالله ورسوله وبالمؤمنين. المؤمنون إخوانه الذين يواسونه ويؤازرونه ويحملونه:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨].

وهو سعيد لأنه يعلم أنه ليس في مجتمع الذئاب الذين يتخاطفون المصالح فيقع الضعيف مركولاً بين أرجلهم أو يموت فقيراً على قارعة الطريق، أو يضطروه إلى الذي وتعاطي المحرمات حتى يعيش، ولا يلقى من يرحمه إلا وهو يريد أن يفترسه!

"- غنى النفس والثقة بالله:

إن ما يأتي به الإيمان والتقوى من الخير والنعيم لا يكاد يحصى. وهو شامل للخير العام وللصحة في النفس والبدن وفي صلاح المجتمع وفي سعادة الدنيا والآخرة. وماذا يمكن أن يتمنى الإنسان، أو يستطيع أن يحقق أكثر من هذا؟

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

إن النظرة إلى العالم اليوم تؤكد أن كل ما ينشده ويسعى إليه لا يستطيع أن يبلغ بالبشرية هذا الهدف! بل إن الدول المتقدمة اليوم لا تتسابق

في الحقيقة إلا في مصالحها المؤدية ضلال الناس وخراب العالم وخراب النفس البشرية.

لذلك فإن توقع المؤمن لنتائج أعمالهم في غضب الله وسخطه هي الهاوية والفناء مهما عظمت هذه الأعمال:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٣، ٢٤].

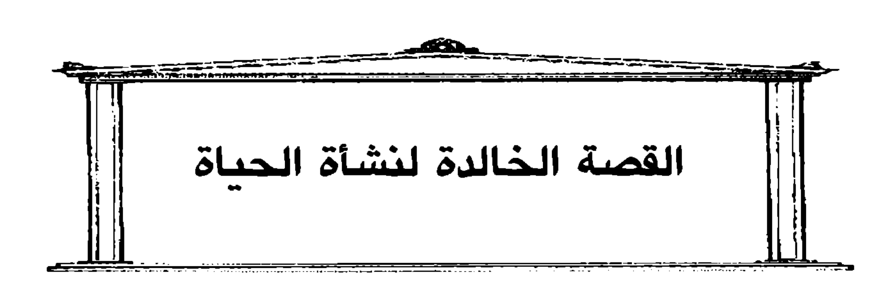
لأنه ليس في مرضاة الله، إنه مضاد لإرادة الله ومسيرة الكون!



الكتاب الثامن

غاية الخلق
وعاقبة العلم والإيمان

الفصل الأول



نشأة الحياة:

من بين القصص والأقاويل والظنون، ومن بين تكهنات الإنسان وتخبط علمائه الباحثين، بقيت قصة نشأة الحياة التي قصها خالق الحياة، هي القصة الظاهرة على كل القصص، الخالدة على مر الزمن، لأنها القصة الحقيقية الصادقة.

وهي أن الله سبحانه بدأ خلق الإنسان الأول (آدم) على هيئته هذه من الطين. وبعد أن صوره التصوير الحسن نفخ فيه من روحه، فدبت فيه الحياة. ثم خلق منه زوجته، ثم جعل خلق الذرية من نسل هذين الزوجين، يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣].

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٧-٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

لقد بينا في الكتاب الثاني كيف فشلت كل محاولات التفسيرات المادية الضالة وظنون الإنسان المغرور في تلفيق قصة أو نظرية لبدء الخلق غير قصة الخالق العظيم. تلك التفسيرات التي لم تجد لها سنداً أو دليلًا من الحقيقة.

ولقد أظهر اكتشاف عوامل الموروثات أو ما تسمى (بالكروموسات) أو بالصبغيات أيضاً بأن لكل مخلوق - حيواناً كان أم نباتاً - سلسلة طويلة منتظمة بشكل السلم من هذه الموروثات خاصة به، وهي تحدد صفات خلقه وكيانه. كما أثبتت التجارب أن نطفة أي مخلوق لا تلقح ولا تنجذب إلا إلى البويضة التي من نوعه، فهذه وحدها تستجيب له بدورها، وتفتح له الباب ثم تحجره فوراً بعد دخوله وتتغير بحيث لا يمكن أن تسمح لغيره بالدخول. كما دلت نظرية الصدفة والاحتمالات على استحالة تكوين جزيء بروتيني واحد ميت فضلًا عمن فيه الحياة! وأما نظرية النشوء الذاتي فهي الأخرى ليست إلا هراءً. فالذي ليس له وجود لا يمكنه أن يمنح لنفسه الوجود، وهو أصلًا غير موجود. وقديماً قيل فاقد الشيء لا يعطيه.

نشأة الوجود البشري على الأرض:

وبقيت أيضاً القصة الحقيقية الخطيرة التي بدأ بها الوجود البشري في العالم التي قصها الخالق الذي بدأ خلق الإنسان بعلمه وقدرته، بقيت قصة بينة خالدة، ناصعة بوضوحها محتفظة بأصالتها لا يأتي الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وهي القصة التي قصها سبحانه في كتبه التي أنزلها على

رسله. ونحن نجد نصوصها في ثنايا القرآن الكريم مرة بالتفصيل ومرة بالإيجاز ومرة بالإشارة السريعة حسب أغراض القرآن في كل موضع. لكنها في سورتي البقرة والأعراف جاءت أكثر تفصيلًا. ولنأخذ مثلًا ما جاء في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩].

من هذه القصة نستلهم ونستقي بإيجاز أسباب بدء الخليقة ونشوء التاريخ البشري على الأرض، وعلة وجوده واستخلافه المؤقت فيها كما يلي:

١ ـ أراد الله أن يجعل الإنسان (آدم) خليفته في الأرض، وآثره فيها دون ملائكته.

٢ ـ منحه أسباب العلم والقدرة على التعلم وميزه بها على الملائكة.

٣ ـ كرمه بأن أمر الملائكة أن تسجد له (لما خلقه الله بيده) فسجدت الملائكة كلها إلا إبليس (وكان من الجن).

٤ ـ كان إبليس هذا بقدر الله ضرورياً لتمحيص نفس آدم (النفس الإنسانية القلقة) بإقحامها في الصراع بين الولاء لله أو موالاة الشيطان (العدو) وضرورياً لخوض هذا الامتحان:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلك: ٢].

٥ ـ بعد أن فشل آدم في أول تجربة له مع الشيطان، ونسي وصية ربه، ندم ثم تلقى من ربه كلمات التوبة فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم. وهذا هو الحل والمخرج له ولذريته من بعده، لاتباعه والمثابرة عليه كلما وقع أحدهم في خطيئة.

٦ ـ جعل الله خطيئة آدم هذه حجة عليه في هبوطه إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها في إعمارها (بناء صرح الحضارة الإنسانية) وإقامة العبادة فيها لله وحده، فيتم بذلك (إرساء دعائم العدل والسلام)، إلى حين الأجل المسمى.

٧ ـ سيكون حسن المصير النهائي (في الحياة الآخرة) متوقفاً على اتباع الهدى وتلقيه من الله وحده في تصريف شؤون الاستخلاف، أو مواجهة سوء المصير عند رفض هدى الله واتباع أولياء من دونه.

هذه هي الخطوط الرئيسية لبدء التاريخ البشري ونشوء الحضارة الإنسانية على الأرض ومصير الإنسان بعد الموت.

فهل اعتبر الإنسان واتعظ من هذه القصة وعرف الهدف من حياته فيها، ولزم واجبه واتبع وصية ربه على هذه الأرض؟

كلا لقد نسي البشر هذه القصة كما نسي أبوهم آدم من قبل، فهم لا ريب يحملون صفات الروح الإنسانية لآدم نفسها، أليسوا هم ذريته؟ والله يقول عنه:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].

نسوا هذه الغاية وشيئاً فشيئاً انحرفوا واتبعوا خطوات الشيطان فضلوا الصراط المستقيم إلا من رحم الله.

إن الطريق المستقين وخط الهداية في التاريخ الإنساني هو ما جاءت به الرسل من عند الله واتبعه المؤمنون بهم في كل حقبات التاريخ (من بعد آدم وحتى ختموا بمحمد ﷺ):

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف: ٣٥].

وهكذا يرسل الله الرسل كلما انحرف الناس عن الهدى وضلوا بالزمن عن الطريق حتى يردوا الناس إلى هدى الله وإلى الطريق المستقيم..

وكانت الرسل تجابه دوماً بالمعارضة والتكذيب وتقابل بالأذى وبتأليب الباطل على أنصار الحق حتى يأتيهم بأس الله:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤].

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٦].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر: ٥].

وإن الضلال والشرك واتخاذ الآلهة والأصنام وعبادة الكواكب،

والفوضى في السلوك الإنساني هي من ابتداع البشر الضال من معارضي الرسل ومن المكذبين برسالاتهم. وفي أحقاب الضلالة في فترات الرسل، يروج المضلون والمبتدعون أفكاراً ضالة وديانات مبتدعة ليبنوا عليها ويعتبروها جزءاً من تاريخ الأديان ليوهموا بها المنحرفين والجاهلين. وهي في الحقيقة مجموعة ضلالات لا تمثل نشوءاً ولا تطوراً للأديان كما يدعون ظناً وبهتاناً، وإنما تمثل تاريخ ضلالات لا تمثل نشوءاً ولا تطوراً للأديان كما يدعون ظناً وبهتاناً، وإنما تمثل تاريخ ضلالات الإنسان وكفره وابتعاده عن هدي الرسل. فكلما رأوا من صور الحيوانات على الجدران والتماثيل والأصنام الأثرية نسجوا عليها من خيالهم المريض كما تخيل داروين من قبلهم واعتبروها تطوراً وظنوها علماً.

إن الدين الصحيح وخط الهداية الإلهية الذي جاءت به الرسل واحد لم يتغير منذ القدم وهو ببساطة: عبادة الله وحده، واتباع هداه بالإصلاح في الأرض.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وهذه هي دعوة الرسل والأنبياء جميعاً في كل مراحل التاريخ. إن طمس تاريخ الرسل والأقوام المهتدية بهديهم، وإبراز تاريخ الإنسان الضال وإظهاره بنشأة بدائية كالحيوان أو أنه نشأ من حيوان ثم تطور بتفاعله مع المحيط وكانت حياته أشبه بالحيوانات المفترسة، ثم اكتشف النار وكانت حياته الجنسية بواحاً وبدون نظام ولم يكن يعرف اللغة والتخاطب إلى آخر ذلك من الأوهام والضلالات المبتكرة، إن هو إلا تضليل وافتراء ومحض خيال. إن تزوير وتفسير التاريخ بهذا الشكل كذب مقصود وهو من تخطيط اليهود لتضليل الناس وطمس حقائق الدين وتاريخ الأديان. وهم بذلك قد جعلوا الناس أميين وبذلك يحق لهم - حسب اعتقادهم - أن يستحلوا أموالهم ولا شيء عليهم بذلك:

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ

بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٧٥].

إن الله سبحانه منذ خلق آدم علمه الأسماء كلها وعلمه كل شيء يحتاجه في خلافته في الأرض وأمره بتوحيده واتباع أوامره وحذره من اتباع خطوات الشيطان المؤدية إلى الفساد في الأرض وسفك الدماء ليبدأ هو وأبناؤه في إعمارها وفي العيش بسلام وبنور الله وهديه حتى الأجل المسمى وقد خلقه كاملًا وجعل له السمع والبصر والفؤاد ليسمع ويبصر ويعقل، خلقه إنساناً عاقلًا ولم يخلقه حيواناً بهيماً ولا حشرة تافهة، وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلًا:

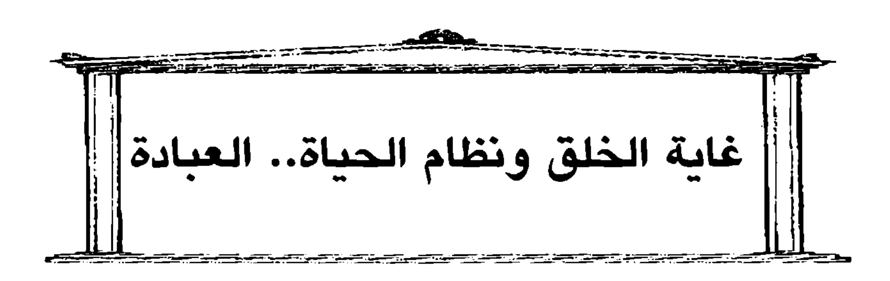
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسرَاء: ٧٠].

فلماذا هذا الاسفاف بالإنسان، والانحطاط في التفكير، والتخبط في الضلال، هل هذا علم؟ هل هذه حرية البحث أم هو الإصرار لإثبات صحة الكفر؟

لقد نسي البشر بمرور الزمن ماذا حل بالقرون الماضية، وبالأقوام التي أعرضت عن هدى الله واستكبرت في نفسها، وما أصابها من ويلات وعذاب، وما حل بحضاراتها وبنيانها من سقوط ودمار. يذكره بها القرآن ولكن هل يتذكر؟ هل من مدكر؟ هل يتعظ الآن ويتبع هدى الله ويسلك سبيل النجاة والسلام؟



الفصل الثاني



غاية الخلق ونظام الحياة.. العبادة

إننا في دراستنا للعلم إنما ندرس آثار صنع الله وإبداعه في خلق الكائنات، وفي النواميس والسنن التي وضعها سبحانه لتربط بين جزئيات هذا العالم، وتحفظ تماسكه وتوازنه من الفوضى والاضطراب. هذه النواميس الدقيقة التي لا تتبدل ولا تتغير وتحافظ على الضبط والنظام المتماسك.

وهذه القوى الخفية التي نراها تظهر لنا هذا التوازن والانسجام العظيم، وتظهر لنا الدقة والحكمة والقصد والتصميم علاوة على ما فيها من العناية واللطف والرحمة والتدبير، نراها في أصغر الأحياء وأكبرها وفي أبسط النباتات وأعظمها وفي ذرات الهواء وأجرام السماء! نقرؤها ونلمسها في كتاب هذا الكون.. وكتاب الله يذكرنا ويبصرنا بهذه الحقائق التي تقودنا بداهة إلى الإيمان وإلى رؤية النور وشفاء الصدور:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣].

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ٧٩].

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾﴾ [الأعلى: ١-٥].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٦٥].

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٦].

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل: ١١].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

وهكذا سيكون العلماء هم أكثر خشية لله، بما سيطلعون عليه من

أسرار العلم، وبما سيرون من أسرار هذه القدرة الإلهية الحكيمة، المبدعة في كل شيء، الباعثة على الخشية والرهبة والإكبار والتوقير العظيم، والملقية في النفس رغبة التقرب والطاعة والشكر العميق والتسبيح بحمد الخالق العظيم. وهذا هو أساس اليقين:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥].

وهذا هو الإيمان ويحتاج إلى تصديقه بالعمل حتى يتم. ونحن نقرأ الآيات الكثيرة وهي دائماً تقرنه بالعمل فنجد (الذين آمنوا) وتتبعها (وعملوا الصالحات) وبذلك يثمر العبادة.

إذاً فإن ثمرة العلم النافع لمن هداه الله وشرح صدره للإيمان هي معرفة الخالق وعبادته. وخير حالة للنفس المؤمن تكون فيها مستعدة وراغبة في عمل الصالحات عندما تكون بين الخوف والرجاء. بين الخوف من غضب الله وعذابه وبين الرجاء في رضوانه ورحمته:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

بهذه الحال وبهذه النفوس استعذب الصالحون لذة العبادة والمناجاة فذهبوا يقيمون الليل صلاة وعبادة، وتضرعاً ودعاءً لا يفترون ولا يسئمون.

وأوضح ما نشهد هذه المعاني في الصلاة، في فاتحة الكتاب التي هي أساس الصلاة ولا تتم الصلاة إلا بها، وهي أم الكتاب والسبع المثاني:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧].

هكذا مجدها الله في كتابه وجعلنا نرددها يومياً في صلواتنا عشرات المرات وهي كما نفهما:

الحمد لله رب العالمين: الحمد والثناء مخصوص لله رب العالمين، والحمد هو العبادة وهي غاية المحبة والتقديس.

الرحمن الرحيم: ثناء ورجاء الرحمة من الرحمن (اسم منها) والرحيم دائم وواسع الرحمة.

مالك يوم الدين: الذي يملك الأمر والإدانة يوم الحساب.. وفيه الخوف.

إياك نعبد وإياك نستعين: نعبدك ونستعين بك وحدك، وفيه التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده.

اهدنا الصراط المستقيم: رجاء وسؤال الهداية لاستقامة على هذا الصراط.

صراط الذين أنعمت عليهم: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وهم القدوة الحسنة والرفقة المنشودة في جنات النعيم.

غير المغضوب عليهم: غير الذين غضبت عليهم بكفرهم وعصيانهم وتكذيبهم.

ولا الضالين: الذين ضلوا طريق الحق، فوقعوا في الشرك واتبعوا الباطل.

وفي هذه السورة يتجلى ويتجدد موقف العابد في إقراره بالعبودية لله وحده، وفي موقف الخوف والرجاء، وفي طلب الهداية والاستقامة على طريق الحق والخير، ثم التبرء من الكفر والعصيان والضلالة والشرك.

وهذه الحالة الروحية نجدها نفسها في بقية العبادات والفرائض، ناهيك عن آثار الشفاء وسعادة النفس وحلاوة الإيمان التي يجدها قلب المؤمن بعد أدائه لهذه العبادات والمناسك. ثم ما تحدثه في نفس العابد من الثبات والانضباط والثقة والاطمئنان وما تقوي فيه من الإصرار على المواظبة والدوام، وحفظ العهد والمرابطة في سبيل الحق والإخلاص لله وحده.

وأفضل العبادات وأحبها إلى الله هي الفرائض التي فرضها الله على عباده وهي أركان الإسلام. وما دون ذلك من العبادات فهي نوافل يتقرب بها المؤمن المطيع المحب لربه الراغب في رحمته. لكن الفرائض هي أفضل ما يتقرب بها المؤمن إلى ربه، وذلك من الحديث التالي:

[قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«إنّ الله قالَ مَنْ عادَى لِي وَلِياً فقدْ آذنتُهُ بالحَرْبِ ومَا تَقَرَّبَ إليّ عَبدي بِشيْءٍ أحبَّ إليَّ مِمّا افترَضْتُ عَلَيهِ ومَا يَزالُ عبْدِي يتَقرّبُ إليَّ بِالنّوافِلِ حَتّى أحبّهُ فإذا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الّذي يَسْمَعُ بهِ وبَصَرَهُ الّذي يُبْصرُ بهِ ويَدَهُ الّتي يبْطِشُ بها ورِجْلهُ الّتي يَمْشي بِها وإنْ سَألنِي لأعْطَيْتَهُ ولئنْ اسْتعاذَني لأعيذَنّهُ وما تَرَدّدْتُ عَنْ شيءٍ أنا فاعِلُه تَرَدُّدي عَنْ نَفس المُؤمِن يكرَهُ المَوتَ وأنا أكرَهُ مساءَتَهُ»**][1].

فالصلاة والزكاة والصوم والحج عبادات ومناسك صرفة لتقويم النفس وتزكيتها.

أما الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إن أداها المؤمن

---

(١) رواه البخاري: ٦٠٢١.

بحقها، فهي المشرف العام والضابط العدل المصدق لهذه العبادات وعامل الإخلاص فيها.

وهي تعني في شطرها الأول: الإخلاص في الشهادة بأن الألوهية والعبودية لله وحده وليس لأحد سواه أيا كان من الشركاء. وتوجب على قائلها الاستقامة والإخلاص في كل الأعمال لأنها تقع كلها تحت اطلاع الإله وعلمه وسمعه وبصره في السر والعلن وبأنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وتعني في شطرها الثاني: الإيمان برسوله وبكل ما جاء به الرسول من ربه واتباع ما أمر به وأقره، وترك كل ما خالفه ونهى عنه.

بيد أن العبادة لا تقتصر على الفرائض وحدها بل هي مفهوم شامل عام لكل أعمال الخير وأعمال النوافل أيضاً التي يتقرب بها العبد إلى ربه معرباً عن حبه وإخلاصه، وشكره وطاعته، سواءً بقلبه أو بجوارحه.

فالتفكر في خلق السموات والأرض عبادة، بل من أفضل العبادات. والسعي في الأرض طلباً للرزق عبادة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، ومساعدة المسكين الفقير عبادة، ورحمة اليتيم والصغير والمصاب والمنكوب عبادة، والعمل في مشاريع النفع العام عبادة، وكذلك العمل بالصدق والإخلاص والأمانة عبادة، وبالاختصار كل عمل خير إذا توفرت فيه النية الخالصة لله وحده هي عبادة.

وهذه العبادات هي السياج المحافظ للنفس على الصراط المستقيم، يحفظها من الزيغ والضلال، أو من النكوص والوقوع في الآثام واقتراف المظالم، أو من الخضوع لأعداء الله، واتباع سبيل الشيطان والطاغوت المخالف لمنهج الله. كما أنها تأمرها بالمعروف وتنهاها عن المنكر وتهديها إلى الاستقامة على الصراط المقرب إلى الله تعالى، وتكون لها فرقاناً تفرق

به بين الحق والباطل وتذكرها وتبصرها بالحق عندما تختلط الأمور وتظهر الشبهات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩].

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فغاية العبادات حفظ النفس الدائم مستقيمة في طاعة الله ومحبته وشكره، وعلى الصراط المستقيم الذي وضعه الله للإنسان ليسلكه في هذه الحياة.

وهذه العبادة المؤدية إلى تقوى الله وإلى الاستقامة هي الضابط العظيم للنفس البشرية لأن تعيش بسعادة وتثمر الخير وتحقق العدل والسلام، فيتحقق بذلك أمر الله الواحد الأحد:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البيِّنة: ٥].

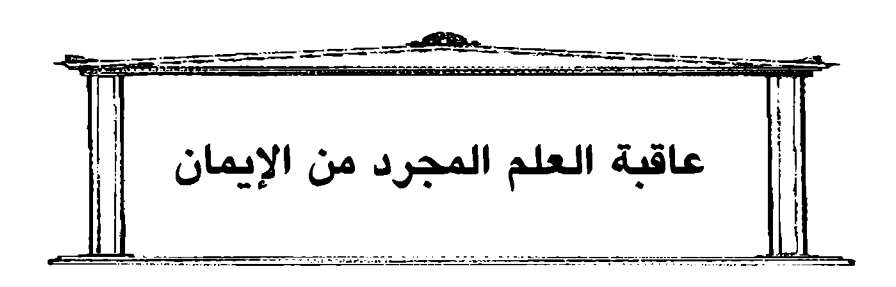
﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢].

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عِمران: ٥١].

الفصل الثالث



عاقبة العلم المجرد من الإيمان

في إبان النهضة العلمية في الغرب أدى الشقاق الذي حدث بين علماء الطبيعة والكنيسة إلى ردة فعل عنيفة طائشة، أتت فيما بعد ليس على المسيحية كدين وإنما على كل الأديان بصورة عامة. وبذلك رفض هؤلاء العلماء كل ما جاءت به الأديان من الهدى والنور الذي يهدي الإنسان والبشرية عامة إلى الصراط المستقيم طريق السلامة في هذه الحياة. والسبب في ذلك هم رجال الكنيسة أنفسهم في ذلك الوقت بسبب انحرافهم عن تعاليم المسيحية ولم يعترفوا بأخطائهم بل رموا العلماء بالكفر وأحلوا قتلهم وتعذيبهم. ولو أنهم لم يعملوا لمصالحهم ودرسوا التعاليم بتجرد لعلموا أن البحث في كافة العلوم إنما هو ما يأمر به الدين ويؤيده. ولكنه تمادوا في غيِّهم حتى نضجت الفتنة التي أدت في النهاية بالعالم إلى الابتعاد عن الدين ونبذ الكتب السماوية المنزلة من عند الله وراء ظهورهم. فرفضوا العلوم الروحية عامة وحصروا العلم في القناة المادية الضيقة. لقد ظنوا أن الإنسان وحده هو المفكر المدبر والمسيطر في هذه الحياة يتصرف فيها كيف يشاء ويبحث ويشرع لنفسه ما يشاء دون اعتبار لسلطان الله وهيمنته على هذا الكون بأسره. فخلطوا بين ما سخره الله لهم ليتصرفوا فيه وبين ما هو

من شأن الله وحده وبذلك وقعوا في مزالق الكفر والشرك وفي مهاوي غضب الله وسخطه. ولقد أوصلهم هذا التفكير الخاطئ إلى الغرور والطغيان وإلى الاستبداد والفساد في الأرض، والله لا يحب الفساد.

ولو أنهم تريثوا قليلًا قبل اندفاعاتهم الطائشة هذه، الناتجة عن ردة الفعل العنيفة الساخطة على الكنيسة ورجالها لفسح لهم المجال الواسع وأقبلوا على دراسة الأديان ووثائقها العلمية والروحية وجعلوها مع العلوم المادية أسساً لبناء الحضارة وسعادة الإنسان. ولو فعلوا ذلك بتجرد وقارنوا بينها وبين الإسلام[١] (وهو الوحيد صاحب النصوص المحفوظة للوحي والتنزيل) لتبينوا أنه هو الذي يحث الإنسان على البحث والعلم والتعلم، وليس فيه ما يعارض العلوم الكونية وعلوم الحياة ويوجهه إلى ما فيه الخير والأمن والسعادة والرخاء، ويحفظه من الزيغ والضلال ومن الظلم والخراب!

فهو يحثه على التفكير في تدبير الحكيم العليم في مملكة الكون وفي مملكة الإنسان، ليعلمه أنه ليس إلا أحد مخلوقاته المكرمين بالعلم المستخلفين له في أرضه، ويعمل تحت مشاهدته وسمعه وبعلمه. ولكي يعلم مقام ربه، وأنه بحاجة إلى توجيهه وهديه، بل إلى عبادته وشكره والإسلام له حتى تستقيم حياته وهو يؤدي واجبه فيها متمتعاً برضوان ربه آمناً من غضبه.

لكن علماء الغرب جعلوا الأمر إليهم، ولم يفكروا أين تكون قوة الإنسان الزائفة الحقيرة أمام قوة وجبروت ممسك السموات والأرض؟ فمضوا هكذا مغمضين أعينهم دون أن يبالوا بالعاقبة. فحق لنا أن نسميهم جهلاء الغرب وليسوا هم بعلمائها!

---

(١) وضع الدكتور موريس بوكاي مقارنة قيمة في كتابه التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، وتبعه آخرون ولا تزال الدعوة إلى الحوار قائمة غير مستمرة.

أولم يفكروا بأن هذا الهدى الذي أنزله الله يجعل الإنسان في حفظ الله وأمنه ورحمته؟ وأنهم برفضهم وكفرهم به لا تتحقق إرادة الله وحكمته، ولا يتحقق في الأرض عدل ولا سلام؟ وهم بذنبهم هذا يعرضون أنفسهم للعقاب والعذاب؟

أم أنهم تماروا بالنذر، وتمادوا في الأجل الذي أمهلهم به ربهم فلم يعجل لهم العذاب فأمنوا مكره واستراحوا؟:

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾ [القمر: ٣٦].

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ٥٨].

ولما استبطأوا العذاب جعلوا يتحدون قدرة الله ويستعجلون عذابه تماماً كما فعل المشركون من قبل:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

لكن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

وهل يمكن لعاقل فضلًا عن علماء أن يتهاون في هذا الأمر ويتجاهل هذه القدرة الإلهية العظيمة والإرادة الحكيمة، ثم يأمن العاقبة في مخالفتها وفي تحديها؟

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرّعد: ١٦].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يُونس: ٣١].

وهل يمكن لعلماء أن ينكروا علوماً غيبية وأسراراً كونية خطيرة لمجرد أنها لا تدركها حواسهم المحدودة؟ وقد علموا أن هذا الكون مليء بالأسرار، سحيق في الأعماق مجهز بالأخطار، ولا يعلم أحد إلا الله إلى أين مسيره، وما هو مصيره، ومتى يحيق به وعد الله الذي لا يخلف الميعاد!

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النّمل: ٦٥، ٦٦].

وقد بدؤوا الآن يرون بعض آياته كما وعد بها سبحانه:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصّلت: ٥٣].

وقد تكون هذه بداهة لكنه قد مضى عليهم في هذا الطريق زمناً، وبعدت عليهم الشقة، وبنوا فيه بنياناً عظم فيه الخطأ، وقست فيه القلوب

ودأبت عليه، حتى أصبح الرجوع عنه أو إبداله في حكم المستحيلات عندهم، إلا بحبل من الله وحبل من الناس!

ولا نريد أن نطيل هنا في بيان خطأ ما ذهبوا إليه، وإنما يكفينا أن ننظر ونتفحص نتائج وعواقب السير في هذا الاتجاه الخاطئ، أعني اتجاه بناء صرح العلم على أساس من المجاهرة بالكفر، وتحدي إرادة الخالق، ونبذ ما جاءت به رسل وأنبياء الله، فماذا نرى.؟

حقاً لقد علوا في الأرض علواً كبيراً، وشيدوا صرحاً علمياً مادياً عظيماً. لكنهم بنوه وهم خالين من الروح، وبغير هدى من الله، وعلى غير أسس الحق والعدل. بنوه وهم بأشد الأمراض النفسية ضراوة؛ واستعباد الغير والإفساد في الأرض. وهل هذه الأمراض إلا أسباب الدمار والهلاك التي أهلك الله بها أهل القرون الماضية من الطغاة والفراعنة والظالمين؟

إن التاريخ يحدثنا أن الأمم التي طغت وبغت في الأرض كانت عاقبتها السقوط والهلاك مهما امتلكت من علم وقوة وسلطان.

وإن ما نراه اليوم في دول المدنية والحضارة من سباق في التسلح والرغبة في تدمير الغير لتحصيل بعض الأمن الإقليمي والاستئثار بالمصالح والتغطرس بالقوة والاستعلاء في الأرض ونشر الفساد وتدمير الأخلاق، إن هو إلا نذير الكارثة والسقوط والدمار!

وهكذا تكون العاقبة عندما تنحرف الغالبية بالعلم وتخلو من الإيمان وتنتكس روح الإنسان ويخلو البشر من خشية الله، فترفع الرحمة والإحسان ويفتقد العدل والسلام، ويحل محله الظلم والفساد، وتعلو شريعة الغاب، وتقع الكارثة وتشيع الفاحشة، وتنذر بالدمار وتذهب الأعمال هباءً ورماداً، والدار بواراً وخراباً، والعلوم ضلالاً وسراباً، والعاقبة خسراناً وعذاباً:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩].

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

هذه عاقبة الطريق الضال الذي سلكه علماء الغرب بالعلم وعزلوه عن الإيمان ووضعوا له مذاهب وأنظمة لأنفسهم على غير هدى من الله، وفي غير مرضاته وخالية من إنسانية الإنسان ومدمرة لروحه وعواطفه.

هذه المذاهب العلمانية المادية، والقوانين الوضعية التي استبدلوا بها شرائع الله وتعاليمه وهدايته للبشر، ويحاولوا أن يجبروا ويجروا البشرية كلها إليها وإلى هذه الهاوية، هؤلاء سوف لا يرعووا عن غيهم ولا يوقفوا تيار اندفاعهم الطائش هذا حتى يروا قوة تصدهم أو يروا بأس الله أو عذاباً أليماً ينزله بهم. وعند ذلك فقط يصحوا ويذعنوا للحق كما صحت الأمم الظالمة من قبلهم، ولكن بعد فوات الأوان!

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٢-٨٥].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الطُّور: ٤٤-٤٦].

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف: ٨٣].

أما نحن فما بالنا ونحن نملك علم الروح والإنسان، الإنسان الذي كرمه الله بالإيمان والتقوى، ما بالنا نتبع الضالين عن الهدى المنحرفين بالعلم؟

إنه ليس هناك مبرر علمي واحد للكفر والانحلال الخلقي. وماذا يضير التقدم العلمي إن كان أهله مؤمنين متقين؟ أليس يزيده رفعة وشرفاً؟ ويزيده نوراً ورحمة؟

إن علم الروح يفيد بأن نفس الإنسان إذا تحللت خلقاً وتمتعت كالحيوان ونهلت من شهوات الجسد بغير حدود، فسدت وفقدت السيطرة على النفس وأصبحت مهيأة لاقتراف أنواع الجرائم. وعندها سوف لا تكون مؤتمنة بما تمتلك من قوة التقنية العلمية. إن تقاليد الغرب وعاداتهم وطريقة حياتهم، لا علاقة ولا تأثير لها بالعلم الذي اكتسبوه، وليست هي التي أوصلتهم إلى التقنية التي امتلكوها. إنهم وصلوا إليها فقط بالجد والاجتهاد والصبر والإخلاص في تحصيل العلم، وليس بالتحلل الخلقي واتباع الشهوات أو بالكفر والإباحية، أبداً لم يتوصلوا إلى ما وصلوا إليه بهذه الأخلاق. وإنهم كما يعترفون على حد قول الدكتور كاريل في كتابه: الإنسان ذلك المجهول، (بأنهم ضحايا تخلف علوم الحياة عن علوم المادة)[1].

---

(١) انظر كتاب: الدين في مواجهة العلم. لوحيد الدين خان، ص: ٩٨، دار الاعتصام، ط/١ - ١٩٧٢م.

وإن علماؤنا الذين يتبعون الغرب في كل شيء إنما يقلدونه تقليد الأعمى. يذهبون إلى معاهد الغرب ليدرسوا العلوم والتكنولوجيا ويعودوا بما حصلوا من هذا العلم ومعه جملة من أمراض الغرب النفسية والخلقية والدينية. وهذا التقليد والاتباع أخبرنا به رسول الله ﷺ منذ ذلك الوقت بقوله:

«لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: **«فمن»**[1].

وكون علمائنا اليوم عندهم كتاب الله (القرآن) الذي يحث على العلم، ويأمر بالعلم، وينير الطريق بما يفتح للعلماء من سبل العلم، ولكنهم قد أهملوه ولم يدرسوه ولم يتفهموا إعجازه وإبداعه في هذا السبيل، فنبذوه وراء ظهورهم، بل أصبحوا كمثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها:

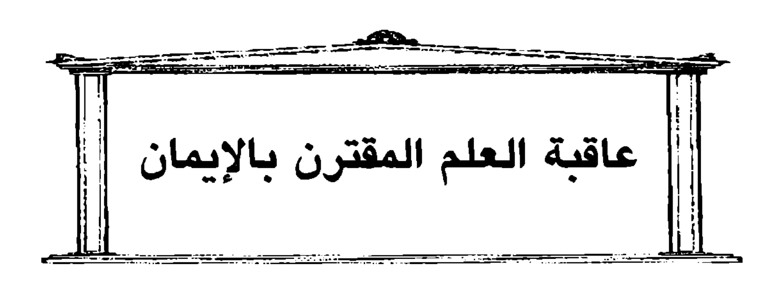
﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجُمُعَة: ٥].

إنهم يدفنون رؤوسهم كالنعام، ولا يريدون أن يعرفوا ما حولهم، وما يكاد لهم، ولا ما سيحيق بهم. إنهم بهذا يفقدون استقلالهم، ويحقرون أنفسهم، ويطمسون كيانهم وشخصيتهم، وتاريخ مجدهم. وإنهم بهذا يخونون علمهم، إذ لا يملكون الشجاعة والصراحة في عرضه على الملأ، ولا يملكون الرغبة في نشره بين الناس.



(١) رواه البخاري: ٣١٩٧.

الفصل الرابع



بينا في الفصول السابقة صفات المؤمنين عباد الرحمن الذين يتمتعون بالإيمان ويستقيمون بمقتضاه، والذين دفعهم علمهم وإيمانهم إلى عمل الصالحات واتباع هدى الله ومنهجه الذي جاءت به الرسل. وهؤلاء هم النخبة الخيرة في الأرض المحاطة بعناية الله وحفظه وقد وعدهم الله بنصره، بعكس الذين أساؤوا وأفسدوا في الأرض:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الرّوم: ٤٧].

ومن الطبيعي أن هؤلاء إذا بحثوا في العلوم وتقدموا في التكنولوجيا وتمكنوا من أسباب القوة والسيطرة، فلن تكن أعمالهم إلا كما يتصفون بها من إقامة الحق والعدل، وبسط الخير والمنافع للناس، ونشر المحبة والسلام بينهم. والمؤمنون الصادقون تمنعهم خشية الله من الإضرار بالناس، ومن أنواع الظلم واقتراف السيئات. بذلك تثمر أعمالهم وتزدهر أوطانهم ويسعد بهم شعبهم وجيرانهم.

وتراهم على الله متوكلين، ولحدوده مجتنبين، ولهديه متبعين، ولربهم مخلصين، ولعباده ناصحين، يبتغون فضلًا من الله ورضواناً. يطيعونه

ويعبدونه، يرجون رحمته ويخافون عذابه. مثل هؤلاء النخبة هم الذين يضعون بين يدي الناس العدل والأمن، ويجنبون العالم الويلات والحروب. إنهم سينقلون العالم من الآلام والشقاء إلى الطمأنينة والرخاء، لأنهم يعملون بأمر الله ويستجيبون لدعوة الله:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

وعدهم الله لذي لا يخلف الميعاد، بأنهم إذا استقاموا على طريقة الإيمان وعمل الصالحات، فسيفتح عليهم أبواب الخير ويمكنهم في الأرض ويبدل خوفهم أمناً وحزنهم فرحاً:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

والله سبحانه أثنى على هؤلاء الجماعة المؤمنين بأنهم إن مكنهم في الأرض استقاموا وعدلوا وأقاموا عبادة الله وشرع الله الذي يحب الخير ويأمر به ويكره الشر وينهى عنه ويأتي بالعاقبة الحسنة:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

ووعدهم بأن يسخر لهم السموات والأرض لتفتح أبوابها عليهم بالخيرات والبركات:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

ووعدهم بالحياة الطيبة في الدنيا والجزاء العظيم في الآخرة:

﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وهذا هو ما أراده الله سبحانه لعباده منذ استخلف آدم في الأرض، ومهدها له وسخرها له، ليحيا فيها حياة طيبة، فيعمرها ويستثمر خيراتها، ويقيم فيها صرح الحق والعدل، وصرح العبادة لله وحده، ويؤدي فرائض الشكر لله رب العالمين بما هداه إليه وأنعم به عليه. وهذه هي عاقبة العلم المقترن بالإيمان واتباع هدي الله:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى

ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١].

وبمقارنة العواقب في هذا الفصل الذي قبله، تتبين إرادة الله في الابتلاء والامتحان في هذا الاستخلاف:

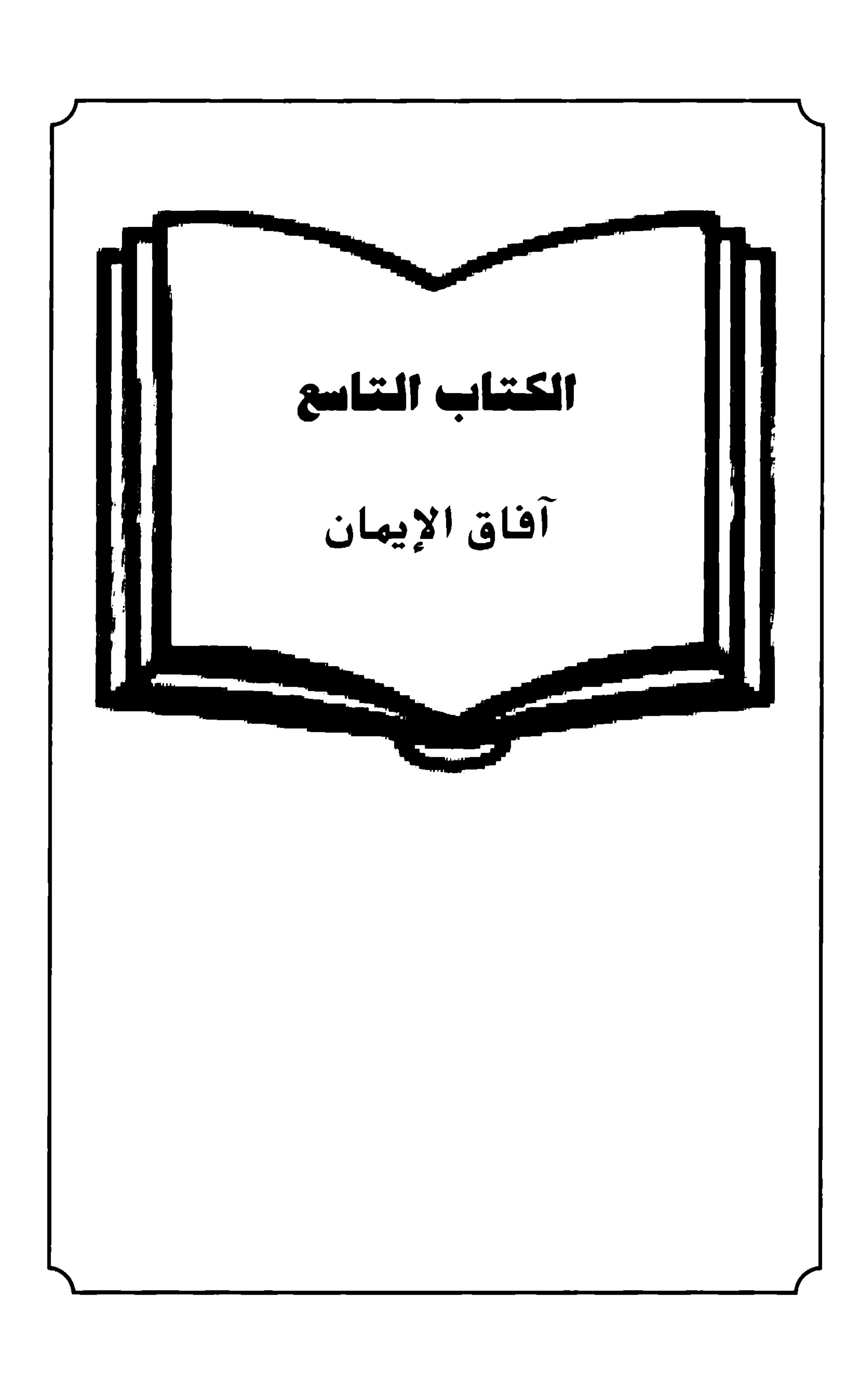
﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلك: ٢].

وتتبين إرادته وحكمته في قضاء الموت وبعث الحياة من جديد للحساب والجزاء:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [هود: ٧].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].





الكتاب التاسع

آفاق الإيمان

الفصل الأول



الإيمان بالغيب

الغيب: كل ما هو مستور وغائب عن رؤية الإنسان وحواسه وعلمه، وما هو كائن أو سيكون من الأحداث والأمور التي كتبها الله في علم الغيب عنده ولا يعلمها إلا هو، ومنها أحوال وأحداث الآخرة. ونحن نؤمن بما يخبرنا الله ﷻ به منها وهو أصدق القائلين إذ يقول:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠].

ونؤمن بمفاتح الغيب الخمسة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

ونؤمن بما أخبرنا الله في القرآن، بأن الله سبحانه خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، وأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إنه

كان عليماً قديراً، وهو بكل شيء عليم وهو على كل شيء قدير. وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، وهو الله الذي لا إله إلا هو فاطر السموات والأرض، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، يسمع ويبصر كل شيء في آن واحد وهو مدبر الأمر في السموات والأرض، وهو الحي القيوم الذي لا يموت، له الأسماء الحسنى، تبارك الله رب العالمين.

ومن أركان الإيمان بالغيب أيضاً، الإيمان بالملائكة وبوجود الجن والشياطين، وبما نبصر وما لا نبصر من المخلوقات التي أقسم الله بها:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

وهذه من آفاق الإيمان آمنا بها قبل أن يكشف العلم حقيقتها، وذلك بما اطمأن في القلب من أن لهذا الكون خالق عظيم، قادر عليم حكيم. حكمه العدل وقوله الحق وكما جاء ذكره بأسمائه الحسنى في كتابه الحكيم ومنها آفاق الإيمان بالغيب.

وقد جاء ذكر الإيمان بالغيب مقدماً على العبادات:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١-٥].

ولقد خلق للإنسان هذا الدماغ العجيب (المعجزة) الذي عبر عنه بالقلب أو الفؤاد أو النفس، وجهزه بما يحتاجه من وسائل السمع والبصر وجعل له القدرة على التصور والتخيل، وقوة الإدراك بما يمتد إلى آفاق بعيدة جداً وبلمح البصر، وكأنه ينطلق ويسرح بسرعة الضوء أو بما هو أسرع:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

فأطلق له العنان إلى آفاق الغيب وإلى تصور الحياة الآخرة، ويفكر في الخلق وما قبله وما بعده فيصل الحياة الدنيا بالآخرة وما فيها من صور النعيم والعذاب حتى يستقر في الخلود اللانهائي. وهو ما سنمر عليه في هذا الكتاب.

وإيمانه بالآخرة يجسد له الصورة الكاملة قبل وقوعها وقبل مشاهدتها، لكنه عند مواجهتها ومشاهدتها فعلًا، عندها سيجد حلاوة الإيمان بها ولذة الاطمئنان وفرحة البشرى بما آمن به من قبل وبما يرى من تصديق ما آمن به، وقد أصبح لديه الآن حقيقة واقعة، وحياة حاضرة جديدة:

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزُمر: ٧٤].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤].

أمّا الكافرون فسيفاجئون بالواقع الجديد الذي كانوا يكذبون به، وسيواجهون بما كانوا يوعدون، فتأخذهم الحسرة والندامة، إذ لا رجعة لهم ولا خروج ولا محيص!

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [يس: ٦٣، ٦٤].

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطُور: ١٣-١٥].

﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصَّافات: ٢٠، ٢١].

يصف هذه الصور سيّد قطب في كتابه «مشاهد القيامة»[1] فيقول:

إنها مشاهد حية منتزعة من عالم الأحياء لا ألوان مجردة ولا خطوط جامدة، مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات والخواطر والخلجات. وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية أو في شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة. وعن سمات هذه المشاهد يقول: إنها حاضرة اليوم تراها العين وتحسها النفس. والفارق السحيق بين العالمين فارق قريب بل لا فارق هناك في بعض الأحيان بل ربما كانت (الأخرى) هي الحاضرة وكانت (الدنيا) ماضياً بعيداً يتذكره المتذكرون. اهـ.

هذه الصور وتلك الآفاق يفتحها الله للمؤمن في الدنيا ليطلق فيها فكره وخياله وتصوره وإحساسه ليحيا فيها وكأنها حاضرة اليوم ويعيش فيها بما يملك من مشاعر وأحاسيس. ذلك ليعلم أن الله سبحانه قد خلق لتلك العوالم سنناً وخلقاً آخر يخصها ولا يخضع لما اعتاد عليه من سنن ومعالم الدنيا. وأنه سيرى عوالم وسنناً وكائنات لم ير مثلها من قبل ولم يسمع بها ولا خطرت على قلب بشر، بل إنه سيرى نفسه وقد نشأ نشأة أخرى وبمواد أخرى وبأعضاء أكثر حساً وقوة وتقبلًا للنعيم ومواجهة للنور وتكيفاً لتلك الحياة التي لا يمس المؤمن فيها نصب ولا لغوب ولا موت ولا مرض. وكذلك للعذاب بالنسبة للكافرين.

بهذا الوعد الحق والمصير الجديد لمستقبل الإنسان، وبهذا الفتح العظيم لأبواب العلم الحق وأبواب الفكر غير المحدود لحقائق المستقبل، يمنح الإسلام هذه الانطلاقة الفكرية ويرسم شخوصها وحياتها، ويسلط الأنوار على هذا العلم اليقين، ليأخذ المؤمن استعداده وأهبته لحياته ويتزود

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن - لسيد قطب، ص: ٤٠.

بالتقوى لهذا المستقبل الأبدي، لعل الله يقيه شر ذلك اليوم فينجو من عذابه ويفوز برحمته:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٠-١٢].

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطور: ٢٦-٢٩].

وذلك قبل أن تكون المفاجأة والندامة في لقاء المصير:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٤].

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٤-٢٦].

وقبل أن تكون الحسرة والندامة ولات ساعة مندم:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر: ٥٤-٥٨].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١].

إنه علم اليقين لأنه يصف ما سيقع حقيقة ويقيناً يرسم صورته في قلبه

ويؤمن به إيماناً يقيناً قبل أن يراه عياناً وهو سيراه عياناً لا محالة، ويقع صدق ما آمن به حقاً ويقيناً وهذا هو عين اليقين:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٣-٨].

[الذي أنعم الله عليكم في الدنيا ولم تؤدوا حق شكره].

والفصول القادمة في هذا الكتاب أخي القارئ الكريم كلها من آفاق الغيب التي أخبرنا الله بها سبحانه في كتابه وأوضح لنا جانباً منها رسوله الكريم ﷺ بما علمه به ربه. وسنعرض لشيء من هذه الآفاق والصور والمشاهد كما جاءت علومها وأخبارها وأوصافها دونما خوض في التفاصيل التي لا يعلمها إلا الله ولا يعلم حقيقة غيبها إلا هو سبحانه:

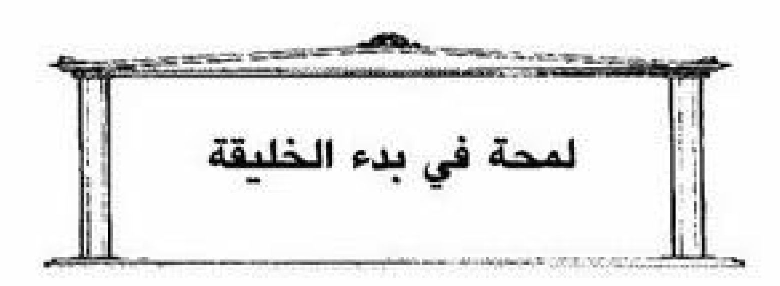
﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف: ٩].

وهي عالم آخر كما قلنا يختلف بكل سننه وتكوينه وخواصه وتفاصيله عن عالم الدنيا ولا يتفق معه إلا بالاسم والمشابهة:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

هذه المشابهة التي تمكننا من تصوره في خطوطه العامة التي تدل عليه وتقرب صورته للفكر، دون تفاصيل الكيفيات والمواد والشخوص. وكل مسلم ومؤمن ينطبع في مخيلته وذاكرته وضوح الصورة وعمقها بقوة إيمانه وبقدر ما يلهمه الله من العلم والفهم وقوة الإدراك والهدى بآيات الله وحديث رسوله الكريم ﷺ.

الفصل الثاني



لمحة في بدء الخليقة

تمتد آفاق الإيمان في الفكر الإسلامي إلى ما قبل خلق السماوات والأرض، إلى الأزل حيث لم يكن إلا الله وحده ثم تمر بخلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم بخلق البشرية على الأرض حتى القيامة ولا تنتهي إلا بالأزل أيضاً وذلك بعد استقرار كل من أهل الجنة والنار في مأواه ثم الخلود الأبدي فيه وهو الأزل.

فقبل الخلق لم يكن شيئاً مخلوقاً ولا وجود إلا للخالق الأزلي الذي أحدث الخلق:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

نستقي من كتاب العقائد الإسلامية للسيد سابق في بدء الخلق ما يلي:

جاء في الحديث الذي رواه البخاري:

[جئناكَ لنتفقّهَ في الدّين ولِنسألكَ عَنْ أوّلِ هذا الأمْرِ ما كانَ قالَ كانَ الله ولَمْ يكُنْ شيْءٌ قبْلهُ وكانَ عرشُهُ على الماءِ ثمّ خلقَ السمواتِ والأرضَ وكتبَ في الذكْرِ كلَّ شيءٍ][١].

(١) رواه البخاري: ٦٨٦٨.

والذكر هو اللوح المحفوظ وهو خلق عظيم من خلق الله، سجل الله فيه جميع الكائنات إلى قدرها، أو هو عبارة عن علم الله المتعلق بسائر الموجودات. ومعنى قوله وكان عرشه على الماء أن العرش فوقه من جهة العلو، وأن الماء تحته من جهة السفل كما يقال السماء على الأرض أي أنها فوقها دون ملاصقتها لها.

وبعد خلق العرش والماء خلق الله السموات والأرض تدل على ذلك الآية الكريمة:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [هُود: ٧].

ويظهر من الأحاديث أن العرش هو أول المخلوقات العلوية - وهو أعظم المخلوقات - وأن الماء هو أول المخلوقات المادية، وأنه خلق قبل العرش كما رواه أحمد والترمذي.

وأن أول المخلوقات المعنوية هو القلم، فقد روي أن النبي ﷺ قال: **«أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة»**.

والأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض لا يعلمها إلا الله لأنه لم يكن قبل خلق السموات وأجرامها أو الأرض وأيامها نظام فلكي أو حركي يدل على زمن. إن كل جرم أو كوكب في السماء له زمن خاص به، فأيامه وسنينه تختلف مثلًا عن أيام وسنين الأرض، وربما كان المقصود به هو من أيام الله التي وضعها زمناً عاماً عنده في قوله سبحانه:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧].

وعلماء المادة يقرون بأن خلق السموات والأرض حدث أي أن له بداية، فقد وجدوا بأن مواداً كثيرة لم ينته إشعاعها بعد! فهي إذاً لم تكن أزلية. كما أنه ستكون له نهاية فالتغيرات الخطيرة التي تحدث فيه تنبئ بذلك دون الانتظار إلى ما بعد نضوب طاقة الأجرام والنجوم. والخالق سبحانه يقول:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ثم إن عمر الخليقة البشرية على الأرض نسبة إلى عمر الأرض والسموات مدة قصيرة جداً أو كما يقول الفلكيون إنها لا تساوي (ومضة نور) فقد مرت قرون وقرون قبل خلق آدم لا يعلمها إلا الله. ويذكرنا سبحانه ويطلق تفكيرنا بذلك:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١].

كذلك لنفكر كم من الزمن مضى على خلق آدم. يفيدنا الحديث التالي:

[عنْ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ وطولُهُ سِتُّونَ ذِراعاً ثُمَّ قالَ اذْهبْ فَسَلِّمْ على أولئِكَ مِنْ المَلائِكَةِ فاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ تحِيَّتُكَ وَتَحيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقالَ السَّلامُ عَليكُمْ فَقالوا السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ فزادوهُ وَرَحْمةُ اللهِ فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّة على صورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلْ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ**»][(١)].

أي أن البشر نقص من طول ستين ذراعاً (آدم) حتى إلى ذراعين تقريباً الآن!

وإن القرآن الكريم كعادته لا يذكر مدة زمنية منذ خلق آدم ولا للقرون الأولى وليس ذلك غرضه، وليس يهمنا أن آدم خلق قبل مائتي ألف سنة أو مليون سنة أو أكثر من ذلك أو أقل، بقدر ما يفيدنا ويهمنا من تلك الحقب الزمنية. وهو استخلاص العبرة واستنباط الحكمة والموعظة الحسنة في سلوك

---

(١) رواه البخاري: ٣٠٧٩.

تلك الأقوام من البشر التي عاشت تلك القرون الماضية، لكي نقتدي بالحسن منها ونتجنب السيئ فلا نقع في أخطائها التي وقعت فيها وأصابها ما أصابها. لقد قدر الزمن الماضي على خلق آدم اعتماداً على نقص الطول الوارد في الحديث السابق واستعانة بمومياء فرعون وعمرها ٣٥٠٠ سنة إلى معدل طول الإنسان اليوم فكان بحدود ٩٥٠ ألف سنة إلى مليون سنة. وذلك على اعتبار النقص في الطول كان منتظماً في جميع أدواره، لذلك فهو رقم تقريبي ولا يعلمه إلا الله.

وهناك تقديرات أخرى تعتمد على المتحجرات، أو على تحول المواد واندثارها، وكلها لا تعطي أرقاماً صحيحة، بل تتخللها التخمينات والظنون والعوامل الغائبة في الحسابات. وأياً كأن الأمر فيكفينا أن نعلم أننا الآن في آخر العصور من عمر الخليقة وصولًا إلى الأجل المسمى لقيام الساعة. استدلالًا من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة. فقد قال الله سبحانه لموسى:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥، ١٦].

وقال سبحانه لنبيِّنا ﷺ:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وفي الحديث:

[قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«بُعِثْتُ أنا والسّاعة كَهذِهِ منْ هذهِ أوْ كَهاتَيْن وقرَنَ بيْنَ السّبّابةِ والوُسْطَى»**](١).

وعندما يقول سبحانه وتعالى بأن الساعة قريبة، فلا تعني أنها بسنوات

(١) رواه البخاري: ٤٨٨٩، ومسلم: ٥٢٤٧ والترمذي: ٢١٤٠.

معدودة من أيامنا، كلا فإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون كما سبق ذكر هذه الآية. لكن لا تجوز الغفلة عنها وإنما تجب الخشية منها والاستعداد لها حتى يغتنم المؤمن فرصته ولا يقع في حكم الفجأة لأنها لا تأتي إلا بغتة!

[أنّ رجلًا سألَ النبيَّ ﷺ عنِ السّاعةِ فقالَ: متى السّاعة؟ قالَ: «**وماذا أعْددْتَ لها؟**» قالَ: لا شيءَ إلاّ أنّي أُحبُّ الله ورسولَهُ ـ ﷺ ـ، فقالَ: «**أنْتَ معَ مَنْ أحْببتَ**» قالَ أنسٌ: فما فرِحْنا بشيْءٍ فرَحَنا بقوْلِ النّبيِّ ﷺ: «**أنْتَ معَ منْ أحْببتَ**»][1].

فالإعداد لها هو موقف المؤمن منها، وقال تعالى:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٨].

وقد توصل علماء الطبيعة بأن الساعة لا مناص منها وهي لا بد واقعة. وما قد سبق وعلمنا من سرعة تباعد حركة المجرات العظيمة والتي قد تصل في بعضها إلى سرعة الضوء يأتي مصداقاً للآيات الكريمة التي تعلن بأن الساعة لا تأتي إلا بغتة أو بلمح البصر:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل: ٧٧].

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وهنا تستوقفنا كلمة: ثقلت في السموات والأرض، فهي إما (ثقلت الساعة

---

(١) رواه البخاري: ٣٤١٢، ومسلم: ٤٧٧٥.

على أهل السموات والأرض أن يعرفوا وقتها ومجيئها لخفائها عنهم واستئثار الله بعلمها)[١] وهذا يفسره ما قبله وهو أنه (لا يجليها لوقتها إلا هو) وإما أنها ثقيلة بجرمها العظيم كجرم الثقب الأسود مثلًا الذي إذا ما جاء بسرعته ودورانه فإنه يجذب ويحطم كل ما حوله، ويدعم هذا الرأي رأي ابن جريج قال:

(إذا جاءت انشقت السماء وانتثرت النجوم وكورت الشمس وسيرت الجبال وكان ما قال الله فذلك ثقلها)[٢].

وأنها لا تأتي إلا بغتة وذلك لسرعتها وعظمة قوتها المتمثلة بثقلها العظيم وشدة جذبها. أو غير ذلك من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وحده. وبالطبع لا قدرة لأحد على صدها:

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾ [الأنبياء: ٤٠].

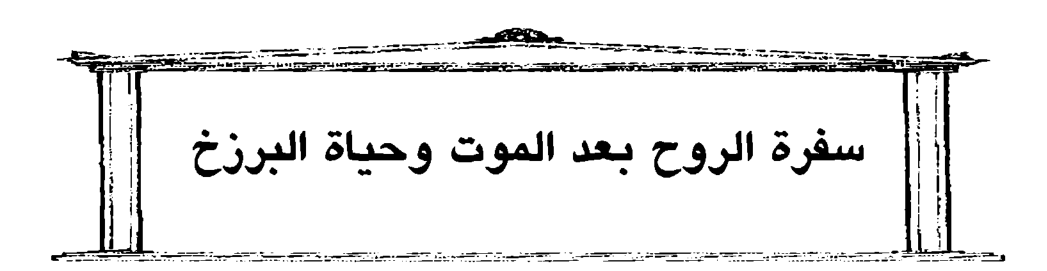
وهذه مرحلة الحياة الدنيا للبشرية ابتدأت بخلق آدم وستنتهي بقيام الساعة. فلننظر إلى ما بعدها من المراحل، بل فلننظر إلى مرحلة ما قبل ذلك إلى قيام ساعة الإنسان نفسه عند موته، ثم إلى مكثه في البرزخ إلى حين قيام الساعة. فما لنا الآن وللساعة، إن موت الإنسان هي قيام ساعته قبل أن تأتيه الساعة الكبرى. وساعته هذه قريبة منه ويمكن أن تأتيه في أية لحظة! كما قال الشاعر:

خرجت من الدنيا وقامت قيامتي ... غداة أقل الحاملون جنازتي
وعجل أهلي حفر قبري وصيروا ... خروجي وتعجيلي إليه كرامتي
كأنهم لم يعرفوا قط صحبتي ... غداة أتى يومي علي وساعتي

---

(١) تفسير الطبري للآية: ج ٩ ص: ٩٤، ط/٣، دار المعرفة - بيروت.
(٢) نفس المصدر أعلاه: ج٩، ص: ٩٥.

الفصل الثالث



سفرة الروح بعد الموت وحياة البرزخ

سفرة الروح:

لنستمع إلى حديث الرسول ﷺ وهو يقص علينا سفرة الروح بعد الموت حتى إعادتها إلى القبر لتقضي حياة البرزخ.

[عَنِ البَراءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلى القَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ**» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيْرٍ هَاهُنَا وَقَالَ: «**وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حِينَ يُقَالُ لَهُ يَا هَذا مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ**» قَالَ هَنَّادٌ: قَالَ: «**وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ فَيَقُولانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِيَ الإِسْلامُ فَيَقُولانِ وَمَا يُدْرِيكَ فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ**» زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ: فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [إبراهيم: ٢٧] الآيَة ثُمَّ اتَّفَقَا قَالَ: «**فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الجَنَّةِ وأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ**» قَالَ: «**فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا**» قَالَ: «**وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ**» قَالَ: «**وَإِنَّ الكَافِرَ**» فَذَكَرَ مَوتَهُ قَالَ:

«وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فيقُولانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي فَيَقُولانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولانِ مَا هَذا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيُنادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلى النَّارِ» قَالَ: **«فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا»** قَالَ: **«وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ»** زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ قَالَ: **«ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُراباً»** قَالَ: **«فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ إلا الثَّقَلَيْنِ فَيَصِيرُ تُرَاباً»** قَالَ: **«ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ»**](1).

وفي رواية أخرى لأحمد:

[عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إلى القَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: اسْتَعِيذُوا باللهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً ثُمَّ قَالَ: إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بيضُ الوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ عَلَيْهِ السَّلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلوهَا فِي ذلِكَ الكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ المَلائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ فَيَقُولُونَ فُلانُ بْنُ فُلانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ التِي كَانُوا

(١) رواه أبو داود: ٤١٢٧.

يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللهُ ﷻ اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُم وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقولانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ فَيَقُولانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِيَ الإِسْلامُ فَيَقولانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا عِلْمُكَ فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلى الجَنَّةِ قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بالَّذي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُولُ رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلى أَهْلِي وَمَالِي قَالَ: وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ مَعَهُمُ المُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ ريحِ جيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنَ المَلائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ فَيَقولونَ فُلانُ بْنُ فُلانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللهُ ﷻ اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً

ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقولانِ لَهُ مَا هَذا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ وافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنَ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بالشَّرِّ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ فَيَقُولُ رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ](١).

[عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ أَوْ قَالَ أَحَدُكُمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا المُنْكَرُ والآخَرُ النَّكِيرُ فَيَقُولانِ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذا الرَّجُلِ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولِهِ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقولانِ قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا ثُمَّ يُفْسِحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِراعاً فِي سَبْعِينَ ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَقُولُ أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُم فَيَقُولانِ نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذي لا يُوقِظُهُ إِلاَّ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مُنافِقاً قَالَ سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ لا أَدْرِي فَيَقولانِ قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ فَيُقَالُ للأَرْضِ الْتَئِمِي عَلَيْهِ فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاعُهُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّباً حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ**»](٢).

وفي رواية للبيهقي عن البراء أيضاً نحوه وذكر فيه اسم الملكين، فقال في ذكر المؤمن: «**فيرد إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما**

---

(١) رواه أحمد: ١٧٨٠٣.

(٢) رواه الترمذي: ٩٩١.

ويجلفان الأرض بشفاههما فيجلسانه ثم يقال له يا هذا من ربك؟...» فذكره، وقال في ذكر الكافر: «**فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويجلفان الأرض بشفاههما، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه ثم يقال يا هذا من ربك؟ فيقول لا أدري فينادى من جانب القبر: لا دريت ويضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم يقلوها يشتعل منها قبره ناراً ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه**»(١).

وفي رواية لابن حبان في صحيحه زاد فيها: فتلك المعيشة الضنكة التي قال الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

والروايات أعلاه عن البراء وعن أبي هريرة كلها في المعنى نفسه يؤكد بعضها بعضاً ويكمل بعضها بعضاً.

إن ما جاء أعلاه من علم سفرة الروح هو من علم الغيب الذي أطلع الله رسوله عليه وإلا فليس لأحد أن يدلي بكلمة منه. والرسول ﷺ بدوره أبلغنا به ليكون المؤمن على بينة منه.

حياة البرزخ:

ولا يزال المؤمن في مضجعه ذلك، ولا يزال الكافر في مضجعه ذلك، حتى تقوم الساعة. وهذه من حياة البرزخ. وهي حياة الروح ومقامها في القبر ما بعد الموت إلى يوم يبعثون، قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

(١) رواه البيهقي: انظر الترقيب والترهيب للمنذري ج٤، ص: ٣٦٩، ط/٣ - إحياء التراث العربي.

فتحس الروح في القبر بنعيمه أو بعذابه، ومهما كانت طريقة الموت فني الجسد، فلو صلب أو حرق أو غرق أو أكلته السباع والطير فإن له عذاب القبر أو نعيمه حظه الذي تقتضيه أعماله. وقد ظنَّ بعض الأقدمين أنه إذا حرق جسده بعد موته، فلعله قد ينجو من عذاب الله!

[عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ ذَرُونِي فِي الرِّيحِ فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِي عَذَاباً مَا عَذَّبَهُ أَحَداً فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَقَالَ اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ فَفَعَلَتْ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ فَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ قَالَ يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ فَغَفَرَ لَهُ وَقَالَ غَيْرُهُ مُخَافَتُكَ يَا رَبِّ**»][(١)].

ويقول الإمام ابن القيم الجوزية[(٢)]:

فلم يفت عذاب القبر ونعيمه لهذه الأجزاء التي صارت في هذه الحال حتى لو علّق الميت على رؤوس الشجر في مهاب الريح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه. ولو دفن الرجل الصالح في أتون النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه. فيجعل الله النار على هذا برداً وسلاماً والهواء على ذلك ناراً وسموماً. فعناصر العالم ومواده منقادة لربّها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء ولا يستعصي عليه منها شيء أراده، بل هي طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد قدرة الله وربوبيته. اهـ.

ونعيم القبر وعذابه قد دلت عليه آيات القرآن غير ما أكدته الأحاديث النبوية ومنها: في المؤمنين يبشرون عند الموت:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فُصّلَت: ٣٠].

(١) رواه البخاري: ٣٢٢٢، ومسلم: ٤٩٤٩ و٤٩٥٠.

(٢) انظر كتاب الروح ص: ٧٣ طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢١].

وهم في نعيم بعد الموت:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

وأما في الكافرين:

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

يعرضون عليها في حياة البرزخ وقبل قيام، أما بعدها فيدخلون أشد العذاب. بل إن عذابهم ومصائبهم لتبدأ بمجرد موتهم:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢].

ثم يمكثون في العذاب إلى يوم البعث:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

فتلك المعيشة الضنكة هي عذابه في القبر مدة البرزخ إلى أن يحشره الله كما جاءت في رواية ابن حبان السابقة عن حال الكافر في القبر.

وقد رأينا في الأحاديث السابقة كيف يفتح للرجل الصالح باب إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ونعيمها، وكيف يفتح للرجل الكافر باب إلى النار فيأتيه من عذابها وحرها وسمومها. فيحس الأول بالنعيم ويحس الثاني بالعذاب، وتأخذ الروح والبدن حظهما من ذلك.

والصورة المصغرة لهذا الإحساس تشبه ما يشعر به النائم في الأحلام من حالات الرفاه والمتعة أو من حالات الضيق والعذاب وإن كانت يسيرة لا تقارن بحياة البرزخ وعذاب القبر الذي هو أشد وأعظم نعوذ بالله منه، ولكن لتقريب الفكرة.

فحياة الإنسان في البرزخ إذاً بما فيها من نعيم أو عذاب هي الحياة بين الدنيا والآخرة. فالبرزخ هو المجال الفاصل بين الحياتين. وقد سمى الله سبحانه كذلك الحد الفاصل بين المياه العذبة والمياه المالحة في البحر أو بين البحرين برزخاً وسماه حاجزاً، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٥٣].

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمٰن: ١٩، ٢٠].

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١].

وكذلك كانت المدة ما بين الحياة الدنيا والآخرة برزخاً وحجراً محجوراً تحبس فيه الروح وتمكث في القبر بعد موت الإنسان إلى يوم البعث. والذين يموتون عند قيام الساعة في النفخة الأولى في الصور تمضي

عليهم مدة البرزخ إلى حين النفخة الثانية أي من نفخة الصعق إلى نفخة البعث في قوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

فقوله سبحانه ثم نفخ فيه أخرى تدل على التأخير ومضي مدة زمنية يوضحها الحديث التالي:

[قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ قَالَ أَرْبَعُونَ يَوْماً قَالَ أَبَيْتُ قَالَ أَرْبَعُونَ شَهْراً قَالَ أَبَيْتُ قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ أَبَيْتُ قَالَ ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ لَيسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْماً وَاحِداً وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»][1].

فهو هنا لم يصرح بها لإثبات أنها موجودة وأنها أربعون ولكن ليست بأيامنا وإنما بمدة ووحدة زمنية أخرى لا يعلمها إلا الله.

وإلى يوم يبعثون ويخرجون من الأجداث تنتهي حياة البرزخ:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

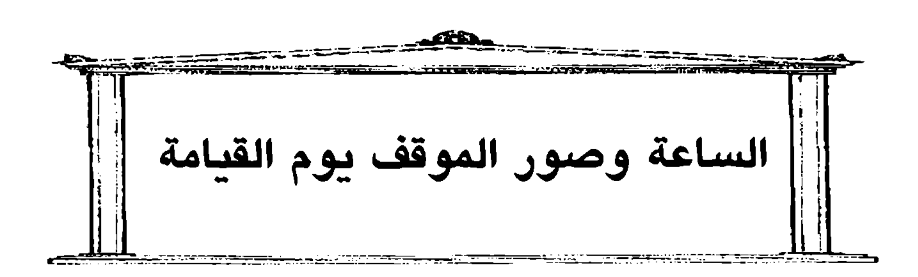
﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري: ٤٥٥٤، ومسلم: ٥٣٥٣.

الفصل الرابع



الساعة:

إذا اقترب الوعد الحق وانتهى الأجل المسمى نفخ في الصور وقامت الساعة. عند ذلك تحدث الأخطار العظيمة والأهوال الجسيمة والفزع الأكبر في السموات والأرض. وعند ذلك تأتي الطامة الكبرى والحاقة والصاخة فتتحطم الأرض والجبال وتكون هباءً منثوراً وتتناثر الكواكب في السماء وتتكور الشمس وتخمد حرارتها ويخفت ضوءها ويخسف القمر ويذهب نوره وتنشق السماء وتكون كالمهل ويصعق الناس ويختل نظام الكون، وهذه بعض آياتها:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ١-٦].

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [النازعات: ٣٤، ٣٥].

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ [التكوير: ١-٦].

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار: ١-٥].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾ [الحاقة: ١٣-١٦].

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١، ٢].

ذلك لعظمتها وشدة خطورتها وسرعة مباغتتها:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج: ٥٥].

ثم يطوي الله السماء:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وهنا يفنى كل شيء ويموت كل حي إلا الله الواحد القهار خالق كل شيء الحي الذي لا يموت يبقى كما كان قبل أن يخلق هذا الخلق:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧].

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨﴾ [القصص: ٨٨].

فينادي سبحانه فيقول: (لِمَنْ المُلْكُ اليَوْمَ؟)

فلا من مجيب حتى يجيب نفسه سبحانه فيقول: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦].

ثم تمضي مدة البرزخ التي مر ذكرها في الفصل السابق لتبدأ النفخة الثانية في الصور فيعيد الله الخلق كما بدأه أول مرة ويبعث الناس من قبورهم ويقومون من أجداثهم أحياءً ويحشرون إلى ربهم ليوم الحساب وهو يوم الدين والإدانة. ومن هنا تبدأ مشاهد الحياة الآخرة وتمتد بها آفاق الإيمان وتستمر عروضها ولا تنتهي إلا في الخلود، خالدين فيها أبداً.

ولنحيا في نور بعض الآيات الواردة فيها ونهتدي بهديها، فيقول سبحانه:

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤١-٤٤].

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٥١-٥٤].

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤].

ويساقون للحساب متبعين الداعي لا عوج له (نافخ الصور بأمر الله، وهو إسرافيل):

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾

وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١٠٥-١١٢].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦-٨].

مهطعين: مسرعين منقادين إليه.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الرُّوم: ٥٥، ٥٦].

ذلك أن عمرهم في الدنيا لا يساوي غير ساعة من يوم الآخرة الذي هو ألف سنة!

من صور الموقف يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: ١-١٨].

كالمهل: كالفضة الذائبة أو كالزيت العكر.، العهن: الصوف.، فأوعى: ملأ الوعاء.

روى أبو يعلى وابن حبان في صحيحه:

[عن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦] **مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهون ذلك على المؤمن، كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب»]**[1].

وفي رواية أخرى: «**والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة**»[2].

وقال تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وعن النبي ﷺ قال:

«**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلَى أرْضٍ بيضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ لَيسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ**»[3].

قرصة نقى: قرصة الخبز الأبيض، معلم: أثر أو علامة.

ثم يقال يا أيها الناس هلم إلى ربكم:

﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصَّافات: ٢٤].

إنه يوم الموقف العظيم:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٤-٦].

---

(١) انظر المنذري ج٤، ص: ٣٩٠، ط/٣، إحياء التراث العربي ١٢١٠٧.

(٢) نفس المصدر أعلاه، ص: ٣٩١.

(٣) رواه البخاري: ٦٠٤٠.

يقف الخلق جميعاً ينتظرون فصل القضاء كما روي عن النبي ﷺ قال: «**يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم ينتظرون فصل القضاء**»... وذكر الحديث][1].

وإنهم ليلقون من شدة ذلك اليوم حين يلجمهم العرق ما هو أشد عليهم من الموت فيطلبون القضاء ولو إلى النار. ولا علم لأحد بهذا الغيب إلا بما أخبرت به أحاديث النبي ﷺ نذكر منها:

[قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لمْ يَلقَ ابْنُ آدمَ شيئاً قطُّ مُذْ خلقهُ اللهُ أشدَّ عليهْ منَ الموتِ ثم إنّ الموتَ لأهون مما بعده**»][2].

[قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**تُدْنَى الشمسُ يومَ القيامةِ منَ الخَلق حتّى تكونَ منهمُ كمقْدارِ ميلٍ.. قالَ فيكونُ النّاسُ على قدر أعمالهمْ في العَرَق فمِنْهُمْ مَنْ يكونُ إلى كَعْبَيْهِ ومِنْهُمْ منْ يكونُ إلى ركبتيه ومنهم من يكونُ إلى حقوَيْهِ ومنْهُم مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلجاماً**» قال: وأشارَ رسولُ اللهِ ﷺ بيدِهِ إلى فيهِ][3].

[عنِ النبي ﷺ قال: «**إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول يا رب أرحني ولو إلى النار..**»][4].

[عَن ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً كَمَا خُلِقُوا** ثُمَّ قَرَأَ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] **وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى مِنَ الخَلائِقِ إِبْرَاهِيمُ وَيُؤْخَذُ مِنْ أَصْحَابي بِرِجَالٍ ذَاتَ اليَمِينِ وَذاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ يا رَبِّ أَصْحَابي فَيُقَالُ إِنّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أعْقَابِهِمْ مُنْذُ**

(١) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم - المنذري ج٤، ص: ٣٩١.
(٢) رواه أحمد: ١٢١٠٧.
(٣) رواه مسلم: ٥١٠٨.
(٤) رواه الطبراني وأبو يعلى وابن حبان، المنذري ج٤، ص: ٣٩٠.

فَارَقْتَهُمْ فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]»](١).

«**تجتمعون يوم القيامة فيقال: أين فقراء هذه الأمة ومساكينها؟ فيقومون فيقال لهم ماذا عملتم؟ فيقولون ربنا ابتلينا فصبرنا، ووليت الأموال والسلطان غيرنا. فيقول الله** ﷻ: **صدقتم. قال فيدخلون الجنة قبل الناس، وتبقى شدة الحساب على ذوي الأموال والسلطان. قالوا فأين المؤمنون يومئذ؟ قال: توضع لهم كراسي من نور، ويظلل عليهم الغمام، يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار**»(٢).

«**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وِالرِّجَالُ جَمِيعاً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ قَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**»(٣).

غرلًا: غير مختونين، كما خلقوا.

«**يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان**» فقلت: يبصر بعضنا بعضاً؟ فقال: «**شغل الناس** ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧]»(٤).

وفي رواية له عن أم سلمة: قلت ما شغلهم؟ قال: «**نشر الصحائف، فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل**»(٥).

---

(١) رواه الترمذي: ٢٣٤٧.
(٢) رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه المنذري ج٤، ص: ٣٩١.
(٣) رواه مسلم: ٥١٠٢.
(٤) رواه الطبراني عن سودة بنت زمعة - المنذري ج٤، ص: ٣٨٥.
(٥) رواه الطبراني عن أم سلمة - المنذري ج٤، ص: ٣٨٥.

ويحشر أناس على وجوههم:

«إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ رِجَالاً وَرُكْبَاناً وَتُجَرُّونَ عَلَى وُجُوهِكُمْ»(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٣٤].

ويحشرون زرقاً:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه: ١٠٢].

ووجوههم مسودة:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

ويحشر المتكبرون مستصغرين ففي الحديث:

«يبعث الله يوم القيامة ناساً في صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم فيقال ما هؤلاء بصور الذر؟ فيقال هؤلاء المتكبرون في الدنيا»(٢).

ويبلغ الغم والكرب بالناس ما لا يطيقون ولا يحتملون فيلجأون إلى الأنبياء وهنا يظهر موقف مهيب عظيم لسيدنا محمد ﷺ فيُبعث المقام المحمود بين الخلائق حيث ينتهون إليه أن يشفع عند ربه ليقضي الله بين الناس حتى يرتاحوا من هول الموقف وعذابه، وقد وعده الله بهذه المنزلة

---

(١) رواه الترمذي: ٢٣٤٨.

(٢) رواه البزار - المنذري ج٤، ص: ٣٨٨.

وهذا المقام المحمود مقام الشفاعة العظمى يغبطه الناس عليها ويحمده أهل الجمع كلهم وهم يومئذ تحت لوائه وهو يحمل لواء الحمد فيشفع للناس عامة ولأمته خاصة:

[قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلا فَخْرَ وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلا فَخْرَ وَما مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إلاَّ تَحْتَ لِوَائِي وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلاَ فَخْرَ قَالَ فَيَفْزَعُ النَّاسُ ثَلاثَ فَزَعَاتٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيقولونَ أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ فَاشْفَعْ لنَا إلى رَبِّكَ فَيقولُ إِنِّي أَذْنَبتُ ذَنْباً أُهْبِطْتُ مِنْهُ إلى الأَرْضِ وَلَكِن ائْتُوا نُوحاً فيأتون نُوحاً فيقُولُ إنِّي دَعَوْتُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ دَعْوَةً فَأُهْلِكُوا وَلكِنِ اذْهَبُوا إلى إبْراهِيمَ فيأتونَ إبْراهِيمَ فيقولُ إنِّي كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذِبَاتٍ ثُمَّ قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ ما مِنْهَا كَذِبَةٌ إلاَّ مَا حَلَّ بِهَا عَنْ دِينِ اللهِ وَلكِنْ ائتُوا مُوسَى فيأتونَ مُوسَى فيقولُ إنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْساً وَلَكِنْ ائْتُوا عِيسَى فَيأتونَ عِيسَى فَيقولُ إنِّي عُبِدْتُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلكِنْ ائْتُوا مُحَمَّداً قَالَ فَيَأْتونَنِي فَأَنْطَلِقُ مَعَهُمْ قالَ ابْنُ جُدْعَانَ قَالَ أَنسٌ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسولِ اللهِ ﷺ قَالَ فآخُذُ بِحَلْقَةِ بَابِ الجَنَّةِ فَأُقَعْقِعُهَا فيُقَالُ مَنْ هَذا فَيُقَالُ مُحَمَّدٌ فَيَفْتَحُونَ لِي وَيُرَحِّبُونَ بِي فَيقولونَ مَرْحَباً فَأَخِرُّ ساجِداً فَيُلْهِمُنِي اللهُ مِنَ الثَّنَاءِ وَالحَمْدِ فَيُقَالُ لِي ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ وَقُلْ يُسْمَعُ لِقَوْلِكَ وَهُوَ المَقَامُ المَحْمُودُ الذِي قَالَ اللهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]**»[1].

فيستجيب الله له ويُشفع ويؤذن بالعرض والحساب.

من صور العرض والحساب

يساق الناس إلى أرض المحشر للعرض والحساب، فيعرضون على

(١) رواه الترمذي: ٣٠٧٣.

ربهم في اصطفاف رهيب مهيب لا يخفى منهم شيء، والملائكة مصطفة على أرجاء السماء بعد أن انشقت:

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٦-١٨].

والله سبحانه هو الذي يتولى الحساب:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢١-٢٣].

وتعرض عليهم أعمالهم بتفاصيلها لم يفلت منها مثقال ذرة، وتنشر لهم صحفهم وكتبهم بكل ما عملوا في الدنيا وينبؤون بها وبما أحصاه الله ونسوه:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة: ٦].

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩].

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

ولا أحد يعلم اليوم كيف هو هذا الكتاب وما هي مادته، ولا بأي

مداد كتب أو صور حتى يمكن أن يقرؤوه ويفهمه كل من يقرؤه، والمؤمن الذي يؤتى كتابه بيمينه:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقَّة: ١٩، ٢٠].

والكتاب نفسه ناطق:

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون: ٦٢].

وكل شيء ذلك اليوم شاهد ناطق، ومهما حاولوا الإنكار، فيقيم الله عليهم شاهداً من أنفسهم:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ: **«هَلْ تَدْرونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟»** قالَ قُلْنا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قالَ: **«مِنْ مُخَاطَبَةِ العَبْدِ رَبَّهُ يَقولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقولُ: بَلَى، قالَ: فَيَقولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إلاَّ شَاهِداً مِنِّي، قَالَ: فَيَقولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً وَبِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ شُهُوداً، قالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ قالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلامِ، قالَ: فَيقولُ: بُعْداً لكُنَّ وَسُحْقاً فَعَنْكُنَّ كَنْتُ أُنَاضِلُ»**[1]. وتشير إلى ذلك الآيات التالية بوضوح:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٤، ٢٥].

(١) رواه مسلم: ٥٢٧١.

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥].

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فُصِّلَت: ١٩-٢١].

وفي الحديث:

[عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **«يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ القِيامَةِ ثَلاثَ عَرَضَاتٍ فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ وَأَمَّا العَرْضَةُ الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الأَيْدِي فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ»**][1].

وعندئذ ستكون إما سروراً وبشرى للمؤمن أو حزناً وعزاءً للكافر:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ٧-١٥].

ذلك أن يمينه مغلولة إلى عنقه وشماله مغلولة وراء ظهره.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقَّة: ١٨-٣١].

---

(١) رواه الترمذي: ٢٣٤٩.

والمؤمن يومئذ في أمن الله ورحمته وكنفه ففي الحديث:

[قالَ رَجُلٌ لابْنِ عُمَرَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ فِي النَّجْوى؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقولُ: **«يُدْنَى المُؤْمِنُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ فَيقولُ هَلْ تَعْرِفُ فَيَقولُ أيْ رَبِّ أعْرِفُ قَالَ فَإنِّي قَدْ سَتَرْتُها عَلَيْكَ في الدُّنْيا وَإنِّي أغْفِرُها لَكَ اليَوْمَ فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَناتِهِ وَأمَّا الكُفَّار وَالمُنافِقونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلى رُؤوسِ الخَلائِقِ هَؤلاءِ الذينَ كَذَبوا عَلَى اللهِ»**][1] النجوى: هي الحديث بين اثنين دون الثالث، وهي هنا بين الله وعبده المؤمن دون الخلائق.

والمؤمن يمضي حسابه يسيراً ولا يناقش الحساب لأن مناقشة الحساب عذاب:

[عَنْ عَائِشَةَ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: **«لَيسَ أحَدٌ يُحاسَبُ يَوْمَ القِيامَةِ إلاَّ هَلكَ»** فقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أليْسَ قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧، ٨] فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إنَّما ذَلِكَ العرْضُ ولَيْسَ أحَدٌ يُناقِشُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيامَةِ إلاَّ عُذِّبَ»**][2].

ثم يبدأ بعد ذلك الحساب والمساءلة.

[قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يُؤْتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيامَةِ فَيَقولُ اللهُ لَهُ ألَمْ أجْعَلْ لكَ سَمْعاً وبَصراً وَمالاً وَوَلداً وَسَخَّرْتُ لَكَ الأنعَامَ والحَرْثَ وتَرَكْتُكَ تَرأسُ وَتَرْبَعُ فَكُنْتَ تَظُنُّ أنَّكَ مُلاقِي يَوْمَكَ هذا قالَ فَيَقولُ لا فَيَقولُ لَهُ اليَوْمَ أنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»**. قال أبو عيسى: وَمَعْنى قَوْلِهِ: **«اليَوْمَ أنْساكَ»** يقُولُ: اليَوْمَ أتْرُكُكَ فِي العَذابِ][3].

---

(١) رواه البخاري: ٢٢٦١ ومسلم واللفظ له: ٤٩٧٢.

(٢) رواه البخاري: ٦٠٥٦.

(٣) رواه الترمذي: ٢٣٥٢.

[قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لا تزُولُ قدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أفناهُ وَعَنْ عِلمِهِ فِيم فَعَلَ وَعَنْ مالِهِ مِنْ أينَ اكْتَسَبَهُ وَفيمَ أنْفقَهُ وَعَنْ جِسمِهِ فيمَ أبلاهُ»**](١).

[سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: **«إنَّ أوَّلَ ما يُحاسَبُ بِهِ العبْدُ يَومَ القِيامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صلاتُهُ فإنْ صَلُحتْ فَقَدْ أفلَحَ وأنْجحَ وإنْ فَسُدَتْ فَقَدْ خابَ وَخَسِرَ فإنِ انْتَقَصَ مِنْ فَريضَتِهِ شيْءٌ قالَ الرَّبُّ ﷻ: انظرُوا هَلْ لِعَبدي مِن تَطوُّعٍ فيُكَمَّلَ بهَا مَا انْتَقصَ مِنَ الفَرِيضَةِ ثُمَّ يَكُونُ سائِرُ عَمَلِهِ على ذَلِكَ»**](٢).

[قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أوَّلُ ما يُقْضى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ في الدِّمَاءِ»**](٣).

وهي جرائم القتل بغير الحق:

[قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَنْ يَزالَ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَماً حَرَاماً»**](٤).

[سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: **«لَنْ يُدْخِلَ أَحداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ قَالوا وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ لاَ وَلا أَنَا إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدِّدُوا وَقارِبُوا وَلا يَتَمَنَّيَنَّ أَحدُكُمُ المَوْتَ إمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ أنْ يَزْدادَ خيراً وَإمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ أنْ يَسْتَعْتِبَ»**](٥).

فالعمل الصالح وحده لا يدخل الجنة إلا برحمة الله. وعندما يقول سبحانه وتعالى:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

(١) رواه الترمذي: ٢٣٤١.

(٢) رواه الترمذي: ٣٧٨.

(٣) رواه مسلم: ٣١٧٨.

(٤) رواه البخاري: ٦٣٥٥ وأحمد: ٥٤٢٣.

(٥) رواه البخاري: ٥٢٤١ واللفظ له ومسلم: ٥٠٣٦.

فهذا العمل الصالح الذي يرضي الله هو من موجبات الرحمة الذي ضاعفه الله لصاحبه وأدخله به الجنة برحمته ويرضاه عنه. وإلا فالعمل وحده في الحساب لا يكفي لدخول الجنة. ويجب أن يؤمن بذلك كل مسلم.

والله سبحانه واسع رحيم يرحم العبد في أخطائه بينه وبين ربه، لكنه سبحانه يقتص منه حقوق الناس ولا يظلم أحداً.

وليس التقاضي هناك بالأموال وإنما بالأعمال، فليس هناك دينار ولا درهم وإنما الحسنات والسيئات:

[عَن جابرَ بن عبدالله قالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيامَةِ أَوْ قالَ العِبادُ عُرَاةً غُرْلاً بُهماً قالَ قُلنَا وما بُهماً قالَ لَيسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ أَنَا المَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ وَلا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أُقُصَّهُ مِنْهُ وَلا يَنْبَغي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَلأَحدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةُ قَالَ قُلْنَا كَيفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي الله** ﷻ عُرَاةً غُرْلًا بُهْماً قالَ بِالحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ»][1].

وفي حديث آخر [عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء؟ قال يا رب فليحمل من أوزاري، وفاضت عينا رسول الله ﷺ ثم قال: إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم...**» ثم ذكر تمام الحديث][2].

---

(١) رواه أحمد: ١٥٤٦٤.

(٢) رواه الحاكم انظر

ولا تحمل نفس في ذلك اليوم وزر أخرى ولو كان مثقال ذرة، ومهما كانت قرابتها إليها:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: ١٨].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١].

يحملونها مرغمين وإن كانت أضعاف قدرتهم فيتعذبون بحملها ولا يستطيعون إلقاءها عن ظهورهم، ألا ساء ما يزرون!

والحسنات هي الرصيد الثمين وهي أعز ما يملكون هناك، بل لا يفديهم ملك الدنيا كلها ولو ملئت ذهباً:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩١].

وهؤلاء الكفار لما يروا النار يظنون أن لا مناص من الوقوع فيها:

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣].

فيخرج عليهم عنق من النار فيمصتهم إلى جهنم وكأنه الشهيق:

[عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ**

القِيامَةِ لها عَينَانِ تُبْصِرانِ وأُذُنانِ تَسْمَعانِ وَلِسانٌ يَنطِقُ يَقولُ إنِّي وَكّلتُ بِثلاثَةٍ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنيدٍ وَبِكُلِّ مَنْ دَعا مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ وَبالمُصَوِّرينَ»](١).

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفُرقان: ١١-١٤].

وأما المؤمنون المتقون ففيهم السابقون الذين يدخلون الجنة لا حساب عليهم ولا عذاب آمنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وهو ما ثبت في الحديث التالي:

[عَنْ أبي أُمامَةَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: **«وَعَدَنِي رَبِّي ﷻ أنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ ألْفاً بِغَيْرِ حِسابٍ وَلا عَذَابٍ مَعَ كُلِّ ألفٍ سَبْعونَ ألْفاً وَثلاثَ حَثيَاتٍ مِنْ حَثيَاتِ رَبِّي ﷻ»**](٢).

ومنهم مؤمنون كثيرون أيضاً حسابهم يسير، والأكثرون الباقون الذين خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيئاً فيساقون إلى الميزان وعسى الله أن يتوب عليهم.

والله سبحانه وتعالى يكلم الناس ويسمعهم ويحاسبهم في آن واحد وذلك على الله يسير: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨].

وفي الحديث:

[عَنْ عَدِيِّ بْنِ حاتِمٍ قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **«ما مِنْكُمْ مِنْ رَجُلٍ إلاَّ**

---

(١) رواه الترمذي: ٢٤٩٧.

(٢) رواه الترمذي: ٢٣٦١ وأحمد: ٢١٢٧١.

سَيكلِّمُهُ رَبهُ يومَ القيامةِ وَليسَ بَينَهُ تُرْجُمانٌ فَينظُرُ أيمَنَ مِنهُ فَلا يَرى شَيئاً إلا شَيْئاً قدَّمهُ ثمَّ يَنْظرُ أشْأمَ مِنهُ فَلا يَرَى شَيْئاً إلاَّ شَيئاً قدَّمهُ ثمَّ يَنظُرُ تِلقاءَ وَجْهِهِ فَتَستَقبِلُهُ النَّارُ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ مَنِ اسْتطاعَ مِنكُمْ أنْ يَقيَ وَجهَهُ حَرَّ النَّارِ وَلوْ بِشَقِّ تَمْرةٍ فَليفْعَلْ»][١].

ومن المعالم البارزة ليوم القيامة التي يراها الناس وهم في أرش المحشر: الحوض والميزان والصراط.

الحوض:

وهو حوض نبينا محمد ﷺ يرده المؤمنون في ذلك اليوم الشديد العطش ليرتوا منه.

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ لِكلِّ نَبيٍّ حَوْضاً وَإنهُمْ يَتباهَوْنَ أيُّهُمْ أكْثَرُ وارِدةً وإنِّي أرْجو أنْ أكونَ أكثرَهُمْ وَارِدَةً»][٢].

[قالَ النَّبيُّ ﷺ: «حَوْضي مَسيرَةُ شَهرٍ ماؤُهُ أبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ وَريحُهُ أطْيبُ مِنَ المِسْكِ وَكيزانُهُ كَنجومِ السَّماءِ مَنْ شَرِبَ مِنْها فَلا يَظْمَأُ أبَداً»][٣].

[عنَ أبي هُريرَةَ قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «تَرِدُ عَليَّ أمَّتي الحَوْضَ وَأنا أذُودُ النَّاسَ عَنْهُ كَما يَذودُ الرَّجُلُ إبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إبْلِهِ قالوا يا نَبيَّ اللهِ أتعرِفُنا قالَ نَعَمْ لَكُم سِيما لَيسَتْ لأحَدٍ غَيرِكُمْ تَرِدونَ عَليَّ غُرّاً مُحَجَّلينَ مِنْ آثارِ الوضوءِ وَليُصَدَّنَّ عَنِّي طائِفَةٌ مِنْكُمْ فَلا يَصِلونَ فأقولُ يا رَبِّ هَؤُلاءِ مِنْ أصْحابي فَيُجيبُني مَلَكٌ فيَقولُ وَهَلْ تَدْري مَا أحْدَثوا بَعْدَكَ»][٤].

---

(١) رواه الترمذي: ٢٣٣٩.
(٢) رواه الترمذي: ٢٣٦٧.
(٣) رواه البخاري: ٦٠٩٣.
(٤) رواه مسلم: ٣٦٥.

وفي رواية أخرى في وصف الحوض:

[عنْ أبي هُرَيرَةَ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: « **إنَّ حَوْضي أبْعَدُ مِنْ أيْلة مِنْ عَدَنٍ لَهُوَ أشَدُّ بَياضاً مِنَ الثَّلْجِ وَأحْلى مِنَ العَسَلِ باللبَنِ وَلآنيَتُهُ أكثَرُ مِنْ عَددِ النُّجومِ وَإنِّي لأصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ كَما يَصُدُّ الرَّجُلُ إبلَ النَّاسِ عَنْ حَوضِهِ قالوا يا رَسولَ اللهِ أتَعْرِفُنا يَوْمَئذٍ قالَ نَعَمْ لَكمْ سِيما لَيسَتْ لأحَدٍ مِنَ الأمَمِ تَرِدونَ عَليَ غرّاً مُحجّلينَ مِنْ أثَرِ الوضوءِ**»][(١)].

إذاً فالحوض بصفاته هذه كائن على الأرض المبدلة البيضاء أرض المحشر يرده المسلمون يوم الموقف بعد خروجهم من قبورهم عطاشاً من شدة الحر وهم الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، وأما الذين أحدثوا وبدلوا فيُصدون عنه. وأما الكوثر فهو نهر في الجنة أعطاه الله رسوله ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]. وهو غير الحوض وإن كان ما بينهما من تشابه!

الميزان:

وهو ميزان عظيم ينصب يوم القيامة ليزن الأعمال وهو من الدقة والحساسية بحيث يزن حتى حبة الخردل، وكفته بسعة الأفق ولا تضاهيه الموازين الحساسة في الدنيا قال تعالى:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].

لا بل إنه ليزن حتى الذرة من عمل الخير أو الشر:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

(١) رواه مسلم: ٣٦٤.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

فمن ثقلت موازينه من أعمال الخير أفلح ومأواه الجنة، ومن خفت خسر مصيره إلى النار. وفي الحديث:

[عن أنس يرفعه، قال:

«ملك موكل بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يُسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً»](١).

[عن سلمان عن النبي ﷺ قال:

«يوضع الميزان يوم القيامة فلو درّي فيه السموات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله لمن شئت من خلقي فيقولون سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»](٢).

الصراط:

وهو جسر عظيم بين ظهراني جهنم، لا بد أن يمر منه الخلق ليعبروا إلى الجنة فينجو المؤمنون ويتساقط الكافرون. قال تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

---

(١) رواه البزار والبيهقي - انظر المنذري ج٤، ص: ٤٢٥، ط/٣، إحياء التراث العربي.

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم. نفس المصدر أعلاه وفي نفس الصفحة.

وانظر إلى سعة رحمة الله وكرمه في ذلك الموقف العصيب:

[أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُمَا أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ قَالَ: «**هَلْ تُمَارُونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**» قَالُوا: لا، قَالَ: «**فَإِنَّكُم تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتَّبِعْ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ القَمَرَ وَمِنْهُم مَنْ يَتَّبِعُ الطَّواغِيتَ وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقوهَا فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولونَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِينَا رَبُّنَا فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُم فَيَقُولونَ أَنْتَ رَبُّنَا فَيَدْعُوهُم فَيُضْرَبُ الصِّراطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ وَكَلامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ وَفِي جَهَنَّمَ كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو حَتَّى إِذَا أَرادَ اللهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ اللهُ المَلائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثارِ السُّجُودِ وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قدِ امْتَحَشُوا فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الحَياةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ثُمَّ يَفْرُغُ اللهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ بينَ الجَنَّةِ والنَّارِ وَهوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخولًا الجَنَّةَ مُقبلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ فَيقولُ يا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهي عَنِ النَّارِ قَدْ قَشَبَني رِيحُها وَأَحْرَقَني ذَكاؤها فَيقولُ هَلْ عَسَيْتَ أَنْ فُعِلَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيرَ ذَلِكَ فَيقولُ لا وَعِزَّتِكَ فَيُعْطِي اللهَ ما يَشاءُ مِنْ عَهْدٍ وميثاقٍ فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عنِ النَّارِ فَإِذا أَقبَلَ بِهِ على الجَنَّةِ رَأى بَهْجَتها سَكتَ ما شاءَ اللهُ أَنْ يَسْكتَ ثُمَّ قالَ يا رَبِّ قَدِّمْني عِندَ بابِ الجَنَّةِ فَيقولُ اللهُ لَهُ أَليسَ قَدْ أَعْطَيتَ العُهودَ**

وَالميثاقَ أنْ لا تَسألَ غَيرَ الذي كُنتَ سَألْتَ فيقولُ يا رَبِّ لا أكونُ أشقى خَلْقِكَ فيقولُ فما عَسَيتَ إنْ أُعْطيتَ ذَلِكَ أنْ لا تَسْألَ غَيرَهُ فيقولُ لا وَعِزَّتِكَ لا أسْألُ غيْرَ ذَلكَ فيُعطي رَبَّهُ ما شاءَ مِنْ عَهْدٍ وَميثاقٍ فيُقدِّمُهُ إلى بابِ الجَنَّةِ فإذا بَلغَ بَابها فَرأى زَهْرَتها وَما فِيها مِنَ النَّضْرَةِ وَالسُّرورِ فَيَسكُتُ ما شَاءَ اللهُ أنْ يَسكُتَ فَيقولُ يا رَبِّ أدْخِلْني الجَنَّة فَيقولُ اللهُ وَيْحَكَ يا ابْنَ آدَمَ ما أغْدَرَكَ أليسَ قَد أعْطَيتَ العُهودَ وَالميثاقَ أنْ لا تَسْألَ غَيرَ الذِي أُعْطيتَ فَيقولُ يا رَبِّ لا تَجْعلْني أشْقى خَلقِكَ فَيضْحَكُ اللهُ عزَّ وَجلَّ مِنهُ ثمَّ يَأذنُ لَهُ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ فَيقولُ تَمنَّ فيتمَنَّى حتَّى إذا انْقَطَعَ أمْنِيَّتُهُ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ كَذا وَكذا أقبَلَ يُذكِّرهُ ربُّهُ حتَّى إذا انْتهتْ بِهِ الأمانيُّ قالَ اللهُ تَعالى لكَ ذلِكَ وَمثلُهُ مَعَهُ». أوْ عَلى قول أبي سعيد: «قالَ اللهُ لَكَ ذلِكَ وعَشرَةُ أمْثالِهِ»][1].

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «يَجمَعُ اللهُ تَبارك وَتعالى النَّاسَ فَيقومُ المُؤمِنونَ حتَّى تُزْلفَ لهُمُ الجَنَّةُ فَيأْتونَ آدمَ فَيقولونَ يا أبانا اسْتَفتِحْ لَنا الجَنَّةَ فَيقولُ وَهَلْ أخْرَجكُمْ مِنَ الجَنةِ إلا خَطيئَةُ أبيكُمْ آدَمَ لسْتُ بِصاحِبِ ذلِكَ اذهَبوا إلَى ابْني إبْراهيمَ خَليلِ اللهِ قالَ فَيقولُ إبْراهيمُ لَسْتُ بِصاحِبِ ذلِكَ إنَّما كُنْتُ خليلًا مِنْ وَراءَ وراءَ اعْمِدوا إلى موسَى ﷺ الَّذي كَلَّمهُ اللهُ تَكْليماً فَيأتونَ موسَى ﷺ فَيقولُ لَسْتُ بِصاحِبِ ذلِكَ اذْهَبوا إلى عيسَى كَلِمةِ اللهِ وَروحِهِ فَيقولُ عيسَى ﷺ لَسْتُ بِصاحِبِ ذلِكَ فَيأتونَ مُحَمَّداً ﷺ فَيقومُ فَيؤذَنُ لَهُ وَتُرسَلُ الأمانَةُ والرَّحِمُ فَتقومانِ جَنَبَتَي الصِّراطِ يَميناً وَشِمالاً فَيمُرُّ أوَّلكُمْ كَالبَرْقِ» قالَ: قُلتُ: بِأبي أنْتَ وأمِّي أيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ البَرْقِ؟ قالَ: «ألَمْ تَروا إلَى البَرْقِ كَيفَ يَمُرُّ وَيرْجِعُ فِي طَرفَةِ عَيْنٍ ثمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثمَّ كَمَرِّ الطَّيرِ وَشَدِّ الرِّجالِ تَجْري بِهِم أعْمالُهُمْ وِنبيُّكُمْ قائمٌ عَلى الصِّراطِ يَقولُ رَبِّ سَلِّمْ سلِّمْ حتَّى تَعْجزَ أعْمالُ العِبادِ حتَّى يَجيءَ الرَّجُلُ فَلا يَسْتطيعُ السَّيرَ إلا زَحْفاً»

(١) رواه البخاري: ٧٦٤.

قالَ: «**وَفِي حَافتَي الصِّراطِ كلاليبُ مُعَلقةٌ مأمورَةٌ بِأخذِ مَنْ أمِرَتْ بهِ فمَخْدوشٌ ناجٍ ومَكدوسٌ فِي النَّارِ**» والذي نَفْسُ أبي هُرَيرةَ بِيدهِ إنَّ قَعرَ جَهنَّم لسبْعونَ خَريفاً][1].

[عن النَّضْرُ بنُ أنس بنِ مالكٍ عنْ أبيهِ قالَ: سَألتُ النَّبيَّ ﷺ أنْ يِشفعَ لي يَومَ القيامَةِ فقالَ: «**أنا فاعِلٌ**» قالَ: قلتُ: يا رَسولَ اللهِ فأيْنَ أطلُبُكَ؟ قالَ: «**اطلُبني أوَّلَ ما تطْلبُني عَلى الصِّراطِ**» قالَ: قلتُ: فإنْ لَمْ ألقَكَ عَلى الصِّراطِ؟ قالَ: «**فاطْلبْني عِندَ الميزانِ**» قُلتُ: فَإنْ لَمْ ألقَكَ عِندَ الميزانِ؟ قالَ: «**فاطلُبني عندَ الحَوضِ فإنِّي لا أُخطِئُ هَذهِ الثَّلاثَ المَواطِنَ**»][2].

وإن أشدَّ ما يكون الإنسان من الخوف والقلق في ذلك اليوم فوق ما يلاقيه من شدة الموقف هو خوفه في ثلاثة مواطن أيضاً حتى يطير لبه وترتعد فرائصه ولا يتذكر أحداً.

[عَن الحَسَنِ عنْ عائشَةَ أنَّها ذكَرَتِ النَّارَ فبكَتْ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**ما يُبكيكِ؟**» قالتْ: ذكَرتُ النَّارَ فبَكيْتُ فهَلْ تذكُرونَ أهْليكُمْ يَومَ القيامَةِ، فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**أما في ثلاثةِ مَواطِنَ فَلا يَذكُرُ أحَدٌ أحَداً عِندَ الميزانِ حتَّى يَعلَمَ أيَخِفُّ ميزانُهُ أوْ يثقُلُ وعنْدَ الكِتابِ حينَ يُقالُ (هَاؤمُ اقرَءوا كِتابيَه) حتَّى يَعلَمَ أيْنَ يَقعُ كِتابُهُ أفي يَمينِهِ أمْ في شِمالهِ أمْ مِن وَراءِ ظَهرِهِ وَعندَ الصِّراطِ إذا وُضِعَ بَينَ ظَهرَيْ جهنَّمَ**»][3].

[وعن عبدالله بن مسعود قال: يوضع الصراط على سواء جهنم مثل حد السيف المرهف مدحضة مزلة عليه كلاليب من نار يخطف بها، فممسك يهوي فيها، ومصروع، ومنهم من يمر كالبرق فلا ينشب ذلك أن ينجو، ثم

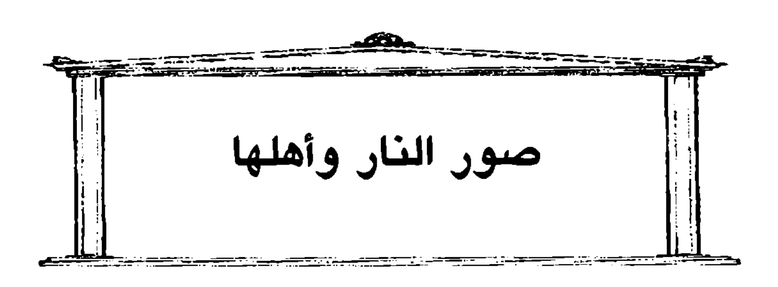
(١) رواه مسلم: ٢٨٨.
(٢) رواه الترمذي: ٢٣٥٧.
(٣) رواه أبو داود: ٤١٢٨.

كالريح فلا ينشب ذلك أن ينجو ثم كجري الفرس ثم كرمل الرجل ثم كمشي الرجل ثم يكون آخرهم إنساناً رجل قد لوحته النار ولقي فيها شراً حتى يدخله الله الجنة بفضل رحمته فيقال له تمنّ وسل فيقول: أي رب أتهزأ مني وأنت رب العزة فيقال له تمنّ وسل حتى إذا انقطعت به الأماني قال: لك ما سألت ومثله معه][١].



(١) رواه الطبراني - انظر المنذري ج٤، ص: ٤٢٥، ط/٣.

الفصل الخامس



صور النار وأهلها

النار أعدها الله للمشركين بالله وللكافرين والظالمين والمنافقين وللفجار مرتكبي الكبائر المهاجرين بالمعاصي والمصرين عليها ولم يتوبوا إلى ربهم. فالتوبة تمحو الذنوب جميعاً حتى الشرك بالله وهو أكبر الكبائر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البيّنة: ٦].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩].

وسرادقها الجدران المحيطة بها:

[عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: **«لسُرادِقِ النارِ أربَعَةُ جُدُرٍ كِثفُ كلِّ جِدارٍ مِثلُ مَسيرَةِ أَرْبَعينَ سَنَةً»**][1].

(١) رواه الترمذي: ٢٥٠٨.

[عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ الصَّخْرَةَ العَظيمَة لتُلقى مِنْ شَفيرِ جَهَنَّم فَتهوي فيها سَبعينَ عاماً وَما تُفضي إلى قَرارِها قالَ وَكانَ عُمَرُ يَقولُ أكْثِروا ذِكْرَ النَّارِ فإنَّ حرَّها شَديدٌ وإنَّ قَعْرَها بَعيدٌ وإنَّ مَقامِعَها حَديدٌ**»](١).

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**يُؤتى بِجهنَّم يومَئذٍ لَها سَبعونَ ألفَ زِمامٍ مَعَ كلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألفَ ملكٍ يَجُرونَها**»](٢).

ووقود النار الناس والحجارة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٤].

والحجارة يوقد عليها حتى تنصهر بمعادنها فتصبح أولًا كالتالي تخرج من البراكين فتندفع يحطم بعضها بعضاً فهي الحطمة:

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ [الهُمَزة: ٤-٩].

[عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**نارُكُمْ هذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبعينَ جُزْءاً منْ نارِ جهنَّمَ لِكلِّ جُزْءٍ مِنها حرُّها**»](٣).

[عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**أُوْقدَ على النارِ ألفَ سنَةٍ حتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أوقِدَ**

(١) رواه الترمذي: ٢٤٩٨.
(٢) رواه الترمذي: ٢٤٩٦.
(٣) رواه الترمذي: ٢٥١٥.

عَلَيها أَلْفَ سَنةٍ حتَّى ابيضَّتْ ثمَّ أوقِدَ عَلَيها أَلْفَ سنةٍ حتَّى اسودَّتْ فهيَ سوداءُ مُظْلمةٌ»](١).

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**اشْتكَتِ النارُ إلى ربِّها فَقالَتْ يا رَبِّ أَكَلَ بَعضِي بَعْضاً فَأَذِنَ لَها بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ في الشِّتاءِ وَنَفسٍ في الصَّيفِ فَهوَ أَشدُّ ما تَجِدونَ مِنَ الحرِّ وأشَدُّ ما تَجدونَ منَ الزَّمْهَرير**»](٢).

وهي تفور بأهلها في شهيق وزفير:

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧﴾ [المُلك: ٧].

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢﴾ [الفرقان: ١٢].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾ [هُود: ١٠٦، ١٠٧].

وكلما فارت بأهلها فارتفعوا من قعرها إلى أعلاها - وهذا العمق بمسافة سقوط صخرة سبعين خريفاً كما سبق في الحديث - تلقتهم الزبانية بمقامع من حديد يضربونهم حتى يعودون مع الشهيق إلى قعرها مرة أخرى وهكذا خالدين على هذا الحال:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

وهكذا يعذبون بثياب النار التي يلبسونها وبالطعام والشراب في

---

(١) رواه الترمذي: ٢٥١٦.

(٢) رواه مسلم: ٩٧٧ والترمذي: ٢٥١٧.

بطونهم. طعامهم ذا غصة من شجر الزقوم وشرابهم من الحميم الآن - وهو الشديد الحرارة - الذي يقطع الأمعاء ويصهر ما في البطون:

[عنْ أبي هُرَيرةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ الحَميمَ ليُصَبُّ على رُؤوسِهِمْ فَينفذُ الحميمُ حتَّى يَخلُصَ إلى جوفِهِ فَيَسْلِتُ ما في جَوْفِهِ حتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيهِ وهوَ الصَّهْرُ ثمَّ يعادُ كَما كانَ**»][1].

وهم موثقين بالأصفاد - وهي أعمدة النار -:

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠].

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦].

[عنِ ابنِ عبَّاسٍ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَرأَ هذِهِ الآيَة: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمران: ١٠٢] قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**لوْ أنَّ قَطرَةً مِنَ الزَّقُّوم قُطِرَتْ في دارِ الدُّنيا لأفسَدَتْ على أهْلِ الدُّنيا مَعايشَهُمْ فكَيفَ بمنْ يَكونُ طعامَهُ**»][2].

---

(١) رواه الترمذي: ٢٥٠٥.

(٢) رواه الترمذي: ٢٥١٠.

وشرابهم هذا هو الحميم الآن - شديد الحرارة - الذي يقطع الأمعاء:

﴿... كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩].

[عنِ النَّبيِّ ﷺ في قَولِهِ: ﴿كالمُهْلِ﴾ قالَ كَعَكَرِ الزَّيتِ فإذا قرَّبهُ إلى وَجْههِ سَقطَتْ فَروَةُ وَجْهِهِ فيهِ][(١)].

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبإ: ٢١-٢٦].

والغساق هو صديد أهل النار وعصارتهم:

[عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: **«لَوْ أنَّ دَلْواً مِنْ غَساقٍ يُهراقُ فِي الدُّنيا لأَنْتَنَ أهلَ الدُّنيا»**][(٢)].

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٥-١٧].

[عنِ النَّبي ﷺ قالَ: **«يُحشَرُ المُتكَبِّرونَ يومَ القِيامَةِ أمْثالَ الذَّرِّ في صوَرِ الرِّجالِ يَغْشاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كلِّ مَكانٍ فَيُساقونَ إلى سِجْنٍ في جَهنمَ يُسمَّى بُولَسَ تَعلوهُمْ نارُ الأنْيارِ يُسْقَونَ مِن عُصارةِ أهْلِ النَّارِ طينَةَ الخَبالِ»**][(٣)].

---

(١) رواه الترمذي: ٢٥٠٤.

(٢) رواه الترمذي: ٢٥٠٩.

(٣) رواه الترمذي: ٢٤١٦.

[عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧] قال: «**يُقرَّبُ إلى فِيهِ فَيكرهُهُ فإذا أُدْنِيَ مِنهُ شَوَى وَجْهَهُ وَوقعَتْ فَرْوةُ رأسِهِ فإذا شَربَهُ قَطَّعَ أمْعاءَهُ حتَّى تخْرجَ مِنْ دُبُرِه يَقولُ الله** ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] ويقول ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]»][1].

ويطب النجاة والفدية من هذا العذاب بكل شيء، ولكن!

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ [المعارج: ١٠-١٩].

فأوعى: ملأ أوعيته بالمال.

والجلود التي تملك الإحساس بالحرارة هي الأخرى تنضج وتتبدل ثم تنضج هذه وتتبدل وهكذا حتى يدوم العذاب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦﴾ [النساء: ٥٦].

وهم يسبحون على وجوههم بسلاسل النار في طواف بين النار والحميم:

﴿هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾ [الرحمٰن: ٤٣، ٤٤].

---

(١) رواه الترمذي: ٢٥٠٦.

وكلما سقوا في ماء الحميم سحبوا وهم بالسلاسل والأغلال وسجروا في الجحيم ثم يعادوا بهذا الطواف الذي لا ينتهي:

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧١-٧٦].

وهم يستغيثون ويصطرخون - لهم صراخ وعواء وعويل - فيصبرون يوماً وهو هناك بألف سنة، ولما يجدوا أن ذلك لا يجدي نفعاً، يجزعون يوماً آخر كذلك هو ألف سنة ولا من مغيث ولا من مجيب ولا من نصير ولا من نكير ولا من موت منقذ ولا هي حياة تطاق وهذا هو سوء المصير فيقولون بعد هذا اليأس:

﴿... سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ١٠-١٣].

وقد وصف حالهم هذا رسول الله ﷺ في الحديث التالي:

[عنْ أبي الدَّرداءِ قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**يُلقى على أهلِ النارِ الجوعُ فَيَعْدِلُ ما هُمْ فيهِ منَ العذابِ فَيستغيثونَ فَيُغاثونَ بِطعامٍ مِنْ ضَريعٍ لا يُسمِنُ وَلا يُغْني مِنْ جوعٍ فَيَسْتَغيثونَ بِالطَّعامِ فَيُغاثونَ بِطَعامٍ ذي غُصَّةٍ**

فَيذكُرونَ أنَّهمْ كانوا يُجيزونَ الغَصَصَ في الدُّنْيا بالشَّرابَ فَيستغيثونَ بِالشَّرابِ فَيُرفَعُ إليهمُ الحَميمُ بِكلاليبِ الحَديدِ فإذا دَنتْ مِن وجوهِهمْ شَوَتْ وجوهَهُمْ فإذا دَخلتْ بُطونهمْ قطَّعتْ ما في بَطونِهمْ فَيقولونَ ادْعوا خَزنة جهنَّم فَيقولونَ: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾ [غافر: ٥٠] **قالَ: فيقولونَ: ادْعوا مَالِكاً فَيقولونَ:** ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف: ٧٧] **قالَ: فَيُجيبهُمْ:** ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] قالَ الأعْمشُ: نبِّئتُ أنَّ بيْنَ دُعائهمْ وَبينَ إجابَةِ مالكٍ إيَّاهمْ ألفَ عام، **قالَ: فيقولونَ ادْعوا رَبَّكمْ فلا أحَدَ خيرٌ مِنْ ربِّكُم فيقولونَ:** ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧] **قالَ: فيجيبُهُمْ** ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون: ١٠٨] **قالَ: فَعِندَ ذلكَ يَئِسوا مِنْ كلِّ خَيرٍ وَعنْدَ ذلكَ يأخُذونَ فِي الزَّفيرِ والحَسْرَةِ والوَيْلِ»]**[1].

ذلك بعد أن علموا أن هذا هو مصيرهم الحق الذي لا مصير لهم غيره وهذا هو جزاؤهم الحق كما اعترفوا وشهدوا به على أنفسهم:

﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٧٥﴾ [القصص: ٧٥].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧١﴾ [الزمر: ٧١].

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝١٣٠﴾ [الأنعام: ١٣٠].

---

(١) رواه الترمذي: ٢٥١١.

فيسرون الحسرة والندامة في أنفسهم:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس: ٥٤].

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزُمَر: ٥٦].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعَام: ٣١].

وبعد هذه الحسرات وبعد أن يلقوا مقيدين في المكان الضيق، ويروا أن هذا هو مكانهم من النار، يدعون هنالك بالويل والثبور:

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الفُرقان: ١٣-١٥].

هذا وإن أهون الناس عذاباً كما يصفه الحديث:

«إنَّ أهوَنَ أهلِ النَّارِ عَذاباً يَومَ القيامَةِ لرجُلٌ توضَعُ في أخْمَصِ قَدَمَيهِ جمْرتانِ يَغلي مِنْهُما دِماغُهُ»(١).

«إنَّ أهوَنَ أهلِ النارِ عَذاباً مَنْ لهُ نَعلانِ وشِراكانِ مِن نارٍ يَغلي مِنهما دِماغهُ كما يَغلِ المِرْجَلُ ما يَرى أنَّ أحَداً أشَدُّ مِنهُ عَذاباً وإنهُ لأهوَنُهُمْ عَذاباً»(٢).

---

(١) رواه البخاري: ٦٠٧٧ ومسلم: ٣١٣ واللفظ له.

(٢) رواه مسلم: ٣١٤.

وبعد ذلك أليس هذا العذاب كافياً ليردع ابن آدم عن الكبائر والصغائر؟ إن أهون العذاب فيها وقانا الله منها وأعاذنا من شرها، أقول والله إن أهون العذاب فيها لا يطاق للحظة فكيف إذا دام؟ اللهم نجنا من عذابك وسخطك وأدخلنا في رحمتك يا أرحم الراحمين. وبذلك تعلم ما ترمي إليه الآية الكريمة التي تهدد من يتبع الشيطان:

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسراء: ٦٣].

[عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: **«يقولُ اللهُ تباركَ وَتعالى لأهوَنِ أهلِ النَّارِ عَذاباً لَو كانتْ لكَ الدُّنيا وَما فِيها أَكُنتَ مُقتَدياً بِها فَيقولُ نَعَمْ فيقولُ قدْ أَردتُ مِنكَ أهوَنَ مِنْ هَذا وَأنتَ في صُلبِ آدَمَ أنْ لا تُشرِكَ فأبَيتَ إلا الشِّركَ»**][1].

سعة رحمة الله:

ثم إن المؤمن مرتكب الكبائر والذنوب لا يخلد في النار. والله سبحانه وتعالى يحاسبه بأعماله، وإنه قد دخل النار برجحان سيئاته على حسناته، حتى إذا قضى ما عليه، وتطهر عما زاد من ذنوبه أخرجه الله برحمته من النار.

[عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: **«يَخرجُ قَومٌ مِنَ النَّارِ بَعدَ ما مسَّهُمْ مِنها سَفْعٌ فَيدخُلونَ الجَنةَ فيُسمِّيهِمْ أهلُ الجنَّةِ الجَهنَّميِّينَ»**][2].

[عنْ أبي سَعيدِ الخُدْريِّ رَضيَ اللهُ عَنهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: **«إذا دَخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهْلُ النَّارِ النَّارَ يقولُ اللهُ منْ كانَ في قلبِهِ مِثقالَ حبَّةٍ مِن**

(١) رواه البخاري: ٣٠٨٧ ومسلم: ٥٠١٨.

(٢) رواه البخاري: ٦٠٧٤.

خَردَلٍ مِنْ إيمانٍ فَأخرِجوهُ فَيخرُجونَ قَدِ امْتُحِشوا وَعادوا حُمَماً فَيُلقَوْنَ في نَهَرِ الحياةِ فَينبُتُونَ كَما تَنبُتُ الحِبَّةُ في حَميلِ السَّيْلِ» أو قالَ: **«حَمِيَّةِ السَّيلِ»** وقالَ النَّبيّ ﷺ: **«ألَم تَروا أنَّها تَنبُتُ صَفْراءَ مُلتَويَةً»**][1].

[أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: **«يخرُجُ مِنَ النارِ منْ قالَ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَكانَ في قَلبهِ مِنَ الخَيْرِ ما يَزِنُ شَعِيرةً ثُمَّ يخرُجُ منَ النارِ منْ قالَ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وكانَ في قلْبهِ منَ الخَيرِ ما يزنُ برَّةً ثمَّ يخرُجُ مِنَ النارِ منْ قالَ لا إلهَ إلا اللهُ وكانَ في قلْبهِ مِنَ الخَيرِ ما يَزنُ ذرَّةً»**][2].

كذلك يخرج الله سبحانه من يشاء من النار بشفاعة النبي ﷺ تكريماً له بعد أن يأذن له في الشفاعة فيهم:

[عنْ أبي هُرَيرةَ قالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **«لِكلِّ نَبيٍّ دَعوَةٌ مُستجابَةٌ فتعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دَعوتهُ وإنِّي اختبأتُ دَعوَتي شَفاعةً لأمَّتي يومَ القِيامةِ فهيَ نائلةٌ إنْ شاءَ اللهُ مَنْ ماتَ مِنْ أمَّتي لا يُشرِكُ باللهِ شَيئاً»**][3]. مسلم.

[عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: **«يَخرُجُ قَومٌ منَ النارِ بشفاعةِ مُحمَّدٍ فَيدخلونَ الجنَّةَ ويسمَّوْنَ الجَهنميِّينَ»**][4].

[عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **«شفاعَتي لأهْلِ الكَبائِرِ مِنْ أمَّتي»**][5].

من ذلك يتبين أن من مات على الشرك يخلد في النار ولا تنفعه شفاعة الشافعين. وأن العصاة من أهل التوحيد لا يخلدون في النار.

---

(١) رواه البخاري: ٦٠٧٥.
(٢) رواه مسلم: ٢٨٥.
(٣) رواه مسلم: ٢٩٦.
(٤) رواه البخاري: ٦٠٨١ وأبو داود: ٤١١٥.
(٥) رواه أبو داود: ٤١١٤ والترمذي: ٢٣٥٩.

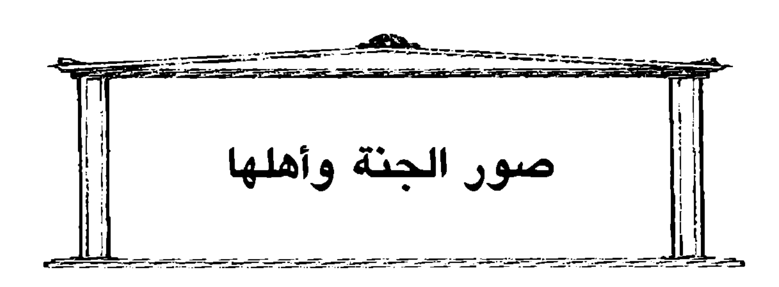
وآخر أهل النار خروجاً منها هو رجل ذكره النبي ﷺ في الحديث:

[قالَ النَّبيّ ﷺ: **«إنّي لأعْلمُ آخِرَ أهلِ النارِ خُروجاً مِنها وَآخرَ أهلِ الجنةِ دُخولاً رجُلٌ يَخرُجُ مِنَ النارِ كَبْواً فيقولُ اللهُ اذْهَبْ فادْخُلِ الجنَّةَ فيأتيها فيُخيَّلُ إلَيهِ أنَّها مَلأى فيَرجِعُ فيقولُ يا ربِّ وَجدتُها مَلأى فَيقولُ اذْهبْ فادخُلِ الجنةَ فَيأتيها فيُخَيَّلُ إليهِ أنَّها مَلأى فَيرْجعُ فَيقولُ يا ربِّ وَجَدتُها مَلأَى فَيقولُ اذْهبْ فادخُلِ الجنَّة فإنَّ لكَ مِثلَ الدُّنيا وَعَشرةَ أمْثالِها أو إنَّ لكَ مِثلَ عشرَةِ أمثالِ الدُّنيا فَيقولُ تَسخَرُ منِّي أو تَضحَكُ منِّي وأنْتَ المَلِكُ،** فلَقَدْ رَأيتُ رَسولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حتَّى بدتْ نَواجِذُهُ وكانَ يقولُ: **ذاكَ أدْنى أهلِ الجنةِ مَنزِلةً»**][1].



(١) رواه البخاري: ٦٠٨٦.

الفصل السادس



صور الجنة وأهلها

الجنة: هي دار المقامة التي أعدها الله لعباده المؤمنين المتقين، جزاء لهم على طاعتهم واتباعهم هدى الله وإخلاصهم العبادة له والعمل لوجهه سبحانه. وهي دار نعيم مقيم ليس فيها هم ولا حزن وليس فيها تعب ولا نصب:

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٧، ٤٨].

يدخلها الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج: ٢٣].

ويدخلها المؤمنون المجاهدون بأموالهم وأنفسهم المنيبون إلى ربهم بالطاعة والعبادة، والاستقامة والتقوى، والعمل الصالح:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١١،١١٢].

نعيمها باق لا ينفذ، يأتيهم رزقهم وطعامهم وشرابهم بكرة وعشياً:

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٢،٦٣].

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٤٩-٥٤].

وأنهارها كثيرة ومنوعة:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

وثمارها وفواكهها دانية القطاف، دائمة العطاء لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، لهم فيها ما يشاؤون وما يشتهون، يطوف عليهم ولدان مخلدون يقومون على خدمتهم كأنهم اللؤلؤ المنثور، لباسهم الحرير والسندس والاستبرق وآنيتهم الذهب

وأكوابهم من قوارير الفضة وقصورهم من الذهب والفضة واللؤلؤ تجري من تحتها الأنهار، وزوجاتهم من الحور العين كأنهن بيض مكنون وكأنهم الياقوت والمرجان أنشأهن الله إنشاء فجعلهن أبكاراً عرباً أتراباً مع من ألحق بهن من زوجات الدنيا شابات ناهدات على سن واحدة قاصرات الطرف على أزواجهن متحببات لهم، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، يغنين أزواجهن بأعذب الألحان خالدين فيها لا يخافون أن يخرجوا منها ولا يخافون على شيء فيها، فلا معتدين ولا سراق - كما في الدنيا - ليس هناك إلا ملائكة حافظين يحيونهم بالسلام والأمان وهم بين أهليهم:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

[عنْ أبي هُرَيرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«إنَّ أوَّلَ زُمْرَةٍ يدخلونَ الجنَّةَ على صورَةِ القمَرِ ليلة البَدْرِ والذينَ يلونَهم على أشدِّ كوكَبٍ دُرِّيٍّ في السَّماءِ إضاءةً لا يَبولونَ وَلا يَتغوَّطونَ وَلا يمْتَخِطونَ وَلا يَتفلونَ أمْشاطُهُمُ الذَّهَبَ ورَشْحُهُمُ المِسْكُ وَمَجامِرُهُمُ الألوَّةُ وأزواجُهُمُ الحورُ العينَ أخلاقُهمْ على خُلُقِ رَجُلٍ واحِدٍ على صورَةِ أبيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِراعاً فِي السَّماءِ»**][(١)].
الألوة: عود الطيب.

وفي رواية البخاري:

[عنْ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عَنهمْ قالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **«أوَّلُ زُمْرةٍ تَلِجُ الجنَّةَ صورتُهُمْ عَلى صورَةِ القَمَرِ ليلةَ البدْرِ لا يبصُقونَ فيها ولا يَمتَخِطونَ وَلا يتغَوَّطونَ آنيَتُهُمْ فيها الذَّهبُ أمْشاطُهُمْ مِنَ الذَّهب والفِضَّةِ وَمجامِرهمَ الألوَّةُ ورَشحُهُمُ المِسكُ ولكلِّ واحدٍ مِنهم زوجَتانِ يُرى مُخُّ**

---

(١) رواه مسلم: ٥٠٦٣.

سوقِهما مِنْ وَراءِ اللحم مِنَ الحُسْنِ لا اخْتِلافَ بينهُمْ ولا تَباغُضَ قُلوبُهمْ قَلبٌ واحِدٌ يُسبِّحونَ اللهَ بُكْرةً وَعشِياً»][(١)].

[عنْ جابِرٍ قالَ: سمِعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «إنَّ أهلَ الجَنَّةِ يأكُلونَ فِيها ويشرَبونَ ولا يَتْفِلونَ ولا يَبولونَ ولا يَتغوَّطونَ وَلا يَمْتَخِطونَ قالوا فَما بالُ الطَّعامِ قالَ جُشاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْكِ يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحْميدَ كَما تُلهَمونَ النَّفَسَ»][(٢)].

[حدَّثني أُسامةُ بنُ زَيدٍ قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَوم لأصْحابِهِ: «ألا مُشَمِّرٌ لِلجنَّةِ فإنَّ الجنَّةَ لا خَطَرَ لها هِيَ ورَبِّ الكَعبةِ نورٌ يَتَلألأُ وَرِيحانَةٌ تَهتَزُّ وقصْرٌ مَشيدٌ وَنهَرٌ مُطَّرِدٌ وفاكِهةٌ كَثيرَةٌ نَضيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسناءُ جَميلَةٌ وَحُلَلٌ كَثيرةٌ في مقام أبداً في حَبْرَةٍ وَنضْرَةٍ في دُورٍ عَالِيَةٍ سَليمَةٍ بَهيَّةٍ قالوا نَحْنُ المُشَمِّرونَ لها يا رَسولَ اللهِ قالَ قولوا إنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ ذكَرَ الجِهادَ وحَضَّ عليهِ»][(٣)].

[عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ للمُؤمِنِ في الجَنَّةِ لخَيمَة مِنْ لؤلؤَةٍ واحِدَةٍ مُجوَّفةٍ طولُها سِتُّونَ مِيلاً للمؤمِنِ فيها أهلونَ يَطوفُ عليهِم المؤمِنُ فَلا يَرى بعضُهُمْ بَعْضاً»][(٤)].

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ في الجنَّةِ لَمُجْتَمَعاً لِلحُورِ العِينِ يُرَفِّعْنَ بأصْواتٍ لَمْ يَسمَعِ الخلائِقُ مِثلها قالَ يقُلنَ نحنُ الخالِداتُ فلا نَبيدُ وَنحنُ النَّاعِماتُ فلا نَبْؤُسُ ونحنُ الرَّاضِياتُ فَلا نَسْخَطُ طوبَى لِمَنْ كانَ لنا وكُنَّا لهُ»][(٥)].

---

(١) رواه البخاري: ٣٠٠٦.
(٢) رواه مسلم: ٥٠٦٦.
(٣) رواه ابن ماجة: ٤٣٢٣.
(٤) رواه مسلم: ٥٠٧٠.
(٥) رواه الترمذي: ٢٤٨٨.

[عنْ أنسِ بْنِ مالِكٍ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إنَّ في الجَنةِ لَسوقاً يأتونَها كلَّ جُمُعَةٍ فتهُبُّ ريحُ الشَّمالِ فَتَحْثو في وجوهِهِمْ وَثيابِهِمْ فَيَزْدادونَ حُسْناً وَجمالاً فَيرْجِعونَ إلى أهليهِمْ وَقَدِ ازْدادوا حُسْناً وَجمالاً فَيقولُ لهُمْ أهلوهُمْ وَاللهِ لقدِ ازْدَدْتَمْ بَعْدنا حُسْناً وَجمالاً فَيقولونَ وَأنْتمْ واللهِ لقدِ ازْدَدْتُمْ بَعدَنا حُسْناً وَجمالاً**»](١).

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**بَينا أنا أسيرُ في الجَنةِ إذْ عُرِضَ لي نَهرٌ حافَّتاهُ قِبابُ اللؤْلؤِ قُلْتُ لِلمَلَكِ ما هذا؟ قالَ هذا الكَوْثرُ الذي أعْطاكَهُ اللهُ، قالَ ثُمَّ ضَرَبَ بيَدِهِ إلى طينَةٍ فاسْتخْرَجَ مِسْكاً، ثُمَّ رُفِعَتْ لي سِدرَةُ المُنْتهى فَرأيتُ عِندها نوراً عَظيماً**»](٢).

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**الكوثَرُ نَهرٌ في الجَنةِ حافَّتاهُ مِنْ ذَهَبٍ وَمجْراهُ على الدُرِّ والياقوتِ تُرْبَتُهُ أطيَبُ مِنَ المِسْكِ وَماؤُهُ أحْلى مِنَ العَسَلِ وأبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ**»](٣).

وفيما يلي صوراً من أحوالهم تعرضها الآيات التالية:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ١١-٢٢].

---

(١) رواه مسلم: ٥٠٦١.
(٢) رواه الترمذي: ٣٢٨٣.
(٣) رواه الترمذي: ٣٢٨٤.

﴿وَالسَّٰبِقُونَ السَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰٓئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الواقعة: ١٠-٤٠].

وما ظنك بإحدى هاتين الدرجتين الحسنيين:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة: ٨٨-٩١].

﴿الْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا۟ الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٧-٧٣].

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات: ٤٠-٤٩].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ

وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان: ٥١-٥٧].

وأهل الجنة درجات متفاوتة بحسب درجات أهلها عند الله. فأهل الفردوس وأهل الغرفات في أعالي الجنة يراهم أهل الجنة وكأنهم في كواكب أخرى لارتفاع مكانهم، جاء في الحديث:

[عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: **«إنَّ أهْلَ الجنَّةِ يَتَراءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ مِنْ فَوقِهِمْ كَما يَتراءَوْنَ الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ فِي الأفُقِ مِنَ المشرِقِ أوِ المَغرِبِ لِتَفاضُلِ ما بينهُم قالوا يا رَسولَ اللهِ تلكَ منازِلُ الأنْبياءِ لا يبلُغُها غَيْرُهُم قالَ بَلى والَّذي نفْسي بيَدِهِ رِجالٌ آمَنوا باللهِ وصدَّقوا المُرْسَلينَ»**][1].

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ آمَنَ باللهِ وَبِرَسولِهِ وأقامَ الصَّلاةَ وصامَ رَمضانَ كانَ حَقاً علَى اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجنةَ جاهدَ في سَبيلِ اللهِ أو جلسَ في أرْضِهِ التي وِلدَ فيها فَقالوا يا رَسولَ اللهِ أفلا نُبَشِّرُ النَّاسَ قالَ إنَّ فِي الجنةِ مائَة درجةٍ أعدَّها اللهُ لِلمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ ما بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَما بَينَ السَّماءِ والأرضِ فإذا سَألتُمُ اللهَ فاسْألوهُ الفِرْدَوْسَ فَإنَّهُ أوسَطُ الجَنَّةِ وَأعْلى الجنةِ وفوقَهُ عَرْشُ الرَّحمَنِ ومِنهُ تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنةِ»**][2].

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **«قالَ اللهُ أعْدَدْتُ لِعبادِي الصالِحينَ ما لا عَيْنٌ رَأتْ وَلا أذُنٌ سَمِعَتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ فاقْرَءوا إنْ شِئتُم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾** [السجدة: ١٧]»][3].

وإن أعظم نعيم وحبور يغشى أهل الجنة فوق ما هم فيه من النعيم

---

(١) رواه البخاري: ٣٠١٦ ومسلم: ٥٠٥٩.

(٢) رواه البخاري: ٢٥٨١ وأحمد: ٨٠٦٧.

(٣) رواه البخاري: ٣٠٠٥ ومسلم: ٥٠٥٠.

والحبور والحسنى، هي الزيادة يوم المزيد وهي النظر إلى ربهم تبارك وتعالى والذي لا ينبغي لأحد في الدنيا أبداً. لقد قال الله لموسى عندما سأل الرؤية (لن تراني) نفياً وجزماً، أما في الآخرة فهي لا تنبغي إلا لأهل الجنة وهي تحفتهم، قال سبحانه واصفاً بها أهل الجنة:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وقال تعالى:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾ [ق: ٣١-٣٥].

وفي الحديث الشريف:

[عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إذا دَخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ قالَ يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى تُريدونَ شَيْئاً أزيدُكُمْ فَيقولونَ ألَمْ تُبيّضْ وجوهنا ألَمْ تُدْخِلنا الجنةَ وتُنَجِّنا مِنَ النارِ قالَ فيكْشِفُ الحِجابَ فما أُعْطوا شَيْئاً أحَبَّ إلَيهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلى ربِّهِمْ عزَّ وجلَّ. وزادَ ثَمَّ تَلا هذهِ الآيةَ:** ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»][(١)].

[عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**جنَّتانِ مِنْ فِضَّةٍ آنيتُهُما وما فيهِما وجَنَّتانِ مِنْ ذَهَبٍ آنيَتُهُما وَما فِيهما وَما بَينَ القوْمِ وَبَينَ أنْ يَنظُروا إلى رَبِّهِم إلا رِداءُ الكِبْرياءِ على وَجْهِهِ في جنَّةِ عَدْنٍ**»][(٢)].

ثم ينعم الله سبحانه وتعالى عليهم بالرضوان وبآخر الاطمئنان كما قال سبحانه:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾ [التوبة: ٧٢].

---

(١) رواه مسلم: ٢٦٦ والترمذي: ٢٤٧٥ وابن ماجة: ١٨٣.

(٢) رواه: ٢٦٥ والبخاري: ٤٥٠٠.

وفي الحديث الشريف:

[عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الله يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ فَيَقُولونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحداً مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَلا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقولُونَ يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبداً**»][(١)].

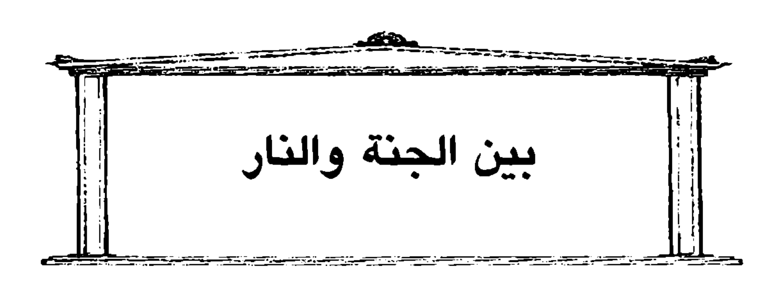
ونعيم الرضوان هذا، والقرب من الله تعالى، ورؤيته والنظر إليه سبحانه، هو أفضل وأعلى نعيم الجنة قاطبة!

نسألك اللهم رضوانك والجنة وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من سخطك ومن النار وما قرب إليها من قول وعمل. اللهم اغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار وأدخلنا في رحمتك يا أرحم الراحمين.



(١) رواه مسلم: ٥٠٥٧ والبخاري: ٦٠٦٧.

الفصل السابع



بين الجنة والنار

أين هي الجنة وأين النار؟

يتضح قصور خيال الكافر في تصوره للجنة والنار، وأين يكونان، إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض أو هي كعرض السماء والأرض؟ يعجز تفكيره عن استيعاب ما وراء هذا التشبيه والتقريب! لقد أمدهم العلم اليوم بوجود سدائم ومجرات في السماء عددها بالبلايين، وأما عن سعتها فإن الضوء يسير فيها ملايين السنين فلا بقطعها، وكأنه الخلود. ومنها ما لا يمكن اكتشافه في غياهب هذا الفضاء وفيما وراء ما نرى من السموات والأرض. فهل أمكن معرفة ما في تلك المجرات وهي في هذا البعد وفي هذا الخفاء؟ ترى لو كانت الجنة في إحداها والنار في أخرى فماذا يريبهم في ذلك؟ وإذا كانت كل من الجنة والنار في المجرات التي لم يصلها الضوء لحد الآن مثلًا فهل يسكن ذلك ريبهم وشكهم؟ وهم لا يمكن أن يروها ولا أن يصلوا إليها؟ إنهم لو وصلوها لرأوها أكبر من السموات والأرض، أو أنها كعرض السماء والأرض! هذا هو المعنى.

إنهم لا جرم لا يستعملون تفكيرهم كي لا يصلوا إلى الحق ولا يذعنوا له. إنهم معاندين لأجل العناد مستكبرين لأجل الاستكبار. ولو عادوا

قليلًا إلى أنفسهم، لوجدوا أنهم لا شيء أمام هذا الكون، وأمام هذه القدرة والإبداع. ولأصابتهم الحسرة والخزي، ولحقروا أنفسهم أمام هذه العظمة وهذا الجبروت قبل أن يتطرق الغرور والكبرياء إلى أنفسهم.

والله سبحانه قد وعد المؤمنين بالجنة وتوعد الكافرين بالنار. وإنه قادر على أن يظهرهما بلمح البصر لكن ليس في الدنيا - ساعة الامتحان - وإنما جعل الله لذلك أجلًا مسمىً هو يوم القيامة لا يظهرهما إلا في حينه.

عن الجنة قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النّجم: ١٣-١٥].

أي أن جنة المأوى عند سدرة المنتهى، ولقد علمنا من الأحاديث النبوية الشريفة أن سدرة المنتهى في السماء السابعة تحت عرش الرحمن.

سئل أنس بن مالك عن الجنة أفي الأرض أم في السماء فقال وأي أرض أو سماء تسع الجنة قيل أين هي قال فوق السموات السبع تحت العرش[(١)].

وفي الحديث أيضاً:

[عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ فَإِنَّ حَقاً عَلَى اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ، قَالَ: **«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا لِلمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللهَ ﷻ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهَا أَوْسَطُ الجَنَّةِ وأَعْلَى الجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ﷻ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»**][(٢)].

---

(١) تفسير النيسابوري على هامش الطبري ج:٤، ص: ٧٥.

(٢) رواه البخاري: ٢٥٨١ وأحمد: ٨١١٩ واللفظ له.

أما النار فهي في الأرض السفلى - أسفل سافلين - لا يعلم مكانها إلا الله وسيجعلها يوم القيامة حيث يشاء. وهما الآن مخفيتان عن أعين الجن والإنس، وسيراهما كل من أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة عياناً وهما من وعد الله الذي لا يخلف الميعاد، والمسألة مسألة إيمان بالغيب.

أخرج ابن جرير في تفسيره للآية من آل عمران (... وجنة عرضها السماوات والأرض..) جاء في كتاب هرقل إلى رسول الله ﷺ: إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار؟[1]

أي أنهما مخفيان عنا كما لو أننا في ليل، وسنبصرهما عندما يأتي النهار فيستيقن المؤمنون ويفاجأ الكافرون حين يرونها حقيقة وعياناً بعد الموت ويقال لهم عندئذٍ:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٣، ٤٤].

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [يس: ٦٣، ٦٤].

ويدفعون إليها دفعاً شديداً:

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطُّور: ١٣-١٥].

وعند ذلك فقط ترى هؤلاء الكافرين يؤمنون، ولكن بعد فوات الأوان!

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ

---

(١) ابن جرير الطبري ج:٤، ص: ٦٠، ط/٣ مطبعة المعرفة - بيروت.

يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وهذه هي صفة الكافرين لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم أو حتى تأتيهم الساعة، فهم دائماً في شك مريب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الحج: ٥٥].

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: ٥٤].

لكن المؤمنين المتقين آمنوا بالله وصدقوا وعده فصدقهم وعده سبحانه وأثابهم الجنات:

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٤].

أصحاب الأعراف:

وهؤلاء هم قوم موقوفون على جدار عظيم كالسد أو السور بين الجنة والنار، قال تعالى:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٦-٤٩].

نقتبس من تفسير الطبري لهذه الآيات ما يلي:

الأعراف جمع عرف وهو كل مرتفع من الأرض عند العرب ومنها عرف الديك يقول ابن عباس الأعرف هو الشيء المشرف وهو هنا حجاب مرتفع بين الجنة والنار كحاجز بينهما وهو السور الذي ذكره الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣].

وظاهره: هو المقابل لأهل النار، وأصحاب الأعراف هم قوم تساوت بالميزان أعمالهم الحسنة والسيئة.

[وعن حذيفة قال: أصحاب الأعراف قومٌ كانت لهم ذنوب وحسنات فقصرت بهم ذنوبهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار. فهم كذلك حتى يقضي الله بين خلقه فينفذ فيهم أمرع][(١)].

وهم يعرفون أهل الجنة بسيماهم وبياض وجوههم ويعرفون أصحاب بسيماهم وسواد وجوههم. فيسلمون على أهل الجنة وكيف أنهم لم يدخلوها وهم يطمعون. وإذا نظروا إلى أصحاب النار وعذابهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وينادون فيها رجالًا يعرفونهم كانوا في الدنيا مغرورين ومستكبرين فيقولون لهم ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون. لم ينفعكم جمعكم المال في الدنيا واستكباركم على الخلق ولم ينقذكم اليوم.

فهم على هذه الحال حتى يتم القضاء بين العباد. فيبقوا على هذا الجدار ما شاء الله بين اليأس والأمل حتى يقضي الله فيهم أمره برحمته

---

(١) تفسير الطبري ج:٨، ص: ١٣٦ - ١٣٧.

ويدخلهم الجنة. ويقال لأهل النار أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالون الله برحمة؟ ثم يقول الله لهؤلاء أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

ومن تفسير الطبري عن ابن عباس[1]: أن أصحاب الأعراف على سور بين الجنة والنار حتى إذا بدا لله أن يعافيهم أخذوا إلى نهر الحياة فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم، وتبدوا في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها فيعطيهم الله ما يتمنونه ويدخلهم الجنة ودخولهم الجنة برحمته وهم آخر من يدخل الجنة ويُسمون مساكين أهل الجنة. اهـ.

ودخولهم الجنة برحمة الله يؤكده قول الله جل وعلا في آخر الآية:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٤٩﴾ [الأعراف: ٤٩].

كما تؤكده الآية التي في التوبة:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٠٢﴾ [التوبة: ١٠٢].

فحمداً وشكراً لله الغفور الرحيم.

مخاطبات أهل الجنة وأهل النار:

يتخاطب أهل الجنة وأهل النار على ما بينهم من البعد والاختلاف وعلى ما بينهم من النعيم والعذاب. يتخاطبون بسنن وقوانين ذلك العالم - عالم الآخرة -:

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝١٤﴾ [الحديد: ١٣، ١٤].

---

(١) تفسير الطبري ج:٨، ص: ١٣٨.

ومن مخاطباتهم:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠].

ويتسامر أهل الجنة ويتساءلون فيما بينهم ويستذكرون الدنيا:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٥٠-٦١].

وبينما نرى أهل الجنة في لهوهم وشغلهم في النعيم المقيم:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٥-٥٨].

نرى أهل النار في تخاصمهم وتلاومهم وهم في العذاب الأليم. وهذه بعض سور محاجاتهم:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ

تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

ويتلاومون ويندمون:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وتلاعنون فيما بينهم نادمين، يكفر بعضهم ببعض ويريد به النكال:

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: ٢٩].

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

وهكذا تنقلب المودة من أجل الدنيا، وصداقاتها عداوة يوم القيامة:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٦، ٦٧].

ثم يستعيدون ويستذكرون ضلالهم السابق ويعترفون بكفرهم واستحقاقهم للعذاب:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزُمر: ٧١].

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٦].

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٠].

محاجة الجنة والنار:

كل شيء ذلك اليوم شاهد ناطق:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ

عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فُصِّلَت: ١٩-٢١].

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**تَحاجَّتِ الجنَّةُ والنارُ فَقالتِ النارُ أوثِرْتُ بالمُتكبِّرينَ والمُتجبِّرينَ وقالتِ الجَنَّةُ فَما لي لا يَدْخُلني إلا ضُعَفاءُ النَّاسِ وَسَقطُهُمْ وغِرَّتُهُمْ قالَ اللهُ للجَنَّةِ إنَّما أنْتِ رَحْمَتي أرْحَمُ بِكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عِبادي وقالَ للنَّارِ إنَّما أنْتِ عَذابي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عِبادِي وَلِكُلِّ واحِدَةٍ مِنْكُما مِلْؤُها فأمَّا النارُ فلا تَمْتَلِئُ حتَّى يضَعَ اللهُ تَبارَكَ وَتعالى رِجْلَهُ تَقولُ قَطْ قَطْ قَطْ فَهُنالِكَ تَمْتَلِئُ ويُزْوَى بَعْضُها إلى بَعْضٍ وَلا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلقِهِ أحداً وأمَّا الجَنَّةُ فإنَّ اللهَ يُنْشِئُ لَها خَلقاً**»][1].

[عن ابْنِ عَطاءٍ في قَولِهِ عزَّ وجلَّ (يومَ نَقولُ لِجَهنَّمَ هلِ امْتلأتِ وَتقولُ هَل مِنْ مزيدٍ) عَنْ أنَسِ بنِ مالكٍ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**لا تزالُ جهنَّمُ يُلْقى فيها وتقولُ هَلْ مِن مَزيدٍ حتَّى يَضَعَ ربُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَهُ فيَنْزَوي بَعضُها إلى بعضٍ وتقولُ قطْ قَطْ بعِزَّتِكَ وَكرَمِكَ وَلا يزالُ في الجنَّةِ فضْلٌ حتَّى يُنْشِئَ اللهُ لها خَلْقاً فيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الجنَّةِ**»][2].

وذلك قوله سبحانه:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: ٣٠].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٩].

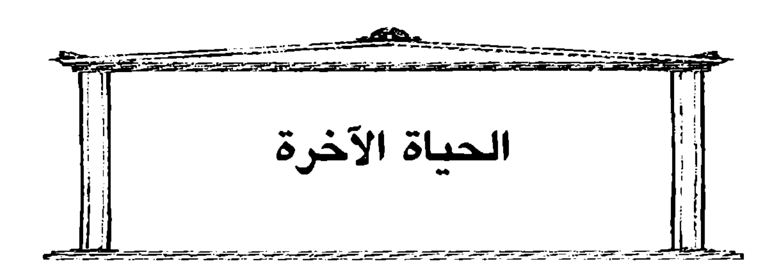
❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم: ٥٠٨٣ والبخاري: ٤٤٧٢.

(٢) رواه مسلم: ٥٠٨٥ وأحمد: ١١٩٣٢.

الفصل الثامن



الحياة الآخرة

الحياة الآخرة عالم آخر:

لا يتقيد فكر المؤمن ولا يتقوقع في دائرة سنن وقوانين الحياة الدنيا التي اعتاد عليها الغافلون اليوم. ولا يتقيد في نواميس مجرتنا التي تدور مجموعتنا الشمسية في فلكها. فالله سبحانه قد خلق لليوم الآخر عالماً خاصاً. قد خلق لأهل الجنة مثلًا عوالم بسنن ونواميس أخرى تناسبها خالية من أسباب الفساد والتلف والتلوث والفناء، خالية من الميكروبات والفايروسات أو الحشرات والغبار وغير ذلك مما نعهده في عالمنا اليوم. خلق لها عالماً كله نور وطهر ونظافة لا يحتاج إلى خدمة وصيانة ولا إلى طرح نفايات لأنه لا يصيبه التلف والتغيير ولا يناله الهرم ولا المرض ولا البلى!

وغداً في العالم الآخر سوف يتحقق للمؤمن فرحه بصدق إيمانه وما سيلاقي في الآخرة بما قد آمن به من قبل، وبما وعد الله به عباده وما ستكون عليه حال المؤمنين والكافرين. لقد آمن منذ البداية بأن الله على كل شيء قدير، وأن أمره كلمح البصر، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، وإنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً. وقد آمن من قبل

بأن الله سينشئ للآخرة نشأة أخرى وحياة أخرى تناسب ذلك العالم غير النشأة الأولى المعلومة في الدنيا:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٠-٦٢].

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم: ٤٧].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠].

فعند استقبال الحياة الآخرة وبعد الحساب ينشئ الله الإنسان نشأة أخرى بخلق خاص بمواد وأجسام أخرى وبحجوم أخرى لكل من أهل الجنة وأهل النار حتى يحتمل أن يذوق النعيم هذا وأن يذوق العذاب ذاك:

[عنْ أبي هُريرةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ في قولِ اللهِ تعَالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] قالَ: **«يُدْعى أحدهُمْ فيُعْطى كِتابَهُ بيمينِهِ ويُمَدُّ لهُ في جِسْمِهِ ستُّونَ ذِراعاً ويُبَيَّضُ وَجهُهُ وَيُجْعلُ على رأسهِ تاجٌ منْ لُؤلؤٍ يَتلألأُ فَينطلِقُ إلى أصْحابِهِ فيرونَهُ مِنْ بَعيدٍ فَيقولونَ اللَّهُمَّ ائْتِنا بِهذا وَبارِكْ لَنا في هذا حتَّى يأتيَهُمْ فيقولُ أبْشِروا لِكُلِّ رَجُلٍ مِنكمْ مِثلُ هَذا قالَ وأمَّا الكافِرُ فَيُسَوَّدُ وَجهُهُ ويُمَدُّ لهُ في جسمِهِ ستُّونَ ذِراعاً على صورةِ آدمَ فيُلْبَسُ تاجاً فيراهُ أصحابُهُ فيقولونَ نَعوذُ باللهِ مِنْ شرِّ هذا اللَّهمَّ لا تأتِنا بِهَذا قالَ فيَأتيهِمْ فَيَقولونَ اللهُمَّ أخزِهِ فيقولُ أبْعَدَكُمْ اللهُ فإنَّ لكلِّ رجلٍ مِنكُمْ مِثلَ هذا»**][1].

[عنْ مُعاذِ ابنِ جَبَلٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: **«يدخُلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ جُرْداً مُرْداً مُكَحَّلينَ أبناءَ ثلاثينَ أو ثلاثِ وثلاثينَ سنةً»**][2].

---

(١) رواه الترمذي: ٣٠٦١.

(٢) رواه الترمذي: ٢٤٦٨.

[عنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«أهلُ الجنةِ جُرْدٌ مُرْدٌ كُحْلٌ لا يفْنى شَبابُهُمْ وَلا تَبْلى ثِيابُهُم»**][١].

[عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«يُنادي مُنادٍ إنَّ لكمْ أن تَصِحُّوا فَلا تَسْقَموا أبَداً وإنَّ لكُمْ أن تَحْيَوا فَلا تَموتوا أبَداً وإنَّ لكُمْ أنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبَداً وإنَّ لكُمْ أنْ تنْعَموا فَلا تَبْأسوا أبداً فَذلِكَ قولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾** [الأعراف: ٤٣]»][٢].

كذلك لا تتقيد سنن الآخرة بعالم الدنيا فهناك ترى الأشياء تتحرك وتسبح كما تسبح الأجسام في الفضاء دون عائق أو جذب وغير ذلك. والأشياء كلها مختلفة مدهشة بموادها وحركتها ونورها وزينتها. فكل ما في الجنة من الأشجار والأنهار والقصور والحور العين والطعام والشراب كله مختلف في ماهيته لا يضاهيه ما في الدنيا في شيء إلا في الشبه وفي الاسم وذلك قول الله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥﴾ [البقرة: ٢٥].

[عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: **«ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء»**.

في تفسير قوله وأتوا به متشابهاً قال يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان قالوا في الجنة هذا الرأي رزقنا من قبل في الدنيا وأتوا به متشابهاً يعرفونه وليس هو مثله في الطعم][٣].

---

(١) رواه الترمذي: ٢٤٦٨.

(٢) رواه مسلم: ٥٠٦٩.

(٣) انظر تفسير الطبري ج:١، ص: ١٣٥.

كذلك لهم ما يشتهون ويتمنون، فيؤتونه بشكل خيالي:

[عنْ أبي أيُّوبَ قالَ: أتى النبيَّ ﷺ أعْرابيٌّ فقالَ: يا رَسولَ اللهِ إنِّي أُحِبُّ الخَيْلَ أفي الجنَّةِ خَيلٌ؟ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**إنْ أُدْخِلْتَ الجَنةَ أُتيتَ بفَرَسٍ مِنْ ياقوتَةٍ لهُ جَناحانِ فَحُمِلْتَ عليهِ ثمَّ طارَ بكَ حيثُ شئتَ**»][1].

قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١].

تنظر إلى ثمرة فتشتهيها فتتدلى إليك أغصانها وتكاد أن تقع بين يديك قبل أن تقطفها:

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾ [الحاقَّة: ٢١-٢٣].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾ [الإنسان: ١٤].

وكذلك في لحم الطير:

[عن عبدالله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: «**إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيجيء مشوياً بين يديك**»][2].

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣١﴾ [النحل: ٣١].

وإذا أرادوا أن ينظروا إلى من كان معهم وصار من أصحاب النار فتحت لهم طاقة ليست كشاشة تلفزيون وإنما منظر حقيقي، فيتخابطون دون

---

(١) رواه الترمذي: ٢٤٦٧.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والبزار والبيهقي - انظر المنذري ج: ٤، ص: ٥٢٧، ط/٣ - بيروت.

أن يتأثر أحدهما بمحيط الآخر. وعندما يتسامرون يسير هذا إلى سرير هذا حتى يقترب منه، وذلك أمر يسير في الآخرة:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٥٠-٦١].

وينشئ الله من الأعمال صوراً وأجساماً حيَّة حقيقة تتحرك وتنطق لتمثل تلك الأعمال. فالبخل عن أداء الزكاة مثلًا يمثل كحية مخيفة تطارد صاحبها وتخاصمه:

[عنْ أبي هُريرةَ قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ آتاهُ الله مالاً فلَمْ يُؤَدِّ زكاتهُ مُثِّلَ لهُ مالُهُ شُجاعاً أقرَعَ لهُ زَبيبَتانِ يُطوَّقُهُ يومَ القِيامةِ يأخُذُ بلِهْزِمَتَيْهِ يَعْني بِشِدْقَيْهِ يقولُ أنا مالُكَ أنا كنْزُكَ** ثُمَّ تَلا هذهِ الآيةَ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عِمران: ١٨٠] إلى آخرِ الآيَةِ»][1].

والشجاع: الحية الغفريت.

والوحوش التي يعذب بها أهل النار تتحرك في جهنم وتنطق ولا تموت ولا تحترق كما أن الإنسان لا يموت.

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **«إنَّ فِي النَّارِ حيَّاتٍ كأمْثالِ أعْناقِ البُخْتِ تَلْسَعُ إحْداهُنَّ اللَّسْعَةَ فيَجِدُ حَمْوَتَها أرْبَعينَ خَريفاً وَإنَّ فِي النارِ عَقارِبَ كأمْثالِ البِغالِ المُوكَفَةِ تَلْسَعُ إحْداهُنَّ اللسْعَة فيَجِدُ حمْوَتَها أرْبَعينَ سنةً»**][2].

(١) رواه البخاري: ٤١٩٩.

(٢) رواه أحمد: ١٧٠٥٢.

وأما الشجرة الملعونة في القرآن (شجرة الزقوم) فهي ليست كأشجار الدنيا خشباً يحترق كما ظن المشركون وإنما هي من أشجار جهنم نبتت في أصل جهنم يعذب الكفار بطعامها حتى يريدوا أن يدفعوه بماء الحميم!

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٢-٦٨].

وهكذا تتمثل الأعمال صوراً حية يوم القيامة. وهذه الأعمال هي الرصيد ورأس المال للإنسان. فإن كانت حسنة أصبحت له نوراً ونجاة يوم القيامة وحجاباً من النار كالصلاة والصدقة وفعل الخيرات. وإن كانت سيئة فتأتيه بمختلف أنواع العذاب.

قال ابن جريج: المؤمن يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول من أنت؟ فيقول أنا عملك فيجعل له نوراً بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩].

والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه ويلاده حتى يقذفه في النار[١].

ويقول الإمام ابن القيم الجوزية[٢]:

عن ذبح الموت (وسيأتي ذكر حديثه في موضوع الخلود بإذن الله).

(١) انظر كتاب حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم الجوزية، ص: ٤٠٣، ط/مطبعة المدني - القاهرة.

(٢) انظر كتابه: نفس المصدر أعلاه، ص: ٤٠١ - ٤٠٢.

(وهذا الكبش والذبح ومعاينة الفريقين، ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل.. ويقول: فإن الله ينشىء من الموت صورة كبش يذبح كما ينشئ من الأعمال صوراً معاينة.. ويقول: وإن الله ينشئ من الأعراض أجساماً ويجعلها مادة لها كما جاء في الصحيح عنه ﷺ: [تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان..] الحديث(١).

فهذه هي القراءة التي ينشئها الله غمامتين - حتى تظلان صاحبها - وكذلك قوله في حديث عذاب القبر ونعيمه للصورة التي يراها: [فيقول من أنت؟ فيقول أنا عملك الصالح، وأنا عملك السيئ] وهذا يراه حقيقة لا خيال ولكن الله أنشأ من عمله صورة حسنة وصورة قبيحة.

وهل النور الذي يقسم بين المؤمنين يوم القيامة إلا إيمانهم نفسه؟ أنشأ الله لهم منه نوراً يسعى بين أيديهم، فهذا أمر معقول لو لم يرد به النص. فورود النص به من باب تطابق السمع والعقل) اهـ.

ذلك أن الروح عندما تنتقل بعد الموت إلى العالم الآخر ستصبح جزءاً وحقيقة متصلة بحقائق الكون ومنفتحة عليه، وستنكشف عنها حجب وغشاوات الحياة الدنيا وسترى وتستوعب الحقائق كلها دونما تعليم أو إقناع (وكأن ساعة الامتحان قد انتهت) وهو ما اعترفت به أنفسهم:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الرُّوم: ٥٥].

وعند ذلك فقط تشعر وتحس روح الكافر بالحسرة والندامة وتجأر بكلمة (ياويلنا) عند أول مشاهدة من مشاهدات الحياة الآخرة:

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥٢].

---

(١) رواه مسلم: ١٣٣٧ وأحمد: ٢١١٦٩.

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء: ٩٧].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزُمَر: ٥٦].

وهذا كلام من قد علم الحقائق حقاً ولكن بعد فوات الأوان!

فالحياة الآخرة هي الحياة المحسوسة بالنشأة الآخرة، وبحواس لها قوة إحساس بالحياة أعظم من حواس نشأة الدنيا. فالكافر يملك بنشأة الآخرة جسماً لا يموت ولا يبلى ولا يفنى بالعذاب بل يزيد حسه به ويذوقه أضعافاً ولا يزداد ببقائه فيه إلا عذاباً:

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفُرقان: ٦٩].

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النَبإ: ٣٠].

كما يملك المؤمن في النشأة الآخرة جسماً وحواساً تمكنه من التمتع بنعيم الجنة. ولو دخلها بنشأته الأولى لما احتملها وما استطاع التمتع بلذائذها العالية:

عن شريح بن عبيد قال قال كعب: لو أن ثوباً من ثياب أهل الجنة ليس اليوم في الدنيا لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم][(١)].

[وقالَ: غَدْوَةٌ في سَبيلِ اللهِ أوْ رَوْحَةُ خَيرٌ مِنَ الدُّنيا وَما فِيها وَلقابُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا، المنذري ج: ٤، ص: ٥٣٠.

قَوْسِ أحَدِكُمْ أوْ مَوضِعُ قدمٍ منَ الجنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَما فيها وَلوْ أنَّ امْرَأةً مِنْ نِساءِ أهْلِ الجَنةِ اطَّلَعَتْ إلى الأرْضِ لأضاءَتْ ما بينَهُما وَلملأتْ ما بَيْنَهُما رِيحاً وَلنَصِيفُها يَعْني الخِمارَ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيا وَما فِيها](١).

ونعيم الجنة فوق ما يدركه البشر اليوم، لكن أعظم ما فيها هي رؤية الباري ﷻ التي لا تنبغي لأحد في الدنيا وقد صعق موسى وهو النبي المكرم عند الله لما تجلى ربه للجبل فجعله دكاً:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

[عنْ جابرِ بْنِ عَبْدِاللهِ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**بينا أهْلُ الجنَّةِ في نَعِيمِهِمْ إذْ سَطَعَ لهمْ نورٌ فَرَفَعوا رُؤوسَهمْ فإذا الرَّبُّ قدْ أشرَفَ عَلَيهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَقالَ السَّلامُ عَليكمْ يا أهْلَ الجَنةِ**» قالَ: «**وَذلكَ قولُ اللهِ**: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨] قالَ: **فينظُرُ إليهِمْ وينظُرُونَ إليهِ فَلا يلتَفِتونَ إلى شَيْءٍ منَ النَّعيمِ ما دَاموا يَنظُرُونَ إلَيهِ حتَّى يحْتَجِبَ عنهُمْ ويَبْقى نورُهُ وبرَكَتُهُ عَليهِمْ في دِيارِهِمْ**»](٢).

فهم دائماً في زيادة في السرور والحبور والبهجة، كلما نظروا إلى ذي العزة والجلال ويزيدهم من فضله ومن نوره:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦].

---

(١) رواه البخاري: ٦٠٨٣ والترمذي: ١٥٧٥.

(٢) رواه ابن ماجة: ١٨٠ واللفظ له وأبو نعيم والبيهقي في كتاب البعث.

وكما سبق وذكرنا في صور أهل الجنة عن سوقهم وهو:

[عنْ أنَسِ بنِ مالكٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إنَّ في الجنَّةِ لَسوقاً يأتونَها كلَّ جُمُعَةٍ فتهُبُّ ريحُ الشَّمالِ فَتَحْثو في وجوهِهِمْ وَثيابِهِمْ فَيَزْدادونَ حُسْناً وَجَمالاً فَيَرْجِعونَ إلى أهْليهِمْ وَقَدِ ازْدادوا حُسْناً وَجَمالاً فَيَقولُ لَهُمْ أهْلوهُمْ وَاللهِ لقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنا حُسناً وَجمالاً فَيقولونَ وَأنتُمْ وَاللهِ لقَدِ ازْددتُمْ بَعدَنا حُسْناً وَجمالاً**»][1].

فهم لا يتغيرون إلا إلى زيادة في المتعة والنعيم والحسن والجمال ويحيون بمنتهى الحياة وبمعانيها وبهجتها وفائق قوتها ولذتها وبما لا تتهيأ ولا تقارن بنشأة الحياة الدنيا، وذلك معنى قوله سبحانه:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

إنها حياة مختلفة بكل ما فيها. إنه خلقاً آخر. إنه عالم آخر.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤].

الخلود:

من الصور التي تمثل يوم القيامة كمخلوقات حية هو (الموت):

[قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**يُؤْتَى بِالمَوتِ كهيئَةِ كَبْشٍ أمْلحَ فَيُنادِي مُنادٍ يا أهْلَ الجَنةِ فَيشْرَئِبُّونَ ويَنْظُرونَ فيقولُ هَلْ تَعْرِفونَ هَذا فَيقولونَ نَعَمْ هذا المَوْتُ وكلُّهُمْ قدْ رَآهُ ثُمَّ يُنادي يا أهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ ويَنظرونَ فَيقولُ هَلْ**

(١) رواه مسلم: ٥٠٦١.

تَعْرِفونَ هذا فَيقولونَ نَعمْ هذا الموْتُ وَكلُّهُمْ قدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقولُ يا أهلَ الجنَّةِ خُلودٌ فلا مَوْتَ ويا أهلَ النارِ خُلودٌ فلا مَوْتَ ثُمَّ قرَأ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] **وَهؤلاءِ في غَفْلةٍ أهْلُ الدُّنْيا** ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]»][١]، زاد مسلم: وأشار بيده إلى الدنيا.

يشرئبون: يمدون أعناقهم لينظروا.

[وعَنْ أبي سَعيدٍ يَرفعُهُ قالَ إذا كانَ يَومُ القِيامَةِ أُتِيَ بِالموتِ كَالكَبْشِ الأمْلَحِ فَيوقَفُ بَينَ الجنةِ والنارِ فيُذْبَحُ وَهُمْ ينظرونَ فَلَو أنَّ أحَداً ماتَ فَرَحاً لماتَ أهلُ الجنةِ وَلوْ أنَّ أحَداً ماتَ حُزْناً لماتَ أهلُ النارِ][٢].

وبعد هذا يكون الخلود لأهل الجنة ولأهل النار وهو المثوى الأخير ودار القرار لكل منهما كما ذكرتها الآيات الكثيرة وبعض الأحاديث السابقة.

هذا هو الأفق اللانهائي والمرحلة الأخيرة الممتدة التي يمتد معها فكر المؤمن كما يرى أن هذا الكون وكأنه لا نهائي.

يقول السيد سابق في موضوع الخلود[٣]:

(وسر خلود أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، أن كلا من الفريقين كأنه مصراً على ما هو عليه.

فأهل الجنة مريدين الإيمان والطاعة مهما طالت بهم الحياة وامتد بهم العمر. وأهل النار كانوا مصرين على الكفر والعصيان ولو عاشوا ملايين السنين. فكان الجزاء للفريقين على الإرادة والنية وبمقتضى هذه الإرادة والتصميم كان الخلود.

---

(١) رواه البخاري: ٤٣٦١ ومسلم: ٥٠٨٧.

(٢) رواه الترمذي: ٢٤٨١.

(٣) انظر كتابه: العقائد الإسلامية ص: ٣٠٧ - ٣٠٨، طبعة دار الكتاب العربي - بيروت.

إذ أن الإيمان والكفر وما يستتبعانه من أعمال قد تمكن من النفس تمكناً لا يزول. ولقد صور القرآن هذا التمكن فذكر أن الكفار لو رجعوا إلى الدنيا بعد معاينتهم العذاب لعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وسوء العمل:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

والأصل في كون الجزاء على الإرادة والنية قول الرسول ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»[1]. **اهـ**.

وهكذا نرى بأن آفاق الإيمان في فكر المسلم لا تحدها حدود، وليس لها أول ولا آخر، قال سبحانه:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣].

ومن دعاء الرسول ﷺ إذا أوى إلى النوم يتأول به هذه الآية:

«اللهمَّ ربَّ السَّماواتِ وربَّ الأرْضِ وربَّ العرْشِ العظيم ربَّنا وربَّ كلِّ شَيءٍ فالِقَ الحَبِّ والنَّوَى ومُنْزِلَ التَّوْراةِ والإنْجيلِ والفُرْقانِ أعوذُ بكَ منْ شرِّ كلِّ شَيءٍ أنْتَ آخِذٌ بناصيَتِهِ اللهُمَّ أنْتَ الأوَّلُ فليسَ قبلكَ شيءٌ وأنتَ الآخِرُ فليسَ بعدَكَ شيءٌ وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقكَ شيءٌ وأنتَ الباطِنُ فليسَ دونَكَ شيْءٌ اقْضِ عنَّا الدَّينَ وأغْنِنا مِنَ الفقْرِ»[2].



(١) الحديث رواه: البخاري: ٥٢ ومسلم: ٣٥٣٠.

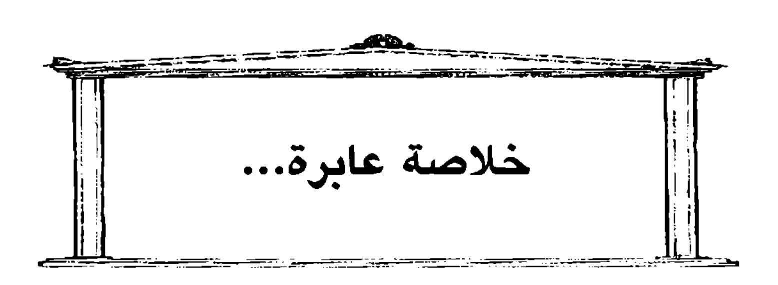
(٢) رواه مسلم: ٤٨٨٨ والترمذي: ٣٣٢٢.



الكتاب العاشر

الخاتمة

الفصل الأول



خلاصة عابرة...

حقائق واستنتاجات

هذه خلاصة عابرة لبعض ما جاء في هذا الكتاب من حقائق نذكرها موجزة ثم ندون ما يستنبط على ضوئها من استنتاجات تضع الإنسان أمام مسؤوليته ليكون على بينة من أمره وتنير له الطريق ليختار لنفسه ما ينجيه في دنياه وآخرته.

الحقائق المستفادة:

١ ـ إن العلم النافع هو العلم الذي يعنى بحياة الإنسان وروحه في حاضره ومستقبله أي - في الدنيا والآخرة - ويكون سبباً لسعادة الإنسان ولخيره وسلامته. وعلى هذا يكون علم الدين هو جوهر العلم وهو كالقلب في المركز وبقية العلوم في الدائرة الثانوية.

٢ ـ إن الهدي الإلهي المنزل بالوحي المسجل بالنص الصحيح هو القرآن الكريم وهو الوحيد المحفوظ بهذه الصفة بين الكتب المنزلة. وأنه جاء مصدقاً للتوراة والإنجيل قبله لأنه طريق الهداية الصادر عن إله واحد سبحانه.

٣ ـ إنه لا يمكن أن يتم الخلق وتنبعث الحياة إلا بقدرة خالق عليم حكيم

هو الذي فرض الموت وهو القادر على بعث الحياة من جديد كما خلقها أول مرة وكما يحي الأرض بالنبات بعد موتها وهو على كل شيء قدير. وأنه لإقامة العدل الذي أمر به والرحمة التي كتبها على نفسه سبحانه لا بد من البعث والحساب.

٤ ـ إن الله سبحانه مهّد هذه الأرض وذللها وسخرها للإنسان ليعيش فيها مدة اختبار محدودة، ومكنه فيها يعمرها وينتفع بخيراتها ويستعين بها على عبادة ربه وشكره وطاعته، ويقيم فيها العدل ويفعل الخير والإحسان ويمنع الظلم والبغي فيعم السلام.

٥ ـ إن آيات الله في الأرض وما فيها وما تحويه من مخلوقات عجيبة، وآيات الله في الإنسان نفسه في خلقه ونشأته وفي أجهزته والروح التي تحركه وتملك أحاسيسه وأفكاره وتمنحه الشعور بالحياة. وفي هذه السموات العظيمة الغامضة وما فيها من أسرار وما فيها من سعة وعظمة وحركة أجرام لا نهاية لها، وما فيها من طاقات ورهبة كل ذلك آيات ومعارض للإنسان ليتفكر ويتدبر وليؤمن بخالقها عن علم ويكون من الموقنين، وليتعظ بالمصير المنتظر ويعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً.

٦ ـ أن القرآن الكريم جاء بعلوم منذ أربعة عشر قرناً لا يمكن أن يأتي أحد بمثلها إلا أن يكون وحياً من الله سبحانه. ولا تزال البشرية تبحث فيها ولما تسبر أغوارها وهي غافلة عن أهدافها وهداها، وأنه أتى بنظام وتشريع للحياة هو من خالق الحياة ليصلح أحوال الإنسان وينظم معاملاته وعلاقاته ويحرره من الخوف إلا من الله ويزكي نفسه ويعلمه الحكمة ويمنحه السعادة الدائمة فيبني حضارة العلم والإيمان.

ولقد كان معمولًا به في حقبة من التاريخ عاش الناس في كنفه زمناً

شهد العالم فيها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتقيم الحق والعدل في الأرض وتنشر الخير والسلام.

٧ ـ وأنه أخرج نموذجاً مثالياً للمجتمع الإنساني من المؤمنين الأوائل من أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعه بتربية القرآن وتأديبه فزكت نفوسهم وتعلموا الكتاب والحكمة وكانوا بحق النخبة والقدوة الصالحة للإنسانية. وكانوا ثمرة التوجيه للبشرية بعلم الله الذي خلق النفس الإنسانية وهواجسها. وهذا أقصى ما يمكن إفادته من تزكية الروح وتهذيبها، وهي ليست مادة يمكن دراستها وتطويعها، إنها من أمر الله ولا يتسنى للبشر أن يعلم من كنهها شيئاً.

٨ ـ إن الإيمان هو نور يقذفه الله فيْ قلب العبد فتدرك به النفس ما حولها من الآيات ويمتلئ بها القلب فيفيض بنورها على الجوارح، وينشرح لها الصدر. وقد تدمع العين حينما ترى آثار القدرة والحكمة والرحمة الإلهية في هذه الآيات وكيف أنها معجزة ليست إلا من صنع خالقها الحكيم القدير، فتفرح بهذا الإيمان وتجد النفس حلاوته وسعادته. وبمثل هذا الإدراك لهذه الآيات ينمو ويزداد الإيمان ويزداد اليقين ويفيض على النفس الإنسانية نوراً وسعادة، ويجعلها مستعدة لفعل الخير.

٩ ـ إن نور الإيمان هذا لا يحصل إلا بهدىً من الله، يهدي به الله من اتبع رضوانه، وممن يشاء من عباده الذين هم أهل لهذا الاستحقاق بعلمه سبحانه:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القَصَص: ٥٦].

فالرسول ﷺ يدعو إلى صراط الله وهديه ولكن هداية القلب لا تكون إلا من الله ومن نوره على القلب:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ

وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

١٠ ـ إن قصة خلق الإنسان كاملًا على هيئته هذه من الطين في صورة آدم ثم خلق الذرية من النطفة هي قصة الخالق الذي خلق الإنسان وأودع فيه سر الحياة ونفخ فيه الروح ويعلم ما توسوس به نفسه. وهي القصة الحقيقية الثابتة لنشأة الحياة وانتشارها على الأرض.

١١ ـ إن العلم المجرد من الإيمان مصيره الأثرة والأنانية والشح ومؤداه إلى سفك الدماء والإفساد في الأرض.

وإن العلم المبني على الإيمان مآله إلى رضوان الله ومؤداه إلى بسط الخير والمنافع للناس وإقامة صرح الحق والعدل والسلام.

وهذه هي إرادة الله في الخلافة الصالحة في الأرض وفي إعمارها وإقامة العبادة لله وحده فيها، وهي الغاية من خلق الإنسان:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

١٢ ـ إن الإيمان بالغيب لينطلق بالمؤمن إلى التفكير في آفاق الكون الذي لا حدود له وبقدرة الخالق فيه. فهو مؤمن بخالقه الأزلي وبقدرته على كل شيء وفيما خلق ويخلق وبالملائكة واليوم الآخر وما فيه من القيامة والبعث الذي لا بد منه ليجزي المسيء بعمله ويجزي المحسن بإحسانه، وتكون النهاية إما إلى جنة وإما إلى نار.

يؤمن بهذا ورجاؤه وأمله وهو يحسن العمل في الدنيا بطاعة الله أن يكون من الفائزين بالجنة الناجين من النار.

وأول تباشير الفوز يزفها إليه أولياؤه من الملائكة عند الموت. ثم

يذوق نفحات طيبة في حياة البرزخ في أحلام جميلة بعد أن نجا من عذاب القبر، القبر الذي هو أول منازل الآخرة.

ثم يمتد خياله بنور إيمانه إلى البعث وصور الناس يوم الموقف العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهم في شدة الحساب، ثم صور الناس والأفواج وهي تقتحم وتتخطى تلك العقبات العصيبة، فمنهم ناج ومنهم مكدوش في جهنم. . وهو في ذلك بين الخوف والرجاء يدعو ويرجو رحمة الله وأن:

أ ـ يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ويهون عليه الموقف حتى يجعله عليه كصلاة مكتوبة، أو كمدة تدلي الشمس إلى الغروب!

ب ـ يسهل عليه الحساب ويؤتى كتابه بيمينه.

ج ـ يثقل ميزانه فيؤمر به إلى الجنة مع زمرة الفائزين وينادى سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً.

د ـ يجتاز الصراط المضروب فوق ظهراني جهنم بسرعة وأمان ويكون حرها عليه برداً وسلاماً.

هـ ـ يدخل الجنة برحمة الله مع زمرة المتقين ويفوز بالنعيم والرضوان في حياة الخلود وذلك هو الفوز العظيم.

أما الآن وقبل أن يأتي ذلك اليوم فهو يعيش بإيمانه في صور أهل الجنة وهم يتقلبون في نعيمها الدائم فيشتاق إليها ويعمل لبلوغها. ويعلم علم اليقين أن أهل النار يتعذبون ماكثين في الأغلال والجحيم وصورهم وحالهم يبعث الخشية في نفسه فيعمل على ما يبعده عنها حتى يأتي وعد الله ويرى مصداق إيمانه عين اليقين.

١٣ ـ وسيرى لا محالة أهل النار وأهل الجنة، هؤلاء في جحيم وعذاب

وانتقام الجبار وفي نقمة الخلود في جهنم، وهؤلاء يتقلبون في ألوان النعيم وفي نعمة الخلود في رضوان الله ورحمته.

الاستنتاجات:

١ ـ لما علمنا وآمنا بأن لهذا الكون رباً خالقاً قديراً هو مالكه والمهيمن فيه والمدبر لأمره وحده لا شريك له وهو ربّ العالمين، أصبح واجباً علينا طاعته والتسليم لأمره وأن أمره وطاعته فوق كل أمر.

٢ ـ لما علمنا وثبت لنا بأنه لم يبق نص صحيح محفوظ للتنزيل الإلهي على الأرض غير القرآن الكريم وأن هذا الكتاب هو آخر الكتب المنزلة من عند الله وهو رسالة الله إلى الناس كافة، أصبح واجباً وحجة على أهل الأرض وكلّ من بلغه القرآن الإيمان به واتباعه والاهتداء بنوره. وهم جميعاً المشمولون بإنذاره وتبشيره:

﴿. . . وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ. . .﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف: ١٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

٣ ـ علينا أن ندرس علم الدين وهو العلم النافع ونؤمن عن علم وليس بالتقليد الأعمى، وأن نلبي دعوة القرآن للإيمان فهو كتاب دين وعلم وعقيدة بالدرجة الأولى، ثم نتعلم ونبحث في كل ما أشار إليه وما فتح علينا من أبواب التفكير في العلوم المختلفة المؤدية إلى الإيمان وإلى خير الإنسان في الدنيا والآخرة.

٤ ـ إن تفاصيل وأحكام القرآن قد بينها لنا رسول الله ﷺ بما علمه الله وبما أوحى إليه عن طريق جبريل عليه السلام:

﴿. . . وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

فكان بيانه قولًا وفعلًا سنة مطهرة مكملة ومفصلة لأحكام وتشريعات القرآن ولما علمنا بأن هذا النبي لا ينطق عن الهوى إنما ينقل الوحي بشهادة القرآن:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٣-٥].

أصبح واجباً علينا اتباع الرسول وطاعته، وهو ما أمر به القرآن:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ. . .﴾ [النساء: ٥٩].

وأن طاعته هي طاعة لأمر الله:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

٥ ـ إن من واجبات خلافة الله في الأرض بعد أن مهدها وذللها له سبحانه:

إقامة العبادة فيها لله وحده:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

ثم إعمارها والانتفاع بخيراتها واستخراج معادنها وكنزها واتخاذها وسيلة لحماية الأمة المؤمنة المقيمة للعبادة فيها، وجهاد أعدائها المفسدين في الأرض:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

ولصناعة الأدوات واستخراج مواد الزينة والحلي وما يحتاجونه من باطن الأرض في بناء الحضارة الصالحة:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤].

٦ ـ سيكون كتاب الله (القرآن وبيانه بالسنة المطهرة) وهو محتوى دين الإسلام حجة الله على عباده الذين بلغهم ويبلغهم إلى يوم القيامة:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ

بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عِمران: ١٩].

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمران: ٨٥].

يحاسبهم عليه يوم القيامة ويشهد عليهم رسوله يوم يقوم الأشهاد:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

أما الأمم الماضية قبل الإسلام فكل أمة تحاسب بكتابها وبما جاء به رسولها:

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩].

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس: ٤٧].

٧ ـ إن الإيمان بكل هذه الأركان الثلاثة: الرب. الرسول. الدين أو الرسالة. مسؤول عنها كل إنسان. ولقد مر بنا في الكتاب التاسع - سفرة الروح - أن كل إنسان يدخل القبر يأتيه منكر ونكير ويسألانه ثلاثة أسئلة وكأنهما يسجلان له بطاقة شخصية أولية قبل يوم الحساب فيقولان: من ربك؟ ما دينك؟ ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فأما المؤمن فيعطي جوابه الصحيح كما آمن به في الدنيا، وجوابه ربي الله، وديني الإسلام، وهذا الرجل هو محمد رسول الله آمنا به وصدقناه.

وأما الكافر فينعقد لسانه ويضل الجواب فيقول ها. ها. لا أدري.

٨ ـ إن إهمال هذا الأمر (الإيمان بالرب والرسول والدين - الإسلام) أو الإعراض عنه أو تكذيبه، إنما هو الكفر بعينه. وعلى الكافرين أن يتحملوا عواقب سخط الله وعذابه ومرارة الخزي والحسرة يوم القيامة يوم لقاء الله!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٣٦].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩].

٩ ـ إن أمر الآخرة خطير جداً:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

لما لخطورة المصير وسوء العاقبة لأهل النار، وعظيم الجزاء وحسن العاقبة لأهل الجنة.

وإن الخلود فيهما مقترن بنتيجة العمل في هذه الحياة الدنيا قصيرة الأجل (ساعة امتحان أمام حياة أبدية) إنها حقاً مباغتة للغافلين. فلينتبه إليها كل إنسان وليأخذ حذره منها!

ولقد يكفينا ما مر بنا من صور عذاب أهل النار وأشدها أنهم كلما طلبوا التخفيف زيد في عذابهم ويتلقون الإجابات القارعة المريرة:

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبإ: ٣٠].

ويستغيثون بخازن جهنم:

﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

وروي أن هذا الجواب يأتيهم بعد يوم كامل وهو ألف سنة! وأشد الخزي والهوان هو حجبهم عن رحمة الله:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

ثم إهمالهم وتركهم في العذاب:

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: ١٤].

وأخيراً قوله سبحانه في آخر استغاثة لهم للخروج منها:

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨].

وعند ذلك ييأسوا من كل خير ويأخذون في الزفير والحسرة والويل.

كما مرت بنا صور أهل الجنة وأن نعيمها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. أي أنها فوق ما يتخيله البشر. وأن أعلى منازلهم في جنة الفردوس تحت عرش الرحمن. وإن أرفع الدرجات فيها ينالها المقربون (وقد سبق وصفهم في الكتاب التاسع - الفصل الثاني).

وإن أعلى نعيم فيها عند رؤية الباري ﷻ وهي الزيادة على الحسنى في قوله سبحانه:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦] وقوله سبحانه:

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥].

فإذا نظروا إليه انتشرت فيهم النضرة والنعيم والسرور فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم حتى يحتجب عنهم وتبقى فيهم بركته ونوره:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

﴿. . . وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١١، ١٢].

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٢-٢٤].

ثم يزيدهم من فضله فيحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

أفلا تكفي صور الإنذار والبشرى هذه ليعتبر الإنسان وينتبه من غفلته ويصحو لنفسه ولمصيره؟ حق لرسول الله عندما نبه النائمين أن يعجب فقال:

[ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها][1].

١٠ ـ إن من ينظر إلى السماء ويتفكر في سعتها وعظمة ما فيها، سيدرك سعة وطول أيام الآخرة وتتقرب إليه ما فيها من صور، ويتقرب إليه معنى الخلود. وسيستصغر الدنيا ويحتقر ما فيها من زينة ومتاع.

ويعلم أن الذي خلق وسخر كل هذا، مهيمن على كل شيء وكل شيء بعلمه وتدبيره، وهو بكل شيء محيط، وكل شيء عنده في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

---

(١) رواه الترمذي: ٢٥٢٦.

فما معنى مثلًا أن سديماً واحداً في السماء يستغرق الضوء في النفوذ منه ٦٠٠ مليون سنة؟ وما معنى أن عمر الخليقة لا يساوي ومضة برق من عمر النجوم؟ ناهيك عن أعدادها التي تفوق أعداد البشر منذ الخليقة وهي بتلك الحجوم والمسافات الرهيبة؟ أي زمن هذا قياساً لعمر الحياة الدنيا؟

هذا ما يقسم به الكافرون عند مواجهة المصير:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الرُّوم: ٥٥].

يقسمون أن حياتهم في الدنيا لم تزد على ساعة من أيام الآخرة!

وهذا ما يشير إليه القرآن في آيات كثيرة ليدل على القدرة والسعة والعظمة ومنها:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٢، ٦٣].

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٦، ٢٧].

١١ ـ إن من عرف الفارق العظيم بين أمد الدنيا ومتاعها وبين الآخرة وخطرها وخلودها، وجب عليه تفضيل الآخرة على الدنيا. لكن أهل هذا العصر والغافلون من قبلهم دأبوا على التهافت على المنفعة القليلة العاجلة وفضلوها على المنفعة العظيمة الباقية. وصدق الله العظيم:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

وليس من الحكمة في شيء أن يفضل الإنسان متاع ساعة على متاع الأبد، أو أن يتمتع ساعة ليدفع ثمنها عذاب الأبد!

وليس من العقل في شيء أن يفضل الإنسان المتاع الزائل على المتاع الباقي الذي لا يفنى ولا يبلى!

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [المُلك: ١٠].

إذاً فالحكمة في الصبر على عبادة الله والعمل للآخرة ونبذ متاع الدنيا ومغرياتها، وهذا هو أحد الآمال العظيمة التي أغنت نفوس المؤمنين ورفعتهم فوق متاع الدنيا وزينتها، فأعرضوا عنها رغبة بما وعدهم الله من الجزاء في الآخرة، فصبروا قليلًا وربحوا جزاءً عظيماً بغير حساب:

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُمر: ١٠].

أما لماذا يستعجل هؤلاء المنافع القليلة في الدنيا ويرضون بها فهي من غفلتهم وسببها ضعف الإيمان بالآخرة فانشغلوا عن ربهم بمتاع الدنيا واستجابوا لإغراء الشيطان رغم تحذير الله لهم بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ [فاطِر: ٥]. الغَرور: الشيطان.

١٢ ـ إن من عرف عظمة الله سبحانه وقدرته وجبروته وهيمنته على كل شيء، وجب عليه أن يخشاه وهذه الخشية ثمرة العلم وسبب الفوز:

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطِر: ٢٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [المُلك: ١٢].

والله سبحانه يبصرهم ويفكرهم بهذه القدرة ويخوفهم ليؤمنوا:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧].

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: ٩].

لآية لكل عبد فكر فأبصر الحق وأناب إلى ربه.

﴿. . . وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: ٦٠].

ولطالما هم متمتعين بأجل الله الذي أجلهم به، تراهم غافلين آمنين من العذاب، وهذا شأن الجاهلين الغافلين إذ كيف يمكن إغفال قدرة الله وسخطه دون حذر أو خوف ثم النوم عنها بأمان؟

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٦، ٧].

ثم يناديهم ليفيقوا وليستجيبوا قبل فوات الأجل فالخطب جسيم والعذاب أليم:

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٧].

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٤].

فاليوم الذي يمر لا يعود وعجلة الزمن ماضية والعمر قصير والإنسان في خطر وخسارة:

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ١، ٢].

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩].

١٣ ـ إن من عرف حكمة الله ولطفه في خلقه وفي حمايتهم من كل الأخطار المحدقة بهم وتدبيره لهم وتسخيره كل شيء لمنفعتهم وإسباغه نعمه عليهم ظاهرة وباطنة، ثم دعوته لهم للإيمان والهدى وإلى الصراط المستقيم، ووعده لهم بالجزاء العظيم في جنات النعيم. من عرف هذا الإحسان من اللطيف الخبير، وجب عليه إحسان العمل لوجهه الكريم بشكره وعبادته وطاعته والتسارع في ابتغاء مرضاته. وقد سبقهم سبحانه بعظيم إحسانه:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٦٠].

من عرف هذا وجب عليه أن يخجل من نفسه عند الإساءة لمن يحسن إليه أو عند المجاهرة بالمعصية لمن يغفر له:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرّعد: ٦].

ويبقى فضل الله ومنه وكرمه عليهم عظيماً:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النَّمل: ٧٣].

والله سبحانه بعظمته وجلاله غني عن عبادتهم وشكرهم، لكنه لا يرضى لعباده الكفر. فليس من العدل والحكمة ولا من الأدب واللياقة مقابلة المحسن بالإساءة ولا مقابلة المنعم بالكفر:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢].

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [الزُّمَر: ٧].

١٤ ـ إن إحصاء ما جاء أعلاه من الحقائق والاستنتاجات إنما يتحصل بالعلم والإيمان بالله ورسوله وكتابه وهو اختيار وابتاع طريق الحق والنور والهدى من عند الله والاستقامة عليه:

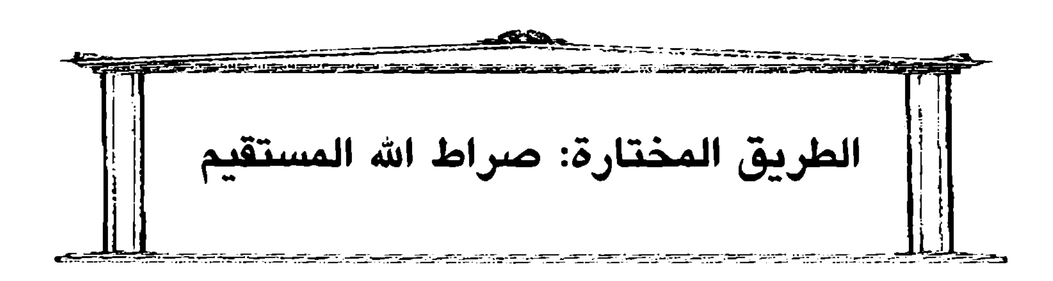
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء: ١٧٠].

أي أن لله ما في السموات وما في الأرض من ملائكة وعباد ومخلوقات ومن كل شيء طائع له ويسبح بحمده، فإن تكفروا فهو غني عنكم.



الفصل الثاني



الطريق المختارة: صراط الله المستقيم

بعد أن هدى الله الإنسان، وأوضح له طريق الخير وطريق الشر بما أرسل إليه من الرسل وأنزل عليهم من الكتب:

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

وبين له نتيجة ما يوصل إليه كل من الطريقين:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

وإن مصير كل من الفريقين مقترن به:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

فأيهما خير للإنسان أن يختار لنفسه ومستقبله ومصيره؟

لا ريب أن طريق الحق والهدى الذي جاء من عند الله هو الأحق بالاتباع، وأن أمر الله هو الأولى بالطاعة.

فعلى الإنسان العاقل فضلًا عن العالم أن يتبع طريق الهدى والحق الذي عرفه به ربه وأمره باتباعه وحذره من أن يقف حائراً بين طرق الضلالة فيضل ويضيع.

ويريد الإنسان المستكبر المغتر بنفسه وعلمه، المعرض عن هدى ربه إلا أن يتبع سبلًا غير سبيل الله! يخترعها لنفسه ويميلها عليه هواه وضلاله:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠﴾ [القصص: ٥٠].

وكل هذه السبل الخارجة عن سبيل الله المستقيم هي سبل غي وضلالة، وهي عوارض زائلة ولا تؤدي إلا إلى الهلاك والخسران المبين. وجد بالتجربة بأن أي تغيير في شرع الله يحدث عواقب وخيمة وشرخاً في المجتمع الإنساني.

وإن من استكبر وأعرض عن سبيل الله، أو كذب به وأهمله، صرفه الله عنه وولاه ما تولى وجعل عاقبته الخسران والعذاب يوم القيامة:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝١٤٦﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وإن التلاعب في هذا السبيل يرتقي إلى الكفر الحقيقي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وإن هذا التصرف لا يمكن أن يصدر عن عاقل أو عالم، إنما يصدر عن مغرورين مستكبرين. وما يغرهم في ذلك أو يصرفهم عن سبيل الهدى فيطلقوا العنان لهوى أنفسهم هكذا دون خوف من شيء، إلا أنهم لم يروا عذاب الله ينزل بهم عاجلًا وإنما يؤخرهم سبحانه إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون! وحينئذ سوف لا ينقذهم أن يروا أكثر الناس على هذه الطريق الضالة. فاتباع أكثر الناس دون فهم وتدبر لسبب الاتباع هو ضلالة بعينه!

فالإسلام دين العقل والعلم يدعو إلى استعمال العقل والتفكير ويدعو إلى الإيمان عن علم ويعيب التقليد الأعمى سيراً وراء الجموع الضالة وجرياً وراء الأغلبية الجاهلة التائهة:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢].

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠، ١٧١].

ويفسر الشيخ محمد عبده هذه الآية بقوله[1]:

(إن الآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين.

---

(١) انظر كتاب: حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص: ٥٢١، ط/٩، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

وإن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. فمن رُبي على التسليم بغير عقل والعمل - ولو صالحاً - بغير فقه فهو غير مؤمن. فليس القصد من الإيمان أن يُذلل الإنسان للخير كما يُذلل الحيوان بل القصد منه أن يرتقي عقله وترتقي نفسه بالعلم، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته) اهـ.

إذاً فلننظر ونتدبر بعض ما بيَّنه وأنزله إلينا ربنا من معالم الصراط المستقيم الذي نرجوه وندعوه كل يوم في صلواتنا عشرات المرات أن يهدينا إليه:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝١٧٥﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

وهو اختيار واتباع الصراط المستقيم والهدى المنزل من عند الله:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ٣].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أي تتقون نتائج اتباع غيره من السبل فتفرقكم عن سبيله وهذا الصراط المستقيم هو طريق الإسلام:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ

يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥-١٢٧].

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُمَر: ٢٢].

﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ١، ٢].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

وهذا الكتاب المنزل بأمر الله وهذا الروح المنزل بالوحي هو كتاب الإيمان والنور والهدى يهدي به الله من يشاء من عباده:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وهذا هو الحق وطريق الإسلام فمن آمن وأسلم فقد تحرى لنفسه رشداً ومن أعرض وكفر فلا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم خساراً:

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٣-١٦].

فاختر لنفسك أيها الإنسان بعد أن علمت الحق وتبين لك الهدى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس: ١٠٨].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ [ص: ٦٥،٦٦].

ودعوة إلى أهل الكتاب:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥،١٦].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويبقى العالِم هو الذي يبصر الحق فيخشى الله ويؤمن عن بصيرة:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

ويبقى العلم أساس الإيمان المتين ويرفع الله به درجات المؤمنين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١].

وبهذا الهدى نكون قد أفدنا من العلم والإيمان فائدتهما ونفعنا الله بهما.

اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهديين.

اللهم أكرمنا بالعلم وزينا بالحلم وجملنا بالتقوى ومتعنا بالعافية.

اللهم انفعنا بما علمتنا وعلمنا ما ينفعنا وزدنا علماً، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.





أختم كتابي هذا بالتهنئة بالبشرى للمؤمنين المتقين العالمين العاملين، الذين آمنوا بالله ورسوله، وما أنزل على رسولهِ، وعلموا أنه الحق من ربهم فجاهدوا في سبيله وتمسكوا به واستقاموا عليه، فأفاض عليهم نوراً ملأ قلوبهم وانشرحت به صدورهم وذاقوا به حلاوة الإيمان. أهنئهم بالبشرى من ربهم:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].

هؤلاء الذين تولوا ربهم وعبدوه كجزء من خلقه العابدين في هذا الكون العظيم مخبتين له ومقرين له بالربوبية والجلال ومسبحين بحمده متوافقين بتسبيحهم مع كل ما يسبح بحمده من شيء:

فسبحان من خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم

سبحان الرحمن الذي خلق الإنسان وعلمه البيان

سبحان ربي الأعلى الذي خلق فسوى وقدر فهدى

سبحان من أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً

سبحان من بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون

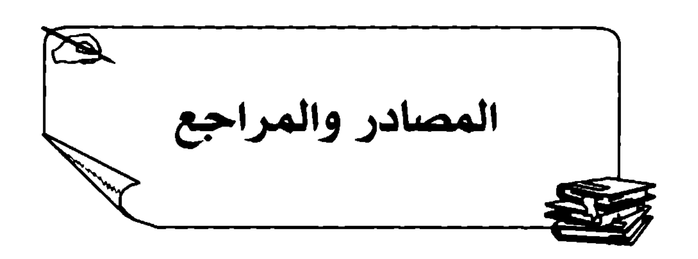
سبحان الحي القيوم مالك الملك ذي الجلال والإكرام

سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد معلمنا وهادينا إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وأصحابه ومن اتبعه إلى يوم الدين.

تم بحمد الله في ١ آذار /٢٠٠١م. المصادف ٦ ذي الحجة /١٤٢١هـ.

مؤيد محمد يحيى الدباغ



المصادر والمراجع

١ ـ **جامع البيان لأحكام القرآن (تفسير)** ابن جرير الطبري

٢ ـ **في ظلال القرآن** سيد قطب

٣ ـ **التاج الجامع للأصول (حديث)** الشيخ منصور علي ناصيف

٤ ـ **الترغيب والترهيب (حديث)** الإمام عبد العظيم المنذري

٥ ـ **رياض الصالحين** الإمام محيي الدين النووي

٦ ـ **سيرة النبي لابن هشام** عبدالملك بن هشام

٧ ـ **فقه السيرة** د.محمد سعيد رمضان البوطي

٨ ـ **إعجاز القرآن للباقلاني** أبي بكر محمد بن الطيب

٩ ـ **الإعجاز الطبي في القرآن** الدكتور السيد الجميلي

١٠ ـ **الطب محراب للإيمان ج١،ج٢** د.خالص جلبي كنجو

١١ ـ **قصة الإيمان** الشيخ نديم الجسر

١٢ ـ **العقائد الإسلامية** السيد سابق

١٣ ـ **النجوم في مسالكها** سير جيمس جينز ـ ترجمة د.عبدالسلام

١٤ ـ **دليل السماء والنجوم** الدكتور عبدالرحيم بدر

١٥ ـ **العلم في منظوره الإسلامي** د.صلاح الدين بسيوني

١٦ ـ **بدائع السماء** جيرالد هوكنز ـ ترجمة عبدالرحيم بدر

١٧ ـ **الكون** (لايف) المكتبة العلمية

١٨ ـ **الأرض** (لايف) المكتبة العلمية

١٩ ـ **آيات للموقنين** محمد الصرايرة

٢٠ ـ **حقائق القرآن والعلم الحديث** عامر تحسين

٢١ ـ **الله يتجلى في عصر العلم** جون كلوفر مونسما ـ ترجمة الدمرداش

٢٢ ـ **مدخل إلى موقف القرآن من العلم** د.عماد الدين خليل

٢٣ ـ **التوراة والإنجيل والقرآن والعلم** د.موريس بوكاي

٢٤ ـ **الدين في مواجهة العلم** وحيد الدين خان

٢٥ ـ **الإنسان ذلك المجهول** د.أليكسيس كاريل

٢٦ ـ **التفسير الإسلامي للتاريخ** د.عماد الدين خليل

٢٧ ـ **التصوير الفني للقرآن** سيد قطب

٢٨ ـ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح** ابن قيم الجوزية

٢٩ ـ **الروح** ابن قيم الجوزية

٣٠ ـ **مشاهد القيامة في القرآن** سيد قطب

٣١ ـ **رسالة الحشر** سعيد النورسي



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة